THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190883

UNIVERSAL
LIBRARY

Osmania University Library

Call No ٨٩١٫٤ ١-ت

Accession No ٨٨٩٥.

Author

Title

This book should be returned on or before the date last marked below

رواية

البعث

تأليف

الفيلسوف الروسي الشهير الكونت لاون تولستوي

نقلها

اخلاقية احدى غرامر ادبية

(الكتاب الاول) من

معربة عن اللغة الافرنسية

بقلم الكاتب المجيد رشيد افندي

طبعت على نفقة

مكتبة في مصر

(ثمن الجزء ثمانية غروش صاغ)

« حقوق الطبع محفوظة للمكتبة »

﴿ طبع بالمطبعة التجارية بشارع وجه البركه بمصر ﴾

مقدمة المعرب

(بسم الله الصمد)

اقدمت على تعريب هذه الرواية وأنا في هواجس [illegible] لا يعرفون الرحمة في كل جهة منها تعزية وسلوى . وهي في الحقيقة و[illegible] حكيم ومرشد الانسان لانها تبحث في جميع ادوار الحياة [illegible] حياتها بالانسان بين حاكم ومحكوم وغني وفقير وعطف [illegible] حدى الولايات الى ومالك ومزارع الخ وتري واجبات كل فرد [illegible] عين بالمحاكم التي سنتها البشر لحفظ الحقوق ومنع الاعتد[illegible] الثلاثة إلى والحلل الصارب اطنابه فيها وتصف [illegible] بصحته . وقد انالت مؤلفها الكو[illegible] تولستوي الفيلسوف الروسي الشهير بل [illegible] سمى بين كتاب العصر وترجمت الى جميع اللغات [illegible] بلغ طلابها درجة الكمال . ففي كل كلة منها حكمة [illegible] عن سائر الروايات في خلوها من وقائع الجنسين [illegible] فصول من الجزء الاول وفي كونها مفعمة بالفوائد المختلفة. [illegible] من مواضيع الحياة الاجتماعية الحاضرة لم تتناوله هذه الرواية ولا [illegible] بها المقام الاسمى [illegible] الادب الا الشعب الانكليزي . ذلك لانها [illegible] الانانية المذمومة والس[illegible] يتناول عن كل شيء الا عن هاتين [illegible] كتبها مؤلفها الفيلسوف [illegible] ة في البلاغة ليفهمها كل فرد من [illegible] . واتبعت خطته جهد الاستطاعة في التعريب واني ازفها الى ابناء اللغة العربية [illegible] م الغض عما جاء فيها من القصور فالكمال لله وحده .

يها يكمد النفوس ويجلب الدوار الى الرؤوس لانه كان متشبعاً بروائح الزفت الاسفلت وتراكم الاقذار ولذلك كان من يدخل تلك الدهاليز يصيبهُ انحراف في صحتّه حتى ان السجانة نفسها مع تعودها استنشاق ذلك الهواء شعرت عند ما دخلت الدهليز بتعب ونعاس

ولما استبطأ السجان المسجونة صاح فيها قاصداً الاسراع فخرجت من الغرفة صبية ذات صدر عريض ملآن ملتفة برداء رمادي طويل فوق ثوب ابيض كان يستر جسمها وفي رجليها جراب ابيض من غزل القطن تحته حذاء من جلد بال وعلى رأسها منديل ابيض تتدلى من تحته عقاص من شعر اسود مسترسل جميل بان من تحته وجه كان جميلا ومحا نضارتهُ ذلك السجن المظلم وعينان براقتان ينبعث منهما نور الذكاء والدهاء وفي احداهما قـ من الحول ولما دنت منه وقفت الى جانبه مطأطئة الرأس ووجهت نظرها منتظرة اوامره

وبعد قليل برزت من تلك الغرفة مسجونة شاحبة اللون بيضاء الشعر كثيرة الثنايا والاسارير في وجهها واخذت تكلم زميلتها ماسلوفا فاعترضها السجان بعنف واعادها الى الغرفة قبل ان تكمل حديثها واوصد الباب في وجهها فسمع من وراء الباب ضحكها الشديد فابتسمت ماسلوفا ودنت من النافذة الصغيرة التي في الباب وهي مشبكة باسلاك حديدية فلما رأتها العجوز دنت منها وقالت لها بصوت ابح :

لا تزيدي في الكلام عما قلتيه سابقاً بل اصري على اقرارك الاول والسلا فاجابتها ماسلوفا : امر واحد معلوم لديَّ وهو ان ليس بعد حالتي التعيسة هذه من تعاسة

وارادت العجوز ان تجيبها بشيء خطر لها فحال دون ذلك السجان
ب صاح بماسلوفا قائلاً : هلمي ورائي

فاقتفت اثره بهدوء وسكون وانحدرا على السلم الى أسفل واجتازا
ب سجن الرجال المتصاعدة منها الروائح الكريهة اكثر منها فى سجن
اء وكان اكثر هؤلاء ينظرون من النوافذ المشبكة بقضبان الحديد اليهما
فى غوغاء وهياج الى ان وصلا مكتب السجن الذي كان يحرسه جنديان
قهما . فدفع الكاتب الى أحد الجنديين ورقة مشبعة بدخان سيجارته
، له وهو ينظر الى المجرمة « استلم » وكان الجندي فلاحاً ذا وجه شديد
مرار شوهته آثار الجدري واخذ الورقة من الكاتب وادخلها فى كم
ه ثم ابتسم واشار الى رفيقه الآخر بطرف عينه مشيراً الى المجرمة وجمالها
در الجنديان بالمجرمة الى ساحة السجن وقصدا الباب العمومى وخرجا
جه وسارا بها فى الطريق

و ب موكب هذه المجرمة البسيط مجلبة انظار كل من كان فى ذلك
يق من حوذية وباعة وطهاة وفعلة وتجار وموظفين وكان هؤلاء بين
هزئ وساخر وبين معتبر يقول « الى هذا الموكب الخشن يؤدي السلوك
يء المخالف لسلوكنا الحسن » واما الاولاد فكانوا يرتعدون خوفاً عند
هم المجرمة ولكن سير الجنديين وراءها كان يطمئنهم بانها لا يمكنانها من
ال الاذى اليهم . وكان في جملة من مرّت عليهم هذه الجنازة أحد بائعي
وهو جالس فى قهوة يتناول قدحاً من الشاي فلما بصر بها نهض من مجثمه
منها ورسم اشارة الصليب واعطاها كوبيكاً (مليمين) فاحمر وجه المجرمة
واحنت رأسها وتمتمت بعض الكلام

ولما رأت الانظار مصوّبةً نحوها اخذت تنظر ذات اليمين وذات الشمال باطراف عينيها راغبة في اخفاء نفسها وكان الهواء النقي قد انعش جسمها وحواسها فداخلها شيء من السرور والانشراح الا انها كانت تشعر بألم في رجليها عند ما كانت تدوس على الارض لانقطاعها عن المسير مدة وجودها في سجنها وكان حذاؤها الرقيق يزيد رجليها ألماً ولهذا كانت تجتهد ان تطأ بهذا النعل البسيط التراب متجنبة المحلات المرصوفة بالحجارة ثم اجتازت دكان دقيق فرأت امامه اسراب الحمام تتطاير من مكان الى آخر دون ان تمس بضرر فابتهجت بمنظرها الجميل وكادت تدوس احداها لو لم تنتفض وتطير من امامها فابتسمت استحساناً وطرباً ثم تذكرت حالتها واسرها والشدة التي هي فيها فتنفست الصعداء وهي سائرة في طريقها

٢

أما تاريخ حياة المجرمة « ماسلوفا » فلا يختلف كثيراً عن تاريخ نظيراتها فهي ابنة امرأة لم تتزوج وكانت تشتغل هي وامها بخدمة البهائم في املاك احدى السيدات المثريات وكانت والدة ماسلوفا تلد في كل عام وهي لا زوج لها معروف وهذا يحدث كثيراً بين الفلاحين وكانت تعمد مولودها ولكنها قلما اهتمت بارضاعه وتغذيته لانها ولدته على غير ارادتها واختيارها كما كانت تقول وعدا هذا فقد كانت حجتها في تركها اولادها عرضة للموت جوعاً وعراء ان عنايتها بهم مما يؤخرها عن اعمالها ولذلك لم يعش لها ولد

وقد مات على هذه الصورة المفجعة خمسة اولاد الواحد بعد الآخر وقد عمدتهم جميعاً ولم تطعمهم جميعاً وماتوا جميعاً والطفل السادس المولود من رجل نوري كان قد مر بتلك الجهة كان المقدر له الموت كاخوته انه لما ...

ذات يوم سيدة القرية حظيرة البهائم لتوبخ القائمة بخدمتها على فذارة الزبدة التي قدمتها في ذلك النهار فاستلفت نظرها مهد بجانب الحظيرة وفيه طفل صحيح الجسم مملوء الوجه يكاد الدم يفيض من محياه فمالت له وحنّ فؤادها اليه وطلبت من امه ان تكون عرابته فى العماد ولما رأت من امه عدم العناية بامر غذائه حركها الحنان الى الاهتمام بامره وخففت بعض الاشغال عن الوالدة لتعتني بطفلها وكانت تتفحصها حيناً بعد حين بنقود لتنفقها عليه وكان هذا الطفل هو فتاتنا ماسلوفا التي كانت تسميها عرابتها « المنقذة »

ولما بلغت الفتاة السنة الثالثة من عمرها مرضت والدتها مرضاً اودى بحياتها فاهتمّت بها عرابتها وشقيقتها واخذتا على نفسيهما العناية بامرها وكانت السليتها الوحيدة لانهما لم يكن لهما اولاد فنمت الفتاة فى مهد العز جميلة لطيفة شيقة الحركة

ولا مندوحة لنا عن تعريف القارىء الكريم بهذه السيدة المحسنة وشقيقتها وقد سبق لنا ذكرهما فصغيرتهما وهي صوفيا ايفانوفنا كانت رقيقة الحاشية دمثة الاخلاق كثيرة الحنان والانعطاف وهي التي اعتنت بامر الفتاة من حيث النظافة واللباس والطعام والشراب ولم يقتصر اهتمامها على ذلك بل كانت تعلمها مبادئ القراءة والكتابة وتجتهد في تثقيف اخلاقها لتؤهلها عند ما تشب للدخول فى احدى المدارس العالية ليستنير عقلها بانوار المعارف والعلوم السامية واما شقيقتها الكبيرة ماريا ايفانوفنا فكانت تخالف شقيقتها في الطباع فكانت قاسية صارمة ومن رأيها ان الاخلق بالفتيات ان يقتصر تعليمهن على ما يلزم البيت كالطبخ والخياطة الى غير ذلك من الاشغال البيتية ولذلك كانت تشدد على « ماسلوفا » بالقيام بما يلزم البيت من انواع الخدمات المختلفة وتعاقبها عنا

عدم القيام بها كما يجب وتضربها أحياناً اذا قصرت في واجباتها . وعلى ذلك فان الفتاة ماسلوفا شبت بين قوتين مختلفتين فلم تحسن التهذيب الادبي ولم تتقن الاشغال البيتية بل كانت وسطا فيهما فكانت تخيط الملابس وترتب الغرف وتنظف الصور وتطبخ وتقدم القهوة للضيوف وأحياناً كانت تجلس بين الشقيقتين تقرأ على مسمع منهما بعض الكتب

وتقدم في هذه الاثناء كثير من الشبان لخطبة ماسلوفا فرفضت طلب الجميع لانهم كانوا من الفعلة والعمال وقد أدركت انها ستكون متعبة عند زوجها وهي كما علمنا ربيبة الراحة والمجد والرفاه لا ينقصها شيء لسرورها وهنائها

واستمرت ماسلوفا على حالتها التي ذكرناها الى أن بلغت السادسة عشرة من عمرها وفي هذه الآونة قدم ضيفاً على عمتيه (وهما سيدتاها) ابن شقيق لهما وحل ضيفاً كريماً عليهما فاستقبلتاه كما يستقبل الشقيق الشقيق واحلتاه على الرحب والسعة السيد الآمر الناهي، وكان هذا الضيف شاباً غنياً جميل الطلعة وقد تربى في احدى المدارس العالية وحمل شهادتها الانتهائية وفي اثناء اقامته تعلقت ماسلوفا بحبه تعلقا شديداً ولكنها كتمت حبها بين الحياء والخوف حتى عن نفسها ولم تتجرأ على مفاتحة حبيبها بشيء مما في فؤادها

وبعد مرور سنتين عرج هذا الضيف لزيارة عمتيه وهو مسافر الى الحرب وأقام عندهما اربعة أيام استمال اليه في اثنائها ماسلوفا واخدعها وفي اليوم الرابع سافر بعد أن وضع في جيبها ورقة قيمتها مئة روبل

ومن ذلك الحين شعرت الفتاة بتغيير فجائي طرأ على نفس الناس

اصبحت تخجل حتى من نفسها وانصرفت أفكارها للتخلص من اضطراب ضميرها والفضيحة التي صارت تنتظرها وأخذت على غير ارادتها تتهاون في أشغالها ثم شعرت بتأثير في صحتها وطفقت تتقيأ من غير أن تعلم سبباً لذلك ثم ازدادت حالتها حرجاً فشرست أخلاقها وجعلت تجاوب سيدتيها بقحة وفجور عن غير قصد وأخيراً طلبت منهما حسابها واعفاءها من خدمتها

وقد اثر انقلاب ماسلوفا أسوأ تأثير في فؤادي السيدتين اللتين تأسفتا على ضياع اتعابهما بتربية هذه السافلة. لذلك دفعتا لها ما تستحق من الاجر وصرفتاها عن رضى تخلصاً من شراستها وفجورها

ولما خرجت من دار سيدتيها شعرت بشر ما صنعت ودفعتها الفاقة الى الاستخدام فدخلت في خدمة ناظر احدى محطات السكة الحديد ولكنها لم تطل الاقامة عنده اكثر من ثلاثة أشهر لانه وهو كهل قد تجاوز الخمسين من عمره قد مال اليها وشرع يلاطفها ويتزلف اليها وأخيراً دفعه الغرام لمفاتحتها بهواه فراودها عن نفسها فاستاءت صبية واحتدمت غيظاً ووجهت اليه كل ما دار على لسانها من سباب والشتائم وضربته ضربة على صدره فألقته على الارض فلم يطق الناظر صبراً على كل هذا فطردها من بيته للحال بعد ان اعطاها اجرتها

وبعد ان خرجت من عند هذا الرجل لم تسع الى الاستخدام لانها شعرت بقرب ميعاد الوضع ورحلت الى قرية مريبة واستأجرت غرفة عند وامأة هناك. وكانت هذه الارملة قابلة (داية) وتتعاطى بيع الخمور أيضاً قاسية صارمة وضعت ماسلوفا صبياً قبلته نفس الارملة صاحبة البيت ولكن البيت كالطبع هذه المسكينة كانت القابلة تولد امرأة فقيرة مريضة فنقلت منها على « ماسلوفا »

لعدوى اليها ولهذا لم تستطع ان ترضع ابنها والتزمت ان تبعث به الى المدينة وتدخله الى (بيت التربية) غير ان الطفل توفى عند وصوله كما اخبرت العجوز التي حملته الى المدينة

وكانت دراهم ماسلوفا عند سكناها فى بيت بائعة الخمر تبلغ ١٢٧ روبلا منها ٢٧ روبلا تقاضته من ناظر المحطة والمئة روبل هي ثمن طهارتها قبضته من مغريها ثم خرجت من عند القابلة ومعها من تلك القيمة ستة روبلات فقط لانها لم تكن تعرف قيمة المال لتحرص عليه . وقد انفقت على نفسها واعطت كل من يطلب منها فالداية أخذت منها اجرة شهرين بما فيه الاكل والشرب ٤٠ روبلا و٢٥ روبلا كان اجرة ارسال الطفل و٢٠ روبلا ذهبت جزافا ثمن ملابس وغيرها واقترضت منها الداية ايضا ٤٠ روبلا لتشتري بها بقرة ولذلك فعند خروجها لم يكن لديها شيء من المال تقوم باودها فالتزمت ان تسعى بشغل تحيي منه قوتها فتوفقت لايجاد خدمة عند ناظر الاحراج وكان هذا الرجل متزوجا ولكنه كناظر المحطة أخذ من أول يوم دخولها يتزلف ويتحبب اليها فلحظت ذلك زوجته وأخذت تراقبه . ذات يوم وجدته منفردا في الغرفة مع ماسلوفا فدخلت وجعلت تفسرها ضربا مبرحا فقابلتها بالمثل وحصل بينهما مضاربة ومعركة طردت على أثرها من البيت دون أن يدفعوا لها اجرتها وحينئذ سافرت الى المدينة ونزلت عند عمتها التي كانت متزوجة بمجلد كتب كان فيما مضى ذا سيرة حميدة وعيش رغيد لكنه في المدة الاخيرة ادمن على شرب الخمرة ولم يعد يقوم بالاشغال المطلوبة منه نحو بائعة الذين تركوه شيئا فشيئا فساءت حاله وقل دخله وماله

فلما رأت زوجته تلك الحالة انشأت في بيتها محلا لغسل ملابس الناس

لتحصل على ما يقوم بأودها مع عيالها وتساعد زوجها الضال الساقط ولذا عرضت على ماسلوفا ان تنتظم في سلك النساء الغسالات لكنها لما رأت الاتعاب التي يحتملنها وسوء معيشتهن كانت تطاول عمتها في القبول وتسعى من جهة أخرى الى إيجاد شغل في أحد البيوت او الدوائر وما زالت تسعى في هذا السبيل حتى وجدت لها شغلا عند سيدة غنية لها ابنان يتلقيان العلوم في كلية عالية وكان أكبرهما قد خط عارضاه فلما رأى ماسلوفا تعلق بها وترك الدرس والمطالعة وضايقها مضايقة شديدة حتى لم تتمتع براحة. وقد لحظت والدته انشغاله بها عن درسه فطردتها وبعد ذلك تعسر عليها وجود شغل وذهبت ذات يوم الى ادارة لاحد المخدمين لتقيد اسمها عنده فصادفت هنالك امرأة مرتدية الملابس الفاخرة ولابسة في أصابعها الخواتم الثمينة تدهش فصوصها الانظار وفي معصميها المكشوفين الاساور الثمينة ولما علمت هذه العادة بحالة ماسلوفا وانها تفتش على شغل دفعت اليها عنوانها ودعتها ان تحضر اليها اذا ارادت . وفي اليوم التالي سارت اليها على عجل فاستقبلتها بالهشاشة والبشاشة واحسنت وفادتها وقدمت لها بعض الحلوى وخمراً ثم كتبت السيدة رسالة وارسلتها برفق خادمتها . وعند المساء دخل الغرفة رجل طويل القامة عبث البياض بلمته ولحيته الطويلة ثم جلس الى جانب ماسلوفا واخذ يمازحها ويداعبها وبعد هنيهة استدعته ربة البيت الى غرفة أخرى وابتدأت تقول له وماسلوفا تسمع كلامها : انها فتاة قدمت اليّ حديثاً من بلاد الفلاحين وهي كما تراها على جانب عظيم من الصحة والجمال لم تعرف أحداً الآن وقد ارسلت اليك لتتمتع بقربها قبل غيرك ثم استدعتها وقالت لها . ان هذا الرجل من الكتاب المشهورين ومن ذوي الثروة

لواسعة وانه لا يضن عليك بالمال الكثير اذا أعجبه معاشرتك وحسنت في عينيه فاجتهدي في سبيل مرضاته

اما ماسلوفا فقد اعجبت الكاتب الذي دفع لها ٢٥ ريالا ثم ودعها واعدا اياها بالتردد عليها كثيراً وقد انفقت هذا المبلغ سريعاً في شراء الملابس وشرائط الحرير وبرنيطة على المودة الاخيرة . وبعد بضعة ايام ارسل الكاتب يدعوها اليه فلبت الطلب حالا ودفع لها في هذه الزيارة ٢٥ ريالا ايضاً واشار اليها ان تخرج من البيت الموجودة فيه وتقيم في بيت آخر استأجره لها فوافقته واقامت من ذلك اليوم في البيت الجديد

وفي اثناء اقامتها في البيت الذي اكتراه لها الكاتب تعلقت بحب فتى تاجر كان مجاوراً لها ولم يسعها كتمان حبها بل صرحت للكاتب وأعلنته بانها عزمت على تركه وفعلا فانها في نفس ذلك اليوم انتقلت الى بيت التاجر الذي كان قد أغراها ووعدها بالاقتران بها لكنه لم يف بوعده بل تنصل منها بعد ان اقامت بقربه بضعة أيام وسافر الى مدينه نيخي . فانفردت في ذلك البيت وعزمت على ان تواصل السكن به غير ان صاحبه لم يرض وأعلنها بسرعة الخروج من البيت

فغادرت البيت رغما عن ارادتها وذهبت ثانية الى عمتها وأقامت عندها ولما أبصرت هذه لباسها الفاخر المصنوع على أحدث الازياء وبرنيطتها الحريرية الثمينة يتماوج في أعلاها ريش الطاووس بالوانه الذهبية المدهشة استقبلتها بمزيد الحفاوة و لاحترام زاعمة ان قريبتها ارتقت في الهيئة الاجتماعية وأصبحت من ذوات اليسار ولذلك لم تجسر ان تفاتحها بامر الانتظام في سلك الغسالات

أما ماسلوفا فكانت مترددة بين الاشتغال بالغسيل او عدمه ولكن

ناملو حالة الغسالات التي عزمها عن ذلك الامر فانها بمزيد التفجع والتوجع كانت تنظر الى أولئك المنكودات الحظ وايديهن النحيفة وما يقاسينه من تعاب الشاقة في عملهن - تى ان بعضهن اصبن بداء السل من مزاولة غسل الملابس في مقصورة مفتوحة النوافذ صيفاً شتاء لاتقل حرارتها عن ثلاثين درجة ولدى. هذه التأملات كانت ترتعد خوفا وفرقاً من أنها تعرض نفسها لتلك الامراض اذا تعاطت مهنة الغسيل

أن ماسلوفا كانت مولعة بالتدخين منذ عهد بعيد وتعلقت بعد ذلك المشروبات الروحية على اختلاف انواعها وكانت تتعاطى بذ الحان ليس لجودها لذة بشربها بل لانها كانت تستطيع معها ان تنسى حبها والحالة المزرية التي وصلت اليها وعند اكثارها من الشرب تزهو بنفسها وتختال بالها وتقار نفسها حق قدرها او ازيد وفي حالة صحوها كانت تصغر في نفسها تشعر بعظم العار والانحطاط الذي وصلت اليه

وكان أمامها أمران اما تتوظف خادمة وتكون معرضة لمضايقة الرجال مصادرتهم لها في ذلك ما فيه من الامتهان والاحتقار واما ان تعيش تلك عيشة المشهورة التي لا تدعوا الى طلب او نصب بل تحصل مايقوم باودها باحة وقد اشتد بها الميل الى ولوج تلك المعيشة وعلى الاخص عند ما كانت فكر بانها تستطيع اذ ذاك الانتقام من الذي أغراها اولا ومن التاجر وكل سان جلب لها أذى اوضررا ومما كان يزيدها ميلا الى تلك المعيشة هو لحصول على أفخر الملابس المختلفة بين حرير وخز وديباج مفصلة على احدث زياء واشدها بهرجة وجمالا زي الليالي الراقصة وعند ما كانت تتصور نفسها هذا الزي المفصل من الحرير الاصفر والثنايا السوداء الحريرية وتكون

به مكشوفة الصدر حاسرة اليدين تتيه فى عالم الخيالات فاندفعت بعامل هذه التخيلات الى تلك المعيشة

ومن ذلك العهد عاشت ماسلوفا تلك المعيشة التى يعيش ألوف ومئات الالوف من النساء وتنتهي لتسعة نساء من عشرة بالامراض والآلام المبرحة والشيخوخة السابقة اوانها .

وهذه المعيشة السوداء مرتبة كما يأتي : نوم ثقيل فى السحر والصباح والنهار .... استيقاظ قسري من فراش قذر عند الساعة الثالثة او الرابعة بعد الظهر . ثم شرب الصودا والقهوة فالتخطر بكسل فى الغرفه بلباس النوم فالاشراف من النوافذ فترتيب الغرفة عن غير ارادة . فتضميخ الجسم والشعر بالروائح العطرية فقياس الثياب ومشاجرة صاحبة البيت من اجلها فالوقوف امام المرآة . فدهان الوجه والحواجب فالطعام اللذيذ « المدهن » ؟ فارتداء الثياب الحريرية الزاهية فالحضور الى ردهة منارة بالانوار الساطعة فقدوم الضيوف فالموسيقي ، فالرقص فأكل الحلوى المختلفة فخمر الكؤوس فالتدخين الخ ....

قضت ماسلوفا على هذه الصورة التي ذكرناها سبعة اعوام وفي العام الثامن وقد بلغت السادسة والعشرين حدث لها حادث اوجب زجها فى السجن وقادوها الآن الى المحاكمة مع اللصوص بعد ان امضت سنة اشهر فى ظلمات السجون

٣

ففى هذا الوقت الذى كانت تسأم به ماسلوفا انواع العذاب كان مغرم الأول ابن شقيق مربيتها وهو الامير ديمتري ايفانوفيتش نيكليدوف .

مضطجعا على سريره العالى المفروش بالفراش الفاخر اللين وقد حل رى ثوب النوم المفصل على الزي الهولاندي الكثير الثنايا على صدره يدخن سيجارة بعد الاخرى متفكراً بما مر به في الامس وما ينبغي عليه عمله فى ذلك النهار .

ومرت فى مخيلته سهرة الليلة الماضية التي قضاها فى بيت عائلة كورتشاكين المشهور بالثروة الواسعة والنسب العريق العالى وكان جميع معارفه يتوقعون ويرجحون زواجه بابنة تلك العائلة ذات الجمال الرائع ولما تذكر ذلك تنفس الصعداء وطرح من يده لفافة التبغ المنتهية واراد ان يأخذ غيرها من علبته الفضية ولكنه عدل عن ذلك ونزل عن سريره وارتدى عباءة من الحرير ومضى الى الغرفة المجاذية لغرفة نومه ولما دخلها انتعش جسمه وانشرح صدره بالروائح العطرة الفائحة من تلك الغرفه كالكولونيا والبنفسج وغيرهما ثم تناول علبة داخلها مسحوق نظف به اسنانه وغرغر فمه بغرغرة ذكية الرائحة وبعد الغسل سار نحو مغسل المرمر وغسل يديه ووجهه واظافره الطويلة وعنقه بصابون مطيب ونشفها بمناشف متعدده مختلفة وبعد ذلك قصد غرفة أخرى مجاذية لمقصورة النوم من الجهة الاخرى حيث غسل جسمه الابيض السمين تحت الدشاش « الدوش » ونشفه بملاءة من الحرير الناعم وارتدى فى هذه الغرفة ثيابه السفلى المكوية النظيفة ثم دخل غرفة ثالثة ووقف امام منضدة الزينة ومشط شعر لحيته الاسود وفرق شعر رأسه وتضمخ بالطيوب والروائح العطرية وأخذ يرتدي الثياب وكانت مختارة من أخف القماش وأغلاه ثمناً مصنوعة عند أشهر الخياطين وأما ملحقاتها ولوازمها كربطات العنق والدبابيس والازرار فكانت من أتقن ماوصلت اليه الصناعة دقة ومتانة واتقاناً ورونقاً

وارتفاعا في الثمن وبعد ان اتقن بزته جهد المستطاع قصد غرفه الا ن ١
لتناول طعام الصباح وكانت هذه الغرفة لاتنقص عن باقي الغرف في اثاثها ومحتوياتها فطاولة الاكل من خشب ثمين متين مصنوعة على شكل بديع يوجه اليها البصر فان الناظر يخالها اسداً رابضاً يتحفز للهجوم على الفريسة وكانت مغطاة بغطاء من قماش بديع وعليها وضعت بترتيب الاواني الآتية : اناء فضي للقهوة واخر للسكر وثالث للقشطه ورابع للكعك والبسكوت والبقسماط والى جانب تلك الاواني طبق من الفضة وضعت عليه الكتب الواردة مع بريد الصباح وعدد من مجلة افرنسية تدعى « مجلة دي موند » (العالمين) واخذ يفض الكتب ليطالعها غير انه حال دون ذلك دخول امرأة جاوزت الاربعين مرتدية ثياب الحداد وهذه كانت وصيفة والدته التي توفت — من عهد قريب وبقيت بعد وفاتها في خدمته بصفة مدبرة واسمها اغرافينا بتروفنا وقد مضى عليها في خدمة هذا البيت السنين الطوال وعرفت دمتري نيكيليدوف منذ كان ينادي تحبباً باسم ميتينكا (١) عند ما كان صغيرا ولما دخلت عليه حيته تحية الصباح فرد لها التحية وهش وبش في وجهها وقال لها ماوراءك من الاخبار الجديدة

فاجابته ان خادمة البرنسس كورتشا كينا احضرت لك كتاباً باكراً ولبثت في غرفتي منتظرة الجواب ودفعته اليه مبتسمة ابتسامة لها في نفسها

« ١ » الروسيون يصغرون او يرحمون اسماء الصغار فيقولون لدمتري ميتيا او ميتنكا ولمقولا قوليا ولا يقال (حنا) قانيا وجرى على هذه القاعدة عشائرهم فاذا كان حبيب له حبيبة تسمي اليكساندرا فيدعوها تحبيبا ساشا او ماوي فيدعوها ماشا او موبوف فيدعوها ليوبا وقس على ذلك بقية الاسماء

معنى لانها كانت تعتقد بان سيدها سيتزوج بتلك الاميرة واما هو فلما شاهد ابتسامتها قطب حاجبيه كدراً واخذ منها الكتاب وامرها بان تخبر الخادمة لكي تنتظر الجواب وخرجت

ولما سفر نيكيليدوف اللئام عن ذلك الكتاب فاح من طيه عطر الخزام وقرأ به مايأتي :

« لقد شرعت منذ الآن ان اقوم بالوظيفة التي عاهدتها الي وهي تذكيرك وتنبيهك لما تنساه فقد وعدتنا الليلة الماضية بغير روية انك ستذهب معنا الى محل المصور لمشاهدة صوره الغريبة مع انك لا تستطيع القيام بوفاء هذا الوعد لانك ملزوم في هذا اليوم الموافق ٢٨ ابريل بالذهاب الى المحكمة لحضور الجلسة اللهم الا اذا فضلت ان تدفع ثلثمائة روبلا للمحكمة لقاء تغيبك لكي تفي وعدك

وازيدك علما ان والدتي تدعوك لمناولة طعام العشاء وان مكانك على المائدة سيكون محفوظاً لك ونحن بانتظارك حتى نصف الليل ويمكنك ان تحضر الينا في اية ساعة تريد

﴿ ماري غورتشاكينا ﴾

وكان الكتاب مكتوباً نصفه باللغة الروسية ونصفه بالفرنسيه حسب العادة الدارجة بين المتفرنجين الروس

ولما اتى على آخر الكتاب قطب حاجبيه وظهرت على وجهه ملامح الكدر لانه اي الكتاب كان احد اسلاك تلك الشبكة التي اعدتها ماري منذ شهرين لتوصله اليها وتوقعه فيها مع انه كان متردداً في امر الزواج شأن جميع الرجال الذين خاضوا عباب الملذات وتقلبوا على حب كثيرات ثم انه يوجد

سبب آخر حمل صاحبنا على التردد بامر الزواج وربما يتبادر لذهن القارىء بان هذا السبب هو اغراؤه كاتيوشا منذ عشر سنين كلا فان ذلك لم يخطر له ببال بل نسيه من مدة طويلة وإنما السبب المهم هو انه كانت له في نفس هذا الوقت علاقات مع امرأة متزوجة ومع انه قطع هذه العلاقات وابتعد عنها ولكنها أي تلك المرأة لم توافق على قطعها بل اعتبرتها ثابتة متينة العرى لا يحول دون فصلها هجر او جفا او بعاد

ان نيكيليدوف كان جباناً مع النساء وجبنه هـذا حرك في فؤاد تلك المرأة الميل لاخضاعه لارادتها

أما هذه السيدة فهي زوجة قائد الفيلق الذى كان نيكيليدوف أحد ضباطه وبعد أن اعتزل الخدمة كان يعود اليه عند مايطلبه القائد لاستعراض الجنود فقط وهي كما قدمنا اغرته بما نصبته اليه من حبائل الزينة والتزلف وما زالت حتى أوقعته وتمكنت العرى بينهما تمكناً كان يزداد يوماً فيوماً

لكن نيكيليدوف شعر بالذنب الذى اقترفه وبحرج موقفه فعزم على قطع علاقاته معها ولكنه لم يجسر على ذلك دون رضائها وهـذا السبب كان يصده عن الزواج

وكان بين الكتب لواردة اليه مع بريد الصباح كتاب من زوج تلك المرأة ولما وقع نظره على عنوانه عرفه حالا وعلت وجهه حمرة الخجل وشعر بما يشعر به كل انسان عند اشرافه على الخطر غير أن اضطرابه كان عبثاً دون جدوى ذلك لان زوجها الذى كان تعين حديثاً حاكماً للمقاطعة الواقعة فيها اكثر أملاك وأطيان نيكيليدوف كتب اليه يخبره بأنه في أواخر مايو ستجتمع الجمعية العمومية فوق العادة ويلتمس منه أن يحضر لا محالة ليعضده في الاسئلة

التي يكون مدار كلام الجمعية عليها وأهمها حالة المدارس والطرق العامة وسيكون على الغالب معارضون كثيرون لتلك المشروعات الجليلة التي عزمت الحكومة على القيام بها

وكان هذا الحاكم رجلا حراً ميالا للاصلاح وقد كرس كل وقته وافكاره في هذا السبيل ولم يكن يعلم شيئاً عن حالة عائلته الداخلية التعيسة الفاسدة

واذ ذاك تذكر نيكيليدوف جمع تلك الدقائق المؤلمة التي قضاها والخيانة المشينة التي اقترفها ضد هذا الرجل وذكر أيضاً ذلك اليوم الذي ظن بانه عرف بخيانته واستعد لمبارزته ونزل الى الحديقة وأطلق عياراً نارياً في الفضاء على سبيل التجربة ولما عرفت بذلك خليلته أي زوجة الحاكم فقدت رشدها وأسرعت نحو بركة الحديقة وعزمت على أن ترمي نفسها بها لتموت غرقا وانه لما أبصرها على تلك الحالة أسرع اليها وأمسك بطرف ردائها وحال دون اتمام مرامها ولما ذكر هذه الامور قال « لا أستطيع السفر الآن ولا أقدر أن أقدم على عمل ما لم تجبني الآن » وكان قبل اسبوع قد كتب لها رسالة نهائية اعترف لها بها بعظم الجريمة التي اقترفها معها وانه مستعد للقيام بما تأمر به فداء لذلك وانه خير أن تتصرم عرى مودتهما وذلك أفيد لخيرها ونفعها وكان ينتظر بفارغ الصبر جواباً منها على تلك الرسالة غير أن الوقت مضى وذهب انتظاره عبثا لكنه عد من جهة أخرى ابطائها في الاجابة على قطع حبل اتصالهما دليلا حسناً على رضائها ولاح له من ذلك بارق أمل بتحقيق آماله لانه قياسا على الماضي كانت تجيبه في الحال أو تحضر اليه بنفسها لتقنعه على فتور وداده وقلة مواصلته لها وقد فعلت ذلك مراراً . وكان قد سمع أيضاً بانه حل على زوجها ضيفاً كريماً معززاً أحد الضباط الكبار الذي افتتن بجمالها

وقدها واعتدالها ورقة كلامها ولطف مخضرها فمال اليها بكليته وأخذ يتزلف اليها ويتقرب منها وقد حرك هذا الخبر في نفسه عوامل الغيرة المندملة وجلب له السرور أيضاً في آن واحد لانه رجا أن يتحرر من ذلك الغش الكاذب والغرور الفاسد

ثم فض كتاباً آخر ورد اليه من ناظر أملاكه الذى كتب اليه يطلب حضوره لمشاهدة أطيانه الجديدة التى ورثها عن والده ليثبت امتلاكها ويتخابر معه بشأن ادارتها وزراعتها وهل يبقى يأتمر سائراً في ادارتها على ذلك النمط الذي كان سائرا عليه في حياة الاميرة المرحومة أو بغير تلك الخطة حسب التقرير الذى كان رفعه الاميرة قبيل وفاتها وذلك بأن ينزعوا الاراضي التي آجروها للفلاحين لزرعها على نفقة الاميرولا يكلفه ذلك سوى شراء الابقار وبعض الادوات الزراعية وان هذه الطريقة أوفق لصالح الامير ثم اعتذر هذا الناظر في كتابه على تأخير الثلاثة آلاف روبل المعتاد ارسالها في غرة كل شهر وانه سيقدمها مع البريد القادم وان السبب الذي حمله على تأخير ارسالها هو صعوبة تحصيلها من الفلاحين الذين أصبحوا يماطلون بدفع المطلوب منهم حتى اضطر لشكوى بعضهم أمام الحكومة فقد سره هذا الكتاب وأحزنه في آن واحد : سره لانه شعر بأنه من أصحاب الاطيان الكثيرة ومن ذوى السلطة والكلمة النافذة وأحزنه لانه في صباه طالع مذهب هربرت سبنسر وأعجبه جداً وسار على موجبه والآن قد أصبح من ذوى الاملاك الواسعة وأضحى مركزه حرجا بالنسبة للمذهب الاشتراكي (سوسياليست) القائل بأن العدالة لا تجيز التفرد بامتلاك الاراضي ولم يكتف في صباه استحسان هذا المذهب وكتابة المقالات بشأنه مذ كان في المدرسة بل سار بالفعل

على موجبه ووزع على فلاحيه اطياناً تصلت له بالارث عن ابيه لانه لم يرد ان يخالف اعتقاده بانه يسوغ التفرد بامتلاك الاراضي بل يجب ان تكون مشتركة بين الجميع اما الآن وقد اصبح من ذوي الاملاك الواسعة التي ورثها عن والدته فكان امامه امران اما ان يوزع هذه الاطيان على الفلاحين كما فعل منذ عشرة اعوام بالمائتي فدانا التي ورثها عن ابيه او ان يعترف بان جميع افكاره السابقة ماهي الا خطأ مبين وكذب ومين

ولم يكن في امكانه القدوم على الامر الاول لانه لم يكن لديه ايراد آخر يعيش منه ولم يكن له ميل للتوظف ومن جهة اخرى قد اعتاد على رفاه العيش وملاذ الحياة وليس في استطاعته تركها او العدول عنها ولا يوجد ايضا سبب عامل قوي يحمله على ذلك الان فان تلك القوى التي كانت شديدة في ايام صباه وهي الاعتقاد المتين والعزم الثابت والحزم واكتساب المجد الفارغ القائم بمدح الناس وثنائهم واعجابهم قد ضعفت الآن ضعفا شديدا كاد يثني عزمه

واما الامر الثاني وهو انكار ونبذ تلك الافكار القائلة بعدم اجازة امتلاك الاراضي التي تشربها من مقالات سنبسر الاشتراكية ثم قرأ كثيرا عنها في مؤلفات هنري جورج بهذا الشأن فلم يستطع الاقدام على هذا الانكار ابدا وهذا هو الامر الذي احتزنه في كتاب الناظر

ه

وبعد ان شرب القهوة ذهب الى مكتبه ليتأكد من الروزنامة (النتيجة) الساعة التي ينبغي ان يذهب بها الى الجلسة وهي الساعة الحادية عشرة صباحا ثم جلس وعزم على كتابة جواب للاميرة يشكرها على دعوتها وانه سيجتهد

بالحضور لمناولة الطعام وبعد ان كتب الجواب وقرأه لحظ انه غير واف بالمقصود فمزقه وكتب اخر وبعد ان عاد قراءته لاحظ بانه يتخلل سطوره فتور زائد اما طالعته الاميرة تعده اهانة لها فمزقه ايضا وضغط على الزر الكهربائي فدخل عليه خادمه العبوس فقال له : استدع حوذيا

— حاضر

وأخبر أيضاً خادمة كورتشاكين المنتظرة بان تبلغ شكري وسلامي واحترامي لسيدتها واني سأجتهد بالذهاب اليهم

— حاضر ياسيدى

ثم نهض ودخل غرفة الثياب وارتدى رداءه الخارجي الطويل وخرج فوجد الحوذي بانتظاره وعند ماركب العربة سأله الحوذي الى بيت كورتشاكين فامتعض من سؤاله وقال في نفسه حتى الحوذية يعلمون بامري مع تلك العائلة واذ ذاك حضره ذلك السؤال الذى اشغل افكاره في المدة الاخيرة وهو هل ينبغي التزوج بآنسة كورتشاكين ام لا ولم يتوصل للآن الى حل السؤال كما انه كان يصعب عليه حل جميع الاسئلة التي كانت تخطر له او يؤدى عنها جواباً سلبياً أو ايجابياً

كان يفضل الزواج لانه زعم انه يحصل به على رفاه العيش والراحة التي يجدها الانسان في الحياة العائلية ثم يجنح معه الى العدول عن مسلكه الماضي ويعيش عيشة أدبية وعدا ذلك فالزوجة والاولاد يشغلونه عن ارتياد اندية اللهو وبذلك يتوفر عليه انفاق المبالغ الوافرة هدراً ومن جهة أخرى كان يفتكر كما يفتكر الذين جاوزوا سن الثلاثين دون ان يتزوجوا بان الزواج يقيد الانسان ويحرمه الحرية اللذيذة ويخفض قدره في نظر السيدات وتنفر منه

سعداري والفتيات وان كل انسان ذو شعور واحساس ينبغي عليه ان يحسب لشخص المرأة السري ومن الجهل الفادح قدومه على امر يجلب فيه عليه احتقار السيدات وخير لذلك الانسان ان لا يعيش

ثم ان افكار نيكيليدوف بشأن زواجه بآنسة كورتشاكين المدعوة ماري كانت مختلفة مضطربة فمن جهة كانت الفتاة بنظره بالغة أقصى درجات الترتيب والاتفاق في كل شيء سواء في لباسها اوسيرها وابتعادها عن الناس البسطاء ونفورها من كل الشبان والرجال الذين يترددون على بيتهم وتفضيلها اياه عليهم جميعا على الاطلاق وعلى رايه انها كانت تقدر منزلته حق قدرها وهذا التفضيل والتقدير على رأيه هما أعظم شاهد عدل على ذكائها المفرط وصحة حكمها ومن جهة اخرى كانت تتولد لديه افكار اخرى من جهتها تزعزع ميله وتثني عزمه عن التزوج بها ذلك انه يستطيع ان يجد فتاة غيرها حائزة على صفات حميدة تفضل بها ماري وتستحق توجيه التفاته اليها بما حازت من الاهلية والكفاءة ثم ان ماري بلغت سبعة وعشرين عاماً من عمرها ويحتمل انها في خلال هذه المدة مالت الى سواه او تعلقت بحب آخر لانها لم تكن في انتظاره وكل فتاة لابد لها من استمالة احد الشبان اليها ليتزوجها وهذا الفكر الاخير جلب له اهانة عظمى

ثم قال في نفسه أنني أستطيع القدوم على عمل مالم تجنه زوجة الحاكم وترضى بقطع حبل اتصالنا واذ ذاك دنت العربة من دار المحكمة ووضعت حداً لافكاره ووساوسه فنزل منها على امل ان يعود لتلك الافكار التي كان يجب طردها على رأيه حتى لاتشغله عن القيام بوظيفته وخدمة الناس خدمة صادقة صادرة عن فكر ثاقب وأي صائب

٥

ولما دخل ساحة المحكمة رأى الناس فيها مزدحمين كالبناء المرصوص في حركة شديدة فالحجاب يخرجون من غرفة ويدخلون اخرى اتماماً للاوامر وايصال الاوراق من متوظف لآخر والمحامون وكتابهم بمحافظهم يتخطرون ذهابا وايابا وأصحاب القضايا بين جالسين وواقفين ينتظرون بملل افتتاح المحكمة

فدنا نيكيليدوف من أحد الجنود وسأله أين غرفة الجلسة

فأجابه الجندي أية محكمة تقصد هل محكمة الجنح والجنايات أو المحكمة المدنية

— فقال له اني محلف

— اذاً تقصد محكمة الجنايات الكبرى سر الى اليمين ثم عرج على اليسار وادخل من الباب الثاني

فابصر على الباب المشار اليه رجلين واقفين ينتظران احدهما تاجر طويل القامة سمين تدل ملامحه على اتصافه بالبشاشة والهشاشة ويظهر انه قبل مزاولته بيته اكل وشرب خمر لانه كان جذلا مسروراً فوق المعتاد والآخر تاجر اسرائيلي وكانا يتحادثان عن اسعار الصوف عند مادنا نيكيليدوف وسألهما هل هذه غرفة المحلفين

فأجاباه بصوت واحد هنا أيها السيد ونظن انك محلف نظيرنا وزميلنا رحباً بك

ثم اردف التلجر الاول كلامه قائلا سنعمل معاً ان شاء الله لما فيه الصالح

العام وقال اتشرف بالتعرف بك فانا المحلف « با كلاشوف » وصافحه بيده العريضة الرخصة الناعمة فأجابه بمزيد السرور أتشرف بمعرفتك وانا المحلف نيكيليدوف ثم دخل على اثر هذا التعارف غرفة المحلفين فشاهد فيها عشرة رجال من نزع ومهن مختلفة وقد دخلوا الغرفة منذ برهة يسيرة وبعضهم جلس في مكانه وبعضهم كانوا لم يزالوا واقفين يتعارفون ويتحادثون عن الطقس وقدوم الربيع قبل ميعاده وعن الاشغال القادمة عليهم وغير ذلك من الحديث الذي لا يقصد به سوى حيلة المتكلم على الكلام واكثرهم قدموا أنفسهم الى نيكيليدوف وتعارفوا معه عادّين ذلك شرفاً وفخراً وقد كانت له عادة أن يتظاهر أمام الناس بالسؤدد والعظمة والجبروت ولو سألته لماذا يفضل نفسه على جميع الناس ويعلي قدرها جهد الطاقة لما استطاع الى اجابتك وهو في جميع أدوار حياته لم يفعل أمراً عظيما يجعله أن يتظاهر بمظاهر العظمة والسؤدد وربما ان ماحدا به الى ذلك هو تضلعه باللغات الفرنسية والانكليزية والنمسية واجادته النطق بها وان ملابسه فاخرة ثمينة ويلحقها من اجل وانفس ماوصلت اليه يد الصناع فكان يفتخر بها ويسر بالاحترام الذي يبديه اليه سائر الناس ويتكدر اذا لم يكترث به أحدهم ولم يبدله فروض التبجيل والاكرام

وقد وجد في غرفة المحلفين أحد معارفه بطرس حراسيموس الذي كان استاذاً لانجال شقيقته المشهور بضحكه الكثير وهزله الدائم والاعجاب بنفسه وكلامه وضحكه فلما رآه هذا دنا منه وقال له وهو يضحك ضحكا شديداً وانت أيضا هنا

فقابله نيكيليدوف بفتور زائد واختصر معه في الكلام وابتعد عنه وجلس ازاء بعض الرجال الذين كانوا مصغين لحديث احدهم عن حضوره

احدى الجلسات في قضية مهمة رافع فيها احد المحامين مرافعة استرعت الاسماع لما اورده المحامي من البراهين القاطعة والشواهد الساطعة مما ادهش الجمهور وهذه القضية هي ان أحد الوجهاء اغتصب اطيان احدى السيدات وزور اوراقاً بشأنها وساعده القضاء والمحامي على اختلاسها ومع ان نيكيليدوف قدم المحكمة متأخرا فقد لبث منتظراً التئام الجلسة مدة طويلة وذلك بسبب تأخر احد اعضائها عن الحضور

٦

جاء رئيس المحكمة الى الجلسة مبكراً وهو رجل طويل القامة عريض الاكتاف مملوء الجسم ذو شاربين طويلين وخطها الشيب متزوج لكن سيره كان بالغاً اقصى درجات التهتك والانغماس في الشهوات كسير زوجته فهما من هذا القبيل صنوان او فرسا رهان والاغرب من ذلك انهما كانا يلهان بسيرة بعضهما ولا يقف انواحد عثرة في سبيل الآخر بل اذا اقتضى الحال يسهل له الامر للحصول على مبتغاه

وفي صباح هذا اليوم ورد عليه كتاب من وصيفة زوجته التي اقامت عندهم في البيت مدة الصيف الماضي ثم سافرت الى الجنوب لتقضي فيه فصل الشتاء تخبره انها عزمت على العودة الى بطرسبرج وانها ستعرج على المدينة .. حيث تصلها مابين الساعة الثالثة والسادسة مساء وانها ستنتظره في فندق « ايطاليا » ولهذا السبب اراد أن يبدأ الجلسة قبل ميعادها حتى يتمكن عند الساعة السادسة من مقابلة هذه الوصيفة الشقراء « كلارا فاسيلفنا » التي جرت له معها رواية لطيفة اثناء اصطيافه في الصيف السابق

ولما دخل الرئيس غرفته فتح خزانة واخذ منها قطعتي حديد على هيئة

الموازين وجعل يرفعهما بيده تارة الى فوق وطوراً الى تحت واخرى الى اليمين وتارة الى اليسار وكان هذا دأبه في كل صباح يفعل ذلك على سبيل الرياضة معتقداً بانها تفيد الانسان فائدة عظمى وقبل ان ينهي تلك الحركات صر الباب صريراً معلناً بقدوم قادم فاعاد قطعتي الحديد الى موضعهما وجلس ثم وجه نظره الى الباب ليرى الداخل

فدخل عليه احد أعضاء المحكمة وهو رجل ربع القامة عالي المنكبين عبوس الوجه قد علق فوق انفه نظارة من ذهب وعندما توصل الغرفة قال مغضباً ان متى نيكيتش لم يحضر حتى هذه الساعة فاجابه الرئيس ليس هذه هي المرة الاولى التي يتأخر فيها عن الحضور ثم ارتدى وهو يتكلم رداء المحكمة الاسود الطويل العريض

فقال العضو والغريب انه لا يخجل من تأخيره ثم جلس مغضباً واخرج علبة التبغ وأخذ يدخن اللفافة بعد الأخرى

ان هذا الرجل اتصف بالمحافظة على المواعيد بدقة زائدة وقد حدث له صباح هذا النهار امر ازعجه ذلك ان الدراهم التي اعطاها لزوجته لنفقات الشهر كله حسب عادته قد نفذت منها قبل انتهاء الشهر وقد طلبت منه ان يعطيها غيرها مقدماً فأبى اجابة طلبها مصرحاً لها بانه لا يخالف عادته ابداً وجرى بينهما شقاق عظيم بهذا الشأن وقد دفعت الحدة زوجته بأن قالت له اذا لم يعطها نقوداً فلا ينتظر مناولة طعام الغداء في البيت وعلى هذا الوعيد خرج مؤكداً انها تتمم قولها بالفعل لانها لا تحول عن عزمها وسيان عندها ان رضي اولم يرض ثم نظر الى الرئيس المرسومة على محياه علامات البشر والسرور وقال في نفسه ما اسعدك ايها الرئيس وما ارغد عيشك انك لفي غبطة دائمة

وأنا المسكين اتراوح بين النكد والكدر

ثم دخل عليهما كاتب الجلسة وقدم للرئيس بعض الاوراق فشكره هذا على احضارها وسأله قائلا انه قضيه ننظرها اولا

فقال الكاتب اظن انكم توافقون على قضية « دس السم »

فاستحسن الرئيس نظر تلك القضية لانه كان يفتكر بانه يمكن انهاءها قبل الساعة الرابعة ثم يذهب توا لى نزل ايطاليا

فسأل الكاتب أيضاً ألم يحضر بالتري المسيو متى نيكيتش

— كلا

— والمسيو بريفه حضر

— نعم حضر

— اذن اخبره باننا سننظر قضية التسميم اليوم اما المسيو بريفه فهو احد وكلاء النيابة المعهود اليه حضور جلسة هذا النهار

خرج الكاتب من الغرفة فصادف في الدهليز وكيل النيابة بردائه الطويل متأبطاً محفظة أوراقه وسائراً بسرعة

فقال له : ان ميخائيل تروفتش مهد اني ان اسألك هل حضرتك مستعد لحضور الجلسة

فاجابه اني دائماً على استعداد تام ولكن ما هي القضية الأولى التي قررتم النظر فيها

— قضية التسميم

— فقال الوكيل لقد اصبتم المرمى وفعلتم حسناً باختياركم هذه القضية مع انه امتعض وتغيظ في نفسه ذلك لانه لم يذق طعم الكرى طول الليل وقضى

سهرته مع نفس كاتب الجلسة حيث ودعا صديقاً لهما سافر في آخر قطار من قطارات الليل وشربوا كثيراً ولعبوا اكثر في البليارو وسائر انواع الملاهي حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولم يكن عنده وقت للاطلاع على قضية التسميم ومراجعتها ولذا كان يفضل تأجيلها وصرف النظر عنها والكاتب نفسه كان يعلم تمام العلم بأن وكيل النيابة لم يطلع على أوراق القضية فأشار عمداً الى رئيس المحكمة بتقديمها على سائر القضايا وهذا الكاتب كان متصفاً بحب ذاته وبلغت منه الانانية مبلغاً عظيماً حتى أدت به الى التمسك بارائه والاعتداد بنفسه وتقديرها فوق ماهي وكان يكره الوكيل ويحسده على وظيفته

وفي هـذه الاثناء زاد ازدحام الناس ولغطهم وهرجهم وخصوصاً في الدهليز الواقعة فيه غرفة المحكمة المدنية حيث نظرت في هذا النهار قضية غريبة الشكل وعلى جانب عظيم من الاهمية وهي التي كان المحلف يقص حوادثها على زملائه في غرفة المحلفين

وفي اثناء استراحة الجلسة خرجت من المحكمة تلك السيدة التي ساعد محاميها الشريف المبدأ خصمها على اغتصاب اراضيها مع انه لم يكن له أدنى حق بخوله امتلاكها ورجال المحكمة انفسهم يعلمون ذلك ولكن الامور لايعلمها الا الله والراسخون في العدالة اتفقوا جميعاً على سلب تلك السيدة حقوقها واعطائها غنيمة باردة لخصمها وكانت هذه السيدة قد بلغت من العمر عتياً مرتدية افخر الملابس الثمينة على الزي الاخير وعلى رأسها قبعة مزدانة بالازهار الاصطناعية الساطعة وقد صادفت محاميها في الفسحة واقفاً فدنت منه وقالت له تلك العبارة التي اعادتها عليه مراراً عديدة متى تنتهي القضية ارجوك افراغ جهدك في المرافعة والاسراع في الحصول على النتيجة الحسنة »

فنظر المحامي الى ازهار بر نيطتها ولم يعر كلامها التفاتاً متظاهراً بانه لم يسمع حديثها متشاغلا بنظر بعض أوراقه

وعلى أثر العجوز خرج من غرفة المحكمة محامي خصمها الطائر الصيت البعيد الشهرة الذي لعب دوراً مهماً في هذه القضية وسلب تلك العجوز ماتمتلك لقاء عشرة الآف روبل قبضها من المغتصب الذي فاز بما تساوي قيمته مائة الف روبل

وعند ما أبصر الجمهور هذا المحامي الشهير الشامخ بانفه توجهت اليه ابصارهم وقالوا في نفوسهم انظروا الي عديم الاخلاص والذمه وقد قرأ نفسه تلك العباوة على وجوههم فقال في نفسه لا فرق عندي بما تقولون والاخلاص وعدمه عندي سيان واجتاز في وسطهم وسار الى جهة أخري فاراً من تلك الابصار الحادة الموجهة اليه

٧

واخيرا بعد ذلك الانتظار حضر عضو المحكمة متى نيكيتنش رجل نحيل الجسم مستطيل العنق ذوسيرة حميدة شريفة متخرج من احدى الكليات العالية ولم يكن فيه عيب سوى تعاطي المخدرات ومنذ ثلاثة أشهر توسطت له احدى الاميرات المظلة زوجته بظل حمايتها للحصول على مركزه ومن ذلك الحين استمر في الوظيفة وكان سروره بها عظيما لا يوصف

ثم أنه دخل غرفة المحلفين والقى على أنفه نظارته واخذ ينظر الي القوم وقال هل حضرتم جميعا أيها السادة !

فاجابه التاجر البشوش بالايجاب

فأخذ من جيبه دفترا ودعا جميع الاعضاء باسمائهم واحداً فواحداً

فانضم ان اثنين فقط متغيبان ثم قال لهم هاموا بنا الى غرفة الجلسة وسار امامهم فاقتفوا اثره وخرجوا الواحد بعد الآخر واجتازوا الدهليز حتى دخلوا غرفة الجلسة وهي غرفة كبيرة مستطيلة مقسومة الى قسمين احدهما يحتوى على مرتفع توصل اليه ثلث درجات وفى وسط هذا المرتفع طاولة مغطاة بجوخ اخضر ووراء الطاولة ثلاثة كراسي محكمة الصنع وعلى الحائط الايمن معلقة صورة السيد المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك وفي الجهة اليمنى منضدة وكيل النيابة وفى الجهة اليسرى طاولة كاتب الجلسة وبين هذا القسم والقسم المخصص لجلوس الجمهور حاجز وراءه مقعد مستطيل لجلوس المجرمين والمتهمين وفي جهة المرتفع اليمنى صفت عدة كراسي كبيرة للمحلفين وفي اسفل المرتفع مقاعد المحامين :

وفى القسم الثاني المنفصول عن الاول بحاجز من خشب كانت مقاعد الجمهور صفوفا وراء بعضها بجلس على احدها اربع سيدات يظهر انهن من عاملات المعامل او الخادمات ورجلان من طبقة العملة ويظهر ان رونق الغرفة وترتيبها اثر عليهم جميعا فكانوا يتكلمون فيما بينهم همسا

ثم دخل على أثر المحلفين حاجب المحكمة ونادى باعلى صوته متعمدا ارهاب الحاضرين

المحكمة قادمة :

فوقف الحاضرون اجلالا واحتراما لدخول القضاة واعضاء المحكمة ووكيل النيابة تحفهم العظمة والهيبة وعلى صدورهم الشرائط الحمراء والخضراء وكان منظرهم مهيبا اوقع الرهبة فى نفوس الجمهور وقد شعرت هيئة المحكمة بما لها من الرهبة والعظمة فأحنوا رؤوسهم واسرعوا بالجلوس على كراسيهم

المرتفعة وراء المشنبة المغطاة بالجوخ الأخضر وعليها ورق نظيف وأقلام رصاص مختلفة الالوان والحجم

امام وكيل النيابة فتناول في الحال من محفظته اوراق القضايا وأخذ يستعد للعمل دون ان تفوته دقيقة واحدة لانه كان حديثا في وظيفته وهذه هي المرة الرابعة التي تربع فيها على كرسي النيابة وكان مفطورا على حب الظهور بالصانه التهمة بالمجرمين وكان له المام قليل بقضية التسميم من وجهها العام بنى عليه خطابه الذي عزم على القائه في بدء الجلسة غير انه كان يلزمه بالحقيقة الاطلاع على دقائق الدعوى وخفاياه لايجاد البراهين التي تثبت اقتراف المجرمين الجريمة .

وأما كاتب الجلسة فكان جالساً في مكانه يحضر بعض الاوراق التي ستطلب المحكمة تلاوتها ثم اعاد قراءة تحقيق القضية التي طالعها بالامس عدة مرار وكان يود الآن المداولة بشأنها مع عضو المحكمة صاحب اللحية الطويلة الجالس بالقرب منه فضل مطالعتها مرة أخرى ليكون كلامه بشأنها صحيحاً مبنيا على حقائقها ودقائق أسرارها

٨

اطلع رئيس المحكمة على الاوراق المطروحة امامه وسأل الكاتب عدة اسئلة وعند ما اجابه عليها أمر باحضار المجرمين وفي الحال فتح الباب الواقع وراء مكان المسجونين ودخل منه جنديان شاهري سيفيهما يتبعهما مسجون اشقر اللون وامرأتان وكان الرجل مرتدياً لباس السجن الخشن المؤلف من اللباد العريض الطويل وملقياً يديه على جنبيه وعند دخوله لم يلتفت للقضاة والجمهور بل كان يسير سير المحترس حتى وصل الى آخر المقعد وجلس عليه

وعندذاك القى نظرة على رئيس المحكمة ثم دخلت على أثره امرأة كبيرة السن مرتدية أيضاً لباس السجن وقد لفت رأسها بمنديل من الكتان الابيض ووجهها ناصع البياض ليس فيه حواجب ولا رموش وعيناها شديدتا الاحمرار وكانت تظهر عليها علامات الهدؤ والسكينة وكانت هذه المرأة مع الرجل الذي دخل قبلها شريكا ماسلوفا في القضية لان المحكمة استنسبت احضارهما لمحاكمة الثلاثة معاً

ثم دخلت على أثرهما ماسلوفا وما وطئت اقدامها ارض الغرفة حتى توجهت اليها ابصار الرجال الذين لم يستطيعوا ان يحولوا انظارهم عن ذلك الوجه الجميل والعينين الحادتين والصدر الرحيب المختفي تحت رداء السجن العريض حتى ان الجندي الذي مرت بجانبه بقي موجها اليها حتى جلست

وعند ماجلس المتهمون التفت رئيس المحكمة الى كاتب الجلسة وادانة المتغيبين وتعيين الجزاء لقاء تغيبهم ثم ان الرئيس أخذ التذاكر المكتوبة عليها اسماء هيئة المحكمة ووضعها في حق من الزجاج ثم طلب الى الكاهن ان يحلف اعضاء المحكمة والمحلفون اليمين حسب العادة عندهم

فنهض الكاهن وهو رجل نحيف الجسم ذو وجه اصفر مكفهر وكان مرتديا جبة سوداء وعلى صدره صليب من خالص الذهب ووسام صغير وسار ببطء الى الجهة المعلقة فيها صورة السيد المسيح ثم أخذ الصليب بيده ولبس البطرشين

وتبعه المحلفون ووقفوا ازاءه فقال لهم الكاهن : ارفعوا جميعاً أيديكم اليمنى وضعوا اصابعكم الثلاثة الكبيرة فامتثلوا اشارته ثم قال لهم كرروا ماأقول

من الكلام وابتدأ : انى اعد واقسم بالله القادر على كل شيء امام انجيله المقدس وصليب الرب المحيي بانى لااحيد عن الحق في القضية (كذا) وبعد ان اقسم المحلفون اليمين طالب الرئيس منهم ان ينتخبوا لهم عميداً كجاري العادة فصدعوا بأمره وخرجوا فى الحال الى غرفتهم وما دخلوها حتى اخذوا يدخنون بلهفة ثم اختاروها جميعاً باتفاق الاراء أحدهم عميدا وعادوا الى غرفة المحكمة وجلسوا على كراسيهم واعلن المنتخب بانتخابه

ثم نهض رئيس المحكمة ووجه كلامه الى المحلفين واعلمهم بالحقوق المخولة لهم والواجبات الملقاة على عاتقهم وكان القاضي في أثناء القائه الخطاب لا يستقر على حال فكان يستند تارة على يده اليمنى واخرى على اليسرى وطورا على ظهر الكرسى وتارة على الطاولة ويتلاعب بالورق وقلم الرصاص الموجودين امامه

أما حقوق المحلفين حسب كلامه فهي انهم يستطيعون أن يسألوا المجرمين بواسطة الرئيس ولهم الحق بان يكون معهم ورق وقلم رصاص لكتابة ملحوظاتهم ويشاهدوا الادوات المهلكة التي استعملت للقضية وأما الواجبات الملقات على عاتقهم فهي انه يجب عليهم أن لا يحكموا كذباً وبهتاناً بل بالعدل والانصاف واذا ظهر فيما بعد مداخلة يد غريبة في الاحكام التي يصدرونها يعاقبون أشد العقاب

٩

وبعد ان انهى الرئيس خطابه التفت الى المتهمين ونادى قائلا : انهض يا سمعان كارتينكين

فنهض المذكور بسرعة وارتباك

— ما هو اسمك

— سمعان بتروف كارتينكين

— وما هي مهنتك

— فلاح خادم

— لاية ولاية ومركز تابع

— تابع لولاية تولا ومركز كرابيفينسكي ومن أهل بلدة بوركا

— كم سنة بلغت من العمر

— بلغت الرابعة والثلاثين لاني ولدت عام ١٨٠٠

— ماهى ديانتك

— ديانتي المسيحية الروسية الارثوذكسية

— أمتزوج انت

— كلا

— ماذا تشتغل

— اشتغل خادما في فندق «مافريتانيا»

— هل لك سوابق

— ابدا ولم احاكم طول حياتى لانى كنت عائشا عيشة هادئة

— الم تحاكم مطلقاً

— قلت لم احاكم ابداً ونجنا يالله من المحاكمة

— هل أخذت صورة من محضر التحقيق والاتهام

— نعم

— اجلس ثم دعا الرئيس المجرمة الاخري قائلا انهض يا ايفميا ايفانوفنا

بوتشكوفا فنهضت

ـ فسألها الرئيس ما اسمك فاجابت بان لها من العمر ثلاثة واربعين عاما وتشتغل خادمة في نفس فندق مافربتانيا ولم يكن لها سوابق وقد وصلتها نسخة من محضر التحقيق وقد اجابت بجسارة على جميع اسئلة الرئيس وجلست في نهايتها دون ان تنتظر من يقول لها اجلسي

ثم سأل الرئيس المجرمة الثالثة ماهو اسمك ولما رآها جالسة قال مبتسما بلطف وهشاشة قفي

فنهضت في الحال واستعدت للاجابة ووجهت بصرها الحاد الخارج من عينيها السوداوين الى الرئيس الذي اعار سؤاله عن اسمها فاجابته كانوا يسمونني ليوبوف

وفي هذا الوقت وضع نيكيليدوف نظارته وكان يسمع باصغاء تام الاسئلة الموجهة الى المجرمين

ـ فقال الرئيس ان اسمك خلاف ذلك

ـ فصمتت ولم تجب بشيء

ـ فقال لها الرئيس انى أسألك عن اسمك الآن وقال أحد اعضاء المحكمة ماذا سميت عند العماد

ـ سميت كاتربنا

وهنا بغت صاحبنا نيكيليدوف وكأن صاعقة وقعت على رأسه فانه عرف بأن هذه المجرمة هي بنفسها تلك الفتاة ربيبة عمته التي كان مشغوفا بحبها وان الحب الحيواني قاده الى اغرائها ثم تركها حليفة العار والشنار وانه نسيها ولم تخطر على باله ذلك لان ذكراها ثقيلة عليه تسبب له عذاباً داخلياً وضميره يبكته

بكيتا شديدا وقد تأكد الان بان الجريمة التي اقترفها معها من أعظم الجرائم التي لاتغتفر وعرف بانه المسبب الوحيد في القائها بوهدة التعاسة ووقوفها مع المجرمين للمحاكمة على اشنع حالة واحط منزلة

ثم قال رئيس المحكمة لماسلوفا كان ينبغي من بادىء الامر ان تجيبي عن اسمك هذا ثم قال وما هي كنيتك

— ليس لي كنية لاني ولدت سفاحاً

— لا بأس من ذلك ولكن ماهي كنيتك حسب اب العماد

— ميخايلوفنا ماسلوفا

— ماهو مذهبك

— اني ارثوذكسية

— ماذا تشتغلين

— فصمتت ماسلوفا ولم تبد جواباً

— فاعاد عليها الرئيس السؤال قائلا ماذا تشتغلين

— فاجابته انك تعرف ما أشتغل وابتسمت ثم التفتت الى الجمهور ورشقتهم جميعاً بسهام لحاظها وكان لجوابها هذا تأثير محزن في نفوس بعض السامعين حتى ان الرئيس نفسه اطرق مليّاً ولم يطلب منها زيادة ايضاح عن شغلها بل قال لها هل لك سوابق وهل حوكمت قبل الآن

— فقالت بصوت خفيف كلا

— هل بلغت صورة من محضر التحقيق

— نعم

— فامرها الرئيس بالجلوس فجلست

ثم حضر الشهود واحداً فواحداً وطلب الرئيس تقرير الطبيب بشأن القضية ثم امر باحضاره بالذات للمحكمة ونهض على اثر ذلك سكرتير الجلسة وتلا اوراق القضية بصوت جهوري على مسمع الجمهور لكنه كان يسرع بالقراءة سرعة زائدة حتى انه كان يخلط بلفظ حرفي الراء واللام اما القضاة فقد استولى عليهم الخمول اثناء القراءة فكانوا تارة يستندون على اليد اليمنى وطورا على اليسرى واخرى يلقون ظهورهم على مساند كراسيهم او يتكئون على الطاولة وتارة يطبقون عيونهم واخرى يفتحونها وطورا يهمسون مع بعضهم

اما نيكيليدوف فكان جالسا على مقعده بنظارته الذهبية موجها نظره الى ماسلوفا ولم يحده عنها لحظة واحدة

١٠

اما ملخص اوراق القضية التي قرأها الكاتب فكان كما يأتي

في اليوم السابع عشر من شهر يناير عام ١٨٠٠ توفي بخانة في نزل مافريتانيا احد المسافرين النازلين به وهو التاجر ثيرابونت لميليا نوفيتش سميلكوف وقد كشف عليه طبيب القسم الذي قرر ان سبب وفاته هو انفجار القلب الناجم عن ادمان تعاطي المشروبات الكحولية بكميات وافره ثم اودعت جثته الرمس

غير انه بعد وفاته بعدة أيام عاد من بطرسبرج رفيقه ووطنيه التاجر تيموخين الذي لما علم بوفاته فحص كثيرا عن سببها فوقف على دقائقها واسرارها فكتب في الحال بلاغا للنيابة قال فيه ان وطنيه سميلكوف مات مسموما وسلبت دراهمه

فاهتمت النيابة ببلاغه وحققته فظهر لها صدقه بناء على ما يأتي (اولا)

ان المتوفي سليمكوف قبض قبل وفاته ببرهة يسيرة ٣٨٠٠ روبلا فضياً من البنك مع انه عندما ضبطت الحكومة موجوداته وحفظتها عندها لتسلمها الى ورثته وجدت فقط في صندوقه ٣١٢ روبلا و ١٦ كوبيكا (ثانياً) ان المتوفي قضى اليوم الذي سبق وفاته وطول ليلته مع الصبية ليوبكا (كاترينا ماسلوفا) احياناً في غرفتها واحياناً في منزل مافريتانيا وانه عندما كان موجوداً في غرفتها سلمها مفتاح صندوقه وارسلها الى المنزل لكي تحضر له نقوداً وانها فتحت الصندوق بحضور خادمة المنزل ايفيميا بوتشكوفا وسمعان كارتنكين الخادم وانهما ابصرا في الصندوق اوراقا مالية تساوي قيمة الواحدة مائه روبل (ثالثاً) عندما عاد سميلكوف الى المنزل من غرفة ماسلوفا عادت هذه معه وعندما دخل غرفته سقته ماسلوفا باشارة الخادمين كاساً من الكنياك ذرت فيه مسحوقاً ابيضاً اعطاه لها الخادم « رابعاً » في اليوم التالي لوفاته باعت ماسلوفا اصاحبة البيت المقيمة عندها وهي احدى شهود القضية خاتم سميلكوف الماسي مدعية بانه أهداه لها « خامساً » ان خادمة المنزل ايفيميا وضعت في البنك العقاري المحلي لحسابها الجاري ١٨٠٠ روبلا فضياً وفوق ذلك فالحكومة فتحت ضريح المتوفى وشرحت جثته وحللت امعاءه تحليلا كيماوياً فظهر السم كالعيان وتحققت الحكومة ان وفاته ناجمة عن دس السم له ولكن الذين اتهمتهم النيابة باقتراف الجريمة وهم سمعان وايفيميا وماسلوفا انكروا كل الانكار ودافع كل عن نفسه دفاعاً يبرئه من التهمة واليك دفاع ماسلوفا : اجابت بالايجاب بان التاجر سميلكوف ارسلها لغرفته في المنزل لكي تحضر له نقوداً وانها فتحت صندوقه بالمفتاح الذي سلمه لها هو نفسه وقد اخذت فقط اربعين روبلا كما امرها ويشهد بذلك سمعان وايفيميان اللذان ابصراها عندما فتحت

وقفلت الصندوق ثم انها عند ماعادت للمرة الثانية مع التاجر الى النزل ودخلت معه غرفته قدمت له فعلا حسب اشارة الخادم كأسا من الكنياك وذرت فيه مسحوقا أبيض أعطاها اياه الخادم مؤكدا لها بأن هذا المسحوق يعجل بتنويم التاجر المتعلق بها وانه عند ماينام تعود بسرعة الى غرفتها لانها كانت تروم التخلص منه ثم قالت وان التاجر نفسه أهداها خاتمه أثناء وجوده عندها في النهار حيث ضربها ضربا مؤلما بكت على أثره بكاء شديدا وتوعدته بالانصراف من عنده وعدم السماح له بزيارتها مرة أخرى فاستعطفها واسترضاها باهدائه الخاتم لها كفارة عن الضرب

أما ايفيميا برتشكوفا فاجابت انها لا تعلم شيئا عن النقود المفقودة وانها لم تدخل مطلقا غرفة التاجر لان ليوبكا وحدها كانت تقوم بخدمته واذا فقدت بالفعل نقود فلم يأخذها أحد غير ليوبكا عند ما فتحت صندوقه

وعند هذه النقطة انتفضت ماسلوفا وفتحت فاها ونظرت الى بوتشكوفا

ثم استطرد الكاتب القراءة فقال وعند ماسئلت ايفيميا عن مبلغ ١٨٠٠ روبل الفضية التي وضعتها في البنك ومن أين أتاها هذا المبلغ الجسيم اجابت انها اقتصدتها مع كارتينكين في مدة اثني عشر عاما وعقدا اتفاقا على الزواج

ثم ان كارتينكين اعترف في التحقيق الابتدائي بانه سرق نقود التاجر مع بوتشكوفا وماسلوفا وذلك عند ما قدمت هذه وفتحت الصندوق وأخذت له منه ٤٠ روبلا وانهم اقتسموا المال ثلاثتهم فانتفضت أيضا ماسلوفا ونهضت بسرعة واحمر وجهها وأرادت أن تتكلم غير أن رئيس المحكمة أوقفها عن الكلام

ثم استأنف الكاتب القراءة فقال واعترف ايضا كارتينكين فانه اعطى ماسلوفا المسحرق لتذره فى الكنياك ولكنه عند سؤاله في المرة الثانية أنكر كل الانكار اشتراكه فى سرقة النقود واعطائه المسحوق لماسلوفا وأدانها وحدها بارتكاب الجريمة واجاب كما أجابت بوتشكوفا عن النقود المودوعة فى البنك وقال انه اقتصدها معها بمدة اثني عشر سنة وذلك مما كان يكافئها به المسافرون لقاء خدمتهما لهم

واختتم الكاتب القراءة بالنتيجة الآتية :

بناء على ماذكر أعلاه ثبتت ادانة سمعان كارتينكين أحد فلاحي بلدة بوركا البالغ من العمر ٣٣ عاما والفلاحة ايفيميا بوتشكوفا البالغة من العمر ٤٣ عاما وكاترينا ميخايلوفنا ماسلوفا البالغة ٢٧ عاما وبما انون لانهم فى اليوم السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٨٥ اتفقوا جميعا على سرقة النقود وخاتم التاجر سميلكوف البالغة قيمتها ٢٥٠٠ روبلا ودسوا له السم عمدا بقصد اماتته

وانه بموجب المواد ٤ و٥ و١٤٥٣ من قانون الجزاء وأيضا بناء على المادة ٢٠١ تقررت محاكمتهم أمام محكمة الجنايات الكبرى بحضور قضاة التحقيق والمحلفين

ولما أنهى الكاتب قراءة مضمون الدعوى الطويل طوى الاوراق وجلس في مكانه وأصلح بيده شعره الطويل

وتنفس الجميع الصعداء وسرى عنهم وبدت على وجوههم ملامح السرور وقالوا فى انفسهم ستبدىء المحاكمة ويأخذ العدل مجراه الحقيقي

غير ان نيكليدوف وحده لم يشعر بهذا الشعور لانه كان مضطربا اضطرابا شديدا ووقع عليه خوف عظيم وقال ماذا حل بماسلوفا التي عر

منذ عشرة أعوام فتاة طاهرة لم تجن اثما وكانت على جانب عظيم من الظرف والكياسة .

١١

ثم تشاور رئيس المحكمة مع الاعضاء والتفت الى كارتينكين بعبارة تدل على انه يزعم بأنه ستنكشف له الحقيقة على أسهل طريقة ثم دعاه وأمره بالنهوض فنهض المذكور والقى يديه على جانبيه ولبث ينتظر مايسأل عنه

فقال له الرئيس انك قد ارتكبت جريمة فظيعة لانك فى ١٧ يناير عام ١٨٨٥ باشتراك ايفيميا ماسلوفا سرقت من صندوق التاجر نفوده ثم أحضرت سليمانى واعطيته لماسلوفا واقنعتها بان تذره فى الخمر وتسقيه للرجل الذي مات من تأثير السم فهل تعترف باقتراف هذه الجريمة وانك جان

لم يخطر على بالي هذا الامر ولم اقترف هذه الجريمة لان شغلي الوحيد هو خدمة الضيوف فقط .

— ستقول فيما بعد ولكن هل تعترف بأنك جان

= لم اقترف جريمة . طلقا ...

— سنجيب فيما بعد ولكن هل تعترف بانك جان !

— لم أقترف جريمة . طلقا وانما فقط .

وأراد أن يقول شيئا لكن احد أعضاء المحكمة اوقفه عن الكلام

ثم دعا الرئيس ايفيميا وامرها بالنهوض فنهضت وقال لها تدانين الان لانك فى ١٧ يناير عام ١٨٨٥ سرقت مع كارتينكين وماسلوفا نقود التاجر سمليكوف وخاتمه من صندوقه في فندق مافريتانيا واقتسم المسلوب بينكم بالسواء ولكي تخفوا جريمتكم دسّتم له السم ومات على اثره فهل تعترفين

بذنبك هذا ؟

فاجابت بجسارة وجراءة انى لست مذنبة بشيء فلم ادخل غرفته ولكن عندما دخلت الشريرة اقترفت تلك الجريمة

فاعاد عليها السؤال اذا لا تعترفين بذنبك

— انى لم اسرق النقود ولم أدس السم ولم ادخل الغرفة ولو كنت عند ما فتحت الصندوق لمنعتها عن السرقة

— فكرر عليها ثالثاً اذا لا تعترفين بذنبك ؟

— كلا

— جيدا جدا

— ثم قال الرئيس للمجرمة الثالثة انت تحاكمين الآن لانك عند ما دخلت غرفة التاجر سميلكوف في فندق مافريتانيا ومعك مفتاح صندوقه سرقت منه جميع النقود والخاتم واقتسمت المسلوب مع الخادمين وانك عند ما عدت للنزل للمرة الثانية قدمت للتاجر خمرا ممزوجا بالسم فمات على اثره فهل تعترفين بذنبك ؟

— انى لست مذنبة بشيء ابداً كما قلت اولا واعيد قولى الان اني ما أخذت ما أخذت ما أخذت ولم اخذ شيئاً واما الخاتم فقد أهداه لى هو بنفسه

— فقال لها الرئيس الا تعترفين بانك سرقت ٢٥٠٠ روبل

— قلت اني لم آخذ شيئاً غير ٤٠ روبلا

— افلا تعترفين ايضا بانك دسست السم للتاجر سميلكوف

— اعترف بهذا الامر ولا أخشى فيه لومة لائم وانما اؤكد لحضرتكم انى كنت معتقدة بان المسحوق مخدر فقط ولا ينجم عن استعماله

ضرر مطلقا كما اكدوا لي ذلك ولو علمت انه سم زعاف لما اقدمت على اعطائه اياه اقول ذلك والله شاهد على ما اقول

قبلنا منك ذلك قال هذه الجملة بلهجة اظهر منه سروره بالنتيجة واطلب منك الان ان تخبرني بتفاصيل الحادثة واما توخي الصدق في الاخبار لان اقرارك يخفف عنك العقاب ويحسن حالتك

— فصمتت ولم تبد جوابا غير التفرس بوجه الرئيس

— اخبرني تفاصيل الحادثة كما وقعت

— لا ادري ماذا اقول :

قدم الرجل الى الفندق واحضروني الى غرفته وكان موجودا بها في حالة السكر الشديد فلما رأيته على تلك الحالة عزمت على الرجوع لكنه تعلق بي ولم يتركني فبقيت عنده مدة ثم رجعت الى غرفتي وعند ذلك رفع رئيس النيابة رأسه وعزم على الكلام

فقال رئيس المحكمة اذا كنت تريد ان تسألها فاسألها فاجاب النائب نعم اريد ان اعرف منها هل كان لها سابق معرفة بالتاجر سيلكوف قبل هذه المرة

فسألها رئيس المحكمة هذا السؤال فاجابت نعم اعرفه قبل هذه المرة

ثم قال وكيل النيابة اذا اريد ان اعرف هل المجرمة تعرف الخادم كارتينكين من قبل وهل رأيته مرارا عديدة

فاجابته ماسلوفا نعم اني اعرفه منذ امد بعيد لانه كان يدعوني كثيرا الى بعض النازلين في النزل

فقال ايضا وكيل النيابة واريد ان اعرف لماذا كارتينكين كان يحضر ماسلوفا للنازلين في الفندق ولم يحضر غيرها من الصبايا والنساء

فقالت ماسلوفا هذا امر لا اعرفه وانى لي معرفة ذلك ثم التفتت نحو الجمهور ورشقت نيكيليدوف بسهم من لحاظها واردفت قولها ان كارتينكين كان يدعو من يشاء ومن الجملة انا وقد كنت البي دعوته

واذ ذاك شعر نيكيليدوف بان العرق يتصبب من جسمه وقال : هل معرفتي يا ترى مع انها لم تميزه عن غيره

ثم قال الرئيس لماسلوفا وماذا جرى لك مع التاجر بعد ذلك

فقالت عدت الى غرفتي وصعدت على سريري ونمت نوماً ثقيلا لانى كنت تعبة منزعجة ولكن بعد برهة يسيرة سمعت خادمتنا بيرتا توقظني وقالت انهضي لان التاجر حضر وهاهو هنا بانتظارك فسرت اليه من غير ارادة واراد ان يبتاع خمرا فلم يجد معه نقوداً فارسلني الى المنزل وسلمني مفتاح صندوقه بعد ان اخبرني عن مكان وجود الدراهم فامتثلت قوله وعملت باشارته ولكني لم ادخل غرفته وحدي بل دعوت كارتينكين وبوتشكوفا فقاطعتها بوتشكوفا بقولها كذبت كذبت ولكن اوقفوها عن الكلام

فقالت ماسلوفا واخذت بحضورهما ٤٠ روبلا فارقفها وكيل النيابة وقال لها عندما أخذت الاربعين روبلا الم تعرفي كانت كم كل النقود الموجودة

فامتعضت ماسلوفا لدى هذا السؤال وظهر على وجهها الكدر وافتكرت بان وكيل النيابة يصادرها ويريد لها الضرر

فاجابت اني لم اعد الدراهم وانما رأيت أوراقاً تساوي قيمتها ١٠٠ روبلا

ثم نظر رئيس المحكمة الساعة وقال لها هل احضرت له الدراهم ؟

— نعم أحضرتها

وماذا جرى بعد ذلك ؟

— عندما عاد الى الفندق استصحبني معه

— وكيف ذررت له المسحوق في الخمر الذي قدمته له ؟

— ذررته في الكاس وقدمته له فشربه

— لماذا سقيته خمراً ؟

— فتنفست الصعداء واطرقت ملياً ثم قالت انه كان لا يريد ان يفارقني ويطلق سراحي وقد تحملت منه تلك الليلة وذلك النهار مر العذاب فخرجت خلسة من غرفته وقلت لكارتينكين اني تعبت جداً واريد الانصراف وهو لا يريد ان يترك سبيلي فما العمل فاجابني انه أيضاً حملني من الاتعاب والسهر اكثر مما حملك ونحن عزمنا على اعطائه مسحوقا اذا تناوله ينام حالا فاستحسنت ذلك وانا معتقدة بان هذا المسحوق عديم الضرر

وقد اعطاني المسحوق داخل ورقة فدخلت غرفة التاجر الذي لما أبصرني أمرني بان أقدم له كاسا من الكونياك فأخذت من الطاولة زجاجة شمبانيا وملأت كأسين له ولي وذررت في كاسه ذلك المسحوق وقدمته له ولو علمت ما هو لما قدمته له

— فسألها الرئيس أيضا وكيف ظهر فيما بعد خاتمه معك ؟

— انه هو بنفسه اهداني الخاتم

— متى أهداه لك

— عندما وصلت معه الى غرفته

— أردت الانصراف فتكدر مني وضربني على رأسي بالمشط فانكسر فتكدرت واردت الانصراف فنزع خاتمه من اصبعه ودفعه الي ليسترضيني فالتفت رئيس النيابة الى رئيس المحكمة واستأذنه بسؤال المجرمة عدة

سماله فاذن له فقال سائلا ماسلوفا

كم من المدة صرفت في غرفة سميلكوف

— لا أتذكر تماماً

— عندما خرجت من غرفته ألم تذهبي الى غرفة أخرى في نفس المنزل

— نعم دخلت غرفة غير مفروشة واقعة بجوار غرفته

— لماذا دخلت هذه الغرفة

— كنت أنتظر فيها قدوم الحوذى

— عندما كنت فيها هل دخل عليك كارتينكين أم ..

— نعم دخل

— لماذا دخل

— دخل الي لنشرب معاً الكونياك الذي بقي في زجاجة التاجر

— ماذا حادثته أثناء وجوده معك في الغرفة فظهر عليها الكدر واحمر وجهها احمراراً شديداً وقالت ما قلته قبلا فيه الكفاية لكم واكثر من ذلك لا أعلم شيئاً وافعلوا بي ما تريدون أن تفعلوا واني لست بمذنبة بشيء مطلقاً ولم أتكلم مع كارتينكين بشيء وقد أخبرتكم مفصلا بما جرى

ثم قال وكيل النيابة للرئيس قد انهيت أسئلتي ثم جعل يكتب بقلم الرصاص بعض ملحوظاته

وعلى أثر ذلك ساد السكوت في المحكمة ثم قال الرئيس لماسلوفا هل تريدين أن تقولى شيئاً أيضاً أم لا

فقالت لم يبق لدي ما أقوله وجلست

وعلى اثر ذلك كتب رئيس الجلسة بعض الملاحظات في دفتره ثم مال جهة اليسار لسماع كلام أحد الاعضاء الجالس في هذه الجهة وبعد ان تهامسا أعلن الرئيس ايقاف الجلسة مدة عشرة دقائق للاستراحة ونهض بسرعة وخرج من الغرفة

فخرج على أثره الاعضاء ووكيل النيابه والمحلفون والمحامون والشهود أما نيكيليدوف فسار تواً الى غرفة المحلفين وجلس ازاء احدى نوافذها وتراكمت عليه الهواجس وأخذ يضرب اخماساً لاسداس وقال في نفسه نعم هي كاتيوشا بعينها

١٢

تقدم لنا وذكرنا باختصار كيف ان نيكيليدوف أغرى ماسلوفا ولكن لا بد لنا الآن من ذكر ذلك مفصلا حتى يكون القراء على بينة من ذلك

ان نيكيليدوف أبصرها لاول مرة عند ما ذهب لزيارة عمتيه ابان المساحة المدرسية وكان اذ ذاك تلميذاً في السنة الثالثة باحدى الكليات العالية وكان مطلوباً منه أن يضع رساله ضافية يصف فيها حالة الاراضي في روسيا وامتلاكها واختصاصها

وكانت عادته أن يقضي مدة المساحه مع شقيقته ووالدته في املاكها الواقعة بجوار موسكو ولكن حدث في هذا العام ان شقيقته تزوجت ووالدته سافرت الى أوروبا للاستحمام بالمياه المعدنية وكان مطلوباً منه في الامتحان الكتابي «التحريري» أن يضع التأليف الذي ذكرناه فعزم على تمضية الصيف عند عمتيه حيث الهدو والسكينة فلا غوغاء ولا ضوضاء ولا ملاجي تقعده عن القيام بذلك التأليف وفوق ذلك فعمتاه كانتا تحبانه محبة شديدة

تقرب من العبادة لانه من جهة ابن شقيقها لوحيد ووارثها العتيد ومن جهة أخرى فان محبته لهما لم تكن تنقص عن محبتهما وغير ذلك فانه كان يحب حالة عمتيه الباقية على الطرز القديم مع بساطة معيشتهما وبعادهما عن التأنق .

وفي هذا الصيف فقط داق نيكيليدوف طعم تلك الحالة السعيدة المسرة وهي عنا ما يرزق الشاب لاول مرة في حياته بنفسه جمال وأهمية الحياة دون ان يرشده اليها احد ويرى أيضاً معظم العمل الملقى على عاتق الانسان فى هذه الحياة ويدرك ايضا كمال وجوده وكمال العالم الغير المدرك العديم النهاية والبعيد المثال ويوجه قوته للحصول على هذا الكمال بعزم ثابت دون تعلل مؤكداً أنه لابد من ارتقاء قمة ذلك الكمال الذي يجول فى مخيلته

ثم انه طالع في هذا العام كتب سنسمر وارآءه الاشتراكية بشأن امتلاك الاراضي وقد تأثر من مطالعتها تأثيراً شديداً لانه كان ابنا لوالدة تمتلك الاطيان الشاسعة التى لا تقل مساحتها عن ٢٠ الف فدان وأما والده فكان وسطا في ماليته ولقد أدرك اذ ذاك عدم العدالة بتفرد فريق من الناس بامتلاك الاراضى دون غيرهم واذا كان عنده استعداد تام ليكون واحدا من أولئك الرجال الذين يعدون تضحية المال والعقار في سبيل المساواة والواجبات الادبية لذة سامية روحية عزم على عدم التفرد بامتلاك الاطيان والانتفاع بها وقد أخرج فكره هذا من حيز القول الى حيز الفعل فوزع الاطيان التى ورثها عن ابيه على الفلاحين بالسواء وبهذا الموضوع وضع الرسالة المطلوب منه تأليفها للامتحان

وأما عيشته عند عمتيه فكانت على الترتيب الآتى

كان يستيقظ من النوم باكراً جداً وأحياناً عند الساعة الثالثة صباحاً وقبل شروق الشمس كان يقصد النهر الجاري في أسفل الجبل للاستحمام بمائه ويرجع وسط الضباب الكثيف وحباب الندى لم يزل على الاعشاب والازهار .

وبعد ان يتناول القهوة يجلس للكتابة أو مطالعة التأليف لكي يستمد منها المواد لتأليفه وأحياناً آخرى كان يترك الكتابة والمطالعة ويسير على رجليه متجولاً في الحقول الخضراء والغابات الملتفة الاشجار

وكانت له عادة ان ينام قبل الغذاء في حديقة البيت وعند مناولة الطعام يندم عمتيه ويلقي عليهما من بديع النوادر وضحكات القصص مايزيل عنهما الهم والغم ويجلب لهما السرور والطرب وبعد الطعام برهة يتمطى صهوة جواده ويخرج للنزهة او يركب زورقاً يخوض به عباب النهر ويجذف هو بنفسه وعند المساء كان تارة يطالع وأخرى يجالس عمتيه

وكثيراً ما كان يستولي عليه الارق في الليل فلا يذوق جفنه طعم الكرى وخصوصاً في الليالي التي اعتراه ذلك لانه كان يحتبر عيشة الابتهاج المشتعلة في نفسه حديثاً فكانت تقوده هواجسه وأفكاره الى الحديقة حيث يظل فيها حتى الصباح

على هذا المنوال قضى الشهر الاول عند عمتيه غير موجه أقل التفات لكاتيوشا الرشيقة المركبة ذات العينين السوداوين الجميلتين

ان نيكليدوف الذي تربى تحت كنف والدته بلغ من العمر ١٩ عاماً لم يعرف فيها فساداً بل كان لم يزل شاباً ذا عفة واستقامة ولم يرتكب محرماً وافكاره من جهة المرأة كانت نقية سليمة وأنه سيختار أحداهن زوجة له وكانت جميع

نساء اللواتي لا يصلحن على رأيه ان يكن زوجات له في نظره كسائر الناس لا فرق عنده لهن أبداً

ولكن حدث في يوم عيد الصعود زارت عمتيه جارتهما برفق اولادهما وهم آستان وشاب من تلامذة احدى الكليات ومعهم ايضاً شاب مصور من الفلاحين جاءهم ضيفاً

وبعد ان تناولوا الشاي خرجوا جميعاً الي حقل مقصود واقع بالقرب من البيت وأخذوا جميعاً يمرحون ويلعبون لعبة يجري فيها الواحد ويتأثره آخر للقبض عليه واشتركت كاتيوشا في هذه اللعبة وبعد ركض نيكليدوف خلف اللاعبين ركض مرة خلف كاتيوشا وأمسكها وكان يسر جداً برؤياها ولكنه لم يخطر بباله بان تتوطد بينهما عرى المودة ويجري ما لم يكن في الحسبان .

ثم ركض خلف كاتيوشا المصور فلم يدركها وأشارت في أثناء ركضها باحدى عينيها الى نيكليدوف بان يجري وراءها ويقابلها وراء الشجيرات الواقعة في طرف الحقل ففهم اشارتها وطار نحو الجهة المقصودة لكنه عثر ووقع في ساقية لم يعهدها في ذلك المكان ولكنه نهض حالاً واستقبل كاتيوشا التي دنت منه وقبض على يديها وركضا معاً ثم وقفا وانتزعت يدها من يده وأصلحت ثيابها ثم دنا صاحبنا منها ومد رأسه نحوها فلم تبتعد عنه فقبض على يديها وضغط عليها بشدة وقبل شفتها قبلة حارة فقالت ما شاء الله ! ....

وسحبت يدها من يده وابتعدت عنه واقتربت من شجيرة وأخذت منها غصناً صغيراً مكسو بالورق وأخذت تروح بها على وجهها المحمر الذي كاد الدم يفيض منه ثم رشقته بنظرة حادة وأسرعت نحو اللاعبين

ومن هذا العهد انقلبت علاقات نيكليدوف وكاتيوشا وأصبحت كتلك العلاقات التي تحدث بين الشاب الحديث الطاهر وبين الفتاة الطاهرة اذا تعلقا ببعضهما وعندما كانت تدخل عرفته بعيد حادثة القبلة أو يرى ولو من بعيد رداءها الابيض يشعر بنور ساطع كأنه نور الشمس يحيطه ويخفق فؤاده وتضطرب حواسه كأن مرأى كاتيوشا أسلاك كهربائية تدب في جسمه فتكهربه وتدب فيه شعوراً لطيفاً وسروراً وابتهاجاً فيشعر بسعادة عظمى لم يذق طعمها من ذي قبل وكانت هي نفسها تشعر مثل شعوره فتضطرب لدى رؤياه وتحمر وجنتاها وتطرق حياء وخجلا فأصبحت شغله الشاغل وموضوع تأملاته وقبلة سعادته وآماله حتى انه اذا حدث ما يكدره اذا ورده كتاب مكدر من والدته أو ارتج عليه معنى في تأليفه فانه بمجرد افتكاره بها تزول عن فؤاده الهموم كأنها سحابة صيف تنقشع بسرعة زائدة

وكانت ملقاة على عاتق كاتيوشا أشغال البيت جمعها ومهامه غير أنها كانت تنهيها بسرعة وتجلس في أوقات الفراغ لمطالعة الكتب والروايات وقد أعطاها نيكليدوف كتباً من مؤلفات دوستويفسكي وتورگينيف فكانت تجد في قراءتها لذة عظمى

وكان العاشقان يتحادثان قليلا جداً عما يتصادف في دهليز البيت أو على طنفه (البالكون) وأحياناً كانا يجتمعان في غرفة وصيفه عمتيه العجوز ماترينا بافلوفنا التي كانت تنام عندها كاتيوشا فكان صاحبنا عند ما يعلم بوجودها في غرفة العجوز يذهب توا اليها متظاهرا بزيارتها لشرب الشاي عندها وكانا يسران جداً بالحادثة أمامها واذا خرجت من الغرفة وخلا لهما الجو تتغير حالتهما ويستولي عليهما السكوت وتنوب العيون عن الالسنة وتتكلم كلاماً أهم

جدا من الكلام الذي تطارحاه بحضرة العجوز على حد قول القائل :

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

ودامت هذه العلاقات بينهما منذ اصطياف نيكيليدوف أول مرة عند عمتيه حتى انهما لحظتا ذلك وخافتا سوء العاقبة وحملهما خوفهما الى الكتابة بهذا الشأن لوالدته في الخارج الاميرة هيلانه ايفانوفنا لكن خوفهما كان في غير محله لان حبه لها كان حباً طاهراً نقياً كما يحب الناس الصالحون بعضهم أو كما يحب الشقيق شقيقته محبة زائدة فلا يطيب له العيش بدونها ولم يكن يخطر على باله الحب الجسدي بل كان يعتقد ان حبه لها هو حاجز حصين يحول دون سقوطهما معاً

ولكن عمته صوفيا كانت تعلم ما هو عليه ابن شقيقها من العناد والعزم الثابت الذي لا يتزعزع فخشيت من أنه اذا تعلق بها يتزوجها لا محالة وفي ذلك ما فيه من الحط بكرامته لما بينهما من الفرق الشاسع في علو المنزلة وكاتيوشا كما يعلم القراء لا أصل لها ولا فصل

ولو ان نيكيليدوف عرف محبته من قبل لكاتيوشا أو لو منعته عمتاه عن محبتها وأقنعتاه بانه لا يسوغ له التزوج بها لكان من أسهل الامور حدوث هذا الامر الذي يقدم عليه بالفعل لعدم وجود أسباب مهمة تمنعه من التزوج بها مهما كانت حالتها ولكن عمتاه لم تظهرا له مخاوفهما فسافر دون أن يدرك كنه محبته لكاتيوشا فانه كان معتقد بان ميله لها ماهو الا من مظاهر الحياة الجميلة التي ملأت حواسه وحسنت حالة وجوده بما كان يصادفه من السرور والهناء وطيب العيش

فلما سافر خرجت مع عمتيه لوداعه وشيعته بعينيها السرداوين المغرورقتين

بالدموع وقد شعر هو نفسه بأنه يفارق شيئاً ثميناً عزيزاً جميلا لا يمكنه لقاؤه فيما بعد أو العثور عليه فانقبضت نفسه وضاق صدره

وقال لها الوداع يا كاتيوشا أشكرك على كل شيء فأجابته بصوت رخيم لطيف كادت تخنقه العبرات وحاولت امساك دموعها ضمن عينيها ودخلت بسرعة وانزوت في مكان واستسلمت للبكاء والنحيب

١٣

مرت على نخليدوف ثلاثة أعوام لم ير في أثنائها كاتيوشا ولكنه بعد ان ترقى في الجندية ونال رتبة ضابط عرج في سفره الى العسكر على عمتيه وقد انقلبت حالته انقلاباً بينا فلم يكن ذلك الذي عرفناه قبل ثلاثة أعوام

فانه كان اذ ذاك فتى شريف حميد السيرة شهماً يضحي حياته في سبيل فعل الخير وأما الآن فقد أصبح رجلا مفسوداً متهتكا محباً لنفسه وملذاتها

حينئذ كان ينظر العالم مملوء بالاسرار ويجتهد بسرور لاماطة النقاب عنها وأما الآن فكان يظهر له كل شيء بسيطا اعتياديا ويجتهد لتطبيق حالة الحياة على مايوافق مشربه وهواه حينئذ كان يهمه الاتحاد بالطبيعة والناس العائشين فيها وأصحاب الأفكار السامية والشعور الحي الحاضرين والسابقين (الفلاسفة والشعراء) وأما الآن فلا يهمه سوى اختراعات الناس والاجتماعات برفاقه وصحبه حينذاك كانت المرأة في نظره شخصا سريا لطيفا وأما الآن فانكشف له سر المرأة واضحت في نظره ما عدا نساء أقاربه وأصدقائه من أحسن أدوات الملذات

حينذاك لم يكن محتاجا للمال وكان بامكانه الاكتفاء بثلث ما تقدمه له والدته لنفقاته وكان في امكانه أن يتنازل عن الاطيان التي ورثها عن أبيه

ويوزعها على الفلاحين وأما الآن فلا يكفيه المرتب الذي يتناوله كل شهر من والدته البالغ ١٥٠٠ روبل حتى انه حدث بينهما شقاق بسبب المال

حينذاك كانت نفسه طاهرة شفافة تميل الى الوجود الادبي الروحي وأما الآن فأهم شيء لديه حصوله على الصحة والعافية والنفس الحيوانية

وكل هذا الانقلاب الفجائي طرأ عليه لانه انقطع عن تصديق نفسه والاعتماد عليها وجعل يصدق الآخرين ويعتقد بكلامهم عين الصواب وتفس الحق والصدق لان الحياة بالاعتماد على نفسه وتصديقها كانت له من أصعب الامور لانه كان اذ ذاك يحل كل مسألة بنفسه حلا لا يوافق النفس الحيوانية التي لا تطلب سوى المسرات السهلة المنال بل كان يحلها حلا يوافق النفس الادبية وعندما أخذ يعتمد على الآخرين ويقتنع بكلامهم لم تبق أمامه مسألة تطلب الحل لان كل شيء كشف له ضد النفس الادبية الروحية وجاء موافقا للنفس الاثيمة الحيوانية وفي حالته الاولى كان يحمل تهكم الناس وتخطئتهم لاعماله وأما في حالته الثانية فانه نال ثناء الوسط المقيم فيه فانه عندما كان يفتكر أو يقرأ أو يتكلم عن الله والحق والصدق والغنى والفقر فجميع المحيطين به كانوا يتهكمون لاعتقادهم بعدم لزوم هذه الاشياء حتى ان عمته ووالدته كانتا تدعوانه تهكما (فيلسوفنا العزيز) والعكس فانه عندما كان يطالع الروايات الغرامية والاقاصيص الفكاهية ويحضر التمثيل في الملهى الفرنساوي ويقص عليهم مايراه ويقرأه فانهم جميعا كانوا يثنون عليه ويوافقونه على سيره وعمله ويعجبون بسمو مداركه وعندما يقتصد في نفقاته ويرتدي الملابس العتيقة ولم يشرب خمرا فان جميع المحيطين به كانوا يسخرون به ويستغربون أمره وعندما كان ينفق الاموال جزافا على الصيد أو ترتيب غرفة شغله ترتيبا بديعا ويزينها بالمفروشات الثمينة

كانوا جميعا يمدحون سلامة ذوقه ويهدونه الاشياء الثمينة . وعندما كان سائرا سيرة الطهارة والعفاف واراد ان يبقى عليها حتي الزواج فجميع اقاربه كانوا يخافون علي صحته من هذا القبيل حتي ان والدته سرت سرورا عظيما عند مابلغها بانه استمال اليه فى بيت أحد اصدقائه غانية افرنسية وتملك عواطفها حاسبة ذلك على انه بلغ سن الرجولية واضحى يحذو حذو الرجال في سيرهم الفاسد ومع ذلك فان فؤادها كان يجزع فرقا لدى افتكارها بعلاقات ابنها مع كاتيوشا وخوفها من ان يحمله حبه لها على الاقتران بها .

ولما بلغ سن الرشد ووزع الاطيان التي ورثها عن ابيه على الفلاحين بالسواء لاعتقاده بانه لايجوز التفرد بامتلاك الاراضي فان والدته واقاربه تكدروا كدرا عظيما واظهروا له مزيد اسفهم واصبح من ذلك الحين موضوع سخريتهم وتهكمهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل رشقوه بسهام الملام وقارص الكلام واقنعوه بان الفلاحين لاتزيد رفاهيتهم بامتلاكهم الاراضي بل تسوء حالهم فانهم بعد امتلاكهم اياها اخلدوا الى الكسل وانشأوا عدة حانات وتوغلوا فى الموبقات وانقطعوا عن العمل

* * *

ولما انتظم نيكليدوف فى الجندية وفسدت اخلاقه من معاشرة الجنود والضباط واخذ يلعب القمار ويخسر المبالغ الوافره لم تحزن امه من كثرة طلبه للمال بل كانت بسرور تجيب طلبه وتاخذ من البنك مايلزمه من المال وكانت تحسب أن اعمال ابنها من ضروريات الحياة التي لامندوحة له عنها كما ان التطعيم بالجدري ضروري لجميع طبقات الناس من اعلاهم لادناهم

اما هو ففي بدء امره كان مضطربا اضطرابا شديدا حيث كانت تخامر نفسه افكار مضادة يقاتل بعضها بعضا واصبح مركزه امام نفسه حرجاً جدا فانه قبلاً عندما كان يصدق نفسه ويصغي لضميره كان ما يستحسنه هو يستهجنه غيره والعكس بالعكس أي ان ما كان يستقبحه هو يستحسنه الاخرون وانتهى اضطرابه هذا بخضوعه التام فانه انقطع عن تصديق ضميره الحي واستسلم لضمير الآخرين الميت وكان يشعر بادىء بدء بغم وانقباض ولكنهما لم يدوما زمنا طويلا لان نكليدوف اخذ بعد برهة يدمن التبغ ويشرب الخمرة على انواعها وفقد الشعور وذهب عنه الانقباض ووجد لذة في حياته الجديدة حسبما قال الشاعر

صاحب الشهوة عبد فاذا غلب الشهوة اضحى ملكا

وقد استسلم بالنظر لاستعداده الى تلك الحياة الجديدة ووضع تحت تيرة فؤادها وأمات ذلك الصوت الحي الذي كان ينادي في اعماق فؤاده بخلاف ذلك وكانت هذه حالته عندما قدم لزيارة عمته بعد [illegible] اعوام

اما سبب زيارته لعمتيه فهو لان املاكهما واقعة على طريق السكة الذي سبقه مارا بتلك الجهة ولانهما طلبتا اليه كثيراً ان يدرج عليهما وعلى الاخص ليرى كاتيوشا وربما كان في نفسه شيء عزم عليه من جهتها كما بدا له في ذلك الانسان الحيواني انتسلط عليها ولكنه لم يكن يعترف بهذا العزم بل اراد ان يقيم اياما في ذلك المكان الذي قضى فيه مرة راتعا في رياض الهناء والمسرات ويرى عمتيه اللطيفتين وكاتيوشا الجميلة الحسناء التي لها في نفسه منزله سامية

وصل فى أواخر شهر مارس « اذار » فى جمعة الالام الكبيره وقد كان الطقس بارداً والسماء متلبدة بالغيوم والمطر يتدفق كانه من افواه القرب فبلله المطر وقرصه البرد ولكن فؤاده كان مع ذلك يخفق سروراً ولما دخل ساحة الدار الخارجية سأل ذاته قائلا هل يا ترى لم تزل « هي » باقية فى خدمتها وكان منتظراً انه بمجرد دخوله تسرع لاستقباله مرحبة بقدومه تبتسم ابتسامها اللطيف من ذلك الثغر ولكنه رأى عجوزين خارجتين حاملة كل منهما دلوين فعرف انهما كانا تغسلان ارض البيت ولم يرَ لها أثر ثم ابصر الخادم تيخون خارجاً يجرف الثلج من ساحة الدار ثم ابصر فى دهليز البيت عمته صوفيا ايفانوفنا تنير بردائها ولما ابصرته هذه هتفت هتاف السرور والابتهاج وقالت له أهلا بك من قادم عزيز فقد اوليتنا نعمة كبرى بقدومك هلم بنا فان عمتك مارى متوعكة المزاج لانها تعبت من الوقوف فى الكنيسه لانا نبوم تلاوة الاسرار الالهيه

فأجابها فى الحال اهنئك ياعمتى سونيا (تصغير صوفيا) ودنا منها وقبل يدها وقال لها لا تؤاخذيني فأنى للتك . فقالت له .

اسرع الى غرفتك فانك منزل كلك . وراك كبرت جداً ونبت عارضاك ثم صرخت بالخادم صونها ياكاتيوشا اسرعي واحضري له القهوه

فاجابتها فى داخل الدهليز بصوتها الرخيم المعروف عندنا بنا وخفق فؤاده سروراً وقال هي هنا ؟ وكانت الشمس قد اشرقت من وراء الغيوم فسار مسروراً مع الخادم تيخون الى غرفته ليخلع ثيابه ويرتدى غيرها

وقد جال بفكره ان يسأل الخادم عن كاتيوشا وصحتها وهل لم يخطبها

احد وغير ذلك من الاسئلة غير ان الخادم كان رجلا محترماً من الجميع مشهورا بالجد والحزم ولذا فلم يجسر نيكيليدوف ان يسأل شيئاً عنها بل سأله عن احفاده وحصانه وكلبه بولكان فاجابه انهم جميعا بخير وعافية سوى الكلب فأنه أصيب في العام الماضي بداء الكلب ومات

وما خلع ثيابه وشرع بارتداء غيرها حتى سمع في الدهليز وقع اقدام تسير بسرعة زائدة ثم سمع باب غرفته يطرق طرقاً خفيفاً وما كاد يسير ذلك السير ويطرق تلك الطرقة غيرها

وبالحال اخذ رداءه الخارجي الطويل المبلل بالماء والقاه على كتفه وسار نحو الباب وقال لها ادخلي

فكانت الداخلة كانيوشا وقد زاد جمالها وتكامل قدها واعتدالها ولا زالت عينها الزرقاوين على ماهما عليه من الوداعة والسرور وقد احضرت له قطعة صابون عطري ومنشفتين جديدتين لم يستعملها احد وهي هي لم تزل على ما كانت عليه جميلة المحيا وضاحة الجبين يكاد الدم يفيض من وجنتيها وشفتاها ترتجفان ارتجاف السرور لدن رؤياه

ولما ابصرته قالت له بعد صعوبة اهنئك بسلامة الوصول وما كادت تلفظ هذه الجملة حتى علت وجنتيها حمرة الخجل

فقال لها مرحباً كيف أنت يا كانيوشا وكيف حالك فزال احمرار وجنتها عنها . فأجابته وهي مطرقه بالارض — الحمد لله اشكرك شكراً جزيلا وبعد ان سكتت قليلا عادت فقالت لقد ارسلت لك عمتك الصابون المحبوب لديك ووضعته على منضدة الغسيل والقت المنشفتين على الكرسي. فقال تيخون

الذى كان لم يزل فى الغرفه اظن ان مولانا الامير ليس فى حاجة الى شيء لان لديه كل معدات النظافة من فرش وامشاط ومناشف وغير ذلك

ثم قال نيكيليدوف لكاتيوشا اشكرى عنى عمتي واردف كلامه بقوله ماأعظم سروري بوصولى الى هذا المكان

فاجابته على عبارته الاخيرة بابتسامة خرقت اعماق فؤاده وخرجت. ان عمتيه استقبلتاه هذه المرة استقبالا حافلا واظهرتا له مزيدا لحفاوة والاكرام واحسنا وفادته اكثر من ذي قبل لأنهما كانتا تعلمان بانه ذاهب للحرب ويحتمل ان يجرح او يقتل وهذا الفكر كان يؤثر عليها تأثيراً سيئاً

ان نيكيليدوف كان قد عزم قبل قدومه ان يقيم عند عمتيه هذه المرة مدة ٢٤ ساعه فقط ولكنه لما رأى كاتيوشا تغيرت افكاره ورضى بأن يعيد عندهما عيد الفصح الكبير الذي سيكون بعد يومين ولذا ارسل تلغرافا الى صديقه ورفيقه مسينيوك يدعوه بالحضور اليه وكانا قد اتفقا على ان يتقابلا في مدينة اوديسا ! وعند اول نظرة نظر بها كاتيوشا تجدد فى فؤاده عوامل الحب القديمة وما كان يستطيع ان ينظر ثيابها البيضاء دون ارتعاش وان يسمع خطواتها دون ان يستولى عليه السرور والاندهاش وكان يرى وجهها يتدفق بشراً ووجنتيها يعلوهما الاحمرار وعينيها الجلاوين تبرقان طرباً كل ذلك كان يجلب لنفسه ارتياحاً ولذة عظيمة وشعر بانه يحبها حبا مبرحا. غير ان هذا الحب كان مختلفا عن حبه الماضي لها الذي كان سرا غامضا وكان اذ ذاك معتقد بان الانسان لا يستطيع ان يحب الا مرة واحدة فقط فكان حينئذ لا يعترف بالحب الحيواني اما الآن وقد انكشف له كل شيء فقد كان يعلم

انه يحب وانه مسرور بهذا الحب غير انه مع ذلك كان يخفي عن نفسه عاقبة هذا الحب وما ينجم عنه

ان في نيكيليدوف كما في جميع الناس انسانين احدهما روحي يطلب لنفسه ذلك الخبز الذي يكون خبزا لجميع الناس والثاني حيواني يطلب الخبز لنفسه فقط ويضحي في سبيل الحصول عليه مصالح وخيرات الناس اجمعين وفي هذا الوقت كان متسلطاً عليه الانسان الحيواني الذي اقنعه من اقامته في مدينة طرسبرج وانخراطه في سلك الجندية وقد ضغط على الانسان الروحي واماته حتى لم يدع له اثرا مطلقا ولكنه عندما ابصر كاتيوشا نهض الانسان الروحي وشعر نيكيليدوف بتهوينه وانه يطالب بحقوقه نحوها وقد حدثت في داخل نفسه مدة اليوم من الساعتين الى بعد منتصف الليل

وكانت نفسه تحدثه بلزوم سفره في الحال لانه ليس من موجب يدعوه الاقامة عند عمته وانه ربما تحدث من اقامته مالا تحمد عاقبته ولكنه مع هذا الاضطراب وهذه الافكار كان مسروراً قلبت فيه الضيافة وكانه لم يوجه كلامه الى نفسه

وفي مساء اليوم العظيم قدم الى عمته الكاهن مع الشماس اكين عربة زحافة لاعجلات لها تسير على الثلج وأولما فاسا عظيما في بيتها حضرا اياه بنفسيهما مع نيكيليدوف الذي كان موجها ابصاره الى كاتيوشا التي كانت واقفة عند الباب تقوم بخدمة الكاهن وتقدم له المبخرة وعند نهاية الصلاة قبل الجميع بعضهم وهنأوا نفوسهم بعيد الفصح (١) ثم عزم

---

(١) تفرد الروسيون بعادة قديمة كانت شائعة عند قدماء المسيحيين وهي انه في

يكيليدوف على ان يقصد غرفته لينام ولكنه سمع وصيفة عمته تقول لكاتيوشا هامي بنا الى الكنيسة لتقديس خبز الفصح وكانت الكنيسة واقعة على بعد ثلاثة أميال عنهم فلما سمع كلمتهما قال في نفسه لا بد من الذهاب معهما لكي أحظى برؤيا حبيبتي طول الليل

وفي الحال أمر الخادم بان يسرج له الجواد ودخل غرفته وارتدى لباسه العسكري الجميل وانطلى صهوة الجواد وطار به بسرعة نحو الكنيسة وكان الثلج الكثيف ينكسر تحت أقدامه في الظلام الحالك

« ١٥ »

اهتدى بواسطة الأنوار الى الكنيسة ولما بلغ بابها الخارجي ترجل فتقدم اليه الفلاحون الذين عرفوه وأخذوا منه الجواد وربطوه أمامها فدخل الكنيسة التي كانت تموج بالشعب وقد أفعمت تلك الليلة في نفسه اثاراً بقيت في مخيلته مدة طويلة

ففي باب الكنيسة الأيمن كان الرجال واقفين بلباس العيد الجديد الظريف والنساء مرتديات قماطين الجوخ الطويلة و متمنطقين فوقها بالمناطق اللامعة وفي أرجلهم الأحذية الطويلة حتى ركبهم المصنوعة من الجلد الروسي الجميل الثمين وفي الجهة اليسرى كانت النساء واقفات وعلى رؤوسهن المناديل الحمراء الحريرية مرتديات الاردية الحريرية ذات الاكمام الحمراء وبين الرجال والنساء كان الاولاد واقفين بكل خشوع واحترام

عيد الفصح يقبلون بعضهم بعضا رجالا ونساء فاذا صادفت فتاة في شوارع موسكو مثلا يوم عيد الفصح يمكنك ان تدنو منها اية كانت وتقول لها المسيح قام وتقبلها وتقبلك ثلاثا وهذه العادة لم تزل مستعملة في جميع انحاء روسيا

وكان الرجال يرسمون بتواصل علامة الصليب وتارة يسجدون وامـ
النساء وخصوصاً العجائز فانهن كن موجهات أبصارهن نحو ايقونة واحدة
لا يحدن عنها يميناً أو شمالا وحولها الشموع وكن يرسمن اشارة الصليب
مراراً ويركعن تكراراً وأما الايقونسطاس الذهبي فكان يتلألأ لمعاناً من
أنوار الشموع التي لا تحصى المنارة أمامه وفى الثريات الكثيرة المعلقة في
الكنيسة وكان المرتلون ينشدون من الحورس التسابيح الروحيه

فتقدم نيليدوف الى الامام فرأى في وسط الكنيسة لم وظاهرون وقوفاً
بينهم تاجر مع زوجته وابنه ووكيل التلغراف وعمدة البلدة وعلى سدره وسام
رفيع الشان ثم أبصر بجانب المنبر ماترينا وصبية عمتيه بلباس العيد والى جانبها
كاتيوشا مرتدية حلة بيضاء ذات ثنايا عديدة ومتمنطقة بمنطقة زرقاء وعلى
رأسها منديل من الحرير الاحمر وكل شيء كان بهجاً تلك الليلة وبالغاً أقصي
درجات الكمال وحسن الرونق والرداء وكان الكاهن مرتدياً بدلة موشاة
بالفضة وعليها صلبان من الذهب الخالص والشماس والمرتلون ببدلاتهم الفضية
الجميلة وخدمة الدين يباركون الشعب بين حين وآخر وبأيديهم الشموع الكبيرة
مربوطة حولها الازهار البديعة وكانوا يهتفون ذلك الهتاف العظيم المسيح
قام المسيح قام كل شيء فى عيني نخليدوف كان جميلا بديعاً وكاتيوشا
خاصة كانت أجمل كل شيء وألطفه وقد لاحظ أنها شاهدته لدى دخوله وانها
لم تلتفت أبداً وعند ما كان سائراً نحو الهيكل مر بجانبها وأراد أن يكلمها لكنه
لم يجد ما يقول غير انه افتكر هنيهة ودنا منها وقال :

ان عمتي قالت لى بانها ستتناول طعام العيد بعد القداس الاخير وبذلك
ينتهي صيامها

ثم سباب خرس في جسم كاثيوشا الذي زوياه وعلا كل وجهه اللطيف ثم ابتسمت ابتسامة تشف عن حسن عظيم ورشقته بسهم من لحاظها وقالت له انى اعلم ذلك وفي هذه الآونة اجتازهم الشيخ الذي لما رأى نيكيبدوف تنحى قليلا احتراما له وفي هذه الحركة صدم بكتفه كتف كاثيوشا صدمة خفيفة فاعتاظ من ذلك غيظا شديدا وقال في نفسه اني والحق مستغرب عمل هذا الشماس الذي لا يفهم بان كل شيء في العالم وجد لاجلها ومرضاتها وأنه يجوز هانة كل واحد في الدنيا ماعداها لانها هي مركز كل شيء . فمن أجلها بالمعنى الدقيق تطاير ولها أثيرت الشموع ومن أجل سرورها كان المرتلون ينشدون التسابيح الربانية الفصيحة بقولهم « ابتهجوا أيها البار » وكل شيء جميل في العالم فهو موجود من أجلها وكان هو معتقداً بانها تفهم وتدرك بان كل شيء وجد من أجلها وهو كان يعلم بانها هو فيه من كراهته واعتياده وأن نفسيهما تصيران على وتر واحد

خرج نيكيبدوف من الكنيسة في الغيرة بتخلة القداس المبكر المتأخر فكان الشعب يأتي من طريقه ويحنون رؤوسهم احتراما واجلالا له . من لا معرفه كان يسأل عنه ومن هو وتقدم اليه الفقراء وطلبوا منه احساناً فوزع عليهم ما كان في كيسه من القروش الصغيرة

وفي هذه الاثناء لاح الفجر بحيث صار يمكن الواحد أن يرى الآخر ويتحققه ولكن الشمس لم تشرق بعد فتفرق الناس وجلسوا على المدافن الواقعة بجوار الكنيسة . أما كاثيوشا فانها لم تخرج بل بقيت في الكنيسة فلبث نيكيبدوف ينتظرها حول الباب فيما هو واقف تقدم اليه ناظر زراعة عمتيه وهنأه بالعيد وقبله وحذت حذوه زوجته العجوز وبعد ان قبلته أهدته

بيضه مصبوغة بصباغ أصفر ثم دنا منه شاب فلاح شديد العضلات وقال له المسيح قام وقبله ثلاثاً بشفتيه الشديدتين .

وفيما كان يقبل الفلاح الشاب ويأخذ منه بيضة مصبوغة لاحت منه التفاتة فرأي وصيفه عمتيه ماترينا بافلوفا ومن ورائها راس مغطي بمنديل أحمر حريري ثم بان له وجهها الذي أشرق عند ماشاهدته وعند مابلغت كاتيوشا مع ماترينا باب الكنيسة وقفتا ووزعتا بعض النقود علي الفقراء

ثم دنت الوصيفة من نيكليدوف وقالت له المسيح قام : وقبلته ثلاثاً واذ ذاك القي نظره بنظر كاتيوشا فابرقت أسرتها وتقدمت هي منه وقالت بصوت متهدج المسيح قام يادميتري أيفانوفيتش فأجابها حقاً قام وقبل شفتيها دفعتين ووقفا معا قبل القبلة الثالثة يتساءلان بابصارهما هل لزوم للقبلة الثالثة والجواب بالطبع نعم فقبلها ثالثة وابتسما معا

ثم سألهما ألا تذهبان الى الكاهن

فأجابه كلا اننا باقيتان في هذا المكان لاظت هاته الكلمات بصمونة وتنفست الصعداء على أثرها وكانت محدقة بنظرها اليه وقد فاته بسهام لحاظها الفتاكة ..

للحب بين الرجل والمرأة عند مايبلغ حبهما درجة الوله دقيقة واحدة لا يدركان فيها مايعملان ولا يحسبان أي حساب لما يقدمان عليه وقد كانت هذه الدقيقة عندهما ليلة عيد الفصح المقدس فانه عند ماذكر الآن كاتيوشا في جميع أحوالها التي رآها بها فان صورتها في هذه الدقيقة ثبت في ذهنه ثبوتاً لن يبرحه أبدا ورسخ في فكره جمالها بجميع صفاته من شعر اسود لامع ورداء ابيض ذي ثنايا متعددة زادها رونقا وبهاءا وصدر رحب

منحمض وو جنتين متوردتين وعينين سوداوين برقتين وعدا ذلك فانها متصفة بصفتين متلازمتين لها أولهما العفة والطهارة والثانية حبها ليس له فقط بل ولجميع الناس من سائر الاجناس وقد رآها بعد ان هنأته بعيد الفصح وقبلته ثلاثا تقل الفقراء والمساكين وتؤاسيهم برقيق الكلام

وقد أبصر فيها هذه المحبة في تلك الليلة فانها عرفها به عند سحرها معرفة أدت الى اتحادهما معاً كواحد

ثم قال في نفسه يا ليت هذا الحب وقف عند ذلك الشعور الذي كان مستحوذا عليّ في تلك الليلة ولم تعداه الى ماهو أقبح من ذلك مرت فى مخيلته هذه الامور جميعها بينما كان جالساً تحت الشباك فى غرفة المحلفين

١٦

وعند ماعاد نيكليدوف من الكنيسة الى بيت عمتيه دخل غرفته وشرب زجاجه خمر حسب عادته التى اقتبسها في الجندية فلعبت الخمرة في رأسه واضطجع على سريره دون أن يخلع ثيابه ونام نوما ثقيلا واستيقظ على طرق باب غرفته وقد عرف للحال الطارقة فنهض بسرعة وفرك عينيه بيديه وقال هي أنت يا كاتيوشا ادخلي

ففتحت الباب قليلا وقالت له عمتاك يدعوانك لمناولة الطعام وعند ما وقع الظر على النظر ابتسمت ابتسامة تشف عن تبشيره بالحصول على أمر مفرح غير اعتيادي

فأجابها اني قادم في الحال وأخذ المشط ليصلح به شعره

وبعد أن سمعت كلامه لم تعد الى عمتيه بل لبثت واقفة مقدار دقيقة فلحظ ذلك منها وطرح المشط واتجه نحوها لكنها غادرته وعادت تسرع

لحظات في دهاليز البيت الكبير

فقال في نفسه أني والله لمجنون ولماذا ما أمسكتها وأمنتها عندي وعلى الآن أن أسرع نحوها أدركها في الدهليز

ولم يكن ذاته يعرف ما يريد منها ولكنه ظهر له بأنها عندما دخلت غرفته كان يجب عليه ان يبقيها ويعمل ما عمله جميع الناس في مثل هذه الاحوال وهو لم يفعل ذلك

وللحال تقدم نحو الباب وناداها بقوله فني يا كانيوشا

فالتفتت ووقفت وقالت له ماذا تريد مني .

فأجابها لا أريد شيئاً انما . .

وعند ذلك جمع قواه وتذكر ان جميع الناس اذا وجدوا في مثل هذه الظروف يعملون ما يقصد ان يعمله الناس فدنا منها واحتضنها . أحاط يديه بخصرها

أما هي فلم تتحرك بل أحدقت بصرها اليه واحمرت حمراً شديداً وقالت اتركني يا دينيزوف ولا لزوم لهذه الامور ثم قبضت بيديها الشديدتين على يديه فازاحتها عن خصرها وأفلتت منه

أما هو فتركها وفي هذه الفترة خجل من نفسه خجلا شديداً وأدرك أنه اقترف اثماً فظيعاً غير أن هذا الشعور لم يلبث حتى زال في الحال من أفكاره ولم يفقه بان هذا الخجل ظهر فيه بمنادة صوت الفضيلة الضعيف الذي لم يزل باقياً في نفسه ويحارب مع هذا الضعف صوت الرذيلة الذي يدعوه الى ارتكاب الموبقات ويزينها في عينيه بقولها لا تخالف عملك جميع الناس مطلقاً

ولذ عاد افي أثرها بسرعة وأدركها للمرة الثانية وخاصرها وقبل عنقها وكانت هذه القبلة تخالف القبلتين السابقتين فالاولى لم يكن لها شديد تأثير وراء الشجيرات اثناء اللعب والاخرى اليوم صباحا في الكنيسة لان هذه القبلة الاخيرة كانت مخيفة جدا وقد شعرت كاتيوشا بذلك ولذا قالت له بلهجة السيدة التي توبخ خادمتها عند كسرها آنية ثمينة ماهذا العمل وشردت عنه شرود الغزال من وجه الصياد

أما هو فدخل غرفة الطعام فوجد عمتيه جالستين حول المائدة ثياب العيد والى جانبهما طبيهما ثم جارتهما وكل شيء كان حسب المعتاد ولكن نفس نيكليدوف كانت مضطربة اضطرابا شديدا فلم يفهم شيئا مما كانوا يخاطبونه به حتى انه كان يجيبهم أجوبة تخالف موضوع كلامهم ذلك لان أفكاره كانت مشغوله بكاتيوشا ولم يبرح من اله واحساسه تأثير القبلة الاخيرة التي قبلها اياها في الدهليز ولم يستطع ان يحول أفكاره عن هذا الامر ولذا عند ماكانت تدخل الغرفة كان يخفق فؤاده وترتعش جسمه وكان يجهد قواه لكي لا ينظر اليها

وبعد مناولة الطعام عاد في الحال الى غرفته وابتدأ يسير فيها ذهابا وايابا مدة طويلة مصغيا الى خطواتها لعلها تقدم اليه

ان ذلك الانسان الحيواني الذي كان مسحودا عليه لم يكتف في هذه الساعة ان يشمخ بأنفه بل داس برجليه الانسان الروحي الذي كان متسلطا على نيكليدوف عند زيارته الاولى وهذا الانسان الحيواني الشرير كان مستعبدا اياه ومالكا لحواسه في هذه الليلة وسائدا على نفسه

ان نيكليدوف مع مراقبته الشديدة لكاتيوشا لم يتمكن ولا مرة واحدة في

هذا النهار من الاجتماع بها على انفراد ويظهر انها كانت تتجنب ذلك غير انها اضطرت في هذه المرة أن تدخل وحدها غرفة مجاورة لغرفته لكي تصلح السرير لينام فيه الدكتور الذي عزم أن يبيت هذه الليلة عندهم وقد شعر صاحبنا بدخولها فقصد تلك الغرفة ماشياً على رؤوس أصابع رجليه وحبس نفسه كأنه سائراً ليسرق فوجدها مدخلة يديها في بيت المخدة فلما رأته ابتسمت له ابتسامة سرور وابتهاج كما سبق لها ذلك بل ابتسامة خوف وحزن وكأنها تقول له أن يفعل مراً محرما لا يليق به فتوقف برهة مضطربا محتاراً لانه سمع صوتاً ضعيفاً ينهاه عن ارتكاب الشر ويذكره بحبه الطاهر للفتاة ولكن صوتاً آخر قويا كان يقول له احذر لئلا تفوتك ساعة الحظ التي عليها مدار سعادتك وصفاك وهذا الصوت قوي على الاول ولذا فان نيكيليدوف هجم على الفتاة وحملها بيديه وأجلسها على السرير وجلس بجانبها

فقالت بصوت الرجاء أرجوك ياعزيزي دعتري ان تتركني وتذهب من هنا ثم انتفضت بين يديه واضطربت وقالت بلهجة الخائف الوجل امض اسرع ان ماتريتا بافلوفنا قادمة الينا

فقام في الحال وقال لها سآتي ليلا اليك لانك وحدك لي البس كذلك فاجابته . كلا كلا لاتفعل ذلك ولا تأت أبداً قالت ذلك بفمها ولكن قلبها كان يقول غير ذلك

وعند ذاك دخلت الغرفة العجوز ماتريتا والقت نظرة قاسية على نيكيليدوف ووبخت كانيوشا لانها أخذت لحافا غير المطلوب ودفعت لها آخر

فخرج صاحبنا من الغرفة مبغوتا صامتا ولم يفه ببنت شفة واستحوذ عليه الخجل وفهم من نظره العجوز أنها توبخه توبيخا شديدا لانها ادركت

سوء مقصده وأنه عازم على اقتراف جريمة فظيعة

ولكن الانسان الحيواني لم يمهله في ذلك الشعور بل زين له الامر وحسنه فى عينيه وصمم على محاولة الوصول الى بغيته والاقدام على الوصول للفتاة من أى طريقة كانت

وظل طول ذلك المساء محتاراً مرتبكا لا يدرى ماذا يفعل لانه لم يكن مالكا حواسه بل كان مستعبداً للشهوة والميل الخبيث فكان تارة يتخطر في غرفته بسرعة كمن أصيب بجنة وتارة يدخل على عمتيه ويجالسهما ثم يخرج الى طنف « بالكون » البيت ويجلس على كرسي وكانت تتقادفه الافكار الشريرة والهواجس الخبيثة ويجهد فكرته للوصول الى الاجتماع بها على انفراد أما هي فكانت تتجنب ذلك التجنب وما تريا بافلوفنا شددت المراقبة عليها في تلك الليلة ولم تحول نظرها عنها دقيقة واحدة

١٧

انقضى المساء وأرخى الليل جلباب ظلامه وساد السكون على ذلك البيت لان سكانه ناموا جميعا ولم يبق مستيقظا سوى نيكيليدوف الذى هجره الكرى وأمسى اليف السهاد والاضطراب وعلم ان ماتريبا بافلوفنا رقدت في غرفتها المجاورة لغرفة عمتيه وان كاتيوشا ذهبت الى غرفة نومها فخرج في الحال الى الطنف وكان الظلام حالكا والضباب كثيفا والطقس دافئا ولم يكن يسمع شيئا سوى صوت تكسر الجليد في النهر الواقع على مسافة مائة خطوة عن البيت فعاد الى غرفه ثم خرج الى الدهليز ومنها الى ساحة البيت ومر على الوحل والثلج المتجلد حتى وصل الى غرفة كاتيوشا الواقعة فى هذه الجهة ووقف تحت نافذتها وكان يسمع خفقان فؤاده المضطرب وكان نفسه ينقطع تارة أخرى

يتصعد بسرعة الا بصر من الزجاج فصر أحاصيل فتوزيتيز غرفة تايوسا جاب
نظره في انحاء الغرفة فابصرها جالسة على كرسي وملقة يديها على الطاولة نظرة
ان الامام دلت هيئتها على انها تفتكر بامر ذي بال

فوقف جامد لا يبدي حراكا حتى قطع التنفس وأحدق نظره بها ليرى
ماستفعل وحدها في تلك الغرفة لاعتقادها بانه لا يراها احد

أما هي فبثت دقيقتين لا تبدي حراكا ثم رفعت عينيها واتنهدت وهزت
رأسها وغيرت مكان جلوسها وظل ينظر الى ذلك الوجه المشرق في تلك
الغرفة القليلة النور ولمح عليه آثار التعب الشديد فرق لها وأشفق عليها غير ان
ذلك لم يثنه عن عزمه بل زاد في تمام القاصد .

ثم طرق على زجاج الشباك باصبعه طرقا خفيفا انتفضت لي أثره الفتاة
انتفاضا وارتعش جسمها كأنه دبت فيه مجار كهربائية فظهر الخوف لي وجهها
ظهورا بينا لم يرحه برهة طويلة فوضعت يديها حول عينيها ونظرت الى جهة
الشباك فعرفت في الحال الطارق وعند ذلك ضاربت جداً وتغيرت سحنتها
تغيرا مريبا فكيمدوف منذ فاوظلت مفرسة به برهة طويلة دون ان تفوه بينت
شفة وأخيراً قطع ذلك الاضطراب الامة بدت من صاحبها أجابت عليها
الفتاة بايماءة دلت دلالة واضحة على خضوعها اليه واستسلامها لمطلبه ومع
ذلك فكان الخوف مسيطرا على نفسها ثم اشار لها بيده ان توافيه حالا الى
الساحة حيث كان واقفاً فنهضت من مجثمها ودنت من الشباك وأشارت اليه
برأسها بانها لا تخرج اليه أما دنى ذلك من الزجاج اراد ان يعيد طلبه عليها لتخرج
ولكن حال دون ذلك سرعة التفاتها الى جهة الباب لانها سمعت صوتاً ينادي بها
وقد شعر صاحبنا بذلك فابتعد عن الشباك وكان الضباب كثيفاً لدرجة أن

ما ابتعد عن البيت بضع خطوات حتى لم يعد منه شيئاً سوى نور مصباح ضعيف من وراء زجاج النافذة

ثم أخذ يخبط خبط عشواء في دجور ذلك الظلام الحالك ويتلمس الطريق فلم يهتد اليها وغاصت رجلاه فى الوحول والمياه الجارية في الطرقات ومع ذلك لم يرجع عن عزمه بل عاد ثانية الى النافذة فابصر كاتيوشا جالسة وراء الطاولة كما نظرها أولا فابصرته حال وصوله كأنها كانت تنتظر قدومه. فنقر الزجاج باصبعه فنهضت الفتاة مسرعة وخرجت من الغرفة فقابلها في رواق البيت وأحاط خصرها بيديه دون ان يتفوه بكلمة فالتصقت به ووضعت مبسمها على فمه فاهتزجت انفاسهما ولبثا برهة على هذه الحال يضمها وتضمه ويقبلها وتقبله حتى ثملا وغابا عن الوجود مع ما كانا فيه من التلذذ والغبطة كان نيكيليوف يشعر بآلام شديدة تكاد تمزق احشاءه وفي تلك الاثناء فتح الباب الداخلي وسمعا صوت الوصيفة باتريا المخيف يدوي في الغرفة وينادي كاتيوشا فأفلتت من بين يديه وأسرعت الى البيت وأقفلت الباب بالمزلاج . وعلى أثر ذلك سادت السكينة وانطفأ نور المصباح من الداخل وساد الظلام ولم يكن يسمع فى ذلك الليل الهادي غير صوت الجليد الذي كان ينكسر ويسقط في النهر. فعاد الى النافذة فلم ير أحداً فنقر عدة مرات وما من مجيب فعاد الى غرفته و لاسف ملء فؤاده وحاول ان ينام فلم يقدر لان الذكرى فارق جفنيه فخلع ثيابه وسار قاصداً غرفة كاتيوشا من طريق آخر مجاور لغرفة الوصيفة ولما اقترب منها سمع غطيطها فارتاح ضميره لكونها نائمة ولكنه لم يخطو خطوة حتى سمعها تسعل وتتقلب على سريرها فجمد في مكانه وقطع التنفس مدة خمس دقائق حتى عادت الى الغطيط ثانية

ار على رؤوس اصابعه حتى بلغ غرفة كاتيوشا ووقف ازاء بابها فعلم انها
ير نائمة لانه لم يسمع غطيطها . وما كاد يدعوها باسمها حتى سمع وطء
قدامها تسير الى جهة الباب حيث وقفت وراءه وأخذت تخاطبه بحدة قائلة
— عد من حيث أتيت فهل يجوز لمثلك ان يفعل هكذا ؟ أناشدك
لله ان ترجع لئلا ينفضح الامر وتسمع عمتك فتكون العاقبة وخيمة والفضيحة
عظيمة فيتاطخ اسمنا بالعار ونتدثر أثواب الذل والشنار . كل فمها ينطق هذا
لكلام وقلبها يقول كلا . كلا لا تذهب « فاني كلي لك وأنا طوع امرك »
فقال لها : ارجوك أن تفتحي الباب ولو دقيقة واحدة فقط فتربصت
نيهة ثم فتحت له قائلة : ماذا تريد مني ؟
فدخل بسرعة وحملها بين يديه بخفة وسار بها نحو السرير فقالت له
صوت متهدج متقطع ما هذا . . . ما تريد أن تفعل بي دعني وشأني
فلم يلتفت الى كلامها بل جذبها اليه . . فقالت آه . . آه . . لا . .
لا . . أريد . اتركني . . أطلق سراحي . . اذهب عني . . كانت تقول له
ذلك وجسمها يلتصق به ولم تعارضه البتة بما فعل . . . . . .
وأخيراً تركها ترتجف ارتعدة وقد سلب منها جوهرة ثمينة لا تعادلها
كنوز الارض . . أي نعم في بضع دقائق نزع منها أثمن شيء تملكه ولم يعوض
عليها شيئاً غير انه أخذ يسكن روعها ويلاطفها فلم تلتفت اليه ولم تجبه بكلمة
تركها وخرج الى الدهليز مفكراً فقال في نفسه هل ما فعلته حسن فيه سعادة
عظمى أم منكر فيه تعاسة كبرى وجريمة قصوى . وبعد ان أطرق ملياً حل
هذا السؤال بقوله لم هذا الاهتمام وكل الناس يفعلون ما فعلت ثم مضى الى
مضجعه ونام

وفي اليوم التالي قام صديقه الظريف الانيس شينبوك وكان هذا شاباً خفيف الروح حلو الحديث فادهش الجميع برقته وكياسته وآدابه الممزوجة باللطف والظرف وكرمه المفرط ووداعته المتناهية فعجب العمتان من فرط كرمه لانه كان يجود بالمال جزافاً دون حساب واذا سأله سائل صدقة يعطيه ريالا وقد وزع مرة على الاولاد خمسة عشر ريالا ويوماً ما كانوا جالسين يتسامرون فمر عليهم كلب صوفيا ايفانوفنا ولدم يسيل من رجله فتحمس هذا الضيف الكريم وشطر منديله الحريري شطرين وربط رجل الكلب فدهش الجميع لان ثمنه كان لاينقص عن ريالين

ولو بحثنا عن أحوال هذا الضابط المبذر لاتضح لنا انه مديون بما يزيد عن مائتي الف روبل . وكان واثقاً بانه لابني هذا المبلغ طول عمره ومن كان هذا حاله فلا عجب اذا انفق ٢٠ روبلا في اليوم ولم تطل اقامته اكثر من يومين حيث سافر مع نيكليدوف في اليوم الثالث وهو اخر يوم من اجازتهما

ولا بد لنا قبل سفرهما ان نلقي نظرة الى اعماق قلب نيكليدوف فقد كانت افكاره مضطربة ونفسه حزينة في ذلك الموقف الحرج حيث تمثل امام عينيه ما فعله في الليلة الماضية لانه مثل رواية حقيقية محزنة للغاية قادته اليها الشهوة الحيوانية التي استبدته وارغمته على ارتكاب جريمة من افظع الجرائم لم تكن تخطر له ببال فمن جهة كانت تحلوله تلك التذكارات والحركات ومن جهة أخرى تشعر بوخز الضمير. وهكذا كان بين حاستين متضادتين تتنازعانه تنازعاً شديداً فحاسة منهما كانت محرقة شديدة الضغط على نفسه تدعوه الى اصلاح ما أفسد اذا لم يكن من باب الحنان والشفقة على الفتاة خفظاً لشرفه . وحاسة منهما شريرة كانت تحسن له فعلته الشنعاء وتطرد من

رأسه الافكار المزعجة فتغلبت الاخيرة عليه لانه كما سبق وأسلفنا كانت اخلاقه قد فسدت منذ دخوله الجندية واصبح محبا لنفسه لا يهمه أمر غيره مطلقا ولذا لم يفتكر فيما اذا وصل خبر فعلته الى الحكومة ماذا يكون جزاؤه

ثم خطر في باله انه لا بد لصديقه شينبوك من الوصول الى غرفة حبه للفتاة وفوزه بوصالها وهذا الفكر حرك فيه حاسة الفخر والمجد الباطل. وقد تحققت افكاره من هذا القبيل فانه ما وقعت عين صديقه على كاتيوشا حتى فاجأه بقوله: لقد انكشف لي سر افامنك اسبوعاً عند عمتيك ولو كنت مكانك لما برحتهما مطلقاً لان هذه الفادة تفتن الالباب بفرط جمالها وخفة روحها وحركاتها

وكان نيكيليدوف آسفاً لسرعة سفره الذي كان يحول بينه وبين اقتطاف ثمرة حبه للفتاة ومن جهة أخرى كان يزعم ان في السفر فائدة عظمى حيث يتسنى له قطع العلاقات معها دفعة واحدة فيتناسى حبها والجريمة التي اقترفها معها. ثم صمم على ان يعطيها مبلغا من المال ليس لان الفتاة بالحتياج اليه بل لان جميع الرجال عند ما يفعلون مافعل يدفعون مالا للنساء ثمن فعلهم المنكر معهن وهكذا دفع لها مارآه مناسبا لمقامه وحالتها معا

وفي يوم سفره وقف بعد الغذاء بانتظار مرورها من الدهليز العادة فلما رأته اضطربت واحمر وجهها وتنحت عن موقفه وانسارت الى غرفة الاستقبال التي كان بابها مفتوحا فلم يرجعه ذلك بل استوقفها وقال لها: اني انتظرتك هنا لأودعك، وكان يتلاعب « بظرف » ضمنه ورقة مالية بمائة ريال فأدركت قصده في الحال وقطبت حاجبيها ودفعت يده عنها. فقال

لها لا بد من ذلك والقى الظرف في جيبها وقد شعر وقتئذ بصداع والم شديدين فتركها وعاد الى غرفته حيث جعل يتخطر ذهابا وايابا وقد ازداد عليه الالم فاخذ يئن ويتأوه من صميم فؤاده كلما تذكر فصول تلك الرواية المحزنة

ولما سكن اضطرابه وثاب الى رشده قال في نفسه ماذا جرى لي اني والحق يقال لم اقترف اثما عظيما ولم اخالف الناس في شيء لان جميع اصدقائي معارفي يفعلون ما فعلت فان شيئا كهذا جرت له نفسي الرذيلة التي جرت لي مع احدى الوصائف وقد شرح لي تفصيلاتها تماما وخالي غرشا نقص عليّ حادثة له من هذا القبيل وقد فعل والدي نفس هذا الفعل في «عزتنا» حيث أحب فتاة غروية وولدت منه الغلام ميشيل كما وهو حي يرزق الى الان فاذا كان جميع الناس يفعلون ما فعلت فلا اثم عليّ ولا حرج . وهكذا كان يعزي نفسه بمثل هذه الاقوال . ولكن نفسه كانت لا تقبل العزاء حقيقة لان ضميره كان يحترق

وكأن هاتفا خفي يطرق اعماق قلبه ويكته تبكيتا عنيفا على فعلته الشنعاء وعلى الجرم العظيم الذي اقترفه فشعر بحزن شديد داخلي وتذمر له خطأه ودناءة تصرفه وسفالة طباعه وتأكد ان عيشه أصبح كزورق واله لا يحق له ان يظهر بين الناس بمظهر الشاب الشريف وقد رأى انه من الواجب عليه ان يتكتم أمر فعلته ولا يبوح بها لاحد كما يفعل سائر السفلة في مثل هذه الاحوال مفتخرين برذائلهم وقبائحهم حرصا على شرف الفتاة في ان يتخدش واجتهد ان يتناسى هذه الحادثة حتى يسلم من تبكيت ضميره ووخزه لجارح وقد ساعده على النسيان أمر معيشته في الجندية وكثرة اجتماعاته بالاصدقاء والخلان ولم يمض عليه ردح من الزمن حتى نسي الحادثة بالمرة ولم تعد تخطر له على بال

غير انه ذات يوم بعد رجوعه من الحرب عرج في طريقه على عمتيه ليرى الفتاة ويعرف ماذا حل بها فعلم انها خرجت من خدمتهما بعد سفره بعدة شهور لانها ظهرت حامل وقد وضعت طفلا في مكان مجهول ثم اقتضت بها الحال الى الانتظام في سلك الفواجر وأصبحت على جانب عظيم من الفساد فاقشعر جسمه لدى سماع تلك الاخبار وقال لا ريب انها وضعت منه وان الطفل ابنه لا محالة . لكنه عاد فقال في نفسه ويحتمل أن تكون حملت من غيره لان عمتيه تقولان انها عاشت بعد مغادرتها دارهما عيشة الفساد كرالدتها غير أن الهواجس تراكمت عليه وعزم على البحث عنها وعن الغلام ولكنه عاد فعدل عن ذلك لانه كان يشعر بخجل داخلي والام شديدة فاجتهد ان يبعد ذكرها من مخيلته

أما الان فان حادثة كاتيوشا الغريبة ووقوعها في أيدي القضاء اعاد ذكر امه المفظع الى باله وعلم انه ملطخ بالعار منذ عشرة اعوام وقد حاق به خوف شديد من تجلي الحقيقة وظهورها امام المحكمة لانه ظن انها تعرفه او تقص ماضي حياتها على محاميها ليكي يدافع عنها امام المحكمة ويذكر سبب فضيحتها ووصولها الى عيشة الفجور فينتضح أمره وينكشف سره

١٦

خرج نيكيليدوف من غرفة المحكمة ودخل غرفة المحلفين والافكار تساوره والحزن أخذ من نفسه مأخذه فجعله في حالة اليأس والقنوط فجلس تحت النافذة واصغى الى حديث الاشخاص الذين كانوا يتخطرون في الغرفة ذهاباً وايابا ويكثرون من التدخين فلا تنتهي لنافة حتى يشعل غيرها وفيما هو على تلك الحال دخل حاجب المحكمة ودعا المحلفين لحضور الجلسة فاحس نيكيليدوف

بخوف شديد وظن انه ذاهب ليحكم عليه وليس ليحكم على غيره فشعر بانه مجرم ولا يحق له ان يوجه نظره الى الناس ولكنه حسب عادته سار بأنفة وعنفوان ودخل المحكمة وصعد على المرتفع وجلس فى مكانه وأخذ يتلاهى بسلسلة نظارته واحدق بنظره في جمهور الحاضرين فرأى وجوها جديدة لم يرها من قبل وكانوا شهود القضية ثم لحظ ان كانيوشا وجهت اليه نظرها مرارا ثم حولته عنه الى سيدة كانت جالسة بالقرب منها مرتدية ثوباً حريرياً غالى الثمن وايديها عاريتان حتى الكوع وهذه السيدة هي صاحبة بيت الفجور الذي كانت تسكنه كانيوشا وقد حضرت بصفة شاهدة

وبعد برهة يسيرة اخذت المحكمة بسماع شهادة الشهود بعد أن أقسموا اليمين كما سبق . ولما جاء دور كيتايفا صاحبة المنزل سئلت أن تبين تفصيل الحادثة فقالت

جاءني خادم الفندق شمعان المعروف لدي من ذى قبل وطلب كانيوشا لكي تمضي معه الى المنزل فاذنت لها بذلك ولم يمض على ذهابها وقت قصير حتى عادت مع التاجر وكان فى اشد حالات السكر فجلس فى الغرفة وواصل معاقرة الخمرة وطلب اكلا ولما نفذت دراهمه أرسل كانيوشا الى غرفه لتحضر له دراهم وقد سبق له ارسالها مرارا لانه كان يعرفها من قبل قالت ذلك ووجهت نظرها الى كانيوشا التى ابتسمت عندما التقى نظرهما حينئذ التفت محامي المتهمة المعين من قبل الحكومة الى السيدة وسألها قائلا

س — كيف تشهدين فى سلوك ماسلوفا

اشهد بها حسنا وأنها على كمال التهذيب وقد تربت في حضن عائلة

شريفة غنية وهي تجيد اللغة الافرنسية ولا تتعاطى كغيرها المسكر الا قليلا ولا اذكر مرة انها بلغت درجة الذهول والعربدة وبوجه الاجمال اقول انها فتاة محتشمة حسنة السيرة طيبة السريرة

واذ ذاك التفتت ماسلوفا الى السيدة ثم حولت نظرها الى القضاة ولما تقابل نظرها بنظر نيخليدوف قطبت وجهها فاحاق به خوف شديد واضطربت حواسه ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يحول نظره عن عينيها النجلاوين اللذين كان يزينها حاجبان طويلان وقليل من الخول رصعت على محياه تلك الليلة الظلماء التي قصد فيها غرة الفتاة والجليد يتكسر تحت رجليه والجريمة الفظيعة التي اقترفها ثم قال في نفسه لا شك انها رفضتني حينئذ تنفست الصعداء وحولت نظرها عنه الى رئيس المحكمة فنفس هو أيضاً وكان يتمنى ان تنتهي المسألة بسرعة وتمر ذلك الشعور الذي كان يشعر به اثناء اصطياده الطيور فعندما كان يطلق بندقيته ويقع الطير على الارض يتمرغ بدمه كان يفكر بقساوته ورداءة فعلته ويظهر الاسف ولكنه كان يذبحه وبعد قليل نسي كل شيء هكذا كان يشعر حين سماعه شهادة الشهود

١٠

ولكن الامر طال على عكس ما تمنى فان المحكمة استوعبت شهادة الشهود الواحد تلو الآخر وكان يخلل ذلك تداخل وكيل النيابة واعتراضاته الكثيرة التي ليس لها آخر وعقب ذلك دفاع المحامين ثم طلب رئيس المحكمة من القضاة أن ينظروا الادوات التي ترشد للوقوف على أسرار القضية . وكانت تلك الادوات مختومة بالشمع الاحمر وهي مؤلفة من خاتم ذهبي حجره من الماس كبير الحجم ثم الكاس التي دس فيها السم والزجاجة . وما عزم القضاة على

فحص تلك الاشياء حتى نهض وكيل النيابة وطلب تلاوة الكشف الطبي الذي اجرى على الجثة قبل فحص تلك الادوات .

فتكدر رئيس المحكمة لدى سماعه طلب وكيل النيابة لانه كان يحب سرعة انهاء الجلسة فى الحال لتأكده أن تلاوة الكشف الطبي لا ينجم عنه فائدة غير قتل الوقت وزيادة الملل فيتأخر عن وقت الغذآء الموعود به ولكنه كان يعلم جيداً أن وكيل النيابة محق فى طلبه فلم يشاء المعارضة فى ذلك فاخذ كاتب المحكمة يتلو الاوراق بلسان الثغ يخلط بين الظي الرآء واللام فقال :

— ظهر من الكشف الطبي الخارجي على الجثة ان طول التاجر سميلكوف بلغ ذراعين و١٢ سنتي

وانه يبلغ من العمر نحو الاربعين سنة ولقد كانت جثته منتفخة ولون جلده مخضرا وعليه نقط سوداء فى بعض الامكنة ولون شعره اشقر بني اذا لمسه احد كان يتساقط على الارض

وكانت عيناهُ جاحظتين جحوظا بيناً ويسيل من انفه وفمه مادة لزجة ورأسه لاصق بكتفه من شدة ورم رقبته وانتفاخ وجهه وصدره وهلم جرا الخ

وأما الكشف الطبي الداخلي فظهر منه ما يأتي : انسلاخ الجلد المغطي لعظام الجمجمة انسلاخاً خفيفا دون ان يشير الى شج اوكسر فى الرأس وظهور عدة بقع زرقاء في أماكن مختلفة من داخل الجسم وبالاختصار ان كلام الطبيب يدل على ان موت هذا التعيس ناجم عن فعل سم دس في الخمر فزق احشاءه وامعاءه ولكن لم يتحقق جيداً معرفة نوع هذا السم لامتزاجه بالخمر ولافراط شرب المسكين منها

وقد استغرقت قراءة هذه الملحوظات مدة ساعة من الزمن . فقال

الرئيس على أثر ذلك لوكيل النيابة ارى لالزوم لزيادة الايضاح عن الكشف الداخلي . فأجابه وكيل النيابة : اما انا فعلى عكس رأيك وأرى من الواجب ضرورة زيادة الايضاح حتى تستوفى المحكمة من الادلة وان على حضرة الرئيس ان يصغي بكل تروّ اكثر من غيره وكل من يعارض في ذلك يتعدى على القانون ولا يخفى ماينجم عن المعارضة من الاضرار

فالتفت احد اعضاء المحكمة ذو اللحية الطويلة المصاب بعسر الهضم الى رئيس المحكمة وقال : إني ارى أن لا لزوم لقرأة الكشف الداخلي لانه لا يفيدنا بشيء لاننا قد تحققنا بان الرجل مات مسموماً والتهمة ثابتة كالشمس في رابعة النهار

أما عضو المحكمة ذو النظارات الذهبية فلم يفه ببنت شفة لانه كان حاضر الجسم غائب العقل يضرب اخماساً باسداس لانه كان تعيساً في معيشته واكثر تعاسته من زوجته

وقد تغلب وكيل النيابة على الجميع وشرع كاتب الجلسة يقرأ التقرير الطبي فقال : في الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٨١ انا الواضع اسمي ادناه بناء على الامر الوارد لي من النيابة قد اجريت الكشف على التاجر سميلكوف فانضح لي ما يأتي :

— إن الرئة اليمنى والصدر متضرران من تأثير الخمرة التي كان الرجل دون شك من المدمنين عليها وكذلك المعدة متمزقة تمزقاً شديداً منتفخة وقس على ذلك بقية الاعضاء الباطنيه ...

ثم كثر الهمس بين الاعضاء وظهر عليهم الملل فقال اكثرهم جراءة الى كاتب الجلسه : إن المحكمة ترى نفسها مكتفية بما سمعت فلا لزوم لقرأ

هذا التقرير الطويل الممل فجمع الكاتب الاوراق فى الحال ووضعها فى محفظته. أما وكيل النيابة فقطب حاجبيه وظهرت على وجهه سمات الكدر . ثم التفت الرئيس الى المحلفين وقال لهم : يمكنكم الآن أن تشاهدوا ادوات القضية التي ضبطت . فنهض الجميع واقتربوا من المنضدة واخذوا يقلبون الخاتم والزجاجة والكأس فقال احدهم ما اكبر هذا الخاتم ويظهر أن اصبع التاجر كان اثخن من الحيارة فضحك لعبارته هذه جميع السامعين

ولما انتهى المحلفون من تعهد تلك الادوات أعلن الرئيس انتهاء الجلسة ثم التفت الى وكيل النيابة وقال له هل لك ما تقول ؟ على أمل ان يجيبه سلباً أو انه يوجز بالكلام رحمة بهم لانه انسان مثلهم يجنح عند الاقتضاء لطلب الراحة والاكل والتدخين ولكن من الاسف لم تتحقق ظنون الرئيس لان وكيل النيابة لم يشفق على نفسه ولا على واحد منهم بل نهض فى الحال منتصباً والقى بيديه على المنضدة وأحنى رأسه قليلا وألقى نظرة عامة على الجالسين متجنباً التقاء نظره بنظر المتهمين وقد سبق انه استعد لخطبة شائقة يظهر فيها فصاحته وبلاغته وكان من رأيه انه ينبغي ان يكون موضوعها اجتماعياً انتقادياً على مثال خطب مشاهير الرجال الذين أحرزوا الشهرة فأصبحوا من كبار المحامين اصحاب الثروة الكبيرة والاسم العظيم . ومع انه لم يكن فى الجلسة غير الموظفين والمتهمين سوى امرأة خياطة واخرى طباخة واخت سمعان الحوذي ونفر من الفلاحين لم يوقف ذلك وكيل النيابة عن الخطة التي رسمها لنفسه وهي أن يفتتح خطابه بانتقاد الهيئة الاجتماعية وكشف النقاب عن شرورها فقال

— ايها المحلفون الافاضل ! امامنا الآن قضيه من أهم قضايا هذا العصر تدل دلالة واضحة على التوحش والقساوة البربرية التي اتصف بهما الانسان الذي

هو اشرف مخلوقات الله وهو امر يسم الهيئة الاجتماعية بسمات العار والشنار وقد انتشر داء البغضاء داء الحسد والتفريق انتشاراً هائلاً فاصبح كل واحد من هذا المجتمع الانسانى يسعى سعى المجد للسلب والقتل وضرر اخوانه فى الانسانيه اليس من الواجب علينا أن نبذل الوسع فى ازالة هذا الشر والضرب على ايدي المفسدين بيد العدل والانصاف حتى يرعووا عن غيهم ويرتدعوا عن شرورهم ويخلدوا للسكينة والهدو والاشتغال بالاشغال الشريفة النافعة فتعم الراحة ويعم الهناء الخ

ولقد اطال الكلام حتى كادت تزهق ارواح الحاضرين من الملل وكان يحاول أن يجهد قريحته لاثبات ارائه بالبراهين الفلسفية والادلة العقلية وهو يسرد اقواله بسرعة زائدة وفصاحة غريبة ولم يتوقف عن الكلام فى مدة تزيد عن الساعة الا ريثما شرب قليلاً من الماء . وكان فى اثناء خطابه يغير صوته بحسب الظروف فتارة يخفضه وطوراً يعليه . وتارة يتلاعب برجليه وينظر فى دفتره ويحول نظره من جهه الى أخرى وبعد كلام طويل عريض واشارات وحركات دخل فى موضوع القضية فقال :

— إن سميلكوف كان رجلاً روسياً حقيقياً ضخم الجسم قوي العضلات عريض المنكبين طويل القامة سليم البنية ساذجاً وقد قادته سذاجته الى الوقوع بايدى اشخاص توغلوا فى الفساد وذهبوا فى الشرور كل مذهب لايفرقون الحلال من الحرام . وأما سمعان كارتينكين فانه رجل لايعرف له منبت وغاية ما يعرف عنه انه هي بن بي (١) من طبقة الفلاحين المستعبدين الاسافل فقد دب فى الازقة والشوارع وشب على ابواب الحانات واندية

(١) هى بن بى . هو الرجل المجهول الاب والام

الفساد حتى توصل الى الخدمة فى فندق حقير لا يدخله الا الفسقة الاشرار وبالاجمال لا اصل له ولا دين ولا مبدأ

واما أفيميا فكانت عشيقته وقد اتصفت بالمكر والدهاء والتوغل فى الفساد والموبقات والدعارة والميل الشديد الى ارتكاب الشرور

أما ماسلوفا فكانت فى هذه الحادثة كالبخار الذى يدير جميع الآلات وهى كما علمنا فتاة متعلمة متهذبة وقد أيدت ذلك صاحبة البيت الذى كانت مقيمة فيه عند انتظامها فى سلك المومسات وهذه الفتاة ولدت سفاحاً وتيتمت بعد ولادتها بقليل فتربت بين عائلة رفيعة المقام فى الهيئة الاجتماعية وتعلمت اللغة الفرنساوية بين افراد هذه العائلة وكان فى استطاعتها ان تقضي حياتها شريفة ضمن دائرة العفاف والاستقامة وتحصل رزقها بعرق جبينها فبدلا من ان تفعل ذلك تركت فجأة اولئك الناس الذين احسنوا اليها وكفوها شر العوز والفاقة وخاضت بحر الرذيلة وذهبت فى الفساد والخلاعة كل مذهب وكانت معارفها وادابها المقتبسة وسيلة للتأثير على الناس وجذبهم الى الوقوع فى اشراكها والدليل على صحة كلامى هو تأثيرها على التاجر سميلكوف الذى اغتر بادابها وظواهرها ووثق منها كل الوثوق حتى سلمها كل شيء وقد قادها سوء مبداءها وفساد اخلاقها الى سرقة ماله ثم اغتياله

ولما بلغ وكيل النيابة هذا الحد من الكلام كانت روح الرئيس قد بلغت التراق فتنفس الصعداء ومال الى العضو الذي بجانبه وهمس فى اذنه قائلا :

- ياله من ثرثارة مهذار ؟ فاجابه هذا

- والحق يقال فقد ازهق ارواحنا بكثرة فشره . أما وكيل النيابة فلم

يلتفت اليهما بل استمر فى مرافعته فقال :

- أيها المحلفون الافاضل .. لايخفاكم ان ادانة هؤلاء المجرمين وعقابهم بين أيديكم فاعلموا انه ملقى على عاتقكم فرض مقدس تطالبكم به الذمة والشرف والامن العام وهو ان تنظروا الى هذه القضية بعين الاهتمام وتطلبوا معاقبة هؤلآء المجرمين بأشد العقاب عبرةً لسواهم من الاشرار حتى نتمكن من تطهير هذا الوسط المقيمين فيه من ادران الفساد رحمة بالناس وحفظاً للارواح والاموال لان الامة التي اجلستكم على كراسي العدل وائتمنتكم المحافظة على الامن تطالبكم ان تضربوا بأيدٍ من حديد كل من يتجاسر على العبث بالراحة فينبغى عليكم ان تحققوا بكم الآمال

وقد تضمن خطاب وكيل النيابه عدا عن مقدمته السامية الخارجة عن الموضوع ان ماسلوفا اثرت على التاجر بادابها حتىً وثق منها فسلمها مفتاح صندوقه لتحضر منه دراهم ولما سارت الى الفندق سرقت جميع ما فى الصندوق وعند ما خرجت من غرفة التاجر رآها سمعان وافيميا ووقفا على ما فعلت فاستوقفاها فاضطرت الى مقاسمتهما وسارت الى غرفتها حيث كان التاجر ينتظرها وحتى تخفي فعلتها عادت مع التاجر الى الفندق حيث دست له السم فى الخمرة فقتلتهُ

وبعد ان انهى وكيل النيابة كلامه وجلس مكانه نهض أحد المحامين وكان يبلغ من العمر نحو الاربعين سنة مرتدياً رداءه الاسود الطويل وأخذ يدافع عن سمعان وافيميا دفاعاً شديداً وحاول تبرئتهما والصاق التهمة كلها بماسلوفا وكان هذا المحامي قد قبض من المتهمين ٣٠٠ روبل لقآء مدافعته عنهما ثم وقف محامى ماسلوفا ودافع عنها دفاعاً طويلاً ولم ينكر انها اشتركت مع

سمعان وافيميا فى سرقة النقود ولكنه حصر كلامه كله فى إثبات ان موكلته عند ما ذرت المسحوق فى الخمرة لم تكن تعلم انه سم بل قدمته له وهي على ثقة واعتقاد بانه مسحوق مخدر ينام التاجر على اثر مناولته فترتاح منه لانه كان قد ضايقها مضايقة شديدة ثم قال ان ماسلوفا هذه فتاة ساذجه بسيطة اشتهرت فى حداثتها بحسن السيرة والسريرة ولكن أحد الشبان قد استمالها بمكره اليه وفض بكارتها ومن ثم قادها الى ولوج معيشة الفساد وافاض المحامى فى الكلام فى وصف قساوة الرجال واعمالهم السيئة وما يأتونه من الشرور فى الهيئه الاجتماعيه ويسببونه من التعاسه الى العذارى المنكودات الحظ . فالتفت اليه رئيس الجلسه وقال له قد خرجت عن الموضوع فعد اليه

وبعد ان انتهى من مرافعته قام وكيل النيابة للمرة الثانيه ورد على اقوال المحاميين وافاض فى الكلام . ثم قال رئيس المحكمة للتهمين ان يدافعوا عن نفوسهم اذا كان لديهم شئ يقولونه فقالت افيميا انها لا تعرف شيئاً وانها بريئه مما نسب اليها وان الحق كله على ماسلوفا . أما سمعان فقال : انتم احرار فيما تحكمون به علىَّ وانما أنا بريء فاقضوا ما أنتم قاضون . أما ماسلوفا فلم تفه ببنت شفه دفاعاً عن نفسها بل انها القت نظرة حادة على رئيس المحكمه ووكيل النيابة وجمهور الحاضرين وهبطت على مقعدها كالحيوان المسموم واجهشت فى البكاء والنحيب

فتأثر نيليدوف من فعلتها تأثيراً شديداً واخرج من صدره نفساً حاراً ثم تأوه فقال له المحلف الجالس الى جانبه ماذا جرى لك فلم يرد عليه لانه كاد يفقد رشده وترقرق الدمع فى عينيه ثم لبس نظارته ليخفي دموعه وأخذ منديله وجعل يمسحها وقد احاق به خوف شديد لانه تصور العار العظيم الذي كان يلحقه لو عرفت المحكمه والحاضرون انه هو الذى اقترف تلك

الجريمه الشنعآء مع ماسلوفا وقادها الى الفساد

وبعد نهاية كلام المجرمين قام رئيس المحكمه ليقول كلمته ومع رغبته فى الاسراع لم يستطع تغيير ما فطر عليه وهو عدم التوقف حين بدئه فى الكلام فوجه خطابه الى المحلفين وقال :

- أيها السادة قد سمعتم باذانكم وقائع هذه القضيه فاذا رأيتم بعد امعان الفكرة ادانة المجرمين أو برآتهم فصرحوا بحرية ضمير لان الامور موكولة لفطنتكم والمسؤليه ملقاة على عاتقكم ثم افاض فى الكلام طويلا حتى نسى نفسه والموقف الذي هو فيه وحينئذ فتح ساعته فوجد الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر فاستكبر الامر كثيراً واراد فضّ الجلسه فى الحال ولكن طبعه الغريزي غلب عليه فاستطرد المقال وردد كلام وكيل النيابة وفند اقوال المحامين وطعن فى شهادة الشهود وقد كانت الانفاس تتصاعد من صدور الجالسين الى جانبه الذين مع اعترافهم بطلاوة كلامه ظهر لهم الوقت أطول من شهر الصوم فكانوا تارةً يسمعون وطوراً يتثاءبون واخرى ينظرون الى ساعاتهم وقد ظهرت عليهم سيماء الملل والضجر وبعد ان انهى الرئيس كلامه وأراد الجلوس عاد الى الكلام ثانية وقال : ينبغي عليكم أيها المحلفون الافاضل ان تنظروا فى هذه القضية نظر العدالة و لانصاف وان تطرحوا الغايات جانباً ولا تسيئوا استعمال وظيفتكم لانكم اقسمتم الايمان المقدسة بانكم لاتحيدون عن جادة العدل والحق انتم ضمير الامة الحيّ ولا يبرح عن اذهانكم ان ما تتداولون به لاينبغي ان يتجاوز جدران هذه الغرفة المجتمعين بها ..

ومن حينما ابتدأ الرئيس بكلامه لم تحفض ماسلوفا نظرها عنه فكانت صاغية اليه بكليتها حتى لاتفوتها كلمة من كلامه وذلك كان نيليدوف مرتاح

الضمير لانها لم تنظر اليه . أما هو فكان موجهاً نظره اليها وقد تولدت فى افكاره تلك المشاهد المعتادة التي تحدث لكل انسان عند ما يرى حبيباً له أو صديقاً غاب عنه مدة طويلة . ففي بادي الامر ظهر له انها تغيرت كثيراً عما كانت فى أيام صغرها فى دار عمتيه . ثم أخذت تلك الاوهام تزول من مخيلته شيئاً فشيئاً فتجلت له ماسلوفا بجمالها وانها لم تزل كما كانت من قبل ولم يحدث عليها أدنى انقلاب أو تغيير

وبقطع النظر عن ردآء السجن الغليظ الذى يشبه المسح وعن جسمها الذى اصبح سميناً ممتلئاً وصدرها العريض ووجهها الذى شوهته بعض التشويه الاطلية الاصطناعيه فقد شاهد أمام عينيه كاتيوشا كما شاهدها فى ليلة عيد الفصح باسمة فى وجهه ابتسامة الطهارة تنظر اليه بتينك العينين المملؤتين سروراً وابتهاجاً واملاً عظيمة فى الحياة

ثم قال ما اغرب هذه الحوادث العجيبة فقد ظننت انني لا اشاهدها فى هذه الحياة الدنيا مرة أخرى وها قد اتيح لي ان اراها ولكن على مقعد المجرمين فبماذا تنتهي هذه الحادثة المريعة آه ما احرج مركزى وما اصعبه ؟ ولكنه مع ذلك لم يخضع لعاطفة الندامة لانه عدّ هذا الحادث الفجائي المريع الذى فاجأه عرضياً يزول بزوال المسبب ولا يكون سبباً لنكد حياته ولكنه مع ذلك شعر بنفسه كما يشعر الهرّ الصغير الذي يختلس فرصة لدخول الغرف المفروشة بالرياش الثمين ويملأها بالاوساخ والاقذار فاذا ما رآه صاحبه امسك بذيله ورماه بعد ان يضربه ضرباً مبرحاً فيأخذ يهرّ هريراً شديداً ويحاول الابتعاد عن الغرفة التي ملأها باوساخه وصاحبه يجره ليريه فعلته الذميمة . وهكذا فان نيليدوف شعر بعظم الجريمة التي اقترفها وشعر

بيد قوية قابضة على عنقه ولكنه حتى هذه اللحظة لم يكن يفقه ما عمل بل كان يحاول ان يطرد عنه الفكر القائل بانه هو السبب فى وصول ماسلوفا الى ارتكاب تلك الجريمة ووقوفها الآن أمام القضاء فكان لايريد ان يصدق ما تراه عينه وتسمعه اذناه فتجلد واظهر عدم الاكتراث ووضع احدى رجليه على الاخرى وأخذ يتلاهى بسلسلة نظارته المتدلية من ورآء اذنيه ولكنه كان يشعر فى نفسه بعوامل متضادة كادت تمزق احشاءه فانه شعر أيضاً برداءة عمله وفظاعته ثم وفظاعة معيشة الفساد والخلاعة والدعارة على وجه العموم وتمثلت أمام عينيه عيشته الفاسدة فى الاثنى عشر عاماً الاخيرة وانه كان مغتراً بهذه الحياة الدنيا حتى انطلى عليه غرورها وفسادها فتهور فى ارتكاب الموبقات وتوغل فى الفساد فاضطرب لدى ذلك اضطراباً شديداً واوجس خيفة من سوء سريرته وحرج مركزه

« ٢١ »

وبعد ان انهى الرئيس خطابه طوى دفتر الاسئلة ودفعه الى الكاتب حينئذ نهض المحلفون والسرور بادٍ على وجوههم لارفضاض الجلسة وخرجوا الواحد تلو الآخر ودخلوا غرفة المداولة واوصدوا بابها واذ ذاك تقدم أحد الجنود واستل حسامه والقاه على كتفه ووقف على باب الغرفة

وعند ما أخذ كل من المحلفين مكانه أخذوا يدخنون كجارى عادتهم وقد زال من نفوسهم الضجر والملل اللذين استحوذا عليهم فى غرفة الجلسة وعلى اثر ذلك شرعوا يتداولون بأمر القضية

فقال التاجر : من رأيي ان الصبية غير مذنبة فيجب علينا ان نرفق بها ونخفف عنها اوزار العقاب

فاجابه الرئيس : انك لمخطئ فى رأيك وينبغي علينا أن ننظر الى الحق لا ان نرضخ لعواطفنا الداخلية

قال المحلف الاسرائيلي : ان خادمة المنزل لم تكن عالمة بوجود الاوراق المالية فى صندوق التاجر ولو لم تعلمها بذلك ماسلوفا وتتفق معها على اختلاسها لما جرت السرقة وعقبها تسميم التاجر

قال أحد الاعضاء : فعلى رأيكم انها هى السارقة

فاجابه آخر : هى هى بعينها تلك اللكاع سرقت المال وقتلت الرجل

قال آخر : وأنا اوافق على هذا الكلام لان مفتاح الصندوق كان معها

قال آخر : وخاتم التاجر أيضاً

فقال التاجر : فى المسألة نظر يجب علينا ان نلتفت اليه بانتباه وهو ان المجرمة الصبية قالت ان التاجر بعد ان لعبت برأسه الخمرة ضربها ضرباً مبرحاً بكت منه بكاءً مراً ونفرت نفور الغزال الشارد فاسترضاها بأن دفع اليها خاتمه مع وجود الفرق العظيم بين حجم اصبعها واصبعه

قال آخر : الامر الذى يجب ان نبحث عنه هو هل انها من تلقاء نفسها عزمت على سرقة اوراق التاجر المالية أو ان خادمة المنزل اغوتها على ذلك

قال آخر : لايمكن ان تكون الخادمة اغرتها على ذلك لان المفتاح كان معها وليست فى احتياج الى اغراء أو تحريض

وهكذا دامت هذه المناقشة التافهة وقتاً طويلاً . واخيراً قال الرئيس هلموا بنا نجلس حول المنضدة ونتباحث بالقضية ثم نحلها حلاً يطابق العدل والانصاف . واذ ذاك قال أحد المحلفين ان الغانيات الفاسدات يقترفن اموراً كثيرة مع الذين يترددون عليهن وتأييداً لكلامه قص على سامعيه

رواية حدثت لأحد اصدقائه مع مومسة سرقت منه ساعته

ثم أخذ كل واحد يورد رواية من هـذا القبيل . فقال أحدهم ان غانية سرقت ابريق شاى من الفضـة وغير ذلك من الـكلام الذى لا طائل تحته ولا فائدة حتى زهقت روح الرئيس فضرب بقلم الرصاص على المنضدة وقال : أيها السادة ارجوكم ان تجيبونى على الاسئلة الآتية

اولاً - هل تصح ادانة الفلاح سمعان بتروف أحد سكان باركوف البالغ من العمر ٣٣ عاماً بانه صمم النية على اغتيال التاجر سميلكوف لكى يتمكن من سرقة ماله بالاتفاق مع اشخاص آخرين فدس له السم فى كأس من الخمر توفى التاجر على اثر تناوله ثم سرق منه سمعان المذكور الذى كان خادماً فى النزل ٢٥٠٠ روبل وخاتماً من الماس ؟

ثانياً - هل تصح ادانة خادمة النزل افيميا ايفانوفنا البالغة من العمر ٤٣ عاماً فى الجريمة المذكورة ؟

وهل تصح ادانة الغانية كاتيوشا البالغة من العمر ٢٧ عاماً فى هـذه الجريمة كما ذكر فى السـؤال الاول ؟

ثالثاً - اذا كانت الخادمة افيميا غير مدانة بالسؤال الاول فهل هى غير مدانة فى كونها سرقت من صندوق التاجر الذى كان مقيماً فى النزل ٢٥٠٠ روبل حيث اعدت لفتح الصندوق مفتاحاً يفتحه فارجوكم أيها السادة ان تجيبوا على السؤال الاول فاجاب اكثر الاعضاء عليه بسرعة دون تروّ وقالوا اننا جميعاً نوافق على ان سمعان خادم النزل اشترك فى جريمة تسميم التاجر وسلب ماله . غير ان احد المحلفين وهو شيخ جليل احنت الايام ظهره لم يوافقهم على ادانة أحد لانه كان يميل من طبعه دائماً ابداً الى تبرئة المتهمين أيّاً كانوا

ولما عارضه الرئيس برأيه قال :

اننا نخطئ فى اتهام هؤلاء التعساء لاننا لسنا الهة أو قديسين حتى نعلم الغيب ونكون على ثقة من صحة ادانتهم وخير لكل انسان ان يكون متصفاً بالرحمة والشفقة والحنان ثم اخذ الاعضاء يتداولون للاجابة على السؤال الثاني وبعد مناقشة طويلة قرّ رأيهم على ان خادمة النزل ليس لها يد فى الجريمة لعدم وجود الادلة القاطعة ولان محاميها دافع عنها بادلة لم تدع ريباً فى كونها بريئة

غير ان المحلف التاجر توطئة منه لتبرئة ماسلوفا حاول اقناع المحلفين بان الخادمة لها اليد الكبرى فى الجريمة وانه لايحتمل مع وجودها فى النزل ووجود المال معها ان تكون بريئة كما تدعون فاستمال بكلامه بعض الاعضاء الى رأيه

ثم اجاب المحلفون على بقية الاسئلة بان الخادمة لها يد فى الجريمة ولكن حالتها تدعو الى معاملتها بالرفق والحنان

واحتدم جدال عنيف بين المحلفين كاد يفضي بهم الى النزاع بشأن ادانة ماسلوفا فقال رئيسهم : لا ريب فى كونها مجرمة فانها هى دفعت الى التاجر كأس الخمرة الممزوج بالسم . وهي التي فتحت صندوقه وسرقت منه النقود وهي .. وهي .. فعارضه التاجر فى كلامه معارضة عنيفة محاولاً تبرئة ماسلوفا الحسناء وانضم الى رأيه عضوان آخران وأما بقية الاعضاء فلم يبالوا بالامر كثيراً ولذلك كان وجودهم وعدمه سيان فأخذ فكر الرئيس يعلو ويتأيد ذلك لان الملل استحوذ على اكثر المحلفين الذين كانوا يحاولون انهاء المداولة ليتخلصوا من هذا العبء الثقيل الذى القي على عاتقهم دون ان يهتموا

ادين هذا أم نبراء ذاك

أما نيلدوف الذى كان مهتما بهذه القضية اهتماماً عظيماً لعلاقته بها فقد كان واثقاً بناءً على معرفته لماسلوفا بانها بريئة من التهمة التى اتهمت بها وكان يظن بان جميع زملائه يعتقدون اعتقاده فيقررون برأتها ولكنه خاب ظنه حين رأى دفاع التاجر لم يجدِ نفعاً لان الرئيس وبقية الاعضاء لحظوا ان جمالها الفتان خلب لبه فحمله على الدفاع عنها

ثم ان مللهم من طول الوقت ورغبتهم فى سرعة الخروج حملاهم على ان يعجلوا بكتابة تقريرهم وفيه ادانة ماسلوفا ولما رأى نيلدوف ذلك همَّ بالدفاع عنها وتبرئة ساحتها لكنه عاد فرجع عن عزمه وقال اذا اقدمت على هذا الامر الجسيم فلا ريب ان الرئيس والمحلفين يدركون سر الامر ويعلمون بعلاقتي القديمة مع ماسلوفا فينفضح امري ولكنه كان يشعر بعامل خفي يدفعه للدفاع عنها وتبرئتها وقد قوي هذا العامل حتَّى تغلب على جميع افكاره فتغيرت سحنته على اثر ذلك واحمر وجهه وعزم على ان يتكلم بجسارة وحزم ولكنه قبل ان ينطق بكلمة سبقه بالكلام بطرس جراسيمو فتش أحد المحلفين الذي كان حتىَّ هذه الدقيقة صامتاً فقال :

ـ ان الصاق التهمة بهذه الفتاة هو ظلم وشين لان التهمة غير ثابتة عليها . تقولون انها سرقت الدراهم من صندوق التاجر لان المفتاح كان بيدها وذلك ليس بالدليل الكافى لادانتها وتخصيصها بالتهمة دون سواها لان خدمة المنزل يقدرون على فتح الصندوق وكسره اذا لزم الحال فالامر سهل عليهم لانهم من ادنياء القوم

فانشرح صدر التاجر لدى سماعه هذا الكلام وقال : لقد صدقت أيها

الزميل الفاضل بما نطقت لان هذه المسكينة لم يخطر فى بالها اختلاس النقود لان حالتها التي هى فيها لاتدع لها مجالا لاخفائها فى مكان لاتصل اليه أيدي الباحثين وزد على ذلك ان دخولها للغرفة حرك فى نفس الخادمين الميل الى اختلاس نقود التاجر فبعد ان اخذت ماسلوفا من الصندوق ما امرها التاجر باحضاره انتهز الخادمان الفرصة وسرقا الباقى من المال والقيا الذنب كله عليها

وكان بطرس جراسيمو فتش يتكلم بحدة وتأثر شديدين الامر الذى اغاظ الرئيس فجعله يتمسك برأيه تمسكا شديداً ولكن خصمه استمال بقية الاعضاء بسداد براهينه وقوة حجته حتى وافقه اكثرهم على براءة ساحة ماسلوفا وعلى انها لم تشترك بسرقة المال وان الخاتم اهداه اليها التاجر نفسه

ولما أخذوا يبحثون فى امر التسميم قام بينهم جدال عنيف فقال التاجر انها بريئة من ذلك براءة الذئب من قميص يوسف لانه لم يوجد سبب يدفعها الى اقتراف هذه الجريمة . فعارضه الرئيس بقوله : كيف تعتقدون ببراءتها بعد ان اعترافها بانها ذرت المسحوق فى كأس الخمرة

فقال التاجر : نعم انها فعلت ذلك واثقة بأنّ ما ذرّته افيون مخدر ينوم التاجر الذى ازهق روحها بسكره وعربدته فقال أحد المحلفين : ان الافيون سمٌّ فتّال ولكى يظهر لزملائه حدة ذهنه وفرط ذكائه أخذ يورد لهم نوادر عمن فعله وختم قوله بأن احدى النساء من قريباته تناولت ذات ليلة كمية قليلة منه فظهرت عليها اعراض التسمم فى الحال ولو لم يتداركها الطبيب لقضت نحبها

فعارضه آخر وقال : ان هذا امر بعيد الوقوع فان كثيراً من الناس تتناولون الافيون كما يتناولون المخدرات فلا يحصل لهم أقل تأثر

فصاح أحد المحلفين بأعلى صوته قائلاً : كفاكم جدالا فقد بلغت الساعة الرابعة

فقال الرئيس : لا بأس فلنقرر انها مجرمة ولكنها لم يكن لها يد فى فتح الصندوق وسرقة الدراهم

فسرَّ جراسيمو فتش بهذا القرار لانه فاز برأيه . قال التاجر : ومع ذلك يجب تلطيف عقابها والشفقة عليها . وقال آخر : لا . لا انها بريئة من كل شيء

فقال الرئيس : انى اوافقكم على براءتها وعدم ادانتها فى كسر الصندوق وسرقة المال أليس هذا ما تريدون ؟

فقال التاجر فى نفسه : ما اغرب اخلاق هذا الرجل فبعد ان ناقشنا مناقشة عنيفة نراه الآن يوافقنا . ولم يدرِ انه خدع هو وبقية الاعضاء بحيث انهم لم ينتبهوا لمكر الرئيس ودهائه فانه موه بكلامه على افكارهم وختم القرار بالعبارة الآتيه .

« نعم هى مجرمه ولكنها لم تقصد اماتة الرجل »

وكان نيليدوف مضطرب الافكار فلم يلحظ العبارة الايجابيه التي ختم بها القرار وعليه ارسلت الاوراق الى المحكمه وقضي الامر

واذ ذاكَ خرج المحلفون من غرفة المداولة ودخلوا المحكمة حيث كان القضاة جالسين على كراسيهم وكان يلوح على وجه رئيس المحلفين سيماء الظفر والابتهاج فتقدم من رئيس المحكمة ودفع اليه القرار فقرأه هذا بانتباه وامعان فاستغرب ما فيه وأخذ يفرك يديه بدهشة وينظر الى زملائه بحيرة لانه قرأ اجابتهم على السؤال الاول فرأى انهم نفوا تهمة السرقة عن ماسلوفا حيث

كتبوا فى القرار « لم يكن ما يدعوها الى سرقة المال » ولكنهم عند اجابتهم على الشرط الثانى المحتوي على التسميم لم ينفوا التهمة عنها بل ختموا القرار بقولهم « لم تكن تقصد اماتة الرجل » وينتج من ذلك ان ماسلوفا لم تكسر الصندوق ولا سرقت الدراهم ولكنها دست السم للتاجر بدون غاية سيئة ولذلك قال الرئيس للقاضي الجالس عن يمينه اقرأ هذا القرار تجد سداه المكر ولحمته الذهاء والخداع فمن جهة يقولون انها بريئة ومن جهة اخرى يلصقون تهمة قتل التاجر بها الامر الذي يدعونا الى الحكم عليها بالاشغال الشاقه

فاجابه أحد الاعضاء لدى اطلاعه على القرار : كيف يقولون انها بريئة وكيف يلصقون بها تهمة القتل واظن ان هذا القرار كتب بدون تروي الامر الذى يدعونا الى السير بمقتضى المادة ٨١٨ الناطقة بانه اذا رأت المحكمة القرارات مرتبكة وحائدة عن جادة العدل والانصاف تحتم عليها تغيير قرار المحلفين فالتفت الرئيس الى الاعضاء وقال لهم ما رأيكم فى ذلك ؟ فاجابه أحدهم : لا نستطيع تغيير القرار مطلقاً ولا ان نتعرض له بشيء لئلا نعرض انفسنا للانتقاد ومن يستطيع اسكات الجرائد (١) عند ما تخوض عباب هذا الموضوع وتبني عليه المقالات الضافية والشروح الوافية وتحمل على القضاة بقوارص الكلام وتنادى بأعلى صوتها بان المحلفين يدينون المجرمين والمحكمة تبرؤهم

حينئذ نظر الرئيس الى ساعته وقال : انني متأسف جداً ولكن لا حيلة لي بما حصل ثم كتب بعض اسئلة ودفعها الى رئيس المحلفين ليجيب عليها فنهض الجميع واقفين ثم فتل هذا شاربيه وسعل سعالاً شديداً وقرأ الاسئلة واجاب

(١) الجرائد نفير السلام وصوت الامة وسيف الحق القاطع ومجيرة المظلومين وشكيمة الظالم فهى تهز عروش القياصرة وتدك معالم الظالمين

عليها بصوت جهوري دوى فى جميع انحاء الغرفة فدهش القضاة ورئيس النيابة والمحامون من اجوبته السخيفة الشاذة

وكان المتهمون جالسين فى محل المجرمين لايبدون حراكا وكانت هيئتهم تدل على انهم لم يفهموا فحوى اجوبة المحلفين فالتفت اذ ذاك الرئيس الى وكيل النيابة وطلب منه تعيين العقوبة على المجرمين . فسر وكيل النيابة لثبوت التهمة على ماسلوفا ونسب ذلك الى تأثير خطبته الرنانة فوقف وطلب ان يعاقب المجرمون أشد عقوبة . فنهض رئيس المحكمة وقال للقضاة هلموا بنا للمداولة فتبعه الجميع

واذ ذاك دنا جراسيموفتش من نيلدوف وقال له : اننا ياصاح حكمنا حكماً جائراً ودفعنا هذه المسكينة بأيدينا الى التهلكة فانتفض نيلدوف كعصفور بلله القطر وقال له والدم يكاد يصعد الى رأسه كيف ذلك ؟ ماذا تقول ؟

ـ لاتعجب ياصاح فقد نبهتني قراءة التقرير الى عبارة دست فيه بدون ان ندرك معناها وهى « انها مجرمة ولكنها لم تكن تقصد اعدامه الحياة » وعلى هذه الجملة طلب وكيل النيابة عقابها ١٥ عاماً بالاشغال الشاقه . حينئذٍ دنا منهما رئيس المحلفين باسما وقال لهما : لاتكثرا من الحدس والتخمين فقد قضي الامر الذي به تستفتيان

فأخذ جراسيموفتش يحاجهُ فى الكلام بقوله : اذا ثبت انها لم تختلس المال فمن المستبعد ان تقدم على قتل الرجل

فاجابه الرئيس : اني القيت على مسامعكم الاجوبة قبل خروجنا من الغرفة فلم يعترض واحد منكم عليها

فقال جراسيموفتش : اني كنت خارج الغرفة فى اثناء ذلك وقال نيليدوف : وانا كنت غائب الذهن بعيد العقل فلم انتبه لذلك مطلقاً ولكنّا على ما اظن يمكننا الآن رتق الفتق واصلاح غلطتنا الفظيعة . فقال بطرس انّى لنا ذلك وقد قضي الامر ووقع الطير فى الشرك

فانفطر قلب نيليدوف حين سمع ذلك وحول نظره نحو المتهمين فرأى ماسلوفا هادئة بادية على محياها ابتسامة لطيفة حركت عواطفه نحوها وزادت هيامه بها . ومن الغرب انه كان قبل هنيهة يرجو براءتها واطلاق سراحها وكانت فى نفسه عوامل شديدة تقاوم بعضها بعضاً من جهة علاقته بها بين هجرها أو تجديد الحب القديم معها الذى لم تزل اثاره مرسومة فى فؤاده وأما الآن فان سيبيريا والاشغال الشاقة قضتا على اميالها

« ٢٢ »

وقد تحققت ظنون بطرس جراسيموفتش فان رئيس المحكمة عاد من غرفة المداولة وبيده ورقة تضمنت الحكم فقرأه كما يأتى :

باسم جلالة القيصر المعظم قد حكمت المحكمة بعد الاطلاع على اوراق القضية واخذ رأي المحلفين بناء على المواد ٧٧١ و٧٧٦ و ٧٧٧ من قانون العقوبات على سمعان كارتينكين البالغ من العمر ٣٣ عاماً وعلى كاترينا ماسلوفا البالغة من العمر ٢٧ سنة باسقاطهما من الحقوق المدنية والاشغال الشاقة فى سيبيريا الاول لمدة ثماني سنوات والثانية لمدة اربعة اعوام وعلى الخادمة افيميا بالسجن ثلاثة اعوام مع الاشغال الموقتة مع اجبارهم جميعاً بدفع المصاريف القضائية بالتضامن فيما بينهم واذا تبين عدم اقتدارهم على دفعها فتضاف على جانب الحكومة وأما الاشياء المضبوطة فتباع بالمزاد العمومى ويضاف ثمنها

الى خزينة الحكومه

فلما سمع كارتينكين هذا الحكم تجلد ولم يبدِ اقل حركة تشير الى التأفف أو التأسف وكذلك الخادمة وقفت صامتة ولم تبد حراكاً أما ماساوفا فاحمر وجهها احمراراً شديداً وصرخت بأعلى صوتها انني بريئة من هذه التهمة الباطلة ؟ . . حرام عليكم ان تحكموا عليّ بمثل هذا الحكم الجائر الصارم لانني بريئة كما يشهد الحق جل جلاله صدقوني وثقوا انى لا اقول غير الحقيقة ثم سقطت على المقعد واجهشت بالبكاء والنحيب . . .

ولما خرج كارتينكين وافيميا الخادمة لبثت هى فى مكانها تسقط العبرات الحارّة حتى اضطرّ أحد رجال البوليس الى اسكاتها فاستولت الكآبة على نليدوف من هذا المرأى المحزن وقال فى نفسه لا - لا يمكن ان ابقى الامر على حاله واسرع مقتفياً أثرها الى الخارج دون ان يدرى ماذا يفعل واراد التفرّس فى وجهها مرّة أخرى وكان الازدحام شديداً على الباب وبدأ المحامون والمحلّفون فى الخروج فاضطرّ الى الانتظار بضع ثوانٍ ولما بلغ صحن الدار كانت قد اجتازت مسافة طويلة فاسرع وراءها دون ان يبالي بما احدثه من الاستلفات وادركها وسبقها ثم وقف . وكانت قد كفكفت الدمع واخذت تصعد الزفرات وتمسح خدّيها بمنديلها فمرّت دون ان تلتفت اليه . ثم عاد ليرى الرئيس وكان هذا قد برح غرفة المجلس فتبعه نيلدوف الى الدهليز حيث كان يرتدي رداءهُ الثقيل وماذّا يدَهُ ليتناول عصاه المفضّضة من الخادم فقال له نليدوف هل يمكنني ياسيدي ان اتبادل معك بعض كلمات فى شأن القضية التي حكم فيها الآن وانا واحد من المحلّفين . فاجاب الرئيس بلا ريب أيها الامير نيليدوف وانى اسرُّ بمحادثتك واظنّ انّا تقابلنا قبلاً وضغط

على يده متذكراً تلك الليلة الزاهرة التي اجتمع فيها بنليدوف لاوّل مرّة وقام بين الاكابر والاعاظم وربّات الجمال راقصاً طروباً وفاق برقصه جميع اقرانه الشبّان ثم قال لنليدوف بماذا يمكنني ان اخدمك ؟

قال نيليدوف قد وقع خطاء في الاجوبة على مسأله ماسلوفا فانها غير مذنبة في امر التسميم ومع ذلك فقد قضي عليها بالاشغال الشاقّة . فاجاب الرئيس انّ المحكمة اصدرت حكمها مستنداً الى جوبة المحلفين وانت واحد منهم مع انها لم تكن سديدةً ومنطبقة على الواقع . ثم تذكر انهُ اراد ان يوضح للمحلفين ان الحكم بالادانة يراد به الادانة بتعمد القتل ما لم يشفع بكلمات « عدم تعمد قتل النفس » ولكن رغبته في انهاء الجلسة وسرعة الخروج جعلته يغفل هذا الايضاح الهامّ

فقال نيليدوف أليس في الامكان ملافاة هذا الخلل ؟

اجاب الرئيس . كيف لا وامامك الاستئناف وعليك بامر المحامين واوسعهم شهرة قال هذا ووضع قبعته على رأسه وهمّ بالمسير

فقال نيليدوف : أليس ان الحكم خارج عن حد العدالة الامر الذي لاتحتمله النفوس الابية كيف انه بسبب غلط أو قصد بعض الرجال يدفع القضاء شخصاً بريئاً الى لجج العذاب ويحكم عليه بالاشغال الشاقة بضعة اعوام

واذ كان القاضي لايريد تكدير نيليدوف عاد الى مكالمته فقال : اعلم أيها الامير ان ماسلوفا كان ينتظر لها في المحكمة أحد امرين أما براءتها والاكتفاء بالمدة التي سجنتها ؟ أو الحكم بالاشغال الشاقة فلو زاد المحلفون في تقريرهم بشأنها العبارة الآتية وهي « ذرت السم في الكاس دون ان تعرفه سمًّا ولم يكن لها قصد بقتل التاجر » لكان في الامكان براءتها ولكن مافات لا يُرَدّ

فقال نيليدوف : ان الافكار التي كانت متراكمة علي حالت دون الانتباه الى ذلك المعنى

فقال القاضي . هى غلطتكم ربما امكن اصلاحها فى الاستئناف ثم نظر الى الساعة فوجد باقياً للميعاد الذي حددته له كلارا ٤٥ دقيقة فركب العربة فى الحال وقال للحوذي الى شارع دفور بانسكى ولكَ اجرة نظير ذلك ٣٠ كوبيكا (١) اذا اسرعت فى المسير قال هذا ثم التفت الى نيليدوف وقال له : — عليك بأحد المحامين المشهورين وانى مستعد دائماً لتقديم كل خدمة تلزم فى هـذا الشأن ثم احنى رأسه متبسما وسارت به العربة تنهب الارض نهباً

***

ان الهواء اللطيف ومحادثة رئيس الجلسة انعشا نيليدوف وسرّيا عنه ذلك الاضطراب الذي كان مستحوذاً عليه ثم أخذ يناجى نفسه بقوله : يتحتم علي ان اقوم بكلما يخفف الآمها ويزيل كربها واحزانها ثم رجع الى المحكمة ليسأل عن مكتب فونارين وميكشين أشهر محامي ذلك العصر وبينما كان سائراً فى الدهاليز صادف فونارين خارجا فاستوقفه قائلا : انى فى حاجة للاجتماع بك لمفاوضتك فى أمر هام . وكان المحامى يعرف اسمه ووجهه فاجابه : اننى باستعداد تام للقيام باوامرك وبما يعود لسرورك وارتياحك ولو انني متعب الآن فلا بأس من سماع ما تأمر به فهلمّ بنا الى هذه الغرفة . فدخلاها وكانت مكتباً لأحد القضاة ولما استقر بهما المجلس قال المحامى :

= تكرم بافادتى ياسيدي عما تريد

= أول ما ارجوه هو ان لايطلع أحد على مداخلتي فى الامر الذي

(١) كناية عن خمسة غروش صاغ

ساعهده اليكم .

= هذا امر لايحتاج الى الارتياب والشك

= كنت اليوم محلفاً فى احدى الجلسات وقد البسنا جريمة لامرأة بريئة الامر الذي يعذبنى عذاباً شديداً ويبكتنى ضميرى عليه . وعند هـذه الكلمة احمر وجهه . فتفرس فيه المحامى ثم خفض نظره واصغى لتتمة الحديث . فقال نيليدوف اننا حكمنا على بريئة واريد الآن ان ارفع القضية الى محكمة الاستئناف العليا ، والى مجلس السنات « الشيوخ » اذا لزم الامر وساعهد اليكم الاشتغال بهذه القضية وانا مستعد لدفع الاتعاب وجميع النفقات التي تتطلبها القضية مهما كثرت

فقال المحامى : هذا امر لانختلف عليه وانما ارجوك ان تخبرنى عن القضية فقصها عليه نيليدوف تفصيلا

فقال المحامى . حسناً انى غدا اطلع على اوراقها فشرفنى يوم الخميس الساعة السادسة مساء الى مكتبي فاجيبك الجواب البات أما سلباً أو ايجاباً فودعه نيليدوف وانصرف

ان محادثة نيليدوف للمحامى واخذه على نفسه الدفاع عن ماسلوفا اراحا ضميره جداً ولما استقبل الهوآء المنعش خارج المحكمة زال عنه الانقباض . وكان الطقس معتدلاً فسار ماشياً على قدميه دون ان يلتفت الى الحوذية الذين كانوا يعرضون عليه عرباتهم وفيما هو سائر تراكمت عليه الافكار والهواجس ومرّت فى مخيلته تلك الجريمة الفظيعة التي ارتكبها مع ماسلوفا فاضطرب ضطراباً شديداً وقال فى نفسه يجب علي الآن طرد هذه الافكار والجنوح لى التسلية والانشراح . ثم ذكر دعوة اسرة كورتشاكين له لمناولة طعام

الغداء فنظر الى الساعة ثم جرى ورآء القطار الكهربائى الذى كان مارًّا فركبه مسافة ثم نزل منه وركب عربة وبعد عشر دقائق كان على باب بيت اصحاب الدعوة

ولما نزل من العربة قال له البواب ان الجميع فى انتظارك ثم سار أمامه وضغط على الزر الكهربائى . فاخذ نيليدوف يخلع رداءه الخارجي وسأل البواب عن المدعوين . فاجابه : المسيو كولوسوف والمسيو مخائيل سير جيفتش والطبيب وسائر افراد الاسرة فارتقى نيلدوف السلَّمَ وصادف اعلاه خادماً نظيفاً بالزى الرسمى وفى يديه قفازان فاستقبله هاشاً وقال له الجميع بالانتظار ثم دخل غرفة المائدة المفروشة على آخر طراز فوجد العائلة وجميع المدعوين حول المائدة ونظر كرسياً معدًّا له بجانب انسة كورتشاكين التي كان عازماً على ان يخطبها ولما جلس قال له كبير العائلة اهلاً وسهلا لقد انتظرناك طويلاً وها منذ هنيهة بدأنا بالاكل من السمك وهو أول اصناف الطعام كما تعلم . فابتدأ يأكل دون ان يجيبه . فقال المسيو كولوسوف : لا ريب انكم معشر المحلفين قمتم بما يجب علكم اليوم فعاقبتم المجرمين وبرأتم الابرياء وأخذ يهذى بالكلام . غير ان نيليدوف لم يجبه بنت شفه بل ثابر على مناولة الحسناء اللذيذ دون ان يلوى على شيء آخر فقالت انسة كورتشاكين دعوه يأكل وبذكرها اياه بضمير الغائب المفرد ذكرت الجالسين بعلاقتها به وقربها منه

أما كولسوف فأخذ يشرح للحضور ما يأتيه المحلفون من ضروب الظلم وميلهم مع الغايات والمآرب وجنوحهم عن جادة العدل والانصاف وقال ان احدى الجرائد اليومية الشهيرة حملت عليهم فى هذه الايام حملة منكرة وقص على اسماعهم مضمون احدى مقالاتها فأمن الجميع على كلامه

وكانت الانسه « ماريا » مرتدية كعادتها افخر الملابس فالتفتت الى نيليدوف وقالت له : يظهر انك تعبت اليوم كثيراً

فقال لها ليس الامر كما تظنين . ثم سألها اذا كانت ذهبت لعند المصور كما وعدته . فاجابته كلاً فقد ارجأنا ذلك الى فرصة أخرى وانما ذهبنا الى الحديقة العمومية حيث شنفنا اسماعنا بانغام المستر كوركوس الموسيقي الانكليزي الشهير والحق يقال انه يوقع انغاماً تشرح الصدر وتزيل الكرب

وكان من عادة نيليدوف ان يكثر التردد الى بيت كورتشاكين يصرف عدة ساعات يرتشف فيها كؤوس الصفو والهناء بما كان يسمعه من عبارات المدح والتمليق من جميع افراد العائلة وخصوصاً من الانسة ماريا ولكنه رأى اليوم عكس ذلك فقد كان كل شيء في نظره مظلماً ولم يرقه مرآى احد حتى ولا الانسة التي كان عازماً على خطبتها ولا الفرش وآنية الازهار بل كان كل شيء في عينيه مقتماً

وبعد نهاية الطعام اشعل سيجارته وسار الى غرفة كبيرة العائلة الاميرة صوفيا التي مضى عليها نحو ثماني سنوات وهي مقعدة . وكانت تجلس على كرسي هزاز كبير ملبّس بالخز والديباج ولا تقبل في غرفتها غير اشخاص معلومين تعدهم اصدقاءها وكان نيليدوف واحداً منهم لان والدته كانت احدى قريباتها ولانها كانت تجده ذا عقل فريد ورأي سديد وعلى الاخص لانه كان يريد الاقتران بابنتها

وكانت انسة كورتشاكين تميل بكليتها الى نيليدوف وترغب الاقتران به وكان هو يظهر لها عواطف الحب حتى خيل لها انه اصبح ملكها ولكن الامر الذي كان يكدرها وينغص عيشها هو مطاولته في مواعيد الخطبة وقد

ازدادت هواجسها اليوم اذ رأت منه تغييراً وعبوسة فارادت ان تسأله عما جرى له . فلما خرج من غرفة والدتها سألته قائلة :

— يظهر ان حادثاً جديداً قد حدث فقل لي ما بذلك ؟

ففكّر حينئذٍ فى الجلسة التي كانت منعقدة فى المحكمة وعلا وجهه الاحمرار فقال لها نعم قد حدث حادث جديد غير عادىّ وخطير جداً . « لا نه اراد ان يبدو صادقاً امامها »

فقالت له : وما هو هذا الحادث ؟ وهل لا يمكنك ان تفصح لي عنه فقال لها : لا . لا يمكني وارجوك عدم الالحاح عليّ بان اخبرك عنه لاني لم املك حواسي حتى الآن لا كيفه وزاد اذ ذاك احمرار وجهه. فقالت : اذن لست تخبرى بما حدث ؟ وبدت للحال دلائل الانزعاج على وجهها وقذفت الى وراءها بالكرسي الذى كانت ممسكة به

فقال لها بثبات جاش لا يمكننى ودلّ برفضه هذا على ان الحادث فى غاية الاهمية والخطارة

فقالت له : اذن تعال اتبعنى . وتقدمته مسرعة بخطواتها وشعر كأنها تمسح دموعها فأسف حينئذ من ايلامه لنفسها ومع ذلك فقد عرف ان اقل ضعف يبدو منه يوقعه فى الاضطراب ويجعله اسيراً لها . وفى هذا اليوم خاف هذا الامر اكثر من ذى قبل وتبعها صامتاً الى غرفة الاميرة

« ٢٣ »

كانت الاميرة صوفيا فاسليفنا والدة ماريا قد أتمت العشاء الفاخر المعد لتلك الليلة . وقد كانت عادتها ان تشتغل مثل هذا الشغل لذاتها منحجبة حتى لا يراها أحد فى مثل هذه المهنة التي لا تنطبق على ما اتصفت به من الكبرياء

والمعرفة وكان الى جانب مضجعها مائدة عليها انية القهوة وهي تدخن من السكاير التركية ذات الرائحة الذكية . وكانت هذه الاميرة طويلة القامة نحيلة بشعر اسود وعينين كبيرتين ومبسم صغير واسنان منضدة كاللؤلؤ وكانت تحب دائماً ان تشبه نفسها بالفتيات

وكان خبر علاقتها بالطبيب يدور على جميع الالسن في ذلك الحين وعرف نيليدوف هذا الامر منذ زمن فلما نظره جالساً الى جانب مضجعها استشاط غيظاً وامتلأ صدره حنقاً وشعر بمرارة فائقة الحد . وجلس كولوسوف على كرسيّ ملبّس قماشاً فاخراً وكان على المائدة كأس مملوءة شراباً منعشاً . وفي تلك اللحظة دخلت ماريا مع نيليدوف ولكنها لم تجلس بل لفتت نحو كولوسوف ونيليدوف وقالت لهما حين تملّ والدتي حديثكما و تطرد كما تعالا اليّ . قالت هذا القول ثم خرجت مبتسمة تنقل خطواتها اللطيفة كالظبي على بساط كثيف دون ان يسمع لوقعها صوت

فالتفتت الاميرة صوفيا نحو نيليدوف وقالت : كيف انت أيها الصديق العزيز ؛ اجلس وتحدث . ومزجت كلامها بابتسامة وداد تكلفتها فاسفرت عن درّ منضود في فيها ودلّت بهذا المنظر الذي ظهرت فيه على ما كانت عليه من الجمال في أيام صباها . ثم تابعت الحديث فقالت علمت انك آت من مجلس القضاء كئيباً مغموماً ثم قالت بالافرنسية ان ذلك امر شاق على كل ذي قلب وشعور

فاجاب نيليدوف : ان الامر كذلك والانسان يشعر غالباً بواجباته الشخصية ويشعر أيضاً بانه لا يحق لشخص آخر ان يحكم على ما في ضميره . فصرخت بالافرنسية قائلة : كأن ما تقوله حقٌ : وبدا عليها الذهول من اصابته المرمى وصواب ما جاء في ملاحظته . وكانت قد اعتادت مداهنة جميع

الذين يقتربون منها ليحادثوها فقالت : وما الذي جرى لرسمك الذي يهمني جداً ولو لم اكن عليه لتمكنت من رؤيته منذ زمن طويل . فاجاب نيليدوف ببرودة وعدم اكتراث اني قد عدلت عنه وتحقق هذه المرة مداهنتها الكاذبة كما تحقق من قبل فساد ما تدعيه من صغر السن وقد كانت تحاول على الدوام اخفاء ما بدا عليها من ملامح الكبر ولذلك لم يتمكن من اثبات جاشه ليتأدب فى حضرتها كما يجب عليه . فوجهت نظرها اذ ذاك نحو كولوسوف وقالت : ان ما يعزى الى نيليدوف من اتقانه لفن التصوير هو حقيقي ولقد اخبرني بذلك رابين . ففكر نيليدوف فى نفسه قائلاً : الا تخجل هذه الاميرة من ان تكذب علانية ثم قال بصوت عال ما اصدق ما تقولين

ولما ثبت للاميرة تأثر نيليدوف وانفعاله وعدم تمكنها من اغوائه على الدخول معها فى حديث يوافق ذوقها تحولت نحو كولوسوف وسألته رأيه فى موضوع جديد اختلقته وخاطبته بلهجة دلت على ان ما يقوله هو القول الفصل وان كل لفظة من حديثه يجب ان تدون وتخلد وكانت تسأله وتلاعبه فى الكلام وأخذت وجه الدفاع عن الموضوع الذى دخلت فيه ولكنها فى الوقت ذاته كان يبدو عليها الخضوع لبراهينه السديدة سواء أيد الموضوع أو خالفها فى الرأي . وكان نيليدوف يصغى تارة الى الاميرة وطوراً الى كولوسوف فظهر له ان كلاً منهما لا يعبأ بالموضوع ولا برفيقه وان كلام كليهما لم يكن الاَّ ليقوم بالواجب الصحي نحو عضلات الحلق واللسان بعد الطعام وان كولوسوف بعد شربه الفودكا والنبيذ ثمل لا كما يثمل الفلاحون الذين لا يشربون الاَّ نادراً بل كاولئك الذين اصبح شرب النبيذ عادة لهم فهو لم يتكلم كلاماً بذيئاً ولكنه كان فى حالة خارجة عن حد اللياقة قليلاً ولحظ

نيليدوف أيضاً ان الاميرة كانت فى اثناء المحادثة تشخص باضطراب الى النافذه التي بدأ نور الشمس يخترقها ويلقي باشعته على وجهها الذى اخلف فيه الكبر طيات

ثم قالت ما اصدق ما تقوله مشيرة الى ملاحظة جاءت فى حديث كولوسوف وضغطت على زر كهربائي الى جانب مضجعها فنهض الطبيب كأنه رجل موجود فى بيته وخرج من الغرفة دون ان يقول كلمة فشيعته الاميرة بعينيها وواصلت حديثها

وفى اثناء ذلك دخل حاجب بهيئ الطلعة غض الشباب فقالت له الاميرة ارجوك يافيليب ان ترخي ستائر النافذة لان الشمس تؤلمني ثم تابعت الحديث وقالت : بدون التصوف أو الخيال لا وجود للشعر فى هذا العالم . وكانت تتكلم وترمق باحدى عينيها السوداوين حركات الحاجب الذى كان يرخي الستائر .ثم قالت ان التصوف اعتقاد فاسد بدون الشعر ولولا التصوف أو التخيل لكان الشعر نثراً . وكانت تتبسم وهى تتكلم تبسما يشف عن حزن عميق وهي لا تزال ترمق الحاجب بطرفها الذابل وتقول ارفع هذه وارخ تلك حتى زهقت روحه ثم نادته قائلة : كفى يافيليب خذ هذه من هنا واشارت الى انية القهوة التي بجانبها ثم رفعت باناملها المغشاة بالجواهر الكريمة علبة التدخين واشعلت سيكارة منها . حينئذ تقدم فيليب العريض الصدر والبهي الطلعة وانحنى امامها ورفع اداة القهوة بكل خفة وتحفظ لكي لا يزعج الاميرة فتبسمت تبسماً خفيفاً

وكان نيليدوف يشاهد كل ما يجرى امامه ويسمع كل ما يقال . ولما شهد ما بدا على ملامح فيليب قرأ ما كان يجول بفكره وتكهن بانه يقول فى نفسه ليقبض

الشيطان روحك ايتها الحيزبون فما الذي تروميه مني وقد بلغت الستين من العمر . ولكن فيليب القوي البنية ولذى لايهوله مرأى الكوارث رأى من الضرورة ان يخفض جانبه ويذل نفسه امام مولاته فحاول اخفاء ما بنفسه من الكدر مرغماً وسمع كلام الاميرة الضعيفة الفاسدة الطباع

وفى هذه الاثناء سمع صوت كولوسوف يقول لا شك ان فى تعاليم داروين كثيراً من الحقائق قال هذا وجلس على الكرسي شاخصاً الى الاميرة صوفيا بعينين ذابلتين وكرر كلامه الاول بقوله نعم ان ما اقوله هو عين الحقيقة فتحولت الاميرة نحو نيليدوف الذى كدرها سكوته وصمته وقالت : وأنت ما الذى تعتقده فى امر هذا التعليم . قال انا لا اعتقد فيه مطلقاً وفى هذه اللحظة دهم افكاره تصورات غريبة فنظر الى ما حوله فرأى كولوسوف جالساً على كرسيه يمثل منظره الكئيب اقبح صورة وضحت لتخويف الاطفال فمن معدة بارزة الى الامام وصدر هابط الى الورآء ورأس خالٍ من الشعر اشبه ببيضة النحاس وانف كانف ابن حرب وبالاجمال ليس بالامكان اقبح مما كان .. وتمثل لعينيه فى ذاكَ الحين اعضآء الاميرة المكسوة بالحرير التي لم يغير الزمان شيئاً من نضارتها فصعد الدم الى رأسه وعرف حقيقة امرهما ولكن هذا المنظر الذى تمثل لعينيه كان قوى الضغط على افكاره وشديد الوطأة على عواطفه فحاول اقصاءه عنه وكانت الاميرة لا تحول نظرها عنه فقالت له الست تعلم ان ماريا تنتظرك فاذهب اليها وهي تطربك بنغمة موسيقية جديدة تعلمتها . فقال نيليدوف فى نفسه تباً لهذه المرائية كيف تقول ان ابنتها تنتظرني لكي تطربني وهي ملقية بنفسها على السرير من شدة الحنق ثم نهض وودع الاميرة وخرج الى غرفة الجلوس فقابلته الاميرة كاترينا الكسيفنا وبعد ان

بشت فى وجهه خاطبته بالافرنسية قائلة : انى أرى واجبات الرجل القضائي آخذة مفعولها فيك

فاجابها نعم هو ما تقولين وانى اطلب منك السماح لان افكاراً سافلة مزعجة مستولية عليَّ اليوم ولا حق لي بأن ازعج غيرى بالجلوس معهوانا على هذه الحالة

فقالت له : ولم تستولي عليك الافكار السافلة ؟

قال اسمحى لي ان لا اجيبك على هذا السؤال ونظر الى ما حوله باحثاً عن قبعته

فقالت له : الا تذكر انك اوصيتنا مراراً بان نقول الحق على الدوام وايّ حق اعتدتَ ان تقوله لناجميعاً ولماذا لا تريد ان تتكلم الآن ؟ الا تذكر ماريا حبيبتك . قالت هذا ولفتت نحو ماريا التي دخلت عليهما تلك اللحظه

فاجاب نيليدوف : نعم يجب على الانسان ان يتكلم الحقيقة دائماً واعدُّ نفسي مذنباً لانى لم اقدر ان اقول الحق اليوم

فقالت كاترينا بربك لاتظلم نفسك فنحن المذنبون الذين نحاول معرفة افكارك بالرغم منك

فقاطعتها ماريا وقالت : لا شيء احط واحقر من ان يعترف الانسان بانه خاضع لافكار سافلة وانى لم اخضع لها فى حياتى ولذلك ارانى على الدوام قريرة العين مطمئنة البال . ثم قالت لنيليدوف تعال اليَّ فانى ساحاول ابعاد الافكار المقلقة عنك

فشعر نيليدوف كما يشعر الجواد عند ملاطفته لوضع اللجام فى فيهِ ورأى نفسه فى هـذا اليوم أقل ميلاً الى الانسحاب منه فى جميع الايام السالفة ثم

استأذن بالذهاب لضرورة ذهابه الى منزله فاطالت ماريا امساكها ليده اكثر من العادة وقالت له اذكر ان ما يهمك يهم اصدقاءك فهل أنت آت غداً ؟ فقال نيليدوف يصعب عليَّ ان اجيبك على سؤالك وتولاه الخجل غير عالم ما اذا كان من اجل ملاطفتها له أو من اجل عمله معها فاحمر وجهه وانصرف من لدنها

وبعد ذهابه قالت كاترينا ما الذي جرا له يا ترى ؟ فان ما فعله اليوم زاد استغرابي ولا بُد لي ان اقف على دخائل الامر واني اظن المسألة متعلقة بالحب الطاهر لانه رجل كثير الظنون ياعزيزتي ماريا

وكادت ماريا تقول لا بل انها مسألة تتعلق بحب سافل دنيّ ونظرت الى الارض بوجه عبوس مكفهر . بوجه يختلف تمام الاختلاف عن ذلك المحيّا الذي كان يتلألأ ويتهلل بشراً حينما كانت تخاطب نيليدوف ولم تشأ ان تطلع كاترينا على ما يؤلم نفسها ويحرج صدرها بل اقتصرت في قولها على ان لكل انسان أيام سعادة وأيام بؤس

ثم فكرت في نفسها وقالت : هل من المحتمل ان يخدعني هو أيضاً بعد كل ما جرى واذا كان الامر كذلك فمدّ عمله من اقبح الاعمال . ولو طاب من ماريا ماذا تعني بقولها « بعد كل ما جرى » لما امكنها ان تقول شيئاً راهناً ومع ذلك فقد عرفت انه لم يزد رجاءها فقط بل انه وعدها أيضاً وفي مدة تردده الى منزلهم لم يفه بالفاظ واضحة بل ان كل ما جرى بينهما مبادلة اللحظات والابتسامات والاشارات ومن كل ذلك كانت تحسبه ملكاً لها وتحسب فقده خسارة عظيمة عليها

« ٢٤ »

وبينما كان نيليدوف سائراً نحو بيته تراكمت عليه الهواجس والافكار واخذ يؤنب نفسه قائلاً ما كان احمقني واقساني . ولم تبرح ذهنه المعاملة الخشنة التي عامل ماريا بها واخذت تتناوبه الافكار فكان يشعر حيناً ان تصرفه معها كان تصرفاً عادلاً لانه لم يحدثها فى حياته بكلام يربطه بها ولا عرض عليها امراً ما . ثم يثوب الى رشده ويقول لا بل قد ارتبطت بها ووعدتها بان اكون حليلاً لها ولكنه مع هذه الافكار المتناقضة شعر اليوم تمام الشعور بانه يتعذر عليه الاقتران بها

ثم عاد الى توبيخ ضميره ثانية وقال : ما كان احمقني واقساني واقل حيائى ليس فقط فيما اجريته مع ماريا بل فى كل ما بدا مني أيضاً . وعند ما دخل منزله قال بتألم ومرارة نفس ان فى كل ما فعلت اليوم فظاظة ومجابة للخجل ثم التفت الى خادمه كورناى الذى تبعه الى غرفة الطعام حيث كانت المائدة معدّة لمناولة طعام العشاء ولشرب الشاى وقال له : انى لا اريد ان اتعشى فى هذه الليلة فيمكنك ان تنصرف . فاجابه كورناى سمعاً وطاعة ولكنه لم يبرح الغرفة بل أخذ يرفع الانية بتأن . فنظر اليه نيليدوف شذراً لانه كان يميل فى تلك الساعة الى الانفراد وشعر ان كل ما فى الملآء يقصد التضييق عليه ليكدره . ولما خرج كورناى من الغرفة حاملاً انية الطعام اقترب نيليدوف من السمور ليغلي قليلاً من الشاى واذا به يسمع وقع اقدام اغرافينا بتروفنا فاسرع الى غرفة الجلوس حتى لا تراه واقفل الباب وراءه . وقد كانت وفاة والدته فى هذه الغرفة منذ ثلاثة شهور . فلما دخلها وكان فيها مصباحان يعكسان النور احدهما ينير رسم والده والآخر رسم والدته تذكر حينئذ آخر علائقه

بوالدته الراحلة. وقد كانت هذه العلائق مكدرة نظراً لما ابداه نحوها من القسوة وعدم الخجل فدهمته اذ ذاك افكار مزعجة مقلقة لانه تذكر كيف كان يشتهي لتلك الوالدة المسكينة الموت في اواخر ايام حياتها . وقد كان يقول حين احتضارها انه يريد لها الموت من اجل راحتها وتخفيفاً لعذابها ولكن مشتهاه كان حقيقةً لراحته الذاتية حتى يخلص من مرأى تعذيبها

وبينما هو يحاول طرد تلك الافكار من مخيلته اقترب من رسمها الذي رسمته يد رسام شهير بخمسة الاف روبل . وقد رسمها مرتدية ثوباً اسود من القطيفة مقوّر العنق واتقن رسم كل ما برز من الصدر من النهود والعنق المستطيل والكتفين المستديرين فتأثر تأثراً شديدا لمرأى والدته بتلك الصورة سيما وانه تذكرها لما كانت ميتة منذ ثلاثة اشهر وملقاة على فراشها وقد ملأت رائحتها المنتنة جوانب القصر حيث كان كل من فيه يتمنى ابعادها ثم تذكر أيضاً ضغطها على يده بيديها النحيلتين قبل موتها بيومين وقولها له اغفر لي ياولدي ما اسأته اليك وحين لفظت هذه الكلمات تساقطت عبراتها واصفر وجهها الذي محيت عنه كل اثار الحسن فدهش وانتفض عند ما تذكر ذلك وبأقل من لمح البصر تغيّرت افكاره وتمثل أمام عينيه فتاة مكشوفة الصدر بارزة النهدين عارية الذراعين تبسم له عن لؤلؤ منضّد وترنو اليه باعين بابلية تدمي القلوب بسهام لحظها وهذه الفتاة هي ماريا انسة كورتشاكين التي دعته يوماً الى غرفتها حيث كانت تستعد للذهاب الى مرقص وارادت ان تريه نفسها بحلة الرقص فتمثل أمام عينيه منظر كتفيها وذراعيها الجميلتين وتذكر اياها الفظ بماضيه المملوء بالسيئات وامها الشرسة الاخلاق وحياتها المفعمة بالشكوك فاضطرب وامتعض وقال في نفسه ياللخجل ويالسوء حالي

وبينما هو غارق فى بحر من الهواجس نهض للحال وقال « لا . لا ؛ » يجب ان احصل على الحرية واخلص من كل علاقة تربطني بعائلة كورتشاكين وبمارياً وبالميراث وبكل شيء . يجب ان اتنسم نسيم العتق من الرق وارحل الى رومية حيث ازاول صناعة التصوير ثم تذكر شكوكه فى اتقانه لصناعة الرسم فقال لا بأس يكفيني ان اعيش تحت سماء الحرية فارحل اولاً الى الاستانة ثم الى رومية ولكنه يجب عليّ قبل أى عمل اعمله ان اتخلص من تلك المشكلة القضائية وان اتمم الامر مع المحامي بافرب وقت

ثم دهمه بغتة خيال تلك السجينة بعينيها السوداوين البراقتين وتذكر صراخها حين سمعت الحكم عليها بالاشغال الشاقة وللحال القى بلفافته واشعل غيرها واخذ يسير فى الغرفة ذهاباً وايابا . وفى هذه الحال تمثلت امامه تلك الاويقات الهنيئة التي صرفها معها وخصوصاً آخر اجتماعه بها حين استولت عليه الشهوة البهيمية فخضع لها وما نتج عن ذلك من النتائج السيئة . وتذكر ذلك الثوب الابيض والحزام الازرق فقال انني احببتها محبة طاهرة قبل تلك الليلة المشومة أي نعم اني احببتها حين زرت عمتي لاول مرة وكنت اكتب دروسي بلذة واجتهاد وشعر حينئذٍ ان تلك الايام كانت اهنأ ايام حياته وتنفس اذ ذاك تنفس الانتعاش والحياة وقابل بين ماضيه وحاضره فاشتد عليه الاسف والكآبة

والفرق بين ما كان عليه حينئذٍ وما هو عليه الآن كالفرق بين كاتيوشا فى الكنيسة ليلة الفصح وبين المومسة التي كانت تداعب التاجر والتي حكم عليها فى هذا الصباح . ثم رأى نفسه حراً بعيداً عن الخوف والسبل ممهدة امامه والعالم يدعوه الى القيام باعمال خطيرة نافعة وهو عائش عيشة ناقلة لا نفع منها ولا فائدة وتذكر فخره باستقامته وصدقه فى الحديث وقد كان حقيقة

صادقاً وكيف انه تمرغ الآن فى اوحال الكذب ومن حوله يعدونه صادقاً في ما يقول ورأى انه لايمكنه الابتعاد عن حمأة الفساد التي سقط فيها . وفكر فى كيفية قطعه للعلاقه بصوفيا وزوجها وبماريا وعائلتها وكيفية مخالفتة للمذهب الذى تبعه وهو الحكم على مالكي الاراضي الشاسعة بالجور وتوزيعه للاراضي التي ورثها عن والدته وكيف يكفر عما اساء به نحو كاتيوشا ورأى انه لايجوز له نبذ امرأة احبها والاكتفاء باعطاء المحامي شيئاً من المال ليخلصها من الاشغال الشاقة فى سيبيريا وهى لم تكن كابدتها حتى الآن وهل يكفي دفع المال للتكفير وتذكر انه اعطاها يوم مفارقته اياها مبلغاً من المال فلم يكفر عن الخطاء العظيم الذي اقترفه معها

وعند هذه اللحظة اعاد الى مخيلته ذلك الموقف الرهيب فى الدهليز اذ اودع المال فى كفها وفرّ من وجهها فقال آه من ذلك المال بل آه ما اتعسني وما اشقاني .. وصرخ بصوت عال يا الهى ارحمني كما لو انه فعل تلك الفعلة الشنعاء فى ذلك الحين واستطرد الكلام بقوله : لا يقدم على هذا العمل الاّ كل سافل لئيم . ولكن هل أحد يصدّق انني سافلٌ ولئيم ؟ سأل هذا السؤال واجاب نفسه نعم ! وهل يوجد سافل اكثر مني ؟ وهل اقتحمت على هذا العمل الدنيء ؟ وهل لم يكن تصرفي مع صوفيا فاسليفنا وتريزيتا تصرف دناءة وخيانة وخساسة . وما كان اجهلني فى تصرفي بالثروة العظيمة التي ورثتها عن والدتي وما كان اكسلني واقعدني عن العمل طول ايام حياتي وتصرفي مع كاتيوشا الذي يهولني ويرعبني ويلهب دماغي هو رأس جميع المنكرات والموبقات فما انا الاّ شقي وتعيس وسافل فليحكم عليّ الناس بما يشاؤن فانا قادر على خدعهم ولكني لايمكنني ان اخدع نفسي ...

وقد حاول نيليدوف تطهير نفسه اكثر من مرة فى حياته وعدم رجوعه الى الماضي والنظر الى ما يتخلل الحياة من الفساد فيقطعها ويعيش عيشة جديدة راضية خالية من الشوائب فبعد صحوه من سكرته كان يسنّ لنفسه قانوناً يسير عليه فى مستقبل حياته ولا يحيد عنه يميناً أو شمالا ولكنه كان يستهدف كل مرة لتجارب هذه الدنيا ويسقط فى حمأة الشرور عن غير ارادته ويكون حاضره شراً من ماضيه وليست مرة واحدة وطد العزم فيها على الانقطاع عن الفساد والابتعاد عن الشرور بل مرّات عديدة وأول مرة كانت فى خلال الصيف الذى صرفه مع عمتيه وطال أمد هذا الاصلاح فى هذه المرة . وثانى مرة كانت على أثر تركه الخدمة الملكية اذ التصق بالجيش ابان الحرب رغبة فى تضحية نفسه فى سبيل الوطن ولكن مدة هذا الاصلاح لم تكن طويلة .. وثالث مرة كانت عند مغادرته الجيش وخروجه الى هذا العالم لمزاولة فن التصوير . ومضت على ذلك مدة طويلة دون ان يفكر بتطهير نفسه ولذلك كانت المناقشة بين ضميره وحياته شديدة محتدمة وتمثلت لعينيه اذ ذاك الفظائع التي ارتكبها فاكبرها ولم ير من الممكن تطهير نفسه من ادرانها فهمس فى اذنيه صوت المجرب وهو على هذه الحال وقال : ألم تحاول قبلا اصلاح نفسك لتعيش عيشة جديدة وكانت محاولتك عبثاً فما الفائدة من المحاولة الآن هل أنت الوحيد فى هذا العالم ؟ الا تعلم ان جميع الناس سواء جميعهم زاغوا ورذلوا ليس من يعمل صلاحاً ولا واحد وهذه هى الحياة فى هذا العالم المملوء شروراً فهي لا تتغير ولا تتبدل . ولكن الوجود الروحي الحرّ والمتفرد فى الصدق والقدرة والتسلط والازلي الابدي الذي لايدوم سواه كان قد انهض نيليدوف فلم يمكنه الاّ ان يصدقه ويتبعه .

ومهما كانت المسافة بعيدة بين ما كان يرجوه من الصلاح وبين ما كان عليه فقد تحقق ان كل عقبة تزال وكل صعاب تذلل وان المرء لا يصعب عليه خلع ثوب الفساد والارتداء بثوب الصلاح اذا شاء

فصاح بصوت عال : مهما كان الامر فاني ساحل الرباط الذي يربطني بالكذب فاحدث الجميع بالصدق ولا اعمل الاّ الواجب والحق وساقابل ماريّا عاجلاً واعلمها بانّي لا يمكنني الاقتران بها وباني شاغلتها عبثاً . وساقول لصوفيا فاسليفنا باني خدعتها وخنت زوجها صديقي ودنست مضجعه وساستخدم المال الذى ورثته فى طريقة قويمة تدل على الاستقامة والصدق . وساقول لكاتيوشا انني كنت وغداً لئيماً فى ما اقترفته من الاثم نحوها واني سافعل كل ما يمكني لاراحتها وتخفيف عذابها . نعم ساذهب اليها واسألها الغفران نعم ساطلب منها العفو كما يفعل الاولاد .. وتوقف برهة يفكر . ثم قال وساقترن بها اذا وجدت لذلك لزوماً . حينئذٍ رفع عينيه الى السماء وبسط يديه كما كان يفعل وهو طفل مخاطباً ذاتاً غير منظورة وقال :

ربّ اعنّى وارحمنى وارشدنى الى طريق الصلاح والخير وادخل من روحك القدوس فى قلبي وطهرنى من كل رجس يارحوم . يا تواب . ياغفور

وقد صلّى صلاة حارّة طالباً من الله المعونة وان يدخل الى قلبه فيطهره فاستجيبت صلاته لان المولى عزّ وجل نبّه ضميره وشعر بان واحداً معه يعزيه ويقويه فرأى نفسه اذ ذاك حاصلا على الحرية وعلى الحياة المملوءة بهجة وسروراً وعلى قوة البر والصلاح واحس بانه قادر على عمل حسن مفيد يمكن الانسان ان يعمله وكانت عيناه تسكب العبرات وهو يكرر هذه الاقوال وكانت عبرات فرح وترح فى آن واحد فكانت للفرح من حيث

تنبيهها لشعوره الروحي الذي كان رافداً كل السنين التي خلت . وللترح لانها دلت على اسفه الشديد لما ارتكبه من الموبقات مع ما هو عليه من طيبة القلب وسلامة النية فشعر اذ ذاك بشدة الحرارة فقصد النافذة ليفتحها ويستنشق الهواء النقي وكانت النافذة تشرف على الحديقة والليلة مقمرة والهواء منعش يلاعب اوراق الاشجار والسكون سائد فاخذ نيليدوف يجول بنظره في الحديقة حيث كان نور القمر منبسطاً عليها ويستنشق النسيم المنعش المنشط فشعر بلذة زائدة ثم رفع عينيه نحو السماء وقال اشكرك يا الهي على عظيم رحمتك لانك فرجت صدري وازلت كربي

« ٢٥ »

أما ماسلوفا فانها قاست أشد العناء قبل ان وصلت الى سجنها فتورمت رجلاها من بعد المسافة لانها لم تكن معتادة المسير على الاقدام في طريق وعرة تزيد عن العشرة الاميال . وكان قد طحن جسمها ذاكَ الحكم الصارم الذي اصدرته المحكمة عليها وانهك قواها الجوع لانها ان منذ اربع وعشرين ساعة لم تذق طعاماً وقد رأت حين خروجها من المحكمة بعض الجنود يأكلون خبزاً وبيضاً فازدادت معدتها تهيجاً ولكن عزة نفسها منعتها من أن تسألهم شيئاً وبعد ثلاث ساعات لم تعد تشعر بالجوع ولكنَّ قواها انحطت وعزائمها انحلّت ولم تكن تتصوّر انها مجرمة مبعدة الى سيبيريا ولم تصدق ما سمعته باذنيها ولكنها حين رأت سكوت القضاة والمحلفين وعدم اكتراثهم لسماعهم هذا الحكم الذي عدوّه طبيعياً ومنتظراً ثار سخطها وصرخت باعلى صوتها اني بريئة . ولما رأت ان صراخها ذهب صرخة في واد أخذت تنوح نواح الياس والقنوط مشعرة بانه يجب عليها الخضوع للحكم الظالم . والذي زاد

اندهاشها أن شباناً كانوا ينظرون اليها بشغف زائد منهم النائب العمومي الذي لم يحول نظره عنها مع انه هو الذي طلب التشديد بعقابها وغيره من القضاة والمحلفين الذين كانوا يمرون أمامها قبل المرافعة متظاهرين بأن عندهم اشغالاً مهمة ولم يكن لهم في الحقيقة شغل سوى التمتع بمرآها وهؤلاء انفسهم حكموا عليها بالاشغال الشاقة لسبب لا تعرفه مع انها بريئة مما اتهمت به وعند ما دهمتها هذه الافكار بعد دخولها السجن أخذت دموعها تنهمل كوابل المطر ثم اسكنت جاشها وجلست بين المسجونين تنتظر اعادتها الى السجن الذي خرجت منه وكل ما كانت تشتهيه اذ ذاك هو التدخين . هذه كانت حالتها حين أدخل كارتنكين وبوتشكوفا الى ذات الغرفة التي كانت فيها بعد ان حكم عليهما فانهالت عليها بوتشكوفا حينئذ بالشتايم والمذمة . أما ماسلوفا فجلست صامتة ووضعت رأسها بين يديها ناظرة الى ارض الغرفة ولم تجبها على قباحتها الا بقولها لها انا لا ازعجك فلا تزعجيني أنت . وقد تهلل وجهها بشراً حين سبق كارتنكين وبوتشكوفا الى غرفة اخرى وقد اتاها الخادم بثلاث روبلات وقال لها ان سيدة ارسلت اليك هذا المبلغ . فقالت ماسلوفا وأية سيدة هذه . فقال الخادم : خذي المبلغ ولا تسأليني عن شيء

وكانت كتيافا صاحبة دار الفسق هي التي أرسلت النقود الى ماسلوفا مع الحاجب . وقد سرت به كثيرا لانه ينيلها مشتهاها وهو الحصول على الدخان لانه كان قد اشتد بها الميل الى التدخين لدرجة انها كانت تستنشق بلهفة الهواء الحامل دخان التبغ من غرفة تجاه غرفتها ومع حصولها على النقود اضطرت للانتظار طويلا لان الرجل المكلف بتصدير الاوامر اغفل امر المسجونين لانشغاله بمخاصمة أحد المحامين . وعند الساعة الخامسة أذن لها

بالذهاب فذهب معها رجلان من رجال الضبط يحفرانها فاعطت أحدهما قطعة من النقود ليبتاع لها سجاير فاحضر لها سرًّا ما ارادت . ولما وصلت الى باب السجن رات نحو ماية مجرم قد وصلوا اليه بطريق السكة الحديدية وهم خليط من اقوام مختلفة بين شيوخ وفتيان ونساء وفتيات والبعض منهم مقيدون بالسلاسل الحديدية فارتفع الغبار واشتد اللجاج بينهم ومرَّ جميعهم بماسلوفا يتفرسون بوجهها واقترب بعضهم منها واحتكوا بها وقال أحدهم يالها من فتاة فتانة . وقال آخر اقدم لكِ احترامي ايتها السيدة الجميلة وامال وجهه نحوها ثم اقبل عليها رجل اسمر اللون مكبل بالحديد جمع السلاسل بين رجليه وقفز وضمها الى صدره فدفعته بعنف قائلة : خسئت ايها الشقي . فاجابها بتبسم قائلاً : الستِ تعلمين أين انت أيتها الحسناء فلا تأنفي مني لان جميعنا في حالة واحدة من البؤس . وفي اثناء ذلك باغته المفتش من الوراء وصاح به قائلاً ماذا تفعل أيها الشقي فذعر المجرم وقفز واختفى بين رفاقه فالتفت المفتش الى ماسلوفا وقال :

— وأنتِ ما الذي أتى بكِ الى هنا ؟ وكان في عزمها الاجابة بانها اعيدت من المحكمة ولكنها كانت تعبة منحلة القوى فلم تشأ ان تتكلم . فتقدم أحد الجنود واضعاً اصابعه على قبعته اجلالاً وقال . انها اعيدت من المحكمة ياسيدي . فقال المفتش اذن سلمها الى رئيس السجانين لاني لا اريد ان يجرى مثل هذا الامر هنا . فقال الجندي سمعاً وطاعة . ثم نادى على رئيس السجانين سوكولوف فاشار اليها هذا ان تتبعهُ ثم قادها الى سجن النساء وهناك فتشوها ولما لم يجدوا شيئاً ممنوعاً معها ادخلوها الى الغرفة التي أُخرجت منها في الصباح وما وضعت قدمها فيها حتى اخرجت التبغ من جيبها وأخذت تدخن

وكانت الحجرة التي سجنت فيها ماسلوفا كبيرة طولها واحد وعشرون قدماً وعرضها ستة عشر . وكان فيها نافذتان وموقد متخرب ويشغل ثلثيها اسرة خشبية ويقابل الباب مسرجة لحمية اللون معلقة وعليها شمعدان فيه شمعة والاعشاب تتدلى على حيطانها الرطبة . والى الشمال ورآء الباب وعآء فيه اقذار نتنة الرائحة وكان التفتيش قد تم واقفلت الابواب على النسآء واسدل الظلام رواقه

وكان عدد النسآء اللواتى يشغلن هذه الغرفة خمسة عشر بينهنّ ثلاثة اولاد صغار وامرأة مصابة بالسل مسجونة لسرقة واخرى معتوهة وموقوفة لعدم حملها جواز السفر وهذه كانت تصرف اكثر الوقت نائمة . ولم تكن المرأة المسلوله نائمة بل كانت ملقاة على ظهرها فاتحة عينيها واضعة رداءها الثقيل تحت رأسها . وبعض النسآء الأخر واكثرهنّ كانت ترتدي الواحدة منهنّ قميصاً واحداً فقط كنّ يتطلعنَ من النافذة ويحدقنَ بالمجرمات اللواتى كنّ فى ساحة السجن وثلاث منهنّ كنّ يخطنَ وكانت بين هؤلآء الاخيرات المرأة العجوز التي رأت ماسلوفا ذاهبة فى الصباح واسمها كورابليوفا طويلة القامة شديدة العضلات حادّة النظر مسترسلة الشعر الذي لعب به البياض وكان محكوماً عليها بالاشغال الشاقة لقتلها زوجها بفاس من اجل سطوه على ابنتها . وقد كانت متراءسة على النسآء اللواتى كنّ معها فى الحجرة وتمكنت من الاتجار بالمشروبات الروحية بينهن وكان الى جانبها امرأة اخرى تخيط كيساً وهى امرأة خفير من خفرآء السكة الحديدية حكم عليها بالسجن ثلاثة اشهر لانها لم تخرج بالاعلام للاقاة قطار كان مارّاً وحدثت حادثة على اثر هذا الاهمال . وفى روسيا اكواخ صغيرة لخفرآء السكك الحديدية بعد الواحد

عن الآخر ميلاً . وعلى الحفرآء أو زوجاتهن مقابلة كل قطار وقد كانت هذه المرأة قصيرة القامة مفطسة الانف بعينين صغيرتين سوداوين وكانت لطيفة كثيرة الكلام . واسم الثالثة تيوديزيا وهى فتاة صغيرة السن بيضاء متوردة آية فى الجمال بعينين براقتين وشعر اسود حالك طويل لتحت ردفها وقد سجنت هذه الحسناء الصغيرة السن لانها حاولت تسميم زوجها وقد فعلت ذلك على أثر اقترانها به وكانت قد أرغمت على الاقتران وهى فى السادسة عشرة من عمرها . ولكنها فى خلال الثمانية الاشهر التي كانت فيها مطلقة السراح بالضمانة بعد التحقيق رجعت الى زوجها وأحبته حباً مبرحاً حتى أصبحا جسماً واحداً بقلب واحد .ومع كل مابذل زوجها وحموها وخصوصاً حماتها من الجهد فى تبرئتها حكم عليها بالاشغال الشاقة فى سيبيريا وهذه الابنة اللطيفة الدائمة الابتهاج والابتسام كان سريرها الى جانب سرير ماسلوفا وعلقت بها حتى أخذت على نفسها الاعتناء بأمرها. وكانت امرأتان جالستين على سريرهما بدون عمل احداهما فى سن الاربعين بوجه أصفر ضئيل تدل ملامحها على جمال فى الصبا وكانت حاملة طفلا ترضعه . أما الجرم الذى اقترفته هذه المرأة فهو انه أخذ شاب للرديف من القرية وسحب الرديف غير شرعي عند الفلاحين فقام أهالي القرية قومة واحدة على رجال الحكومة وخلصوا الشاب من بين أيديهم وكانت المرأة المذكورة وهى عمته أول من أمسكت لجام الحصان الذى علاه . أما المرأه الثانية فكانت لطيفة مسنة مبيضة الشعر محدودبة الظهر وهذه جلست ورآء الموقد تحاول مسك ولدٍ سمينٍ فى الرابعة من عمره يغدو ويروح امامها ضاحكا طروباً وقد اتهمت هذه المرأة وابنها بحرق منزل عمداً وتحملت عقابها بصبر وبلا تذمر ولكنها

كانت منشغلة البال على ابنها وعلى زوجها الشيخ الذى بقى وحده لا من يعتنى به . وعدا هاته النساء السبع كان أربع واقفات ممسكات بحديد النافذة يشرن الى المجرمين الذين قابلتهم ماسلوفا عند عودتها من السجن . وكانت احداهن ضخمة الجسم بشعر أحمر وكلف على وجهها الاصفر ويديها وعنقها البارز من بين أزرارها المفككة وصاحت هذه بصوت عال وكلام بذئ وضحكت مقهقهة وكان عقابها من أجل سرقة . وكانت الى جانبها امرأة قبيحة سمراء هزيلة لافرق فى الجسم بينها وبين ولد فى سن العشرة بخصر طويل وساقين قصيرتين ووجه أحمر مورم وقد حكم عليها من أجل سرقة واحراق منزل عمداً وكانوا يلقبونها بهوشافكا لانشغالها بالزينة والحلي وكانت وراءها امرأة ضعيفة ذات منظر مريع حكم عليها لاجل اخفائها لسرقة وكانت هذه صامتة تتبسم لما هو جار فى أسفل السجن والى جانبها امرأة فلاحه قصيرة ضخمة بوجه طلق وعينين بارزتين وهى أم الولد الذى كان يلعب مع العجوز ولها ابنة فى سن السابعة وقد كانت أيضاً معها فى السجن لانه لم يكن لها من يعتنى بها وحكم عليها لبيعها مشروبات روحية محرمة وكانت هذه تسمع كلام النساء باشمئزاز ولكن ابنتها الصغيرة كانت متمسكة بالمرأة ذات الشعر الاحمر تصغى الى كل ما يقال من الالفاظ القبيحة بانتباه وتعيده كأنها تتعلم أمثولة والمرأة الثانية عشرة التى لم تهتم بما هو جار حولها كانت ابنة قسيس وحكم عليها لاغراقها طفلا لها فى بئر وكانت هذه حافية القدمين مرتدية قميصاً وسخاً فقط وكان شعرها الكثيف مسترسلا على كتفيها غير معقوص وكانت تسير فى الحجرة جيئة وذهاباً دون أن تنظر لاحد من حولها . ولما سمعت قرقعة القفل وفتح الباب لتدخل ماسلوفا حولت جميع

النسآء أنظارهنّ اليها حتى ان ابنة القسيس وقفت لحظة وتفرست فيها ولكنها لم تفه بكلمة بل عادت لما كانت عليه . اما كورابليوفا فانها تركت ابرتها وأحدقت بنظارتيها فى ماسلوفا قائلة : يالله أعدت ثانية وقد كنت موقنة بتبرئتك فاذا قد أصابتك سهامهم .وقالت هذه الجملة الاخيرة بتأثر . ثم رفعت نظارتيها عن عينيها وطرحت ما كانت تشتغل به الى جانبها وقالت قد كنت أظن مع الحالة المسنة انهم يطلقون سراحها للحال . وقالت زوجة الخفير بصوتها العذب انظرن الى ما آل اليه الامر فقد أخطأنا بظنوننا وما هى الا مشيئة الله . وقالت تيوديزيا هل من الممكن ان يكونوا قد حكموا عليك أيتها النعجة وأحدقت بماسلوفا بعينيها الزرقاوين النجلاوين وتغير منظر وجهها كأنها أجهشت بالبكاء

اما ماسلوفا فلم تجب بكلمة ما بل جلست فى محلها بالقرب من كورابليوفا فأقبلت عليها تيوديزيا وقالت لها : هل ذقت الطعام ؟ ثم اقتربت منها العجوز التي كانت تلاعب الصبي وهزت رأسها مبدية الاسف

و بعد كل ما جرى لماسلوفا فى ذاك النهار وما رأته من انعطاف رفيقاتها فى تلك الاونة شعرت بتراكم الدموع فى عينيها ولكنها تشدّدت حتى قويت على منع تساقطها ولما أحست بحنان العجوز وأبصرت الصبي يحدق بوجهها مندهشاً لم يعدلها اصطبار فأجهشت فى البكاء وانهالت الدموع على خديها وحينذاك قالت لها كورابليوفا . ألم أنصحك بالاعتماد على محامى قانونى ماهر وما الذى جرى ؟ ألى المنفى ؟ فلم تقوَ ماسلوفا على الاجابة بل أخذت علبة السجاير وناولتها لكورابليوفا فهزت هذه رأسها لانها لم تستحسن انفاق ماسلوفا لدراهمها فى مثل هذه الامور التافهة ولكنها اخذت لفافة واشعلتها

ثم ناولت لفافة لماسلوفا وكانت هذه لا تزال تبكي فاخذت تبتلع دخان اللفافة بلهفة وهي تردد بالاشغال الشاقة .. بالاشغال الشاقة .. وتنوح وتبكي. فصاحت كورابليوفا قائلة : الا يخاف الله قتلة الانفس الملعونون ايحكمون على هذه المسكينة من اجل لا شيء . الا يخافون عدل الله وبعد ان سكتت هنيهة وهي تتفرس بماسلوفا عادت فسألتها قائلة : بكم سنة حكموا عليكِ ؟ فاجابت ماسلوفا وهي تسكب الدموع بغزارة اربع سنوات ثم رمت اللفافة بحنق لانها تبللت من دموعها

فقالت امرأة الخفير : ان الحق قد سلم لقوم قساة القلوب يفعلون ما يشاؤن وتشاء اهواءهم بدون شفقة ولا رحمة وقد كنا نعتقد هنا بالافراج عنك . وكانت تقول كورابليوفا انه سيطلق سبيلكِ وانا اخالفها فساء فالها وصدق ظني ونفذت اغراضهم فيك ايتها المسكينة .

واذ ذاكَ اقتربت النساء اللواتى كنَّ على النافذة من ماسلوفا واقبلت عليها المرأة المحكوم عليها من اجل بيعها للمشروبات الروحيه المحرمة مع ابنتها فجلست الى جانب ماسلوفا وقالت : لِم هذا العقاب الصارم

فقالت كورابليوفا : لا غرابة فى ذلك لعدم وجود المال ولو كان ثمَّت مال ارتشوا بهِ ومحامٍ يدافع ويوقفهم عند حدهم لبرَّأوها لا محالة : وهناك محامٍ نسيت اسمه كثيف الشعر طويل الانف لو دافع عنك لاخرجك من هذه الوصمة نظيفة بريئة . فقالت هورشكافا : ان من تعنينهُ لا يبصق عليك باقل من الف روبل . فقاطعت المرأة المحكوم عليها من اجل احراق منزل الحديثَ وقالت : يظهر ان طالعك فى برج نحس أيضاً فانا قد قضى عليَّ نكد الطالع بان احمل عار اغواء زوجة ابني أو السقوط فى ظلمات السجن . وليس

فى هذا أو ذاك ما يجعل للحياة قيمة . فعند هذا الكلام تنبهت بائعة الخمور وقالت : ان حالة الجميع سواء على ما يظهر ثم أخذت تخاطب نفسها وتقول لما تبيعين الخمور ؟ نعم لما تبيعين ؟ ولكن بما اقيت الاطفال ؟

فنبهت هذه الكلمات ماسلوفا وشوقتها الى شرب الخمر فقالت لكورابليوفا انى اريد شيئاً من الفودكا (١) ومسحت الدموع من عينيها : فقالت لها كورابليوفا حبًا وكرامة ستنالين طلبك فى الحال

« ٢٦ »

فناولتها ماسلوفا الثمن وتسللت هذه الحائط فى الحال الى المكان الذى خبأت فيه وعاءً مملوءاً من الفودكا فملأت منه زجاجة واحضرتها الى ماسلوفا التي كانت اذ ذاك تأكل حيث احضرت لها تيوديزيا قليلاً من الشاي البارد كانت تغمس الخبز فيه وهى مسرورة. ولما جاءت كورابليوفا بالخمرة وقدمت لها كأساً شربته وسقت الثلاث النساء اللواتى حولها وهنَّ يحسبنَ سريات الغرفة لانهنَّ امتلكنَ شيئاً من المال وكنَّ يوزعنه على رفيقاتهنَّ . وفى بضع دقائق ابرقت اسرة ماسلوفا فاخذت تقصُّ ما جرى لها فى المحكمة مقلدة بهزوءٍ النائب العمومى وشارحة ما استلفت انظارها بالاكثر وهو لحاق جميع رجال المحكمة بها من مكان الى مكان وكيف كان الجميع يحدقون بها فى المحكمة وكانوا يوالون المجيء الى غرفة المسجونين حين كانت فيها وقال لها أحد رجال الحرس انهم انما يأتون لينظروك فيأتى أحدهم باحثاً عن ورقة أو شيء آخر والحقيقة انه لم يكن فى حاجة الى شيء بل كان يصوب نظره اليَّ كأنَّه يريد اختطافى . قالت هذا وهى تهزُّ رأسها . ثم قهقهت ضاحكة

(١) نوع من المشروب الروسي

وقالت : حقيقة انهم ممثلون بارعون

فقالت امرأة الخفير بصوتها الرنان نعم هو كذلك فهم كالذباب الذي يتراكم على العسل وهم يهملون ما تتطلبه معدهم من الغذآء ولا يهملون ما تتطلبه هذه الشهوة البهيمية. فقاطعتها ماسلوفا وقالت : ومن الغريب ان الامر هناك لايختلف عنه هنا فأول ماأعدت الى السجن دخله جمعٌ من المجرمين نقلهم قطار السكة الحديدية فهؤلآء تألبوا حولي حتى لم أجد لي منفذاً من بينهم ولولا مساعدة المفتش الذي فرقهم لما تمكنت من الخلاص وأحدهم هجم عليّ ولم أفلت من بين يديه الاّ بشق النفس

فسألتها هورشكوفا عن شكل هذه الرجل

فقالت : انه أسمر اللون نحيف الجسم له أعين حادة ومنظره مخيف للغاية . فقالت هورشكوفا هو . هو . عرفته جيداً . فسألتها ماسلوفا ومن هو؟ فأجابت : ياللغرابة ألا تعرفين تشغيلوف وهو الذى فرّ مرتين من سيبيريا وذكره يخيف رجال البوليس وهاهم قد قبضوا عليه الآن ولكنه سيفرّ من سجنه لانه أفلت من جرادة العيار

فقالت كورابليوفا : ياليته يصحبنا معه ابان فراره . ثم التفتت الى ماسلوفا وقالت لها : ليتك تنظرين الآن مايرتئيه المحامى من حيث الاسترحام فان هذا هو الوقت الآن لتقديمه . فأجابت ماسلوفا انها لاتعرف شيئا عن ذلك وفى تلك اللحظة اقبلت ذات الشعر الاحمر عليهنّ وهى تكشط شعرها بأظافرها وقالت انى سأفهمك ماتفعلين وهو ان تكتبي عريضة تبينين فيها عدم ارتضائك من الحكم ثم تعرضين ذلك على النائب

فقالت لها كورابليوفا بغضب وما الذى ترومينه هنا فانك شممت

رائحة الفودكا فأتيت تثقلين أسماعنا بترهاتك فنحن لسنا فى حاجة الى هذيانك وانّا نعرف مانفعل بدون نصيحة أحد. فأجابتها انى لم اكلمك فلما ذا تتداخلين فيما لا يعنيك . فقالت كورابليوفا انك تطلبين الفودكا ومن أجلها أتيت لتضايقينا

فقالت ماسلوفا : اعطيها فليلاً منه لتشرب معنا « وكانت قد اعتادت ان توزع كلما تملكه على الآخرين »

فقالت : سأعطيها شيئاً منه . أجابتها هذه انا لااقبل منك شيئاً لاني لا أحتاج لمن كانت نظيرك معروفة بالشح والتقتير ولا أخاف منك لانك امرأة فاجرة

فقالت كورابليوفا : ومما تخاف المجرمة مثلك وهل وصل من قباحتك ان تعيريني بما نتصفين به ياعاهرة

فلما سمعت ذات الشعر الاحمر هذا الكلام أرغت وازبدت وصاحت بصوت ارتجت له غرف السجن وقالت : أأنا عاهرة ؟ اه ياجانية ياقاتلة ؟ ؟ فقالت لها كورابليوفا بحنق وغيظ اغربى عني ياهذه والاّ . . فلم تسمع كلامها بل بالعكس اقتربت منها اكثر . فلكمتها كورابليوفا فى صدرها بعنف . وكانت المرأة تنتظر مثل هذا الاعتداء فأمسكت للحال فى شعر كورابليوفا باحدي يديها وصفعتها بالاخرى فى وجهها فأمسكت كورابليوفا بيديها وقبضت ماسلوفا وهو رشكوفا على ذراعيها تحاولان ابعادها ولكنها أفلتت شعر كورابليوفا هنيهة لتعود فتتمكن من لفه على قبضتها . فأمالت كورابليوفا رأسها وأخذت تتلقى ضربات المرأة بذراعيها وحاولت ان تعضها بأنيابها فتجمعت النساء حينئذٍ وعلا صياحهنّ وحاولنَ التفريق بين المتخاصمتين

وأخذ الاولاد يعولون ولم يكن لحظة حتى دخلت حارسة الحجرة ومعها سجان فافترقت المتخاصمتان فى الحال ورفعت كورابليوفا خصل شعرها المقطعة وامسكت ذات الشعر الاحمر بقميصها الممزق وبدأت كل منهما تشكو امرها

فقالت الحارسة : انا عالمة ان كل ذلك نتيجة الفودكا وانى سأبلغ الامر الى المفتش غداً وهو سيذيقكنّ مر العذاب فاحذرن وابعدن الفودكا والاّ ساءت حالتكنّ فان لدينا من العمل ما يكفينا ولا يسمح لنا بأن نقضي مشاكلكنّ على الدوام فاذهبنَ الى مضاجعكنَ ولا تبدينَ اقل حركة

ولم يسد السكون فى الحال لان النساء اخذن يشرحن لبعضهنّ مصدر الخطاء وسبب الخصام . وأخيراً خرج السجان والحارسة من الحجرة وسكنت الغوغاء ورقدت كل امرأة فى مضجعها . ولكن ذات الشعر الاحمر لم يكن قد خمد تأثرها فأخذت تتمتم .فقالت لها كورابليوفا لاتضرمى النار ثانية لقد كفى ماحصل . فقالت لو لم يمنعونى عنك لكنت سممت عينيك . فأجابتها كورابليوفا بمثل كلامها وهكذا اخذت نار شرورهما تخمد رويداً رويداً حتى أطفي لهيبها ورقد الجميع

واخذ البعض فى الغطيط ولم تبقَ صاحية الا المرأة المسنة التي كانت تدعو الى الله وهي جاثية امام الايقونة وكذلك ابنة القسيس التي ما صدقت ان خرجت الحارسة من الغرفة حتى قامت من مضجعها واخذت تتمشى فى الحجرة ذهاباً واياباً كجارى عادتها . وتراكمت الهموم على ماسلوفا حين فكرت بانها معاقبة بالاشغال الشاقة وارادت ان تطرد هذه الافكار المزعجة من مخيلتها فخاطبت كورابليوفا التي كانت بجانبها همساً وقالت : من كان يفكر

بمثل هذا الامر فانظرى الى مايفعله الغير ولا يعاقبون . انظرى ما يفعله الكبرآء والاغنيآء من المنكرات ولا يدانون على أعمالهم ..فأجابتها كورابليوفا: لاحيله لنا بهذا أيتها العزيزة وأنت لايجب أن تشغلك الافكار وتستسلمي لليأس والقنوط فيمكنك ان تعيشى فى سيبيريا مطمئنة البال . « وقد حاولت بهذا الكلام أن تعزيها »

فقالت ماسلوفا : انى عالمة بمقدرتى على المعيشة فى تلك الاصقاع ولكنها ليست الحياة التى أريدها وأنا التي نشأت فى الدلال والرفاه . فقالت كورابليوفا متنهدة ان الانسان لايقوى على مقاومة مشيئة الله . فقالت انى عالمة بذلك ولكن حالتي صعبة ومعيشتي مُرّة . وبعد ان صمتت الأثنتان برهة وجيزة قالت كورابليوفا لماسلوفا أتسمعين صوت نهنهة وبكآء بالقرب منا فأنصنت ماسلوفا قليلاً ثم قالت نعم اسمع . وقد كان هذا الصوت صوت المرأة ذات الشعر الاحمر التي أخذت تنتحب لانها فكرت بما حلّ عليها من الاهانة وبما حجب عنها من الفودكا التي كانت تتوق الى شربها بكل جوارحها وأيضاً لانها تذكرت حياتها الماضية المملوءة بالاهانة والهزؤ والسخرية . ثم ارادت تعزية نفسها فتذكرت حبها الاول لعامل فى احد المعامل الحديدية حيث كانت تحبه وكان مغرماً بها الى ان كان ذات يوم فى حالة السكر مع جماعة من رفقائه فدنا منها ولطخها بالقير الحامى وحين شعرت بالألم صرخت بأعلى صوتها فأخذ هو ورفاقه يضحكون ويقهقهون وحين أعادت هذه الواقعة الى فكرها صغرت نفسها فى عينها ولظنها ان لاأحد يسمعها أخذت تنتحب كالاطفال . فلما سمعت ماسلوفا صوتها وعرفت انها تبكى لم تشأ أن تخفي حزنها عن كورابليوفا . فقالت لها انني اشاركك فى الحزن

على حالتها ولكن كان من الواجب عليها ان تلزم الادب ولا تقلق راحتنا

« ٢٧ »

نهض نيليدوف فى صباح اليوم التالى شاعراً بأن حادثاً قد حدث له . وقبل ان يتذكر ما هو هذا الحادث عرف انه مفيدومهم ثم فكر بكاتيوشا والمحاكمة وقال : نعم يجب ان أنبذ الكذب وأقول الحق . وبمصادفة غريبة ورد عليه فى ذلك الصباح رسالة من صوفيا فاسليفنا كان ينتظرها منذ زمن مديد وهى زوجة مارشال النبلاء وكان نيليدوف فى حاجة شديدة الى رسالتها . ولما فضّ الرسالة وجد فيها ان الاميرة تمنحه الحرية التامة وترجو له السعادة فى قرانه المنوى وكرر لفظة قران بدهشة واستغراب وقال ما أبعدنى عن ذلك فى هذا الوقت ثم تذكر ماعزم عليه فى اليوم الفائت من الاعتراف بالحقيقة لزوج الاميرة والاستعداد لترضيته بأية وسيلة ولكنه وجد الامر فى هذا اليوم اصعب مما كان يعده فى اليوم الفائت . ثم قال ما الذى يحملني على تنغيص عيش رجل بأخبارى اياه مالا علم له فيه . ولو كان أتانى وسألني لما أخفيت عنه الحقيقة . ولكن ذهابي اليه خصيصاً لأكدره لا أرى له لزوماً

وصعب عليه ايضاً ما كان يتصوره بالامس من ان يبوح لماريا بكل شئ لان الانسان فى مثل هذه الاحوال لا يمكنه ان يفصح عما فى ضميره ولا مندوحة له عن كتمان بعض الشئ ولكن الامر الذى عزم عليه هو الانقطاع عن الزيارة والاباحة بالحقيقة لو سئل

ولكن ما كان يتعلق بكاتيوشا لا يجب ان يهمل ولا ان يكتم فسأذهب الى السجن واقول لها كل شئ وأسألها المغفرة واذا وجدت لزوماً للاقتران

بها لاامتنع عن ذلك

وقد رأى من الفروض المقدسة ان يضحي كل شئ للاقتران بها وشعر براحة عند هذا التصميم ومن جهة ثروته فقد ارتأى توزيعها بمقتضى معتقده الذى يحرم على الانسان اقتناء اراضى واسعة واذا وجد فى نفسه الكفاية فانه سيهب كل ما يقدر عليه . وكانت قد مضت عليه مدة طويلة وهذه الافكار تشغله ولكنه لم يتحمس مثل هذا اليوم . ولما دخلت عليه اغرافينا قال لها بثبات لم يتصور انه يقوى على ابدائه : انى لاحاجة بى الى هذا المنزل ولا الى خدمتك فيما بعد وقد كان يظن من اشغاله لمنزل كبير كثير النفقة كهذا المنزل انه يريد الاقتران واخلاؤه لابد له عن سبب هذا مادهم فكر اغرافينا بتروفنا وجعلها تحدق فيه باندهاش

ثم تابع كلامه وقال : اني أسدى اليك وافر الشكر ياغرافينا على اعتنائك بى ولكنه لم تبق لى حاجة الى مثل هذا البيت الكبير ولا الى خدمة كثيرين واذا كنتِ تشائين مساعدتى تعطفي وضعي الاشياء فى أماكنها كما كنت تفعلين فى حياة والدتى وحين تجيء ناتاشا شقيقتي تدبر الامر كما يقتضى . فهزت اغرافينا بتروفنا رأسها وقالت ان الاشياء ستطلب ثانية . فقال لها لاتطلب ولم يبقَ لى حاجة اليها وأرجوك ان تخبري كورناى انى سأنقده أجرة شهرين وانى لاحاجة بى اليه مذ الآن

فقالت آسفة : يجب عليك ان تفكر ملياً قبل ان تأتى مثل هذا العمل واعلم انكَ لو رحلت عن هذه الديار فلا بدَّ لك من محل تعود اليه حين تريد زيارة الوطن . فقال انكِ مخطئة فأنا لاأبرح هذه الديار ثم علا وجهه الاحمرار وقال فى نفسه لابد من الاباحة وبدأ يقصُّ عليها ما فى ضميره

فقال إنّ حادثاً غريباً خطيراً حدث لي بالامس قالت وما هو . قال : أتذكرين كاتيوشا خادمة عمّتي ماريّا ايفانوفنا . قالت اعرفها وانا التي علمتها الخياطة . قال انها حوكمت بالامس فى المحكمة وكنت انا أحد المحلّفين . فصاحت مذعورة وقالت . يالله وما التهمة التي حوكمت من اجلها ؟ قال تهمة القتل وانا سبب كل ما جرى . فقالت اغرافينا منذهلة ما اغرب ما تقول وكيف تكون أنت السبب ؟ « وقد كانت عالمة بما جرى له مع كاتيوشا » قال نعم أنا السبب وهذا ما جعلني اغيّر خطة معيشتي . فقالت مبتسمةً وهل فى مقاضاتها ما يوقع عليك مثل هذا التأثير . قال بلا ريب فانا سبب زيغانها وسلوكها سبيل الفساد فعليّ اذن اصلاح ما فسد وبذل الجهد فى اغاثتها . قالت إنّ ما فعلتهُ لم يكن الا لانشراحكَ ولم نكن مخطئاً فيما فعلت وهو ما يحدث لكل شابّ فلا تسندْ انحطاطها وفساد اخلاقها اليك .

قال انا هو سبب افسادها وانا المتحتم عليّ اصلاح ما افسدت . قالت يصعب عليك القيام بذلك . قال هذا شغلي واذا كنت تفكّرين فى نفسك فاعلمي انى ساتمّ ما اوصت به والدتى . قالت انا لست مفكّرة فى نفسي لأن لي بيتاً يقبلني اهله على الرحب والسعة ولكنى مشفقة عليك . قال لا يشغل بالكِ من اجلي والذي ارجوهُ منكِ هو ان تساعديني فى نقل الاثاث واخلاء البيت وانى ممتنٌّ اليك من اجل صدقكِ وولائكِ .

وبينما كان سائراً نحو مجلس القضاء مجتازاً الشوارع الى اجتازها اخذته الدهشة من انقلابه وتحوّله من حال الى حال . فاقترانه بماريا الذي كان محتملاً بالامس اصبح غير ممكنٍ اليوم . وقد كان بالامس يعدّ حقّ الخيارُ له ولم يرتب فى رغبتها بالاقتران به واليوم رأى نفسهُ غير اهلٍ للاقتران

بها حتى ولا الى مؤانسته وقال فى نفسه لو كانت تعلم من انا لرفضتني فى الحال وبالامس كنت اخطئها لمغازلتها ذاك الشاب الجميل فكم يحق لها ان تعنفنى. بل لو انها قبلتنى فكيف كان يمكنى ان اعيش بسلام او بسرور مع علمى انّ الاخرى مودعة السجن واليوم أو غدا تنقل الى سيبيريا. تلك المرأة التى اهلكتها انا تكون سائرة نحو منفاها حيث تذوق مرّ العيش والعذاب والهوان وتشتغل عاتقها الاشغال الشاقّة واستقبل انا تهانى المهنئين مع عروسي أو مع مشير النبلاء الذي خدعته ودنّست مضجعه غير مبال بما افعل من المنكر. لا .. لا يمكنني القيام بمثل هذا الامر الآن. وحين قال هـذه الجملة شعر بارتياح الى التغيير الذى حلّ على قلبه. ثم قال انّ اوّل ما يجب علىّ عمله هو الذهاب الى المحامى والوقوف على قراره ثم اذهب وأرى كاتيوشا وافول لها كل شئ. وحين تصـور مقابلتها والاعتراف بذنبه ووعده اياها ببذل جهده فى مساعدتها والاقتران بها تكفيراً عما اذنب شعر بسرور وابتهاج عظيمين واغرورقت عيناه بالدموع

ولما بلغ مجلس القضاء سأل الحاجب عن مكان المسجونين وعن الموظف الذي يطلب منه السماح بزيارتهم. فاجابه انهم موجودون فى محلات مختلفة وحتى تصح الاحكام نهائية يتوقف السماح بزيارتهم على النائب فان اردت ان أتي اليك بعد الجلسة لاصحبك الى النائب فانا لا اتأخر وأما الآن فارجوك ان تدخل غرفة الجلسة. فشكر الحاجب على ما ابداه من اللطف ثم دخل غرفة المحلفين حيث كان تركها المحلفون ودخلوا الجلسة. وكان التاجر قد تعاطى شيئاً من المنعشات وبدت على وجهه دلائل السرور كما كان فى اليوم السابق وحيّا نيليدوف تحية صديق قديم. وأما جراسيمو فتش فلم

يزعجه كاليوم الغابر بهزله وقهقهته

وقد كان نيليدوف راغباً فى ان يقص على جميع المحلفين علاقته بماسلوفا وقال فى نفسه كان يجب علىّ ان اقف خلال المحاكمة بالامس واعترف بذنبي ولكنه لما دخل غرفة الجلسة مع سائر المحلفين وشاهد ما كان قد شاهده فى اليوم السابق وسمع اعلان افتتاح الجلسة وصعود ثلاثة اشخاص مزركشي الاطواق الى المنصة وجلوس المحلفين على الكراسي العالية ووقوف رجال الضبط رهن النطق بالحكم قال لو فعلت ما افكر به لما كان لي شيء من التأثير على هذه الهيئة المهيبة . وقد كانت الاستعدادات للمحاكمة فى هذا اليوم كما كانت بالامس عدا تحليف المحلفين والقاء خطبة الرئيس اللذين اهملا

وكانت الدعوى المقامة فى هذا النهار دعوى لصوصية وكان السجين الذي يخفره جنديان سالان سيفيهما نحيلاً ضيق الصدر فى العشرين من عمره لا اثر للدم فى وجهه وقد جلس منفرداً فى غرفة المسجونين يحدق فى كل رجل يدخل المجلس . وكان قد اتهم مع رجل آخر بكسر كوخ وسرقة عدة حصر قديمة تبلغ قيمتها ثلاث روبلات (١) ودلّ التحقيق على ان البوليس اوقف هذا الشاب مع رفيقه الذي كان يحمل الحصر على كتفه . وقد اعترفا للحال واودعا السجن معاً فرفيقه الذى كان حدادا مات فى السجن ولذلك حوكم الشاب وحده وكانت الحصر ملقاة على طاوله كبرهان حسي على ارتكاب الجريمة وجرت الاعمال في ذلك اليوم كما جرت فى اليوم الذي قبله باقامة الادلة والبراهين وباداء الشهادات وبالحلف وبالقاء الاسئلة والبحث . وكان البوليس الشاهد عند القاء الاسئلة عليه من الرئيس والنائب . والمحامى يجيب

(١) الروبل ثلاثة فرنكات ونصف

« الامر كذلك » أولا أقدر ان أقول . واشتد عليه الذهول حتي أحجم عن بيان سبب قبضه على المتهمين ونودى الشاهد الآخر صاحب الحصر وهو رجل مسن سوداوى الطباع ولما سئل عما اذا كانت الحصر له أجاب بالايجاب . ثم سأله النائب العمومى ماذا كان يفعل بتلك الحصر وما فائدته منها. فاستشاط الرجل غيظاً وقال : فلتكن من نصيب الاباالسة والشياطين حيث لاحاجة بي اليها ولو علمت انها ستجرُّ لى كل هذا القلق والنصب لما سألت عنها أو كنت أنكرتها كونها لى بل كنت أعطيت عشرين روبلا للمتهمين حتي لاأساق بين حين وآخر الى هذا المحل ويثقل دماغى بالاسئلة العقيمة . فقد أنفقت نحو خمسة روبلات أجرة عربات وتعطلت علىَّ اشغالى عدا كونى مريضاً اشكو ألم داء الاعصاب

هذا ماقاله الشاهد واعترف المتهم بكل شئ وظهرت القضية جلية ولكنَّ وكيل النيابة رفع كتفيه كما فعل فى اليوم السابق وأخذ يلقي خطاباً فحواه ادانة المتهم بتعمد السرقة وقد اثبت فى كلامه حدوث السرقة من كسر قفل المنزل وألحَّ بمعاقبة الشاب عقاباً صارماً . فقام المحامى الذى عينته المحكمة وقال : ان السرقة لم ترتكب فى منزل مسكون وبما ان الجرم لايمكن انكاره فليس السجين خطراً مهدداً المجتمع الانسانى كما يدعى وكيل النيابة ثم تظاهر الرئيس بالنزاهة والعدالة كما فعل فى اليوم السابق وأخذ يوضح اقوال المحلفين ويستند عليها ثم قاموا للاستراحة كعادتهم واخذوا يدخنون ويضحكون وعاد الحاجب فصاح « محكمة » وعاد الجنود لوخز السجين برؤوس الحراب حتى ينبهوه ولا يدعوه ينام

وقد دلت التحقيقات على ان هذا الشاب كان مستخدماً فى معمل

دخان بقى فيه خمس سنين وطرده صاحب المعمل فى هذه السنة على أثر اعتصاب أحدثه العمال فأخذ تجول فى شوارع المدينة بدون عمل وأنفق ما كان قد جمعه بمعاقرة الخمرة والتقى فى احد المطاعم بحداد سكير رفت من خدمته ايضاً وفى ذات ليلة سكرا وبينما كانا سائرين بترنحان وصلا الى كوخ صغير فكسرا قفله وأخذا أول ماوقعت عليه أيديهما . وقد اعترفا بما فعلا وأودعا السجن حيث مات الحداد قبل المحاكمة وحوكم الشاب وحده الآن كأنه مخلوق مخيف مريع يجب على الهيئة الاجتماعية اجتنابه واتقاء شره

فقال نيليدوف فى نفسه بعد ان سمع المحاكمة امامه انه مخلوق مريع كجريمة الامس . انهم مخيفون ونحن الذين نحكم عليهم لسنا مخيفين . أنا الفاسق الخادع وكل من يتولى الحكم فى هذا المحل نظيري وجميع الذين يعرفون حقيقة حالى لا يقتصرون على عدم تحقيري فقط بل انهم يحترمونني ويبجلونني أيضاً فما اعجب وما ادهش هذه الحياة

من الواضح الجلى ان هذا الفتى ليس مستثنى فى العمل السيئ بل انه كسكثيرين غيره ممن يسيئون وهو لم يصل الى ماهو عليه الا لانه وقع فى ظروف كونت فيه هذه الصفات . وحتى يمنع مثل هؤلاء الفتيان من اتباع طرق الفساد يجب قطع الاسباب التي تورث الشر والفساد . فهل سمع ان أحداً رثى لحاله ورفق به ومد له يد المساعدة حين نشب الفقر اظافره فى اهله وجعلهم يرسلونه الى المدينة فلو حصل ذلك لما نتجت هذه النتيجة وقد قال نيليدوف هذا القول وهو يتفرس فى وجه الفتى الذى بدت عليه دلائل المرض والرعب . ثم بعد مجيئه الى المدينة كان يشتغل كل يوم اثنتي عشرة ساعة فى المعمل ويذهب منه الى المحلات العمومية مقاداً من رفاقه

فهل اتاه حينئذ أحد وقال له لاتذهب يافانيا فان هذا السبيل سبيل ضلال . انه لو وجد اذذاك من نصحه لما ذهب ولما وقع فى الشر ولا فعل شرا ولكنه لم يصادف من يرثي لحاله فى السنين التي عاشها فى المدينة كحيوان صغير شريد بل كان كلما يسمعه ويراه من الفعلة الذين حوله ان من يخدع ويسكر ويحلف باطلاً ويتعدى على حقوق الغير ويعيش متشرداً يمدح من اقرانه ويحسب عمله مجيداً

فهذا الشاب المريض الذي انهكه العمل الشاق والتجاء الى شرب المسكر واخذ يهيم فى شوارع المدينة كأنه فى حلم حتى وصل الى كوخ حقير وأخذ منه بعض حصر عتيقة لا فائدة منها ندينه نحن الآن ونفكر باصلاح حالة البلاد بمعاقبته بدلا من ان نفكر فى ازالة الاسباب التي اوصلت هذا الفتى الى حالته الحاضرة « ياويلاه »

مرت كل هذه التصورات بمخيلة نيليدوف فلم يعد يصغى الى ما كان يدور من الحديث أمامه ودهمته الاحزان والاكدار ولم يفهم كيف انه لم ينظر كل ذلك قبلا ولماذا لم يقدر غيره ان ينظره

« ٢٨ »

وفى أثناء الاستراحة خرج نيليدوف الى الخارج وعزم على ان لايعود الى المجلس ثانية وقال دعهم يفعلون ما يريدون به فانا لا اقدر ان اشترك معهم في عملهم الفظيع وقصد غرفة النائب فمنعه الحاجب من الدخول ولكن نيليدوف لم يحفل بكلامه بل تقدم الى الباب حيث لقي موظفاً وطلب مقابلة النائب قائلا انه أحد المحلفين وان لديه أمراً هاماً يريد ان يلقيه عليه وكان لقبه العظيم ولباسه الفاخر يؤهلانه لبلوغ ما يريد فادخله الموظف على النائب

فسأله هذا بعنفٍ ماذا تريد ؟ فاجابه بكل رقة : انا محلّف واسمي نيليدوف وانى شديد الاضطرار لمقابلة السجينة ماسلوفا . وعند ما لفظ اسمها احمر وجهه وشعر بانهٔ خطا خطوة سيكون لها تأثير جازم على حياته

وكان النائب قصير القامة اسمر اللون ذا شعر قصير متجعد وعينين براقتين ولحية كثيفة فقال ماسلوفا ؟ نعم انى اعرفها وهى المتهمة بالتسميم ولا اسمح لك ان تراها دون ان اعرف السبب

فزاد وجه نيليدوف احمراراً وقال يلزمني ان اراها لغرض هامّ جدًّا

فقال النائب : هل سمعت قضيتها ام لم تسمع بعد ؟ فاجابه نيليدوف : انها حوكمت امس وحكم عليها بالاشغال الشاقة اربع سنين ولكنها بريئة

فقال النائب غير حافل بما ذكره نيليدوف عن برائتها . اذا كانت قد حكم عليها بالامس فهى لا تزال فى السجن الاحتياطى حتى يأخذ الحكم صفته النهائية والزيارة هناك ممنوحة فى أيام معلومة فانصحك ان تستفهم من حارس السجن .فقال نيليدوف وهو يرتجف من الغيظ : يجب ان اراها فى اسرع ما يمكن

فقال النائب : ولماذا ؟

اجابه : لانه حكم عليها بالاشغال الشاقة ظلما وهى بريئة وانا السبب واضطرب صوته حين لفظ هذه الجملة وشعر بانه قال ما لا يصح ان يقال .

فقال النائب : ولماذا كنتَ انت السبب . قال لانى اغويتها واوصلتها الى حالتها الحاضرة ولو لم اغوها واضلها لما فسدت اخلاقها ولما وقعت فى مثل هذه التهمة

فقال النائب : لست أرى فيما تتحمله سبباً موجباً لزيارتها. فقال نيليدوف :

كيف لا وهل من سبب اقوى من هذا السبب وهو الذي يدفعني الى اتباعها والاقتران بها ولما لفظ هذه الكلمات اغرورقت عيناه بالدموع

فقال النائب : ان ما اسمعه لمن اغرب ما سمع وادهش ما قيل واظنك عضواً فى نظارة كراسنورسك الزراعية . وتذكر النائب انه سمع قبلاً باسم نيليدوف هذا الذي يحادثه الآن بمثل هذا الحديث الغريب

قال نيليدوف غاضباً : اني لا أجد فى ذلك ادنى علاقة بما اطلب

فقال النائب متبسماً : كلاَّ وانَّ طلبك خارق العادة ومخالف لمشارب من هم نظيرك

فقال نيليدوف : حسناً تقول ولكن هل يمكن الحصول على الاذن .

فقال نعم ساعطيك الاذن حالاً . ثم بدأ بالكتابة وظل نيليدوف واقفاً حتى اكمل النائب كتابة التذكرة وناوله اياها واحدق فيه متعجباً : فقال نيليدوف ويجب عليَّ ان اقرر عدم مشاطرتى المحكمين الاحكام

فاجابه النائب : يجب عليك تقديم اسباب راهنة بهذا الصدد الى المجلس كما لايخفاك

فقال نيليدوف : ان حجتي بذلك هى اعتباري كل حكم تصدره المحاكم ليس عديم الفائدة فقط بل مخلاً بالاداب أيضاً فقال النائب متبسماً « كأنه يعدُّ مثل هذا التصريح معروفاً لديه وانه من انواع الفكاهات » نعم ولكنك تعرف حقيقة المعرفة اني كنائب لايمكنى موافقتك على هذا الرأي فانصح لك اذاً عرض رأيك على المجلس فيبحث فى الاسباب ويري ما اذا كانت راهنة أو واهنة ويترتب على الحالة الثانية الغرامة

فقال نيليدوف بحنق : قد قدمت تقريري ولن اقدمه مرة ثانية

فليفعلوا ما يشاؤن

فقال النائب : سعدت اوقاتك واحنى رأسه راجياً التخلص من زائره

وبعد ان برح نيليدوف الغرفة دخلها أحد اعضاء المجلس وسأل النائب عن زائره . فقال هو نيليدوف الذي لايخفاك امرهُ وهو الذي كان يضع تقارير غريبة فى جلسات نظارة كراسنوبرسك الزراعية فانظر وتأمل انهُ من المحلفين وبين المسجونين امرأة أو فتاة محكوم عليها بالاشغال الشاقة يقول انه اغواها ويريد الآن الاقتران بها . قال العضو اظنك تمزح فيما تقول فقال النائب : بل هذا ما قاله لي بصورة جدّية فقال العضو ان شبان اليوم قد اعترتهم اعراض غريبة فى ادمغتهم

* * *

بعد ان ذهب نيليدوف من غرفة النائب سار توًّا الى السجن فلم يلق ماسلوفا فيه واخبره المفتش انها نقلت الى السجن العمومى القديم وكانت المسافة بين السجنين كبيرة جداً فلم يبلغ نيليدوف السجن القديم حتّى الغروب ولما دنا منه اوقفه الحارس وقرع الجرس فأتى سجّان اراه نيليدوف تذكرة الدخول فقال السجّان لايمكنه السماح له بالدخول بدون اذن المفتش . فدخل نيليدوف ليرى المفتش وبينما كان يرقى الدرج سمع صوت عزف على البيانو ولما فتحت الخادمة له الباب رنّ الصوت فى اذنيه فسألها عن المفتش . فقالت انه غائب ثم سمع صوتاً يقول اخبريه انه لايعود اليوم لانه ذهب لزيارة بعض اصدقائه . وقبل ان يجيب بكلمة سمع وقع اقدام تدنو منه واذا بصوت يقول ان ابى ليس هنا لماذا تزعجونه كل يوم ولكنها لما دخلت غرفة الاستقبال ونظرت شاباً بلباس فاخر ومنظر جميل سكن غضبها ولانت

وخاطبته بكل رقة قائلة : تفضل ياسيدي واخبرني عما تريد لاقضيه لك

قال معي اذن من النائب لمقابلة سجينة

قالت : ان ابي غائب ولا حيلة لي بذلك فان شئت تنتظره فعلى الرحب والسعة والاَّ فاقصد المعاون فهو في مكتبه الآن. فشكرها نيليدوف على لطفها وخرج وقبل ان يخطو بضع خطوات سمع صوت البيانو المطرب الذي يخالف حالة ذاك المكان المحزن وتلك الحالة الكئيبة ولما وصل الساحة قابل ضابطاً حسن البزة فسأله عن معاون المفتش وكان هو المعاون ولما نظر هذا الاذن الذي معه قال لايمكنني ان ادخلك الآن لانك جئت متأخراً فتعال غداً في الساعة العاشرة اذ يسمح لكل من اراد بالدخول ويكون المفتش نفسه هنا فيمكنك اذ ذاك مقابلة من تريد مقابلته

وهكذا لم يفلح نيليدوف في مقابلة ماسلوفا ذاك اليوم فعاد الى منزله. وبينما هو سائر ثارت في مخيلته المحادثات التي دارت بينه وبين النائب ومعاون المفتش وكيف انه طلب مقابلتها واخباره النائب عن ذلك وذهابه الى السجن ليراها كل هذه الافكار هيجته ولم يسكن الاَّ بعد ساعات . ولما وصل المنزل بحث عن السجل الذي يدوّن فيه تاريخه اليومي وكان لم يمس منذ زمن طويل وقرأ فيه بعض جمل ثم دون ما يلي :

« لم اكتب شيئاً في سجل حياتي منذ سنتين وعزمت على ان لا اعود الى مثل هذه الامور الصبيانية . ولكنها ليست صبيانية بل انها مسامرة مع نفسي هذه النفس السماوية الموجودة في كل انسان . وكل المدة التي كانت فيها هذه النفس نائمة لم يكن لي من اسامره وقد تنبهت بحادث خارق العادة في ٢٨ ابريل بمجلس القضاء حيث كنت من المحلفين في قضية كاتيوشا التي

[illegible] في الخارج

اغويتها وقد نظرتها بردآء السجن وبخطاء غريب حكم عليها بالاشغال الشاقة وقد ذهبتُ الى النائب والى السجن لاراها واكلمها فلم يسمح لي . ولكني عزمت على ان افعل ما استطيع لاراها ولاعترف لها ولاكفر عن خطيتي حتى بالقران . فاغثني ياخالق ان نفسي فى سلام واطمئنان وانا مملوء بهجة وسروراً

« ٢٩ »

وفى تلك الليلة طال ارق ماسلوفا ولم يغمض لها جفن فاخذت تفكر بان لا شيء يغويها على الاقتران بمجرم فى سخالين بل انها ستميل اليها أحد موظفي السجن كاتباً أو حارساً أو معاون حارس اذا الجاءها الامر وقالت انهم كلهم بشر ولكن يجب عليَّ ان احفظ صحتي والاَّ هلكت ثم تذكرت المحامى الذى دافع عنها كيف كان يحدق بها وكذلك الرئيس والرجال الذين قابلتهم وأيضاً اولئك الذين كانوا يدخلون غرفة المجلس خصيصاً لاجلها وتذكرت ما قالتهُ لها رفيقتها برتا حين زارتها فى السجن عن التلميذ الذى احبته فى منزل كيتافا وكيف انه سأل عنها ورثى لحالها . وتذكرت الخصام مع المرأة ذات الشعر الاحمر وحزنت عليها . وتذكرت الخباز الذى ارسل اليها عدة ارغفة علاوة على ما طلبت واعادت الى مخيلتها كثيرين عدا نيليدوف فلم تفكر قط بحبها له ولا بايام طفوليتها وصباها لان ذلك كان يدميها ويجرح فؤادها وهذه التذكرات المؤلمة بقيت غير ممسوسة فى احد الجوانب من اعماق قلبها فقد نسيته ولم تذكره مطلقاً واليوم لم تعرفه فى المحكمة ليس فقط لانها لما نظرته لآخر مرة كان باللباس العسكرى غير ملتحي وبشاربين صغيرين وشعر قصير متجعد والآن اصبح اصلع وملتحياً بل لانها لم تفكر فيهِ قط فقد

دفنت تذكاره فى تلك الليلة المريعة اذ كان عائداً من الجيش ومرَّ فى القطار دون ان ينزل لينظر عمتيه وعرفت كاتيوشا حينئذٍ انها حامل وكلما كانت تؤمل بعودته لم تكن ترى الجنين حملاً ثقيلاً فى احشائها وكانت غالباً تعجب بنفسها وتتحرك عواطفها حين تشعر بتنقلاته اللطيفة والخفيفة فى داخلها . ولكن كل شيء تغيَّر فى تلك الليلة ولم تعد تحسب الجنين الاَّ حملاً ثقيلاً تتوق الى ازاحته عن عاتقها

وكانت عمتا نيليدوف تنتظرانه لعلمهما انه لا بُدَّ ان يزورهما اثناء عودته ولكنه اخبرهما برسالة برقية ان لا قدرة له على ذلك لانه مضطرٌّ ان يكون فى بطرسبرج فى وقت معين . ولما سمعت كاتيوشا هذا الخبر عزمت على الذهاب الى المحطة لتراه وكان ميعاد وصول القطار فى الساعة الثانية ليلاً . فبعد ان انامت كاتيوشا سيدتيها سألت ابنة الطباخ الصغيرة ماشكا ان تصحبها ووضعت عليها شالاً ورفعت ثوبها واسرعت نحو المحطة وكانت ليلة من ليالي الخريف والسماء تمطر رذاذاً والريح تهبُّ من كل الجهات وكان الظلام حالكاً فضلَّت عن الطريق مع معرفتها اياها وأخذت تتخبط فى ذلك الديجور الحالك وما بلغت المحطة الا بعد عناء شديد وكان باق ثلاث دقائق فقط لقيام القطار وقد قرع الجرس الثانى فاسرعت على الرصيف ونظرته للحال فى عربة من الدرجة الاولى كانت مفروشة فرشاً ثميناً والانوار ساطعة فيها وبجانبه ضابطان يلعبان الورق . وكان نيليدوف متكئاً على مقعد يضحك . وحينما حققته جيداً اقتربت من العربة ونقرت على زجاج النافذة ولكن فى تلك اللحظة قرع الجرس الاخير وبدأت العربات تتحرك الواحدة بعد الاخرى فنهض أحد اللاعبين واطل الى الخارج

والورق بيده فعادت ونقرت ثانية والصقت وجهها بزجاج النافذة ولكن العربة أخذت فى الحركة فسارت كاتيوشا محاذية لها تنظر الى الداخل تحاول الضابط انزال الزجاج فلم يقوَ على ذلك فنهض نيليدوف ودفع الضابط وبدأ بانزال الزجاج ولكن القطار اسرع فى السير حتى اضطرَّت الى اللحاق به مسرعة وزادت سرعة سير القطار حين انزل زجاج النافذة ولكن الحارس مرَّ بها فى تلك اللحظة ودفعها وقفز الى احدى العربات فركضت كاتيوشا على ارض الرصيف المبللة وحين وصلت الى اخره كادت تسقط وهى نازلة على الدرج وأخذت تسرع فى الركض الى جانب القطار ولكنها لم تلحقهُ لان عربات الدرجة الاولى والثانية سبقتاها واصبحت محاذية لعربات الدرجة الثالثة ولكنها لم تيأس حتى مرَّت العربة الاخيرة ولم يبقَ ما يقيها عصف الريح التي كانت تهبُّ بعنف فترفع شالها عن رأسها وتتلاعب باطراف ثوبها فترفرف على ساقيها ثم حملت الريح الشال عن رأسها فصاحت الابنة الصغيرة التي كانت تحاول اللحاق بها ياكاتيوشا قد فقدتِ شالكِ . فوقفت كاتيوشا وامالت رأسها وقبضت على الشال بكلتا يديها وصاحت صيحة يأس وقنوط قائلة واأسفاه قد ذهب واجهشت فى البكاء

ثم قالت : انه جالس على مقعدٍ يمزح ويشرب فى عربة فاخرة تتلألأ بالانوار وانا طريدة شريدة فى القفر ملطخة بالاوحال هائمة فى الظلام تتجاذبني عواصف الرياح وينوح عليَّ المطر الهتان. ولما انتهت من كلامها هذا انطرحت على الارض وعلا زفيرها حتى ارتعبت الابنة الصغيرة وطوقت عنقها بذراعيها المبللين وقالت هيابنا الى المنزل ياعزيزتى . ففكرت كاتيوشا وقالت فى نفسها دون ان تجيب الابنة انى سالقي بنفسي تحت عربة القطار حين مروره

وبذلك تنتهي حياتي والسلام

عزمت كاتيوشا كل العزم على الانتحار كما يحدث للانسان غالباً اثر التهيج الشديد ولكن ما اقرب ان عادت الى رشدها وذلك حين تحرك الجنين الذي من صلب نيليدوف في احشائها واخذ يتنقل بلطف من جانب الى آخر كل ما كان يزعجها ويريها الحياة كريهة وما كان يكوّن مرارة في نفسها من اجل زلتها ومن اجل الولد وما كان يدفعها الى الانتقام من نفسها اضمحل ولم يبق له أثر واخذت تهدأ وتسكن ثم نهضت والتحفت بالشال وسارت نحو المنزل فوصلته مبللة معياة . ومن تلك الليلة طرأ عليها التغيير الذي اثر في نفسها تأثيرا مرًّا فابطل اعتقادها بالله وبطيبة الناس وقد كانت قبل ذلك تؤمن بالله امانة حقيقية وتعتقد ان جميع الناس أيضاً يؤمنون به فاقتنعت اذ ذاك تمام الاقتناع بأن كل انسان جاحد وبأن كل ما يقال عن الله وعن شرائعه خداع ونفاق . لانّ الذي احبها واحبته نبذها بعد ان تمتع بها وقضى شهوته البهيمية واحتقر حبها ومع ذلك فقد كان احسن الناس الذين عرفتهم وكل واحد عرفته بعده كن ارداء منه وكانت كلما جالت في مخيلتها الامور التي حدثت لها قوي فيها هذا المعتقد . فعمتاهُ السيدتان المسنتان النقيتان طردتاها حين لم يعد في امكانها خدمتهما كعادتها . وكذلك جميع من التقت بهم بعد تلك الليلة رجالا ونساءً لم ترى من احدهم خيراً . فالنساء كنّ يستعملنها وسيلة للكسب . والرجال من ضابط البوليس الشيخ حتى حراس السجن يحسبونها اداة للتسلية والانشراح ولم يكن أحد في الكون يهتم في شيء عدا انشراحه والذي قوّى فيها هذا المعتقد ذلك الشيخ الذي عاشت معه في السنة الثانية من حياة الاستقلال فقد قال لها صراحة مع كبره

ان هذا الامر هو اساس سعادة الدنيا

فكل انسان عائش من اجل نفسه ولا يطلب غير انشراحه وكل اما يقال عن الله وعن الصلاح ليس الاَّ خداعاً . وحين كانت الشكوك تتولد فى افكارها وتعجب من اختلال نظام كل شئ فى الكون ومن قيام كل انسان على ايذاً كل شخص سواه حتى لايفلت واحد من الاذى كانت تجهد نفسها فى اقصآء هذه الافكار من مخيلتها كي لاتضطر الى البحث واستنتاج النتائج وكانت حين تتغلب عليها السويداء تعمد الى التدخين أو شرب المسكر ولا سيما الى تبادل الحب مع احد الرجال فينقضي كل شئ

« ٣٠ »

وفى الساعة الخامسة من صباح الاحد سمع صفير فى سجن النسآء وكانت كورابلوفا مستيقظة فاسرعت وايقظت ماسلوفا ولما فتحت عينيها قالت باضطراب يالله أ انا مجرمة ومالت الى النوم رغبة فى العودة الى عالم التصورات ولكن خاصة الخوف كان قد تغلبت على خاصة النوم فنهضت ونظرت الى ما حولها فرأت جميع النسآء مستيقظات والاولاد لايزالون نياماً فخرجت السجينات الى الفسحة ليغسلنَ وجوههنَّ وهناك اختصمت ذات الشعر الاحمر مع سجينة من حجرة أُخرى وعلاصياحهما فاقبل السجان ولكم ذات الشعر الاحمر فى ظهرها وقال لها انك ترومين الانفراد فى حجرة منزوية فاذهبي ولا تسمعيني صوتك فيما بعد . فلم تحفل بكلامه وقالت انني عجوز واذكر ايام الطفوليه باللعب . فانتهرها وقال لها اذهبي واستعدي لحضور القداس

ولم تكد ماسلوفا تفرغ من لبس ثيابها حتى دخل المفتش ومعاونوه

ونادى أحد السجانين بالنسآء قائلاً : اخرجن للتفتيش فخرجت النسآء من جميع الغرف واصطففن ووضعت كل منهن يدها على كتف الاخرى فاحصين جميعهن . وبعد التفتيش قادتهن المرأة الحارسة الى الكنيسة ووقفت ماسلوفا وتيوديزيا فى وسط صف مؤلف من مائة امرأة اتين من حجر مختلفة وكن جميعهن لابسات أثواباً بيضآء عدا البعض منهن اللواتي تبعن ازواجهن المجرمين الى سيبيريا وكانت الفسحة التي تعلو الدرج مملوءة بالمصليات وامتزج صوت نقل الاقدام بصوت المتكلمين من النسآء والاولاد ولما حولت ماسلوفا نظرها لتنظر القادمين رأت عدوتها بوتشكوفا فى المقدمة فالت نحو تيوديزيا بوجه غاضب . ولما دخلن الكنيسة انقطعن عن الكلام وجثون على ركبهن وكانت الكنيسة تتلألأ بنقوشها الذهبية وكان المحل المعد لهن الى اليمين . وبعد النساء دخل الرجال بألبستهم الصفراء وجلسوا فى ناحية الشمال وفى الوسط

ووقف فى أحد جوانب الرواق الاعلى الرجال المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة فى سيبيريا وكانوا قد سيقوا قبل الآخرين وكنيسة السجن هذه أعاد بناءها ونقشها تاجر غني وأنفق على البناء والزخرفة عشرات الالوف من الروبلات فكانت تبرق بالالوان الناصعة والاوانى المذهبة الثمينة . وساد السكون برهة كان لايسمع فى أثنائها الا صوت خشخشة السلاسل وسعال الاطفال وأخيرا ماج المجرمون الذين كانوا فى وسط الكنيسة كالبحر الهائج وضغطوا بعضهم بعضاً حتى فتحوا ممراً اجتاز منه المفتش وجلس فى محل مقابل لجميع الحاضرين

ثم بدأت الصلاة اذ دخل الكاهن لابساً حلة مزركشة بخيوط ذهبية

وأخذ يتلو الصلوات بلغة السلاف الصعبة الفهم واشترك معه شماس صغير السن وكان يرتل بصوته البديع وكان يتخلل صلاتهما دعاء خصوصي للقيصر ولاسرته وطلب السعادة وطول العمر لكل فرد منهم والجمع يؤمن على كل جملة يقولها الكاهن ثم قرأ الشماس بصوت عال فصلا من سفر اعمال الرسل وبعد ذلك أخذ الكاهن يتلو فصلاً من انجيل مرقص بوضوح تام فهمه كل واحد من الحاضرين وهذا الفصل يحتوي على قيامة المسيح من بين الاموات وظهوره لمريم المجدلية التي أخرج منها سبعة شياطين قبل صعوده الى السماء ليجلس عن يمين ابيه . ثم كيف أظهر نفسه للاحد عشر تلميذاً وكيف أنه امرهم بتبشير جميع الامم بالانجيل معلناً أن الذي لايؤمن يهلك والذى يؤمن ويعتمد يخلص وفوق ذلك يطرد الشياطين ويبرئ المرضى بوضع يديه عليهم ويتكلم بلغات غريبة ويمسك الافاعي واذا شرب السم لايموت بل يبقى حياً

وبعد ان اكمل قراءة الانجيل أخذ يناول الاطفال من العشاء الربانى . وكأنه أراد تعزية المسجونين البؤساء فأضاف الى الخدمة العادية خدمة أخرى اذ خرج من الداخل وجثا امام صورة المسيح وتلا صلوات تعزية رددها الجمع بصوت رخيم وهى طلب السلامة والرحمة للجميع ثم انحنى وقبل الارض وتمثل به المفتش والحراس وجميع المسجونين وزادت خشخشة السلاسل عند هذا الانحناء . وأخذ الكاهن يرتل « ياسوع ابن الله ارحمنا » والمسجونون ينحنون وينتصبون وهم يكررون هذه الجملة من بعده وختمت الصلاة بلفظة « هللويا » فأخذ المسجونون يرسمون اشارة الصليب وينهضون وبذا تمت الخدمة المسيحية التى أريد بها تعزية الاخوة الذاهبين الى المنفى وتهذيبهم

« ٣١ »

ولم يكن واحد من ذلك الجمع من المفتش حتى ماسلوفا يدرى ان ذلك المسيح الذى كرر الكاهن اسمه بالتعظيم انه هو نفسه نهى عن الظلم وأمر بالمحبة وأوصى بالفقرآء والبائسين وعدهم اخوته وحرم بكلام واضح أن يدعو بعض الناس البعض الآخر سادة لهم وقد حرم ايضاً تشييد الهياكل قائلاً انه أتى ليدمرها وان على الانسان أن لايسجد فى هيكل بل بالروح والحق وفوق كل شيء لم يحرم فقط ادانة الناس وسجنهم وتعذيبهم وقتلهم بل حرم أيضاً كل نوع من الشدة قائلا انه أتى ليطلق الحرية للاسرى

ولم يظهر ان واحداً من الحضور عرف ان ماجرى فى الكنيسة لم يكن سوى ممثل لتلك الخشبة التى اعدم عليها المسيح من أجل شكواه من مثل هذه الاعمال التى أجريت فى الكنيسة ذلك اليوم

وقد أتم الكاهن فصله بضمير مستريح لانه منذ طفوليته يعتقد بأن هذا هو الايمان الحقيقى الذى تمسك به جميع الناس الاطهار فى القديم والذى لاتزال الكنيسة تمسك به ودوائر الحكومة تعضده والذي قوّاه في هذا الاعتقاد وفى اتمام مقتضياته هو انه فى الثمانى عشرة سنة التى خلت احرز لنفسه دخلاً يمكنه من اعالة عائلته وارسال ابنه الى مدرسة عالية وابنته الى مدرسة بنات القسوس. والشماس كان اعتقاده اثبت من اعتقاد الكاهن لانه كان يرى إن المسيحيين الحقيقيين يدفعون لهم عن رضى مبالغ طائلة أجرة الصلوات والادعية التى كانوا يقيمونها ولذلك كان يتلو بارتياح « ارحمنايااللة » ومن الرب نطلب »وكان يعتقد بصحة ما يقرأهُ وضرورته كما يعتقد بائعو البقول والدقيق والبطاطس بصحة مايبيعون وضرورته . أمامفتش السجن والسجانين

فلم يكونوا يفهمون شيئاً من اسرار الكنيسة وتقاليدها ولكنهم كانوا يعتقدون بصحتها لان كبار رجال الحكومة والقيصر نفسه يؤمنون بها ويقدسونها وفوق ذلك كانوا يحسبون دون ان يفقهوا ان هذا الايمان يكفر عن الاعمال الفظيعة الموكولة اليهم وزعموا انه يستحيل عليهم بدون هذا الايمان ان يفرغوا قواهم بضمير مستريح فى اذاقة البشر العذاب ألوانا كما كانوا يفعلون وقد كان المفتش رقيق القلب ولولا تمسكه بهذا الايمان لما امكنه ان يعيش تلك العيشة ولذلك كان واقفا فى الكنيسة بكل رهبة وسكون يجثو ويرسم اشارة الصليب بتحمس ويبدو عليه التأثر حين ترتيل الكاروبيم وحين مناولة الاولاد القربان رفع احدهم بيديه وقدمه للكاهن

أما ماسلوفا فقد كان معتقدها خليطاً من التقوى والكآبة وقد وقفت اولاً فى الجمع ورآء حاجز حتى لا ترى غير رفيقاتها ولكن حين تقدم الاولاد للمناولة خطت مع تيوديزيا الى الامام فرأتا المفتش ووراءه بين السجانين شاباً فلاحاً بلحية خفيفة وشعر اشقر وكان هذا زوج تيوديزيا فأخذ يحدق بزوجته. وفى أثناء تلاوة الكلام الجوهري اخذت ماسلوفا تنقده وتكلم تيوديزيا همساً وكانت تجثو وترسم اشارة الصليب فقط لأن الآخرين كانوا يفعلون ذلك

« ٣١ »

بكّر نيليدوف تاركاً منزله وسار على اثر فلاح سائق عربة نقل وهو يصرخ بصوت عالٍ « اللبن اللبن » وكان قد وقع مطر الربيع لاول مرة فى اليوم الفائت واكتست الاغصان اوراقاً خضراء ولبست اراضي البساتين والحقول ثوباً من السندس وأخذ الفلاحون يتجولون فى الحدائق والمروج تستنشقون نسيم الربيع المنعش

وكان فى السوق التي اجتازها نيليدوف جمهور من الناس يبيعون ويشترون السلع والثياب القديمة . وكان ذلك اليوم يوم احد فظهر عملة المعامل بثيابهم النظيفة والنسآء بمناديلهن الحريرية على رؤوسهن لابسات الأثواب المطرزة واخذ الجميع يحتشدون على ابواب الحانات وكان رجال البوليس بالشريط الاصفر على البستهم العسكرية يطوفون لحفظ الامن والراحة والاولاد يلعبون على الكلاء الاخضر ومربيات الاطفال يمرحن فى ذلك المنبسط البهيج . وكانت عربات الركوب وعربات النقل وقطارات الترام تقاطع بعضها البعض فى السير والهوآء ينقل اصوات اجراس الكنائس التي كانت تدعو الناس الى الصلاة والناس بثياب الاحد يمرّون فرادى وازواجاً يقصد كل منهم كنيسة حيه . ولم يسر الحوذي بنيليدوف توّا الى السجن بل سار فى طريق بعيدة ووقف فى نقطة تبعد ماية خطوة حيث كان عدد من الرجال والنسآء يحملون حزماً صغيرة . وكان الى اليمين عدة منازل خشبية واطية والى الشمال بيت بدورين على بابه لوحة وفى الصدر أبنية مرتفعة شاهقة و لم يكن مأذوناً للزائرين أن يدنوا منها وكان امام الباب حارس يتمشى ذهاباً واياباً ويصيح فى وجه كل من يحاول الدنو منه

وكان سجان جالساً على الباب من جهة اليمين وبيده دفتر . فكان الزائرون يذهبون اليه ويسمون الاشخاص الذين يريدون زيارتهم فيدوّن الاسماء فى الدفتر . وبعد ان ذهب اليه نيليدوف وسمّى كاترينا ماسلوفا سأله قائلاً : لما ذا لاتسمحون لنا بالدخول الآن

فأجابه : لان الصلاة قائمة الآن وحين ختامها يسمحون لكم . فابتعد نيليدوف قليلاً عن الجمع المنتظر . واذا برجل حافى القدمين ، ث الثياب

افترق عن الجمهور وتقدم نحو السجن. فصاح به الحارس مصوباً البندقية نحوه وقال: الى أين أنت ذاهب ؟ فأجابه الرجل سكن غضبك ولم يكترث لكلام الحارس بل أدار وجهه وقال: اذا لم تسمح لي بالدخول أمكني الانتظار ولا حاجة بي الى مثل هـذا الصياح الذى يرعب به القائد جنوده المستعبـدين فضحك الحاضرون من كلامه

وكان اكثر الزائرين بثياب رثة ولكنّ البعض بدت عليهم ملامح الوقار من نسآء ورجال. ووقف الى جانب نيليدوف رجل حليق قوى البنية حاملا رزمة تحتوى على ملابس بيضآء. فسأله نيليدوف عما اذا كانت هذه زيارته الاولى للسجن. فقال انه يأتى فى كل يوم احد مرة وأخذا من ثم يتحادثان وقد كان هذا الرجل بواب أحـد المصارف وأتى ليزور أخاه الذى أوقف من أجل تزوير وقصّ على نيليدوف تاريخ حياته وقبل ان يبدأ نيليدوف بحديثه استلفت نظريهما مرأى شاب مع سيدة مقنعة كانا راكبين عربة والشاب حامل رزمة كبيرة فتقـدم من نيليدوف وسأله عما اذا كان فى الامكان اعطآء المسجونين الهدايا التى أتى بها فان خطيبته التي معه تريد ذلك. فقال نيليدوف ان هـذه المرة الاولى التي أتيت فيها الى هذا المكان ثم اشار عليـه بان يسأل السجان الجالس الى اليمين وبينما كانا يتحادثان فتح الباب الحديدى وخرج منه ضابط يتبعه سجان صاح بأعلى صوته ان موعد الزيارة قد حلّ ثم تنحى من امامهم فاسرع الزائرون وتجمهروا حول الباب حيث أخـذ الحارس يحصى عدد الزائرين وكان داخل الباب سجان آخر يعيد احصاءهم ويلمس كل واحد عند دخوله

ولما دخل نيليـدوف ضغط على ظاهره فآلمه ولـكنه تحمل الألم بصبر

ومن كثرة الهواجس مشى بدون انتباه مقتفياً أثر الجمهور . فدخل قسم الرجال بدلاً من قسم النساء . وهناك سمع غوغاء مزعجة لم يعرف سببها فتقدم ورأى شباكاً حديدية تفصل المسجونين عن الزائرين وهؤلاء يزاحمون بعضهم بعضاً وكان حاجز آخر محاذياً للحاجز الذى وقف وراءه المسجونون وعساكر البوليس يتمشون بين الحاجزين فلم يمكن احد الزائرين ان يناول أحد المسجونين شيئاً وكان سمع الكلام صعباً نظراً لكثرة الضوضاء ولذلك اضطر المتزاورون الى الصياح ليسمعوا كلام بعضهم البعض

وفى كلا الجانبين كانت الوجوه ملصقة بالشباك وجوه زوجات وأزواج وآباء وأمهات وأولاد يحاولون رؤية بعضهم بعضاً ومبادلة الحديث اللازم فى مثل هذه الظروف . ولما كان كلٌّ يريد ابلاغ صوته لسامعه علا الصياح وازدادت الضوضاء

ولما عرف نيليدوف ان محادثته ستكون على هذه الحالة تولّد فى فكره مقت أولئك الذين يسنون مثل هذه القوانين ولم يفقه كيفية تجرد الانسان من عواطف الحنان والشفقة نحو مثل هؤلاء المنكوبين وكان المفتش والعساكر والمسجونون أنفسهم يخضعون للنظام ويجرون بموجبه كأنهم يعتقدون صوابيته

وقد مكث نيليدوف فى هذه الغرفة نحو خمس دقائق فشعر بانقباض فى نفسه واستولت عليه الهموم والهواجس وثار فى دماغه شعور أدبى أصيب منه بدوار

وبعد برهة قال فى نفسه الى متى الاهمال فالواجب علىّ أن أقوم بما أتيت من أجله فالتفت الى ماجوله فرأى ضابطاً فاقترب منه وقال له بتأدب

أين سجن النسآء ياسيدى وأين يمكن الزائر مقابلتهن" لانى أرغب مقابلة سجينة اسمها كاترينا ماسلوفا . فاجابه الضابط هل هى مجرمة سياسية ؟ قال لا . قال وهل حكم عليها . قال نعم حكم عليها اول امس . قال الضابط تفضل وسر في هذه الجهة ثم نادى ياسيدروف اوصل هذا السيد الى قسم النسآء فلبى سيدروف الطلب وتقدمه . وقد بدأ كل شيء غريباً لنيليدوف في دار البؤس والشقآء والذي زاد استغرابه ودهشته اضطراره لابدآء الشكر والامتنان للمفتش ورئيس السجانين القائمين باتمام افظع ما ولدت فكرة البشر من الفروض

وبعد قليل وصل نيليدوف الى غرفة النسآء وكانت منقسمة بالشباك كغرفة الرجال والزائرون في هذه اقل منهم في تلك والضوضآء هنا لم تختلف عنها هناك . وكانت امرأة سجانة تتمشى في الفسحة الفاصلة بين الشباكين وكانت وجوه الزائرين والسجينات ملتصقة بالشباك أيضاً ورأى نيليدوف بين هذا الجمع المحتشد شاباً فلاحاً يحادث صبية جميلة بشعر اشقر وعينين زرقاوين وكان هذان الاثنان تيوديزيا وزوجها ونظر امرأة بين الجمع واقفة ورآء النافذة عرف نيليدوف انها ماسلوفا فبدأ قلبه بالخفقان ووقف تنفسه وتقدم من الشباك فخفقها . وكانت واقفة ورآء تيوديزيا الجميلة تتبسم وتصغى الى حديثها مع زوجها ولم تكن لابسة لباس السجن بل ثوباً ابيض فبدت جميلة كما كانت في المحكمة فقال نيليدوف في نفسه قد أتت الساعة فهل اناديها أو تأتي هى من نفسها . وكانت تنتظر برتاولم يخطر لها ببال ان ترى هذا الرجل . ولما ابصرت السجانة نيليدوف قالت له من تريد . فقال اريد كاترينا ماسلوفا فصاحت السجانة شخص يريد ان يراك ياكاترينا ماسلوفا فالتفتت هذه الى ما حولها

وتقدمت نحو الشباك حاشرة نفسها بين سجينتين وحدقت في زائرها بدهشة واستغراب ولما رأت على ملابسه دلائل الغنى تبسمت وقالت هل أنا التي تطلبني والصقت وجهها الجميل بالشباك فتلجلج وقال انا .. انا اريد ان ارى .. اريد ان اراك فلفظ هذه الكلمات المتقطعة بصوت متهدج خافت . لم تسمعه ماسلوفا من شدة الضوضاء ولكن ملامح وجهه ذكرتها بشيء لم تشأ ان تعيده الى مخيلتها فزالت ابتسامتها وتقطب حاجباها وبدت على وجهها ملامح الكآبة .

فقال نيليدوف بصوت عال : أتيت لاستغفرك . لفظ هذه الجملة كأنها امثولة حفظها غيباً . وبعد ما فاه بها احمر وجهه خجلاً وأخذ ينظر الى ما حوله ثم قال في نفسه يجب عليّ ان احتمل الخجل وواصل حديثه بصوت عالي فقال اغفري لي ولو اني اذنبت اليك ذنباً لا يغتفر

فوقفت باهتة صامتة لاتحول نظرها عنه فلم يتمكن من متابعة الحديث وخطا بضع خطوات مبتعداً عن الشباك يحاول ايقاف الزفرات التي كادت تخنقه

وفي تلك البرهة اقبل المفتش نحو قسم النساء ورأى نيليدوف بعيداً عن الشباك فقال له لماذا لاتحدث المرأة التي أتيت لتراها فاجهد نيليدوف نفسه في اسكان روعه وقال ان الوقوف امام الشباك غير موافق لمن كان مثلي ولا يمكن الانسان ان يسمع صوت محدثه . فقال المفتش لا بأس من اخراجها وطلب من السجانة ان تقود ماسلوفا الى خارج الشباك

وبعد هنيهة خرجت ماسلوفا واقتربت من نيليدوف ووقفت تتفرس فيه . وكان شعرها الاسود معقوصاً بدوائر على جبهتها ووجهها المصفرّ وقوراً

جذاباً وعيناها السوداوان البراقتان كأنهما السحر الحلال . فقال المفتش يمكنكما ان تتحادثا هنا على انفراد ثم توارى عنهما . فتقدم نيليدوف وجلس على مقعدٍ بجانب الحائط . وبعد ان تفرست ماسلوفا فى وجه المفتش تفرس استفهام تبعت نيليدوف وجلست الى جانبه

فبدأ نيليدوف حديثهُ قائلاً : اني عالم بصعوبة غفرانك لي . وتوقف عن الكلام اذ خنقته العبرات . ثم قال ولو لم يمكني اصلاح الماضي فسافعل الآن كلما فى استطاعتي فما قولك ؟ فقالت ماسلوفا : كيف اهتديت الىَّ غير مجيبة على سؤاله ولا محولة نظرها عنه . فدعا نيليدوف الله فى قلبه قائلاً ربِّ اعني وعلمني ماذا افعل . وكان شاخصاً الى وجهها الذي محت عنه الهموم وكرور الايام نضارة الشباب وقال لها لقد كنت من المحلفين أول امس فهل لم تعرفيني

أجابت كلاَّ فلم يكن ثمت وقت التحقيق ولم أنظر الى شيء . فتهذر وقال : بلغني ياكا تيوشا انه ولد لنا ولد واحمر وجهه عند ذكر ثمرة احشائه . فقالت غاضبة محولة نظرها عنه . نعم ولكنه قد مات والحمد لله

قال : ماذا تعنين بقولك ؟ اخبريني كيف مات .

قالت : قد كنت أنا نفسي مريضة وكدت أموت » وعند هذا الكلام لم ترفع نظرها عن الارض »

فقال : كيف سمحت لك عمتاي بالخروج !

قالت : من يبقي عنده خادمة ذات طفل فقد طردتاني حين وقوفهما على أمري ولكن ماالفائدة من الكلام الآن والذي مضى مضى

قال : لا لم يمضِ شيء وأنا أريد التكفير عن ذنبي

قالت : لاشيء يكفر عنه والذي فات مات . ثم بدا منها مالم يكن ينتظره

وهو انها أحدقت فيه بابتسامة اغواء لاتسر الخاطر ولكنها لاتخلو من استجلاب الشفقة والحنان . فلم تفكر ماسلوفا قط فى أن تراه خصوصاً في مثل هذا المحل وهذا الوقت ولما حققته لأول مرة لم تقو على طرد الافكار المزعجة التي لم تكن تريد الرجوع اليها فعند مادهمها مرآه ذكرت لأول وهلة تلك السعادة باسطة يديها لتضمها وذاك الحب الفتان الذي تبادلته مع شاب عريق في النسب وافر الغنى شريف المبادي . ثم ذكرت قساوته التي لم تعرف سببها وجميع الحوادث والمشاق التي تبعت ذلك الحب الساحر فانقبضت نفسها واستولى عليها الحزن والكدر ولكن الظروف التي تقلبت فيها بعد تلك السقطة علمتها ان تبعد عنها كل فكر ينغص عيشها فلم تكد ذكرى الماضي وما أخلفه من النكبات تداهمها حتى محيت دون ان تعرف سبب ذلك لان نسيَ ما يكدر ويسيء تأصّلت فيها عادة فلم تعد تلقى عناء في اقصاء كل فكر ينغص عيشها عنها . ففي بادي الأمر ذكرت الرجل الجالس الى جانبها بالفتى الذي أحبته ولما رأت هذه الذكرى تؤلمها أبعدتها عنها ورأت ان هذا الرجل المتقن اللباس الذي تلوح عليه ملامح المجد والغنى ليس هو نيليدوف الذي أحبته بل هو رجل كغيره من الرجال الذين تستخدمهم المخلوقات التي هى نظيرها لاغراضها عند الحاجة وهذا ماجعلها تحدق فيه هذه المرة بابتسامة وصمت مفكرة في أحسن وسيلة تبلغها غايتها

ثم رفعت رأسها وقالت قد قضي الأمر وحكم عليَّ بالنفي الى سيبيريا وارتجفت شفتاها حين لفظت هذه الجملة المخيفة فقال نيليدوف انا عالم بما تقولين وواثق ببرأتك . فقالت انا بريئة دون شك ولست لصة وقاتلة كما يقولون وقد سمعت هنا ان كل شيء يتوقف على المحامي ولكن ذلك يتطلب نفقة كبير

فقال نيليدوف : هو كذلك وقد اتفقت مع أحد المحامين

فقالت : يجب ان يكون محامياً بارعاً مهما كلف الأمر من المال

قال : سأفعل ماباستطاعتي وصمتا برهة. ثم عادت الى ابتسامتها الأولى وقالت أسألك ايضاً . . قليلا من النقود اذا أمكن .. ليس شيئاً كثيراً بل عشرة روبلات فقط

فقال نيليدوف وقد شوشت لهجتها افكاره نعم . نعم . ومدّ يده الى محفظته . فقالت لاتعطيني امامه لئلا يأخذه مني . فانتظر نيليدوف ريثما ادار المفتش وجهه ولكنه لم يتمكن من اعطائها الصك قبل ان يراهما المفتش فحفظه في يده

واذا ذاك أخذ نيليدوف يفكر قائلاً ان هذه المرأة قد ماتت وكانت تصوب عينيها تارة الى يده القابضة على الصك وطوراً الى المفتش وفي الحال توقف لان المجرب الذي كان يخاطبه ليلاً عاد الى مخاطبته الآن محاولا تحويله عن ملكه الداخلي الى ملكه الخارجي وابعاده عما يجب عليه بتجسيمه هذا العمل بعينيه وتقديمه النصح له باتباع مايعزه ولا يشينه وكأن هاتفاً كان يناجيه بقوله لايمكنك ان تفعل شيئاً لهذه المرأة وانما انت تربط بعنقك حجر رحى فيغرقك ويمنعك من ان تنفع الآخرين فلا فضل لك ان تعطيها كل ما معك من النقود الآن وتودعها وتقطع علاقتك بها الى الابد

ومع ذلك فقد شعر فى هذه اللحظة بشيء هام اشغل نفسه وتحركت عواطفه الداخلية فوضعت فى احدى كفتي الميزان ووضع تأثير مناجاة الهاتف فى الاخرى ودعا الله فى تلك الحال فاستجاب له ورجح كفة العواطف فصمم حينذاك على ابلاغها كل شيء مستكن فى ضميره

فقال : كاتيوشا قد أتيت لأستغفرك فلم تجبيني فهل غفرت لي أو هل تغفرين يوماً ما

فلم تصغ لكلامه بل كانت تحوّل نظرها بين يديه ووجه المفتش وحين أدار هذا وجهه مدّت يدها بسرعة وخطفت الصك بخفة وخبأته في صدرها ثم قالت : ان قولك مستهجن وابتسمت ابتسامة استخفاف كما خيل له

وشعر نيليدوف بأن رجلاً تحبه واقف فى سبيله يمنعه من ان يقترب من قلبها ومن الغريب ان هذا الشعور لم ينفره بل زاده قرباً منها بعامل جديد . وقد عرف ان الواجب عليه ايقاظ نفسها وعرف صعوبة هذه المهمة ولكن هذه الصعوبة زادته ميلا اليها وشعر بانعطاف عليها الآن لم يشعر به من قبل ولم يكن له غرض شخصيٌ ولا أراد شيئاً منها لنفسه وكل ما كان يرجوه ويطلبه ان لاتبقى على حالتها التعيسة بل ان تستيقظ وتعود الى ما كانت عليه

فقال يا كاتيوشا لماذا لاتتكلمين معي فأنا أذكرك بتلك الايام القديمة التي صرفناها فى بانوفو .

فأجابت ببرودة : وما الفائدة من ذكر الماضي

قال : أنا أذكره لاصلح ما أفسدته ولا كفر عن ذنبي . وهم لان يقول انه يريد الاقتران بها . ولكن نظره التقى بنظرها فقرأ فيه التألم والمرارة والانقباض فلم يتمكن من الاسترسال فى الحديث . حينئذ بدأ الزائرون فى الذهاب فاقترب المفتش من نيليدوف وقال له ان الوقت قد أزف . فمد نيليدوف يده الى ماسلوفا مودعاً وقال ان لي حديثاً طويلاً معك ولكن الوقت لايساعد الآن فسأعود اليك فمدت يدها اليه بكل برود وقالت : ما الذي تريد ان تقوله لي ؟ قال كلام هام سأتلوه عليك مرة أخرى . قالت

زرني اذن ولا تتأخر وابتسمت ابتسامة اعتادت ان تبتسمها امام الرجال الذين ترغب فى ارضائهم واستمالتهم . فقال نيليدوف : انك لاكثر من شقيقة لي فقالت ثانية ان هذا قول مستهجن وهزت برأسها وتوارت وراء الشباك

« ٣٣ »

زعم نيليدوف قبل هـذه المقابلة ان كاتيوشا حين تعرف غايته ورغبته فى مساعدتها وخدمتها تسر وتنتبه من غفلتها وتعود الى ما كانت عليه قبلا ولـكنه رأى عكس ذلك . رأى ان ضميرها قد مات وحلّت ماسلوفا محلها فوقع فى حزن شديد

والذي زاد دهشته ان كاتيوشا لم تخجل من حالتها لا كونها سجينة بل مومس وظهرت مرتضية بل فخورة بما هى فيـه ومع ذلك لم يكن فى وسعها الظهور بمظهر آخر فالانسان لا يمكنه ان يعمل فى هذا العالم الاّ اذا عدّ عمله مهما وحسنا ومهما كان مركز الانسان فى العالم فانه يدأب فى تحسينه حتى يجعله مركزاً مهماً وحسناً فى الحياة الاجتماعية

وقد يتصور عادة ان اللص أو القاتل أو الجاسوس أو المومس اذا أعلن له أولها شر عمله أو عملها خجل أو خجلت ولـكن الامر بالعكس فانهم يحسبون عملهم مهنة ويجب عليهم اتقانها . فالذين يتخذون لاعمـالهم الشريرة مراكز معينة مهما كانت عليه تلك المراكز من الفساد يظهرون بمظهر من الحياة الاجتماعية يجعل حالتهم حسنة وشرعية . وحتى يبقوا لانفسهم هذا المظهر من الحياة يحصرون انفسهم فى دائرة اولئك الذين يشاطرونهم هـذه الحياة أو الذين يميلون اليها . وانه لامر يدهشنا خصوصاً عند ما نتصورهم لصوصاً يسلبون أموال غيرهم أو مومسات خلعن براقع الحياء وابحنَ اعراضهن اوقتلة يفتكون

بالانفس البريئة ويهرقون الدماء الذكية ولكن ذلك يدهشنا فقط لان الدائرة التي يعيش فيها هؤلاء الناس محدودة وخصوصاً لاننا خارجون عنها وهلاً يمكننا ان نحكم مثل هذا الحكم على الاغنياء الذين يتعظمون بغناهم ونعدّهُ سلباً . وعلى ذوي المناصب العالية الذين يتباهون بقوتهم ونعدها شراسة وعلى قواد الجيوش الذين يفتخرون بانتصاراتهم ونحسبها قتلا للانفس ؛ اننا لانرى الشر فى أعمال هؤلاء الناس لأن الدائرة التي يكوّنونها متسعة جداً ولاننا نحن أنفسنا منهم

وعلى هذا المبداء نظمت ماسلوفا حياتها ومركزها . فقد كانت مومس ومنفية الى سيبيريا ومع ذلك كان لها تصوُّر فى الحياة جعلها راضية عن نفسها فخورة بمركزها وبالنظر الى هـذا التصوُّر كانت الغاية القصوى لجميع الرجال من شيوخ وشبان وتلامذة وقواد وعظماء ومتعلمين وجهلة استرضاء النسوة الفاتنات ومحادثتهن والتقرب منهن . ولذلك كان جميع الرجال وان عمدوا الى الاشتغال بأمور أخرى لايرغبون حقيقة غير ذلك وقد كانت ماسلوفا فتانة وفى قوتها ان تنيل أولا تنيل هذه الرغبة فكانت لذلك شخصاً مهماً ولازماً للحياة الاجتماعية وكل مدة حياتها الماضية والحاضرة كانت مثبتة لصحة هذا التصوُّر

وفى خلال العشر السنين الاخيرة من حياتها رأت جميع الرجال من نيليدوف الى ضابط السجن المسن كلهم فى حاجة اليها لانها لم ترقب ولم تلاحظ أولئك الرجال الذين لم يشغفوا بها ولذلك بدا لها جميع العالم مجتمعاً من اناس تهيجهم الشهوة ويحاولون امتلاكها بجميع الوسائل الممكنة كالخداع والتهديد والشراء والاحتيال وهذا ما كانت ماسلوفا تفسر به الحياة وفى هذا

المظهر من التعاسة كانت عضواً سافلا ولكن غاية فى الاهمية من المجتمع الانساني . وقد كانت تعجب بهذا المظهر اكثر من إعجابها بكل شيء سواه ولم يكن فى وسعها الاَّ الاعجاب به لانها لو فقدته لفقدت الاهمية التى انالها اياها وحتى لاتفقد مركزها فى العالم انضمت الى الطبقة التي تنظر الى الحياة كما تنظر اليها هي ولما شعرت بأن نيليدوف يريد اخراجها الى عالم آخر قاومته معتقدة بفقد مركزها فى هذه الحياة مع الاستقلال والاحترام اللذين جلبهما لها ولهذا السبب طردت من أفكارها ذكرى ايام صباها وذكرى علاقتها الاولى بنيليدوف لأن هذه الذكرى لم تكن تنطبق على تصوراتها الحاضرة نحو العالم وكانت لذلك قد محيت من حافظتها او بالحري دفنت فى مكان خفي لايمسه أحد وسقف هذا المكان كي لاتطير منه كما ان النحل يسقف احياناً بيته محافظة على نتائج كده واذ ذاك لم يكن نيليدوف فى نظرها ذلك الرجل الذي احبته قبلاً حباً طاهراً حقيقياً بل كان رجلاً يمكنها بل يجب عليها الانتفاع منه والتعلق به كما تتعلق بكل رجل سواه

وقال نيليدوف فى نفسه وهو متجه نحو جمهور الزائرين لم يمكني ان أقول لها الامر المهم الآن ولكني سأقول لها عما قريب اني سأقترن بها

واخرج السجان الزائرين بعد ان احصاهم ولمس كلا منهم بيده حتى لا يفلت أحد المسجونين . ولم يشعر نيليدوف بوضع يد السجان على كتفه فى هذه المرة لتراكم الافكار عليه

« ٣٤ »

كان فى نية نيليدوف ان يغير حالة معيشته بأن يستغني عن خدمه ويترك بيته الكبير ويستأجر حجرة مفروشة ولكن خادمته اغرافينا رأت من

العبث تغيير شيء قبل الشتآء فكان سعيه ورآء ترك العظمة والمعيشة البسيطة دون جدوى . وليتهم اقتصروا على ذلك بل انهم اخرجوا جميع الأثاث والرياش الفاخر الى الخارج واشترك جميع الخدمة فى التنظيف واطل نيليدوف ودهش من كثرة الاشيآء التي لانفع منها وقال : انها ليست سوى وسيلة لايجاد عمل لعدد كبير من الخدم ولا غرافينا نفسها

ثم فكر وقال من العبث تغيير حالة معيشتي الآن ما دامت قضية ماسلوفا لم تقرر بعد ولكنها ستتغير من ذاتها حين يخلى سبيل ماسلوفا أو تنفى فاتبعها وفى اليوم المعين ركب نيليدوف عربة قاصداً منزل المحامى فانارين. وكان بيتاً فخيماً مفروشاً بافخر الرياش الدالة على مقادير المال الكثيرة التي تتدفق عليه من الدعاوي والتي تطرح فى منازل الاغنيآء بدون عمل واستثمار يتمتع بمرآها اولئك المنتفخون تمتعاً كاذباً عقيماً . وكان فى غرفة الانتظار عدد من ارباب القضايا يقرأون الجرائد التي وضعت خصيصاً لتسليتهم وينتظرون وقت السماح لهم بمقابلة المحامى . وكان معاون المحامى جالساً وحين رأى نيليدوف قال سابلغ المحامى خبر قدومك فى الحال ولم يكد يفتح الباب حتى سمعت أصوات عالية وظهر تاجر متوسط العمر بوجه أحمر وشاربين كثيفين ولباس فاخر والى جانبه المحامي فانارين وبدت على وجهيهما تلك الملامح التي تبدو عادةً على وجوه اولئك الذين يكونون قد اتموا عملا نافعاً لمصالحهم لايخلو من الغش . وقال فانارين للتاجر مبتسماً انك انت نفسك المخطيء ياسيدي . فاجاب التاجر لولا خطايانا لكنا جميعنا فى الجنة . فقال فانارين . نعم . نعم كلنا يعرف ذلك وضحك كلاهما ضحكة غير طبيعية

ثم التفت فانارين الى نيليدوف وقال : سيدي الامير تفضل وادخل

ثم قاده الى غرفته المؤثثة باثمن الرياش فجلسا متقابلين وقال المحامى هل تريد أن تدخن محاولا محو ابتسامة كانت لا تزال بادية تدل على فوزه فى العمل الذي اتمه قبل لحظة . فقال نيليدوف اشكرك وانا آتٍ من اجل قضية ماسلوفا التي اخبرتك عنها سابقاً قال نعم ولكن ما اخبث هؤلآء العبدة للمال الذين ليسوا سوى اكياس مملوءة ذهباً فهذا الرجل الذى كان عندى الآن صاحب اثني عشر مليوناً من الروبلات واذا ظفر بك وامكنه اختلاس قطعة نقود منك لا يتأخر ولو اضطرّ الى خطفها باسنانه

فتكدر نيليدوف من مخاطبه وقال فى نفسه ان هذا الرجل يريد بهذه اللهجة التي يظهرها لي حملي على الاعتقاد باني واياهُ من مبداء واحد وبان سائر زبائنه من مبداء آخر . ثم قال المحامى : أما قضيتك فقد قرأت اوراقها باعتناآء تام والمحامى البليد الذى رافع فيها بداية لم يبقِ وجهاً للاستئناف . فقال نيليدوف : ما العمل اذاً ؟

وفى تلك اللحظة دخل معاونه فقال لهُ اني مصمم على ما قلت فاذا قبل كان به والاَّ فلا بأس . فقال المعاون انه لا يوافق على ذلك . فقال المحامى اتركه الآن . ولكن ملامح البهجة والسرور التي كانت بادية على وجهه انقلبت الى حنق وغضب

ثم حول نظره نحو نيليدوف وقال : يقولون اننا نحن المحامين نحصل المال بالراحة فقد خلصت مديناً مفلساً من دين فاحش مزوَّر وها هم جميع مدايني محتشدون عندى الآن . وجميع القضايا التي من هذا القبيل تقتضي عملا شاقاً وهلاً نخلف نحن ايضاً قطعاً من اجسامنا فى الدواة كما قال بعض الكتبة ؟

اما من حيث القضية التي تهتم فيها فقد سارت سيراً فاسداً ولم يبقَ بها وجه للاستئناف ولكننا يمكننا ابطال الحكم وهذا ما انويه ودونته فى فكرتي ثم اخذ يتلو الاوراق بسرعة مهملاً الاسنادات القانونية العديمة الفائدة وراسماً علامات على بعض جمل ثم اخذ يقرأ مما كتبه وهو كما يلي:

- نرفع الى القسم الجنائي من محكمة الاستئناف الحكم الصادر على ماسلوفا المدانة بانها سببت موت الناجر سميلكوف بدسها السم فى كأس من الخمر ناولته اياه وحكم عليها بمقتضى المادة ١٤٥٤ من قانون العقوبات بالنفي الى سيبيريا ثم توقف وقال : ان هذه الجملة هى نتيجة اكثر الغلطات القضائية الفاضحة ولدينا اسباب لنقضها اولاً : اعتراض الرئيس على تلاوة التقرير الطبي

فقال نيليدوف : ولكن الذي طلب تلاوة التقرير هو النيابة التى طلبت العقاب

فقال المحامي : لابأس وقد يكون أيضاً أسباب للدفاع بطلب تلاوة التقرير وثانياً ان محامي ماسلوفا حين أراد سرد صفاتها الشخصية وبدأ يلمح الى اسباب سقوطها قاطعه الرئيس وطلب منه عدم الشرود عن موضوع القضية مع ان مجلس الشيوخ أعلن تكراراً بان صفات المتهم الشخصية لها دخل كبير فى اسناد الجرم اليه أو تبرئته منه ولكن الرئيس ليس سوى رجل أحمق لاينتظر منه ان يقول شيئاً معقولا وهذا أيضاً سبب من الاسباب التي يعتمد عليها فى الاستئناف . ثالثاً ان الرئيس قد خالف فى خلاصته الفقرة الاولى من المادة ٨٠١ من قانون المحاكمات الجنائية باغفاله ابلاغ المحلفين النقط القضائية التي يتركب منها الجرم ولم يذكر أيضاً الجملة الآتية وهي : لو سلم

بان ماسلوفا قدمت السم للتاجر سميلكوف فللمحلفين الحق بان يرفعوا تهمة القتل عنها لانه لم تقم ادلة على تعمدها القتل وان يسندوا اليها الاهمال الذي سبب وفاة التاجر التي لم تكن راغبة فيها وهـذه هي النقطة المهمة ورابعاً : المناقضة التي أتت فى جواب المحلفين فقد أتهمت هذه المسكينة بتعمد قتل سميلكوف مدفوعةً بعامل الطمع والمحلفون يبررونها فى قرارهم من الرغبة فى السلب ومن الاشتراك فى السرقة وينتج من هذا القرار انهم ارادوا تبرئتها من تعمد القتل ولكن سوء الفهم الذي نشأ عن عدم تتمة الرئيس لخلاصته جعلهم يهملون ايضاح ذلك ووضعه فى قالبه القانوني ولذلك كان الجواب الذى جابه المحلفون يتطلب حتما ومباشرة بمقتضى المادتين ٨١٦ و٨٩٨ من قانون المحاكمات الجنائية ان يبين الرئيس للمحلفين خطاءهم وان يصدر حكم آخر فى مسألة جرم السجينة

فقال نيليدوف : اذن لماذا لم يفعل الرئيس ذلك ؟ اجابه المحامي ضاحكا وانا ارغب كذلك ان اعرف لماذا لم يفعل

قال نيليدوف : اذن سيصلح مجلس الشيوخ الخطاء

قال فانارين : ذلك يتوقف على الرجل الذى يحضر مناقشة اعضاء المجلس . ثم قال ان قراراً كهذا لايخوّل المحكمة حق معاقبة ماسلوفا كمجرمة وان تسند الى قضيتها الفقرة الثالثة من المادة ٧٧١ من قانون العقوبات فان ذلك مخالف كل المخالفة لمبادىء قانوننا الجنائي وبناء على المستندات التي بينتها اطلب من المجلس بمقتضى المواد ٩٠٩ و٩١٠ والفقرة الثانية من المادة ٩١٢ والمادة ٩٢٨ من القانون الجنائي ابطال الحكم ونقل القضية الى محكمة اخرى من الدرجة ذاتها لإعادة البحث . هذا كل ماتمكننا عمله ولكني اقول بحرية

ضمير ان املي بالنجاح صغير ومع ذلك فالامر يتوقف على الاعضاء الذين يحضرون مجلس الشيوخ فاذا كان لك نفوذ بينهم فعليك ان تستعمل نفوذك

قال نيليدوف : اني أعرف بعضهم

قال فانارين : اذن فعجل قبل ان يذهبوا لمصايفهم والا اضطررت الى الانتظار ثلاثة أشهر ثم اذا لم تفز فى مجلس الشيوخ فيمكننا ان نرفع الامر الى جلالة القيصر ولكن ذلك يتطلب نفوذاً قوياً وانا معك على كل حال فشكره نيليدوف وقال : لنبحث الآن فيما تتقاضاه مني .

قال : ان معاوني يسلمك العريضة ويخبرك

قال نيليدوف أسألك سؤالا آخر فالنائب اعطاني جوازاً لأزور السجينة فى السجن ولكني أريد زيارتها فى غير الاوقات المعينة وفى غرفة أخرى وقيل لي ان جوازاً كهذا يعطيه الحاكم

قال : نعم ولكنّ الحاكم غائب الآن وله وكيل أحمق يصعب عليك نيل أرب منه

قال اليس ماسلنيكوف فاني أعرفه جيداً . ثم نهض فودع المحامي ولما دخل غرفة الانتظار سلمه المعاون العريضة وقال ان الاجرة والنفقات تبلغ الف روبل وان المحامي لايقبل مثل هذه القضية الا مرضاة لخاطرك

فقال نيليدوف : ومن يوقع على هذه العريضة

أجاب : السجينة نفسها أو المحامي بتوكيل منها

فقال نيليدوف : لابل سأمضي اليها وأدعها توقع بذاتها

« ٣٥ »

وفى الساعة المعينة سمع صفير فى رواق السجن ففتحت ابواب الغرف

الحديدية وخرج المسجونون المكلفون بنقل الاقذار وملاوا الفضآء بالروائح القتالة وغسل باقي المسجونين وجوههم وارتدوا ثيابهم وخرجوا ليجرى عليهم التفتيش ثم ذهبوا ليأخذوا ماءً مغلياً لشرب الشاى وكان حديث المسجونين ذا شجون فى ذاك الصباح لانهم كانوا يتحدثون عن سجينين سيجلدان فى ذاك النهار احدهما واسمه فاسلييف شابٌ متعلمٌ متهذبٌ كان كاتباً فى احدى المحلات التجارية وقتل مخدومته بعامل الغيرة وكان وفقاءه يحبونه للطفه وكرمه وشدة بأسه مع موظفي السجن لانه كان يرغمهم على اتباع النظام ولذلك كان الموظفون يمقتونه جدًّا

ومنذ ثلاثة اسابيع ضرب سجان احد الزبالين لانه اوقع قطرة من الحساء على لباسه الرسمي الجديد فانتصر فاسلييف للزبال مدعياً ان ضرب المسجونين مخالف للشريعة . فقال السجان لفاسلييف حانقاً اني ساعلمك النظام . فاجابه فاسلييف انت الذى يلزمك التعليم . فهمَّ السجان بضربه ولكن فاسلييف قبض على يديه بعنف ودفعه الى خارج الباب . فشكا السجان امره الى المفتش . فأمر بوضع فاسلييف فى حجرة منفردة

وكانت تلك الحجر مقفلة من الخارج لافراش فيها ولا كرسي . فيضطر السجين ان ينام ويجلس على الارض القذرة والجرذان تجري فوقه وكانت هذه الجرذان نهمة وقحة تأكل عيش المسجون وتنهش لحمه اذا ابطل الحركة . فقال فاسلييف انه لايدخل الحجرة المنفردة لانه لم يأت أمراً ادًّا فاستعملوا معه القوة فدافع عن نفسه وساعده مسجونان آخران فاجتمع جميع السجانين وبينهم بتروف الذي اشتهر بشدة البأس فالقي المسجونون على الأرض وجرُّوا الى الحجر المنفردة وبلغ الحاكم ان ثورة قامت فى السجن . فاصدر امراً بجلد

كل من السجينين المسببين وهما فاسلييف ونيبومنيا ثلاثين جلدة وعينت غرفة زيارة النسآء للجلد وكان هذا الخبر قد ذاع فى السجن مساءً وأخذ المسجونون جميعاً يتحدثون به

وكانت كورابليوفا وهوشكوفا وماسلوفا وتيوديزيا جالسات معاً يشربن الشاي وهنَّ ثملات بما شربنَ من الفودكا التي قدمته لهنَّ ماسلوفا من المال الذي نفحها به نيليدوف

فقالت كورابليوفا ان فاسلييف لم يكن مذنباً وكل ما فعل انه انتصر لسجين يضرب لان القانون يمنع ضرب المسجونين . فقالت تيوديزيا : قد سمعت انه شاب جميل ولهذا فانى اتأسف عليه . فتحولت زوجة الخفير نحو ماسلوفا وقالت اذا كنت تسألينه « وارادت بالضمير نيليدوف » ان يتوسط له ليمنعوا عنه الجلد . فقالت ساخبره وهو يفعل ما اريد وامالت رأسها عند هذا القول وابتسمت . فقالت تيوديزيا نعم ولكن أي متى يأتى وقد ذهبوا يبحثون عنه انه لامر مريع

فقالت امرأة الخفير رأيتهم مرة يجلدون فلاحاً فى قرية فقد ارسلني حمَّي مرة الى شيخ تلك القريه .. ولم تكد تبدأ بسرد قصتها الطويلة حتى قاطعتها اصوات الضجيج فى الرواق فصمتت النسآء وجلسن يصغينَ ثم قالت هو رشكوفا ها هم الشياطين يجرونه انهم سيقتلونه من شدة حنقهم عليه لانه يقاومهم على الدوام

ثم حدث سكوت تام وعادت امرأة الخفير الى اتمام قصتها التي بينت فيها شدة ما خامرها من الرعب حين رأتهم يجلدون الفلاح . ثم قصت هو رشكوفا عليهنَّ كيفية جلد شيلفوف وعدم تنبسه ببنت شفه . ثم رفعت

ماسلوفا أدوات الشاي وتركتهنّ يتحدثنَ والقت بنفسها على السرير لتأخذ قليلاً من الراحة واذا بالسجانة مهرولة نحوها وقالت لها اسرعي الى المكتب لان زائراً ينتظرك هناك . فنهضت وأخذت تربط منديلاً على رأسها امام المرآة . فقالت لها المرأة المسنة منشوفا لا تنسي ان تحدثيه عنا فنحن لم نشعل النار في البيت بل ان صاحبه اشعلها والفاعل الذي عنده رآه ولا اخاله يهلك نفسه بنكران ما رأى اسأليه ان يقابل ابني وهو يقصُّ عليه الحادثة تأملي في كيفية الحجر علينا في حين اننا لم نحلم بعمل الشر والشرير الذي زجنا في السجن يتمتع بزوجة ابنى

فقالت كورابليوفا : ان ذلك مخالف لكل شريعة . فاجابت ماسلوفا ساخبره بذلك فقط أتيني بجرعة اخرى لا تحمس فناولتها كورابليوفا كأساً من القودكا فشربته ثم مسحت فاها وتبعت السجانة تميل برأسها وتبتسم من الطرب

« ٣٦ »

لما دخل نيليدوف السجن ناول السجان الجواز فقال له من تريد؟

قال : اريد السجينة ماسلوفا

قال : لا يمكنك الآن لان المفتش مشغول في غرفة الزياره بشغل خاص به

قال : انى اريد مقابلته

قال : انتظر حتى يخرج فتكلمه . وفي هذه اللحظة خرج ضابط متأنق يرفل بحلته الرسمية وقال للسجان بلهجة قاسية ما المعنى من ادخالك غريباً الى هنا . فدهش نيليدوف من التهيج الذى لاحظه في لهجة الضابط وقال

قد قيل لي ان المفتش هنا ولم يفه باخر كلمة حتى فتح بتروف الباب الداخلي ودخل يلهث ويتصبب منه العرق وحول وجهه نحو الضابط وقال : انه سيذكر ما جرى لهولا ينساه فرمق الضابط نيليدوف بنظرة وقطب بتروف حاجبيه وعاد من حيث أتى

ففكر نيليدوف قائلاً : من هو الذى سيذكر ما جرى ولا ينساه ولماذا يبدو على جميعهم الاضطراب ولماذا ابدى له الضابط تلك الاشارة ثم قال الضابط لنيليدوف لا تمكن المقابلة هنا فتفضل وادخل المكتب . ولم يكد نيليدوف يبدى شكره حتى دخل المفتش مضطرب البال اكثر من مرؤوسيه ويتنهد بدون انقطاع ولما رأى نيليدوف تحول نحو السجان وقال له ايتِ بماسلوفا الموجودة فى الحجرة الخامسة من سجن النساء الى المكتب ثم التفت الى نيليدوف وقال له تفضل وسر فى هذه الجهة ثم قاده الى غرفة صغيرة فيها طاولة وبعض كراسي فجلس المفتش وقال مخاطباً نيليدوف . ان واجباتي ثقيلة جدًّا لا تطاق لان الخدمة صعبة والواجبات كثيرة فانى احاول تخفيف الام هؤلآء المنكوبين ولكن محاولتي تقودهم من سيّئ الى اسواء ولست افكر الاَّ فى الخلاص من هذه الواجبات التقليدية المؤلمة

ولم يفقه نيليدوف صعوبات المفتش الخصوصية ولكنه رآه اليوم فى حالة حرجة تطلّب الرفق به . فقال نعم انا عالم بصعوبة مركزك فلماذا لا تخلّص نفسك من الخدمة المتعبة

فقال : انى رب عيلة ولا مناص لي من الخدمة واعلم ان فى هذا المحل نحو الف مجرم واكثرهم من الاشقيآء الذين يصعب النظر فى شؤونهم وغيرى لا يقوى على القيام بما اقوم به والقول اهون من العمل كما لا يخفاك وعلى كل

حال ليسوا سوى بشر مثلنا والرفق بهم واجب وأخذ المفتش يقصُّ على نيليدوف خبر مشاجرة عنيفة قامت بين المجرمين أدَّت الى قتل احدهم وحال دون اتمام الحديث دخول ماسلوفا محبوبة بسجان ورآها نيليدوف من الباب قبل ان ترى هي المفتش وكان وجهها محمرًّا وهي تتبع السجان مبتهجة مبتسمة تميل برأسها ولما نظرت المفتش تغيَّرت وحدقت فيه تحديق الخوف ولكنها عادت حالاً الى رشدها وخاطبت نيليدوف بجراءة قائلة كيف انت وصافحته متبسمة وهزت يده بعنف لا كما فعلت في المرة الاولى فقال نيليدوف : ها قد اتيتك بالعريضة لتوقيعها وقد ادهشته الجراءة التي ابدتها عند ما حيته . فقالت جيداً سافعل ما تريد . فاخرج نيليدوف العريضة من جيبه وتقدم نحو الطاولة وسأل المفتش ان يسمح لها بتوقيعها . فقال المفتش هل تعرفين القراءة اجابته نعم ومسكت القلم بيدها الصغيرة وتفرست في نيليدوف ضاحكة فعين لها نيليدوف محل التوقيع فتنهدت ووقعت اسمها وقالت هل هذا كل ما يطلب مني وهي تجيل نظرها بين نيليدوف والمفتش فقال نيليدوف : لي كلام اقوله لك وأخذ القلم من يدها

قالت : هلمَّ بنا وقل لي ثم تغيَّرت افكارها بغتة فتحول ابتسامها الى عبوسة . ونهض المفتش مخلياً الغرفة وتاركاً نيليدوف مع ماسلوفا وجلس بجانب النافذة بعيداً عنهما

وعرف نيليدوف ان الساعة قد أتت وكان يعنف نفسه على عدم اخباره اياها الامر المهم في المقابلة الاولى وصمم في هذه المرة على ابلاغها رغبته في الاقتران بها . وجلسا متقابلين فنظر نيليدوف وجهها عن قريب لاول مرة وحقق الثنيات حول عينيها والتحمد حول فيها فتحركت فيه عاطفة

الحنان عليها اكثر من كل مرة واخذ يكلمها همساً حتى لايسمعهُ السجان وقال : اذا كانت هذه العريضة لا تأتي بفائدة فسنرفع الامر لجلالة القيصر ولا نترك شيئاً في استطاعتنا الاّ ونفعله فقالت : ليتنا اتخذنا لنا محامياً بارعاً منذ البدء فقد كان المحامي عني بليداً ولم يفعل شيئاً سوى تقديم الاحترام اليّ قالت هذا وضحكت ولو كان يعرف اذ ذاك ان لي معرفة بك لجرت الامور في غير هذا المجرى لانهم يحسبون كل انسان سارقاً

ففكر نيليدوف قائلاً ما اغرب حالتها اليوم وعزم على النطق بما خالج ضميره ولكنها تابعت حديثها فقالت لي كلام اقوله لك وهو انه يوجد بيننا امرأة عجوز كثيرة الظرف حلوة الحديث تشرح الصدر برقة حديثها وهي مسجونة مع ابنها لا لذنبٍ اقترفاه وكلٌّ يعرف برائتهما ولو كانا متهمين باشعال النار في بيت وقد قالت لي ان اسألك مقابلة ابنها وهو يقصُّ عليك الحادثة واسم عائلتهما منشوف . وكانت اثناء الكلام تدير رأسها من جانب الى جانب شاخصة الى نيليدوف ثم قالت هل تريد اجابة سؤالي ؟ نعم لا اشك في كونك تريد وستتبين لك برأتهما في الحال وتبسمت وضغطت على يده بيدها

فقال نيليدوف : نعم سافعل ما تريدين ولكنني أتيت لاكلمك عن نفسي فهل تذكرين ما قلته لك في المرة الماضية ؟ فقالت وهي تدير رأسها وتتبسم قد قلت شيئاً كثيراً ولكني لا اذكر حرفاً من ذلك . فقال اتيتك لاستغفرك

فقالت . وما الفائدة من ذلك . غفران . غفران . ماذا يفيد ؟ فالاوفق لك ..

قال : لاكفر عن ذنبي لا بالقول بل بالفعل وقد عزمت على

الاقتران بك

فبدت عليها امارات الخوف وجمدت عيناها اللتان صوبتهما اليه وقالت بلهجة الغضب : ما المراد بذلك ؟

قال ارى ذلك واجباً عليَّ امام الله

قالت : أي الهٍ تعني هل تذكر الله حقيقة فقد كان يجب عليك ان تذكره فى الماضي ثم توقفت عن الكلام وكانت انفاسها تتصاعد كأتون نار فشم نيليدوف رائحة الخمر من فيها وعرف اذ ذاك سبب تهيجها فقال لها هدئي روعك قليلاً ياماسلوفا

فقالت بعنف : وما الداعي انظنُّ انى سكرانه ؟ وهب اننى شربت قليلاً من الفودكا ولكنى عالمة بما اقول وتشربت وجنتاها لوناً قرمزياً وبعد ان سكتت قليلاً عادت فقالت : انى مجرمة اثيمة وانت سيد جليل ولست فى حاجة الى تدنيس نفسك بالاقتراب مني بل اذهب الى اميراتك الغنيات الجميلات أما انا فثمنى لايزيد عن عشرة روبلات

فقال واعضاءهُ جميعها ترتجف مهما بلغت منك الشراسة فى الكلام فلا يمكنك ان تعبري عمَّا اشعر بهِ فى ذاتى ولا يمكنكِ ان تتصوري الى أي حدّ ارى نفسي مذنباً اليك

فقالت غاضبة وهى تقلده باستهزاء ترى نفسك مذنباً ولكنك لم تشعر هذا الشعور فى تلك الساعة السوداء بل رميتني بماية روبل كأنك تقول خذي ثمنك

قال : انا عالم ولكن ما الذي يجب عمله الآن فقد عزمت على ان لا تركك وسأتمُّ ما قلته

قالت مقهقهة : وانا اقول يجب عليك ان تتحول عن عزمك . فامسك بيدها وقال : كاتيوشا ؟! فقالت اغرب عني فانا مجرمة وانت امير ولا شغل لك هنا واجهشت في البكاء وبدأ احتدام الغيظ على وجهها ثم افلتت يدها من يده وقالت : تريد ان تخلص نفسك بواسطتي معربة بهذه الجملة عما تولّد في نفسها وزادت بقولها : قد متعت نفسك بي في هذه الحياه وتريد ان تخلص نفسك بواسطتي في الحياة الاتية . فانت ممقوت لديّ انت ونظارتك الذهبية وملابسك المتقنة وكرشك الضخم المملوء فساداً وصاحت باعلى صوتها اذهب . اذهب من امامي وسقطت على الارض

فاتاها السجان وقال ما هذا الصياح . فقال نيليدوف ارجوك ان تدعها وشأنها . فقال السجان لايجب تركها على ما هي عليه . قال نيليدوف اتركها قليلاً فتعود لما كانت عليه قبلاً . فرجع السجان الى مكانه ثم عادت ماسلوفا واخذت تمسح عينيها وضمت يديها الصغيرتين الى صدرها وشخصت في الارض حزينة يائسة

فوقف نيليدوف الى جانبها وقال : هلاّ تصدقين ما اقوله لك قالت : اتعني انك تريد الاقتران بي ؟ هذا امر لايمكن اتمامه واني افضل الشنق على الاقتران بك فاقتصر

فقال : ولكني ساواظب على خدمتك

قالت : انت وشأنك أما انا فلا اطلب منك شيئاً . ثم تنهدت وقالت آه لماذا لم أمُت في تلك الساعة وفاضت عيناها بالدموع المحرقة . فاشتعل فؤاده لهيباً ولم يَعُد يقوَ على الكلام لان عبراتها اثارت شجونه . ثم رفعت عينيها ونظرت اليه باندهاش وبدأت تمسح دموعها بمنديلها . حينئذ

جاء السجان وقال قد فرغ الوقت فنهضت ماسلوفا . وقال لها نيليدوف : انك متهيجة الآن وانا آت اليك غداً فعليك ان تفتكري فيما قلته . فلم تجبه ماسلوفا ودون ان ترفع نظرها تبعت السجان وخرجت من الغرفة . ولما عادت الى غرفتها قالت لها كورابليوفا هنيئاً لك فقد أصبحت تصرفين اوقات ثمينة مع رجل يتعشقك ويرجو نوال رضاك فاغتنمي الفرصة وفوزي بما تشتهين ما دام يتردد عليك فانه يفيدك لانه غنيٌّ والاغنياء قادرون على كل شئ

فقالت امرأة الخفير نعم الامر كذلك وحين يطالب الفقير الزواج يرى الف عقبة في سبيله ولكن الغني ما عليه الاَّ ان يفكر فيتم له كل امر

أما ماسلوفا فلم تجب بشئ بل القت نفسها على السرير مصوبة عينيها الى سقف الغرفة وظلت على هذه الحالة حتى المساء وكانت الافكار المؤلمة المتناقضة تجول فى مخيلتها لان ما قاله نيليدوف اعاد اليها ذكرى العالم الذي عاشت فيه مرَّ الحياة والذي تركته نافرة دون ان تعرف السبب . وقد رأت نفسها الآن خارجة عن الدعارة التي كانت عائشة فيها ولكنها لم تسلم من ذكرى الامور المؤلمة المحزنة التي توالت عليها فى حياتها الاخيرة ولذلك ارادت ان تطرد جيوش الاحزان بمعاقرة بنت الحان ففي المساء ابتاعت زجاجة من الفودكا شربتها مع رفيقاتها

« ٣٧ »

وحينما غادر نيليدوف السجن قال فى نفسه قد عرفت الآن ما عنت بقولها وكان قد تمثل له جرمه كما هو . ولو لم يرد ان يكفر عن ذنبه لما تبين له على الاطلاق عظم هذا الذنب ولما شعرت هي بكل البلاء الذي حلَّ عليها . فلم يرَ الاَّ فى هذه الساعة ما فعله بنفس هذه المرأة ولم ترَ هى ولم تفهم الاَّ

الآن مقدار اساءته اليها وحتى هـذه الساعة كان نيليدوف يعجب بنفسه وبتبكيت ضميره ولـكنه الآن افعم بالحزن والكآبة وقد عرف انه لايمكنه تركها ومع ذلك كان يجهل النتيجة التي كانت تنتج عن علاقتهما ببعض

وحين كان خارجاً قابله سجان قبيح الصورة وناوله رسالة قال انها مرسلة من شخص . فقال نيليدوف من هذا الشخص؟ قال ستعرفه عند ما تقرأ الرسالة فهي من سجينة سياسية سالتني ايصالها اليك فلبيت طلبها اجابة لداعي الانسانية ولو كان ذلك مخالفاً للنظام

فعجب نيليدوف من ذلك كيف ان سجاناً للمسجونين السياسيين يوصل رسائل داخل جدران السجن وعلى مرآى من الجميع ولم يعرف حينئذ ان هذا الرجل كان سجاناً وجاسوساً في وقت واحد فاخذ الرسالة منه وقرأها وهو خارج من السجن وهذا نصها :

لما عرفت امر ترددك على السجن واهتمامك بسجينة فيه تاقت نفسي الى رؤياك فاطلب اذناً بمقابلتي لان لي كلاماً كثيراً اقوله لك عن التي تهتم بأمرها وعنا جميعاً « فيرا دوهوفا »

وكانت هذه الفتاة قبلا معلمة في مدرسة في قرية تابعة لمقاطعة نوفغورود حيث اقام نيليدوف وبعض رفاقه مرة اذ كانوا يصيدون الدبب . وهذه المعلمة سألت نيليدوف شيئاً من المال لاتمام دروسها فساعدها نيليدوف في ذلك الحين ونسي امرها وظهر له الآن ان هذه السيدة مجرمة سياسية وفي السجن وقد تكون سمعت قصته واقبلت تعرض خدمتها عليه

وكم كانت الامور بسيطة وسهلة في ذلك الحين وكم تصعبت وتعقدت الآن . وشعر نيليدوف بسرور فائق الحدّ بتذكره تلك الايام وتعرفه

بدهوفا . وكان ذلك قبل الصوم الكبير في نقطة تبعد اربعين ميلاً عن السكة الحديدية وقد فازوا بصيد دبين وتأهبوا للعودة واذا بصاحب الكوخ قد اقبل وقال ان ابنة القسيس تريد مقابلة نيليدوف . فسأل أحدهم هل هي جميلة؟ فقال نيليدوف دعك ياصاح من مثل هذه الاسئلة الباردة ونهض على الفور وذهب الى الكوخ حيث وجد ابنة قبيحة وليس شيء حسناً فيها سوى عينيها وحاجبيها فقالت امرأة الرجل للفتاة ها هو الامير نيليدوف فحدثيه بما تشائين وانا خارجة . فقال نيليدوف بمَ تريدين ان اخدمك ايتها الفتاة ؟ قالت : اراك غنياً وتبذر من ثروتك على امور تافهة كالصيد وما اشبه ذلك فانا اريد منك امراً واحداً وهو ان اكون نافعة لقومي ولكن لا يمكنني ان افعل شيئاً لاني لا اعرف شيئاً وقد بدأ على وجهها امارات الصدق واللطف وكانت تتكلم وهي مطرقة خجلا فشعر نيليدوف بما هي فيه فابدى لها الانعطاف وسألها ماذا تريدين مني ؟

قالت : انا معلمة الآن ولكنني ارغب الدخول في المدرسة الكلية وليس في امكاني اتمام رغبتي لاني فقيرة فاعطني ما يمكنني من اتمام دروسي وحينذاك اقوم بوفاء الدين . وقد كنت افكر في قتل الاغنياء للدب واعطائهم المسكر للفلاحين وكل ذلك من الشرير فلمَ لا يفعلون الخير وكل ما يلزمني ثمانون روبلاً فاذا اعطيتني اياها شكرتك شكراً جزيلاً

فقال نيليدوف : بل انا الذي اشكرك على هذا الشعور وسأتيك بالمبلغ في الحال . وخرج الى حيث كان رفاقه ولم يحفل باستهزاء واحد منهم به كان يسترق الحديث الذي دار بينه وبين الفتاة بل اخذ قيمة ما طلبته منه من محفظته وسلمه لها ولم ينتظر منها الشكر بل اسرع بالخروج

وقد سرّ بتلك الذكرى الآن . بذكرى خصام كاد ينشب بينه وبين ضابط كان يضحك منه ويستهزئ به فعارضه رفيق آخر وانتصر لنيليدوف وتمكنت الصداقة بينهما بعد ذلك . وذكرى نجاح الصيد فى تلك الرحلة والفرح والانشراح اللذين شعر بهما حين عودته الى المحطة تلك الليلة

وتصوّرت لنيليدوف تلك الرحلة باكملها بين سير على الثلج واجتياز الغابات على ظهور الجياد والاشجار الشامخة متدلية اغصانها لابسة حلة بيضاء وفوق كل ذلك الصحة والقوة والخلو من الهم وكانت رئتاه تصعدان النفس بحرارة من الهواء البارد فتنتفخان ويضيق الفرو الذي كان يلبسه على صدره والثلج يتناثر من الاغصان على وجهه وكان جسمه دافئاً ووجهه يتدفق بشراً ونفسه خالية من الهمّ والتبكيت والخوف ... فقال فى نفسه ما اجمل تلك الايام وما اعمق حزني وأشد اضطرابى الآن

ثم قال لاشك ان فيرا دوهوفا ثورويتة ومسجونة من اجل ذلك فلا بد ان ارها خصوصاً وانها وعدت باخباري شيئاً عن ماسلوفا

« ٣٨ »

واستيقظ نيليدوف فى اليوم التالى باكراً وتذكر ما فعل فى اليوم الفائت فاعتراه الخوف والذعر . ولكن رغم هذا الخوف زاد تصميماً على انهاء ما بدأ به فذهب ليرى ماسلنيكوف ويحصل منه على اذن لزيارة ماسلوفا وآل منشوف الأم والابن اللذين أخبرته ماسلوفا عنهما ودوهوفا التي كان يرجو منها فائدة لماسلوفا

وقد عرف نيليدوف ماسلنيكوف منذ مدة طويلة اذ كانا فى فرقة واحدة فى الجيش وكان ماسلنيكوف رجلاً رقيق الحاشية حازماً فى عمله

لايعرف شيئاً سوى الفرقة والعائلة القيصرية فرآه نيليدوف الآن اداريا بدل الفرقة بالمركز الاداري لانه تزوج بامرأة غنية فأرغمته على هذا التبديل. وقد كانت تسخر به وتهمله كأنه ألعوبة بين يديها وقد زارهما نيليدوف مرة فلم ترقه معيشتهما ولذلك لم يعدها مرة أخرى . وحين نظر ماسلنيكوف نيليدوف تهلل وجهه فرحاً لانه مع تفاوتهما فى السن كانا اليفين فرحب ماسلنيكوف بزائره كثيراً وقال لهُ تعالَ نذهب ونر زوجتي فان الفرصة تسمح لي بعشر دقائق فقط لان الرئيس غائب وأنا الآن مترأس ادارة الحكومة

فقال نيليدوف : أنا آت فى مهمة

فقال ماسلنيكوف : وما هي مهمتك وأراد اذ ذاك ان يظهر جلال منصبه

فقال نيليدوف : فى السجن امرأة يهمني أمرها جداً وأريد ان يسمح لي بمقابلتها لا فى غرفة الزيارة بل فى المكتب وفى أي وقت أريد وقد قيل لى ان هذا الامر متوقف عليك

فقال ماسلنيكوف : حباً وكرامة ياعزيزى سأفعل ماتريده والقى يديه على ركبتي نيليدوف كأنه اراد اخفاض عظمته ثم قال واعلم انى رئيس لمدة ساعة فقط

فقال نيليدوف : اذن اعطني أمراً يمكنني من رؤيتها

فقال . ولأي ذنب سجنت

أجاب . من أجل تسميم ولكنها بريئة وحكم عليها ظلماً

قال . نعم هذا شأنكم معشر المحلفين فانكم من حزب الاحرار

فقال نيليدوف . لست أعلم اذا كنت من حزب الاحرار أو من غيره

ولكن مهما كان عليه سلك المحلفين الحاضر من سوء الحالة فانه أفضل وأقوم من المحاكم القديمة

فقال ماسلنيكوف . ومن الذي اتخذته محامياً . قال فانارين

قال . انصح لك بالابتعاد عن هذا الرجل فانه شرير

قال نيليدوف . لى عندك سؤال آخر وهو ان هناك فتاة عرفتها منذ مدة وهى معلمة بحالة تستدعى الرفق تريد ان تراني فهل تأذن لى بزيارتها

فقال . أمجرمة سياسية هى . قال نعم . قال اعلم ان المجرمين السياسيين لا يزورهم سوى الاقرباء ومع ذلك سأعطيك جوازاً مطلقاً فما اسم الفتاة؟ قال اسمها دوهوفا . قال أجميلة هى . قال لا بل اقبح من الجاحظ . فكتب له جوازاً مطلقاً وقال له الآن ترى النظام الذى رتبناه هناك ولا يخفاك صعوبة حفظ النظام بين قوم محكوم عليهم بالنفي ولكني رجل لا أكل عن العمل وسوف ترى اسباب الراحة بينهم ومنذ أيام مضت حدث بينهم هياج أسكناه فى الحال وليس على المرء الا ان يحسن الادارة بين هؤلاء المجرمين فيستعمل اللين مرة والشدة أخرى

فقال نيليدوف . لست أعرف شيئاً من ذلك وقد ذهبت مرتين الى السجن فتولانى الغم مما يجرى فيه

فقال ماسلنيكوف . يجب عليك ان تتعرف بالكونتسه باسيك لانها وقفت نفسها لهذا العمل وهى تفعل خيراً كثيراً وبسببها وبمساعدتى تغير كل شئ فى السجن وانقطعت الفظائع التي كانت تجرى قبلاً واصبح المسجونون فى راحة تامة

فلم يحفل نيليدوف بكلامه بل اخذ الورقة وودعه . فقال ماسلنيكوف

ألا تريد ان ترى امرأتى لانها كثيراً ماسألتني عنك

أجابه نيليدوف . اعذرنى فالوقت لايسمح لى على الاطلاق . ثم خرج فودعه ماسلنيكوف الى الباب

« ٣٩ »

ركب نيليدوف عربته قاصداً السجن فأدخله الخادم الى قاعة الاستقبال فأقبل عليه المفتش كعادته بمنظر الكآبة والعناء وبعد ان حياه قال بما يمكنني ان أخدمك . قال معي أمر من نائب الحاكم فأريد مقابلة السجينة ماسلوفا فقال المفتش ليس من المناسب مقابلتها اليوم . قال لما ذا ؟

أجابه مبتسماً . انت السبب فى ذلك ياحضرة الامير وارجوك ان لاتسلمها نقوداً فى يدها واذا اردت ان تعطيها شيئاً فسلمني اياه لاحفظه لها لانك ولا شك أعطيتها امس فابتاعت شيئاً من المسكر وأصبحت اليوم سكرانة متهيجة للغاية ومن الغريب ان كل ما يبذل من الجهد لمنع ادخال المسكرات الى السجن تذهب المساعي ادراج الرياح

فقال نيليدوف : أممكن ذلك ؟

قال المفتش . نعم وقد اضطررت أيضاً لاستعمال القسوة معها فوضعتها فى حجرة منفردة وهى امرأة هادئة الطباع اذا لبثت على حالتها الفطرية ولهذا أرجوك أن لاتعطيها نقوداً فيما بعد . فعاد الى مخيلة نيليدوف ذكر ماحدث فى اليوم الفائت فتولاه الخوف والانزعاج ثم قال : وهل يمكني مقابلة دوهوفا المجرمة السياسية

فقال المفتش . نعم وقاده الى السجن ففتحت الابواب للحال وأظهر السجانون التعظيم اللائق وشيعوا المفتش بعيونهم ثم لفت المفتش نحو نيليدوف

وقال له : ان الفتاة دوهوفا التي تريد أن تراها هى فى البرج ويجب عليك الانتظار قليلاً

فقال نيليدف : هلا يمكنني فى هذه المدة ان أرى آل منشوف الأم وولدها المتهمين باشعال النار فى احد المنازل

قال . بلى وسأحضرهما فى الحال. ثم قال لمعاونه خذ حضرة الامير الى حجرة منشوف نمرة ٢١ ثم أعده الى المكتب وأنا ذاهب لادعو فيرا دوهوفا

وكان معاون المفتش شاباً جميلا يتطيب بالروائح العطرية فقاد نيليدوف وقال له متبسماً ان بنايتنا تهمك على مايظهر لي . فقال نعم انها تهمني وعدا ذلك فان علىَ فرضاً أقوم به وهو مساعدة رجل اودع هذا المكان وهو بريء كما قيل لي . فهزّ المعاون كتفيه وقال : نعم قد يحدث مثل ذلك ويحدث أيضاً انهم يكذبون

وكانت أبواب الحجر مفتوحة وبعض المسجونين واقفين فى الرواق فأبدى المعاون اشارة خفية فالتصقوا جميعهم بالحائط وأخذوا يدخلون الى حجرهم مصطفين بانتظام كالعساكر وبعد ان اجتازا أحد الاروقة ما لا الى غيره يفصل بين الواحد والآخر باب من حديد . وكان هذا الرواق ضيقاً مظلماً واكره رائحة من بقية السجن وفيه سجان واحد شيخ منحني الظهر بوجه عبوس . فسأله المعاون اين منشوف

فقال : فى الحجرة الثامنة الى الشمال . فقال نيليدوف وهل هذه الحجر ملآى . قال: نعم الا واحدة

فسأل نيليدوف المعاون عما اذا كان يسمح له بالتطلع الى داخل الحجر . فأجابه المعاون بالايجاب وتحوّل نحو السجان يسأله بعض أسئلة . فأطلا

نيليدوف من ثقب فى الحجرة الاولى فنظر رجلاً طويل القامة ذا لحية سوداء يخطر فى الحجرة ذهاباً وايابا فلما أحس بوجود شخص على الباب تفرس فيه عابساً وعاد لما كان عليه . فتقدم نيليدوف الى الحجرة الثانية والتقت عينه بعين كبيرة تشف عن خوف ورعب وتحدق فيه فترك موقفه فى الحال ونظر فى الحجرة الثالثة رجلاً قصير القامة نائماً . ونظر فى الرابعة رجلا اصفر الوجه جالساً ومعصماه على ركبتيه ورأسه مائل وبالاجمال كان منظره يشف عن اليأس والقنوط . وعرف نيليدوف عند أول نظرة ان هذا الرجل لم يهتم به ودل منظره على ان لارجاء له بالحياة فانقبضت نفس نيليدوف وتولاه الغم والكدر وذهب تواً الى حجرة منشوف ففتح السجان الباب له . وكان فى الحجرة شاب طويل العنق شديد العضلات برأس صغير وعينين مستديرتين جالس الى جانب السرير فاسرع ووضع رداءه عليه ونظر الى القادمين بوجه مضطرب وحدّق فى وجه السجان ونيليدوف والمعاون كأنه يريد ان يستطلع الخبر فقال له المعاون ان هذا السيد الجليل يرغب مقابلتك والفحص عن امرك . فشكره السجين ودعا له بطول العمر . فقال نيليدوف : قد أخبرت عنك وسمعت انك مظلوم فأردت ان أسمع من فيك كل ما يتعلق بالقضية

ولما لم يقدر على احتمال الرائحة الكريهة التى ملأت جو الغرفة تقدم نحو النافذة وتبعه منشوف وبدأ يقص حديثه . وكان ينظر أولاً الى وجه المعاون خجلاً ثم أخذ يتجرأ شيئاً فشيئاً وحين غادر المعاون الغرفة لالقاء بعض الاوامر اتخذ الرجل الجرأة وقص حكايته بلهجة شديدة وكلام فصيح حتى دهش نيليدوف من طلاقة لسانه وقوة جنانه فنظر الى وجه هذا

الشاب الاسيف المتطلب الرفق المرتدي رداء السجن فتراكمت عليه الاكدار وشعر بهول التفكير فى تمكن الناس من اتيان مثل هذا العمل السيئ بقبضهم على شاب دون ذنب سوى انه هو المجني عليه والباسه لباس مجرم وايداعه السجن المخيف المرعب . اما حكاية الشاب التى قصها على نيليدوف والتى سجن بسببها فهى : انه بعد زواجه بقليل أغوى امرأته صاحب فندق القرية فشكا أمره الى جهات مختلفة طالباً الانصاف . ولكن صاحب الخان كان يعمي أعين الموظفين بالرشوة فتبرأ ساحته فى الحال . ومرة أخرج امرأته بالقوة من منزل غريمه وذهب بها الى منزله ولكنها فرّت فى اليوم التالي ثم ذهب لاسترجاعها وقد نظرها حين دخولها منزل الغريم ولكنّ هذا انكر وجودها وأمره بالانصراف فلم ينصرف فانهال عليه صاحب الفندق وخدمته بالضرب وأثخنوه جراحاً . وفى اليوم التالي شبت نار فى الفندق واتهم الشاب وأمه باحراق المحل مع ان هذا الامر لم يخطر له ببال بل كان فى ذلك الوقت عند أحد اصدقائه

فسأله نيليدوف : أحقٌ ماتقول بانك لم تشعل النار فى الفندق . فقال لم يجل هذا الامر فى خاطرى قط ولا شك ان خصمي هو الذى أشعلها فقد علمت انه أتمن فندقه قبل الحريقة بمدة قصيرة واتهمني وأمّي بارتكاب الجريمة واننا هددناه ولا أخفي عليك اني ذهبت اليه مرة حانقاً لاني لم أطق اصطباراً ولكني لم أحرق الفندق ولم اكن هناك حين شبت النار

فقال نيليدوف : هل يمكن ان يكون ماتقوله حقاً ؟

فأجاب : الله شاهد على صدق قولى وهو خير الشاهدين فكن رحوماً ياسيدى . ولم يتمكن نيليدوف من منعه عن الجثو الاّ بعد عناءٍ شديد . ثم

استطرد فى كلامه وقال ارفق بي فانني هالك لامحالة ثم اجهش بالبكآء وأخذ يمسح دموعه بكم قميصه القذر

وفى هذه اللحظة أقبل المعاون على نيليدوف وقال هل أنت مستعد للذهاب

فقال : نعم والتفت الى السجين وقال خفض روعك فسأفعل جهد استطاعتي وغادر الحجرة فوقف منشوف لاصقاً بالباب الى ان دفعه السجان الى الداخل وبينما كان يقفل الباب كان السجين ينظر الى الخارج من الثقب الصغير

« ٤٠ »

وعند عودة نيليدوف واجتيازه الرواق الواسع مرّ بالرجال اللابسين أردية صفراء وألبسة قصيرة واسعة فشخصوا اليه باهتمام وكان وقت الغداء وأبواب السجن مفتحة فشعر نيليدوف بانعطاف غريب نحوهم وبحقد على أولئك الذين حجروا عليهم فى هذا المكان وعدا ذلك تولاه الخجل من نفسه دون ان يعرف السبب وأخذ يفحص كل مايراه بهدوء وسكون

وفى أحد الاروقة نظر رجلاً قد أسرع ودخل احدى الغرف فخرج منها عدد من الرجال وجثوا امام نيليدوف وقالوا تعطف ولا تؤاخذنا على عدم معرفتنا لقبك وانظر فى شأننا . فقال نيليدوف : أنا لست موظفاً ولا أعرف شيئاً من أمركم

فصاحوا بصوت واحد : كن من تشأ فاننا نتوسم فيك خيراً . توسط لنا لدى الحاكم ارفق بنا كبشر فهاقد مضى علينا شهران ونحن نقاسي مرّ العذاب دون ان نعرف لذلك سبباً

فقال نيليدوف : وكيف ذلك ؟

فقالوا : نحن أنفسنا لانعرف السبب وقد مضى الشهر الثاني على سجننا فقال المعاون . انما يقولونه حقٌّ فهؤلاء القوم اوقفوا لحلوهم من الجوازات وكان الواجب اعادتهم الى وطنهم ولكن بسبب احتراق السجن فى مقاطعتهم وسألتنا الحكومة ابقاءهم عندنا

فقال نيليدوف مندهشاً . الا يوجد سبب غير هذا ؟ فتجمع حوله وحول المعاون اربعون رجلا يضجون . فأوقفهم المعاون وقال انتخبوا واحداً منكم يتكلم فتقدم من بينهم رجل يناهز الخمسين وقال لنيليدوف . انهم جميعاً امروا بالرجوع الى أوطانهم فأودعوا السجن لحلوهم من الجوازات مع ان جوازاتهم لم يمض على مدتها سوى اسبوعين وفى كل عام يحدث مثل ذلك ويتأخرون عن تبديل جوازاتهم ولا يعارضون ولكنّ فى هذه المرة قبض عليهم لهذا السبب ومضى على سجنهم شهران كأنهم مجرمون ونحن جميعاً بناؤن ومن بلاد واحدة فارفقوا بنا وساعدونا فيكون لكم أجر عظيم

وكان نيليدوف يصغى ولا يكاد يفهم قول الرجل لان اهتمامه كان منصرفاً الى مراقبة الامارات البادية على وجهه المتشيب الجليل. ثم تحوّل نحو المعاون وقال له ايمكن ان يجرى مثل هذا ؟ فقال المعاون نعم وقد كان الواجب اعادتهم الى أوطانهم ولكن الظاهر انهم نسوهم . وقبل ان يتم المعاون كلامه تقدم شاب عصبيُّ المزاج وقال اننا عوملنا معاملة سيئة شراً من معاملة الكلاب بدون سبب فانتهره المعاون قائلاً اصمت والاَّ ساء حالك . فسكت الشاب مرغماً . وبينما كان نيليدوف خارجاً من ذاك القسم كانت العيون شاخصة اليه من كل جانب والجميع يحسبونه آتياً للتفتيش على اعمال السجانين

ولما خرج سأل المعاون قائلاً : هل من الممكن ان يسجن أبرياء . فقال المعاون جميعهم يكذبون واذا سمعت حديثهم تبين لك انهم أبرياء . فقال نيليدوف ولكن هؤلاء لم يرتكبوا ذنباً . فقال المعاون نعم انا نسلم بذلك ولكن هذا النوع من البشر قد فسدت طباعه وبينهم أناس يجب ان يعاملوا معاملة قاسية وأمس اضطررنا الى معاقبة اثنين منهم بالجلد حيث جلدنا كلاً منهما خمسين جلدة . قال : ولكن التأديب الجسدي قد ألغي . قال المعاون لم يلغَ عن الذين جردوا من حقوقهم المدنية . وفكر نيليدوف فيما رآه أمس حين كان ينتظر فى القاعة ودون ان يصغي الى كلام المعاون غادر الرواق وذهب الى المكتب حيث كان المفتش مشتغلا ببعض مهام وقد نسي ان يستدعي دوهوفا ولما نظر نيليدوف امر باستدعائها فى الحال

وكان المكتب مؤلفاً من غرفتين فى الاولى موقد وقبان لوزن المسجونين وفى الثانية صورة السيد المسيح كما هى العادة فى المحلات التي يعاقب فيها . وأول من استلفت نظره شابٌ بوجه بشوش كان واقفاً مقابل امرأة متوسطة فى العمر يتلو عليها حديثاً حماسياً ويلقي اشارات بيديه . والى جانبهما رجل شيخ بنظارتين زرقاوين ممسكاً بيد امرأة صبية مرتدية رداء السجن تملي عليه ما فى ضميرها . وفى احدى زوايا الغرفة عاشقان المرأة منهما صغيرة السن جميلة المنظر متأنقة فى اللباس والرجل بتقاطيع منتسقة وشعر أجعد وكانا يتخاطبان همساً ودلائل الحب ظاهرة على محياهما . والى جانب الطاولة امرأة مسنة لابسة رداء اسود وملقية رأسها على كتف ابنها المسلول وكانت تحاول مخاطبته فتخنقها العبرات والى جانبهما فتاة متوردة الخدين دعجاء العينين آية فى الجمال تلاطف الام الباكية وتسكن جأشها . وحين دخول نيليدوف

لتقى نظرها بنظره فتحولت عنه فى الحال وهمست فى اذن والدتها . وكان قرب العاشقين رجل منسدل الشعر عابس الوجه ينتمي الى طائفة « السبكوبتي » وهم الذين يطلبون الطهارة بالوسائل الطبيعية ويستعملون لحصي . وبينما كان جالساً الى جانب المفتش اقترب منه غلام صغير وقال له بصوت عال ومن الذي تنتظره انت ؟ فدهش نيليدوف وتفرس فى وجه الغلام وفي العينين المصوبتين اليه وقال : انى أنتظر امرأة أعرفها وانت من الذي أتى بك الى هنا ؟ قال انا مع والدتي السجينة لجرم سياسي . فرأى المفتش في محادثة نيليدوف للغلام مخالفة للنظام فنادى : يافلوفنا تعالي وخذي كوليا فتقدمت الفتاة « وهي التي استلفتت انظار نيليدوف بقوام رشيق » وقالت : ما الذي يسألك عنه هذا الشقي انه يريد معرفة كل شيء وامالت نظرها نحو الغلام بابتسامة حلوة لطيفة اضطرت الغلام ونيليدوف معاً الى الابتسام . ثم اخذته وذهبت فقال نيليدوف للمفتش ابن من هذا الغلام ؟ فاجاب المفتش هو ابن مجرمة سياسية وقد ولد في السجن . قال هذه الجملة بكل ارتياح كأنه يظهر له بكل وضوح حسن ادارته . فقال نيليدوف وهل هذا ممكن ؟ قال نعم وهو ذاهب معها الآن الى سيبيريا . وفي هذه اللحظة جاءت دوهوفا وادخلت من الباب الداخلي ضئيلة صفراء اللون بعينين كبيرتين لطيفتين وقالت لنيليدوف وهي ضاغطة على يده اشكرك لانك اجبت طلبي وحضرت الى هنا فدعنا نجلس

فقال نيليدوف : الحقيقة انّى لم انتظر ان اراك هنا . فقالت : ولماذا ؟ ان حالتي جيدة لا اروم احسن منها

فسألها نيليدوف عن سبب دخولها السجن . فأخذت تقص عليه كلما

جرى لها بغير مبالاة وتخال حديثها كثير من الالفاظ الاصطلاحية كالبرو باغندا أي المجمع المقدس . وفقد النظام . والاشتراكية . والزعماء . والاتباع .. وكانت تسردها زاعمة ان كل انسان يعرفها ولكنها الفاظ لم يسمعها نيليدوف قط ولا خطرت له ببال واوضحت له اسرار « النارودوفولستفو » اي حرية الشعب وهي حركة ثورية . واعتقدت تمام الاعتقاد بأنه يسر بحديثها . أما نيليدوف فنظر الى جسمها الضئيل وعنقها الطويل وشعرها الخفيف وعجب من اقدامها على مثل هذه الاعمال وسردها مثل هذا الحديث فاشفق عليها لان حالتها تستدعي الرفق بالنظر الى التشويش الذي ملأ دماغها ومما لا ريب فيه انها حسبت نفسها بطلاً وقفت حياتها لنجاح مقصدها

أما الامر الذي ارادت دوهوفا مقابلة نيليدوف لاجله فهو ان صديقة لها لا تنتمي الى حزبها اوقفت معها منذ خمسة اشهر من اجل كتب واوراق ممنوعة ضبطت عندها لم تكن لها بل اودعها عندها بعض الناس . فوعدها نيليدوف بانه حين ذهابه الى بطرسبرج لايدخر وسعاً عن التكلم بشأنها

أما حكاية دوهوفا الشخصية فهي انها بعد ان اتمت دروسها انضمت الى جمعية تحرير الشعب وفي البدء كانت امور هذه الجمعية جارية بسكون فكان اعضاؤها يكتبون تقاريرهم وينشرون مبدأهم وهم في المعامل . ثم أوقف أحد الاعضاء المهمين وضبطت الاوراق فعرف اعضاء الجمعية واوقفوا وكانت دوهوفا في عداد الموقوفين وتقرر نفيها الى سيبيريا . ولم يبد عليها اثناء قص حديثها أقل انزعاج بل ختمت الكلام متبسمة تقولها انها في راحة وسرور تامين

فسألها نيليدوف عن الفتاة دعجاء العينين . فقالت انها ابنة جنرال في الجيش وانضمت منذ مدة الى الحزب الثوروي وسجنت من اجل اطلاقها النار على أحد العساكر وقد كانت ساكنة مع بعض المتآمرين في بيت كان لهم فيه مطبعة سرية وفي احدى الليالي هجم البوليس على البيت فاطفأوا الانوار واخذوا يتلفون الاشياء التي تلطخهم بالجريمة ولكن البوليس دخل بالقوة فاطلق احد المتآمرين النار واصاب احد العساكر بجرح مميت وحين اجراء التحقيق قالت هذه الفتاة انها هي الجانية مع انه لم يكن في يدها مسدس ولا اعتادت ان تؤذي اقل الهوام ولكنها ثبتت على قولها وها قد حكم عليها بالاشغال الشاقة فاذا اردت ان تتوسط لها كان لك اجر عظيم

والامر الثالث الذي ارادت دوهوفا التكلم عنه هو امر ماسلوفا فقد عرفت كما عرف غيرها في السجن ماضي حياتها وعلاقة نيليدوف بها ونصحت له بان يتخذ الوسائل لنقلها اما الى سجن المجرمين السياسيين أو الى المستشفى لتساعد في تمريض المرضى الذين كانوا كثيري العدد في ذلك الوقت وكانت الحاجة الى الممرضات شديدة فشكرها نيليدوف وقال انه سيفعل بمقتضى نصحها له

« ٤١ »

وقاطع المفتش حديثهما بأن اعلن فراغ الوقت فاستأذن نيليدوف من دوهوفا بالانصراف وتقدم نحو الباب ليرقب ما يجرى

فصاح المفتش ايها القوم فرغ الوقت ..فاخذوا ينهضون ثم يجلسون ولم يكن لامر المفتش تأثير سوى تنشيط المسجونين ولم ينصرف احد . ثم صرخ ثانية فرغ الوقت فنهض البعض ولبثوا يتحادثون وقوفاً والبعض ظلوا يتكلمون

جلوساً والبعض ينتحبون ويستأذنون من بعضهم البعض . وكان منظر الوالدة وابنها المسلول مؤثراً جداً فبقي هو غاضباً ولم يكن في ما ابدته والدته من الانعطاف والتعزية ما يسكّن جأشه . وعند ما سمعت الوالدة بفروغ الوقت القت رأسها على كتف ابنها وأخذت تصعد الزفرات . وكانت الفتاة ذات العينين الكبيرتين اللطيفتين التي لم يحول نيليدوف نظره عنها واقفة أمام المرأة الباكية تسكن جأشها . وكان الشيخ ذو النظارتين ممسكاً بيد ابنته يتحادثان . ونهض العاشقان ممسكين بايديهما يتغازلان باعينهما فقال شابٌ لابسٌ رداءً قصيراً ليس في هذا المكان غيرهذين الاثنين في فرح وطرب ولما نظرا الاعين مصوبة اليهما تخاصرا واخذا يدوران كأنهما في مرقص

فقال الشاب لنيليدوف : سيتمُّ زفافهما هذه الليلة في السجن وستتبعه الى سيبيريا

فقال نيليدوف : : ما امر هـذا الشاب ؟ قال : انه مجرم ومحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وواصل الحديث وهو يسمع زفرات والدة المسلول قائلاً : فلندع هذين الاثنين يتمتعان بشيء من اللذة على الاقل والاّ كانت الحالة في هذا المكان مكدرة منغصة من جميع الوجوه . ثم نهض المفتش وقال بصوت منخفض يدل على الرفق ارجوكم الآن يا اولادي ان تتبعوا النظام ولا تحوجوني الى استعمال القسوة فقد تجاوزتم الحدّ ولم يعد في امكاني الاغضاء . ومما لا ريب فيه ان الشرائع المختلفة قد خوّلت الانسان الاساءة الى اخيه في الانسانية دون ان يشعر بتبعة ما يفعل . ولكن المفتش لم يمكنه الاّ الخضوع لضميره فكان يعامل المسجونين بالرأفة قدر امكانه واخيراً اخذ الزائرون ينسحبون وتبع نيليدوف الشيخ ذا النظارتين ونزل الشاب كثير الكلام مع

نيليدوف جنباً لجنب وقال ان ما شاهدناه وسمعناه لمن ادهش واغرب ما يسمع ويرى ومع ذلك يجب علينا تقديم الشكر والامتنان للمفتش فانه في الحقيقة رقيق القلب

وفي اثناء السير أخذ نيليدوف يفكر بما يقاسيه اولئك البؤساء من التعاسة والشقاء واكثرهم ابرياء لم يقترفوا ذنباً يستحق هذا العقاب . ثم قال في نفسه ما افظع افعال السجانين الذين وكل اليهم تعذيب اخوانهم وهم يظنون انهم يتممون فروضاً مهمة وافظع من كل شيء حالة المفتش الرقيق القلب الشريف العواطف المرغم على فصل الام عن ابنها والابنة عن ابيها . ولما جالت هذه الافكار في مخيلته شعر بغثيان ادبيّ وتحول الى مرض نفساني كما كان يتولاه كل مرة يزور فيها السجن

« ٤٢ »

وفي اليوم التالي قصد نيليدوف المحامي وسأله الدفاع عن منشوف ووالدته . فوعده المحامي بدرس القضية والاهتمام بها . ثم اخبره نيليدوف عن المائة والثلاثين رجلاً المودعين السجن خطاءً وسأله من الذي يجب مراجعته بشأنهم وعلى من تقع تبعة الخطآء ؟ فصمت المحامي هنيهة ثم قال : من المخطئ ؟ لا احد . فاذا سألت النائب قال الخطآء من الحاكم . واذا سألت هذا قال الخطآء من النائب . فلا احد مخطئ ولا أحد مسؤول . فقال نيليدوف انا ذاهب الى وكيل الحاكم لاخبره . فقال المحامي متبسماً ان ذلك لايجدي نفعاً فهو رجل عنيد وحيوان جاهل في آن واحد . فتذكر نيليدوف ما قاله ماسلنيكوف عن المحامي ولم يجب بل استأذن بالانصراف وذهب قاصداً ماسلنيكوف . ولما اقترب من المنزل نظر كثيراً من العربات الفاخرة والجياد

المطهمة امام الباب فتذكر ان ذلك اليوم هو يوم استقبال زوجة الحاكم الذي كان مدعواً اليه . وكان بين العربات عربة مقفلة عرف انها عربة آل كورتشاكين ولما رآه الحوزي انحنى امامه احتراماً ولم يكد نيليدوف يسأل عن ماسلنيكوف حتى نظره على السلّم المكسوّ بالبساط الفاخر مصطحباً ضيفاً عظيماً وكان هذا الزائر من رجال الجندية يتكلم بالافرنسية عن يانصيب يراد به تشييد ملجأ للاطفال في المدينة وارتأى ان يناط هذا العمل بالسيدات لتسليتهن وحين . وقع نظر الحاكم على نيليدوف حيّاه ورحب به وقال ادخل وقدم احترامك لقرينتي فترى آل كورتشاكين ونارين وبوشكوف . وقال الضيف العظيم ان هذه الدار تحتوي على نسآء المدينة الجميلات ثم ادار كتفه لخادمه ليلبسه رداءه العسكري وودع ماسلنيكوف وخرج . حينئذٍ مسك ماسلنيكوف يد نيليدوف وقال اصعد فانا مسرور بلقياك . وصعد هو مسرعاً رغم ثقل جثته مسروراً لما صادفه من ملاطفة ذلك الرجل العظيم . وكل عناية كهذه كانت تورثه بهجةً وسروراً شأن الكلب الامين الذي يلاطفه صاحبه أو يفرك اذنيه فيحرك ذيله ويتذلل ويدور حول نفسه دورات جنون . وقد كان ماسلنيكوف يفعل مثل ذلك فلم يلاحظ امارات الحزم على وجه نيليدوف ولم يحفل بكلامه بل أخذ يدفعه الى قاعة الجلوس فاضطر نيليدوف ان يتبعه صاغراً وقبل ان يصلا الى الداخل قال له اليوم خمر وغداً امر وسافعل ما تريد ثم قال للحاجب اعان حضور الامير نيليدوف ثم التفت اليه وقال ما عليك الاّ اصدار الامر ولكن قبل ان نبدأ بالكلام عليك ان تقابل زوجتي ولا تذهب دون ان تراها كما فعلت في المرة الماضية . وحين دخلا قالت له أنّا اغنا تيفنا زوجة وكيل الحاكم ببشاشة وترحيب وكانت القاعة

مكتظة بالسيدات والرجال يحومون حولهن بالبستهم العسكرية والملكية كما يحوم النحل على الازهار ثم قالت صاحبة المنزل لنيليدوف قد ظننا انك نسيتنا ولكن مجيئك اليوم ازال ما توهمنا ه فاجلس . ثم اخذت كل من الحاضرات تقول كلمة ولما وقع نظر ماريا كورتشاكين على نظر نيليدوف توردت وجنتاها وقالت ظننتك قد رحلت . قال انى على وشك الرحيل ولم اتأخر الا لبعض اشغال . فقالت : هلا تزورنا لترى والدتى فانها تريد ان تراك ولعلمها بكذب ما تقول زاد احمرارها . فقال نيليدوف وهو عابس اخشى ان لا يسمح لي الوقت وحاول ان لا يريها انه لحظ احمرارها . فعبست ماريا غاضبة وهزت كتفيها وتحولت نحو ضابط بهي الطلعة وأخذت تلاطفه وهو يحبب اليها

ثم أخذت صاحبة المنزل تخاطب نيليدوف فقالت ان « ميكي » (١) اخبرني بانشغالك بامور السجن وقد يخطئ ميكي ولكنه رقيق القلب كما تعلم وجميع اولئك المسجونين البؤساء يعاملهم كاولاده ومن حسناته .. ثم توقفت لانها لم تجد حسنات لزوجها الذي يامره بجلد بعض الانسان ويعذبون ثم تبسمت وتحولت عنه بغتة فاجابها نيليدوف بالالفاظ المصطلح عليها الخالية من المعنى والفائدة وذهب فجلس بجانب ماسلنيكوف وقال له هل يمكنك ان تسمح لي ببضع دقائق . فقال نعم وادخله الى غرفة جلوس صغيرة وجلسا بالقرب من النافذة وقال ها انا تحت امرك الآن ويجب ان نحترس لكي لا يسمع كلامنا احد . قال نيليدوف اتيتك لامرين . فقال باللعجب وعبس وامتعض وحيت عن وجهه علامات البهجة والسرور التي تبدو على الكاب حين يلاطفه سيده . ورنت في اذنيهما اذ ذاك اصوات الزائرين من نساء ورجال وزاد الصحك والقهقهة فاخذ ماسلنيكوف يحاول في آن واحد الاصغاء الى ما كان جارياً في غرفة الجلوس والى حديث نيليدوف

فقال نيليدوف : اتيت ثانية من اجل المرأة التي حكم عليها طلماً لكي اسألك ان تعينها في خدمة المستشفى . فقال ماسلنيكوف ذلك صعب المنال ولكني سأرى ما يمكن عمله وارسل اليك الجواب غداً . قال نيليدوف . ارجوك ان تفي بوعدك لي ولو ان الامر صعب فهو سهل عليك . والامر الثاني الذي جئت من اجله هو ان مائة وثلاثون شخصاً مسجونون لا لسبب سوى ان مدة جوازاتهم قد انقضت وها هم محجور عليهم ثم اخذ يقص عليه الحكاية كما جرت

فقال ماسلنيكوف : كيف امكنك الوقوف على هذا الامر ؟ وبدت عليه علامات

(١) تصغير اسم زوجها ماسلنيكوف الضخم الجثة للتحبب

النفور وعدم الارتياح . قال ذهبت لأرى سجيناً واذا بهؤلآء قد احاطوا بي وسألوني ان انظر في امرهم فهل من الممكن ان اناساً لم يرتكبوا ذنباً يحجر عليهم لمجرد انقضآء مدة جوازاتهم ؟ . . فقاطعه ماسلنيكوف غاضباً وقال ان ذلك متعلق بقلم النيابة والظلم ناتج عن العجلة والنائب العمومي هو المكلف بزيارة السجن والنظر فيما اذا كان المسجونون محجوراً عليهم بحق أو بغير حق ولكن هذه الفئة من رجال الحكومة تشغلها المقامرة والمداعبة عن كل شاغل

فقال نيليدوف : هل تعني بكلامك انك لاتقدر ان تفعل شيئاً ؟ قال بل انا قادر وسانظر في الامر حالاً

ثم سمع صوت الضاحكين والضاحكات واللاعبين واللاعبات وكان ماسلنيكوف يتحفز للانضمام اليهم فقال سافعل ما تريد فتعال الآن نضم الى السيدات والقى السيجارة التي كانت بيده وهم بالدخول فاستوقفه نيليدوف في باب القاعة وقال له : اسمح لي بكلمة واحدة فقد سمعت ان بعض الرجال أدبوا تأديباً جسدياً امس في السجن فهل هذا صحيح ؟ فاحمر وجه ماسلنيكوف وقال انك تنقب عن اعمالنا فتتحمل اسباباً تسهل عليك دخول السجن فليس من الموافق اذن ان نسمح لك بالدخول لانك يريد الوقوف على كل شيء .. فتعال لان أنا تدعونا وامسك بذراع نيليدوف فافلت نيليدوف ذراعه منه ودون ان يستأذن من احد أو يقول كلمة اجتاز غرفة الجلوس ونزل الى القاعة ومر بالحاجب الذي اسرع نحوه وخرج الى الطريق . فسألت أنا زوجها قائلة : ما باله وماذا فعلت معه ؟ فقال احد الحضور انه على مذهب الفرنساويين . وقال آخر لا بل على مذهب الزولوس . وقال آخر هذه حالته على الدوام ووجدت هذه الجمعية لها في حكاية نيليدوف تسلية حتى آخر الجلسة

وفي اليوم التالي تلقى نيليدوف من ماسلنيكوف رسالة قال فيها انه كتب للطبيب يسأله نقل ماسلوفا الى المستشفى ورجا ان يجاب الطلب وقد وقع الرسالة بصديقك الاكبر المحب وذيل التوقيع بالطابع الرسمي . فقال نيليدوف ياله من احمق كأنه يحسب مخاطبتي ينازلاً منه فهو يعد نفسه رجلاً عظيماً بالمنصب الدني الذي يشغله فشقحاً وتباً لها من وظيفة مملوءة اقذاراً واوضاراً لايرغب فيها الا من كان على شاكلته

« ٤٣ »

من الخرافات الكثيرة الانتشار في هذا العالم اسناد صفات خصوصية لكل انسان

ملازمة له فيقال مثلاً فلان لطيف أو شرس حكيم أو غبي حازم أو بليد ولكن الناس ليسوا كذلك بل يمكننا ان نقول عن انسان انه في اكثر الاحيان لطيف لا شرس وحكيم لا غبي الخ .. ولكن القول بان الرجل لطيف وحكيم قول فاسد كما ان القول بانه شرير وبليد بعيد عن الصواب ومع ذلك فقد اتخذنا هذه الطريقة لوصف البشر وهي طريقة فاسدة فالناس كالانهر والمياه واحدة في كل نهر ومماثلة لمياه الانهر الاخرى ولكن كل نهر ضيق في نقطة ومتسع في اخرى وسريع في مكان وبطيء في آخر وصاف في آن وكدر في آخر وبارد الآن ودافئ بعد ايام وهكذا البشر فكل انسان حامل جراثيم جميع صفات البشر ولكن احدى الصفات تظهر نفسها في وقت واخرى تبدو في آخر والرجل يصبح احياناً غير ما هو في حين انه الرجل ذاته . وهذه التغييرات تكون سريعة جداً في بعض الناس وكان نيليدوف من هذه الفئة نشأت فيه هذه التغييرات عن اسباب طبيعية ونفسانية فشعر بالظفر والابتهاج مما جدد فيه من الحياة بعد المحاكمة وبعد مقابلته الاولى لكاتيوشا اضمحل هذا الشعور وبعد المقابلة الاخرة حل التخوف محل الفرح فقد عزم على ان لا يتركها ولا يغير عزمه على الاقتران بها اذا ارادت ذلك ولكنه رأى الامر صعباً جداً . وفي اليوم الذي تلا زيارته لماسلنيكوف ذهب ثانية الى السجن ليراها وسمح له المفتش بمقابلتها في غرفة النساء ورغم لطفه مع نيليدوف اكثر من ذي قبل لانه تلقى امراً بحسن معاملته قال: لك ان تراها ولكن ارجوك ان تتذكر ما قلته لك من حيث النقود وقد كتب لي الحاكم عن نقلها الى المستشفى ووافق الطبيب على ذلك ولكنها أبت الذهاب لانها لا تريد ان تخدم قوماً اسافل . فلم يجبه نيليدوف بحرف بل طلب مقابلة ماسلوفا فقاده سجان الى غرفة النساء حيث كانت ماسلوفا وحدها فلما رأته تقدمت اليه ساكنة ذليلة وقالت له دون ان ترفع عينيها اغفر لي ياديمتري ايفانيتش فاني فهت بكلام بذيء اول امس . فقال لا بل أنت اغفري لي . قالت مهما كان الامر يجب عليك ان تتركني ورمقته بعينيها النجلاوين ، فقال لماذا اتركك . قالت بغضب يجب عليك ان تتركني وتنساني بتاتاً وارتجفت شفتاها وصمتت هنيهة ثم قالت « هو الحق » والشنق خير لي من الاقتران بك . فشعر نيليدوف من هذا الرفض بحقدها عليه وعدم غفرانها له ولكنه شعر ان وراء ذلك امراً آيلاً الى الخير واصرارها على الرفض هذه المرة كان يسكون وتأني الامر الذي ازاح جميع الشكوك والاوهام من مخيلة نيليدوف واعاد اليه روح الظفر والابتهاج التي نشأت فيه قبلاً من علاقته بكاتيوشا . فقال

ياكاتيوشا انما قلته اعيده ولا اتحول عنه فانى اريد الاقتران بك وان رفضت طلبي ساتبعك الى حيث تذهبين فقالت : « على هواك » وانا لا اقول غير ما قلته ولا اتحول عن عزمي فقال : انى ذاهب الآن الى اراضيّ ثم الى بطرسبرج وسابذل جهدي لاعادة النظر فى قضيتك بل قضيتنا واذا شاء المولى نقض الحكم . فقالت : على حد سوا لانى عزمت على الابتعاد ان لم يكن بهذا الوجه فبوجه آخر . وكانت تغالب انسكاب عبراتها . ثم قالت وهل رأيت ان منشوف بريّ حقيقة وارادت بهذا السؤال احصاء ما خامرها من التأثر . قال نعم وقص عليها كل ما جرى . ثم سألها ما رأيك فى امر المستشفى . فقالت وهي تحدق به . ساذهب الى المستشفى اذا شئت ذلك واعدك بانى لا اشرب المسكر فيما بعد . فنظر نيليدوف الى عينيها وقرأ فيهما الصدق وقال حسناً تفعلين ولم يفه بغير هاتين الكلمتين واستأذن بالانصراف . وبينما هو سائر قال في نفسه نعم قد اصبحت مخلوقة جديدة . وبعد كل الشكوك السابقة شعر الآن بشيء لم يشعر به قط قبلا وهو مناعة الحب واستحالة قهره

وحين عادت ماسلوفا الى غرفتها بعد هذه المقابلة خلعت رداءها والقت نفسها على السرير . فاقترنت امرأة فلاديمير بطفلها وزوجة الحفير من ماسلوفا وسألتاها عما جرى بينها وبين نيليدوف . ولكنها لبثت صامتة . فقالت لها امرأة الحفير هنيئاً لك . فلم تجب وفى تلك اللحظة دخلت تيوديزيا رسألتها ما الخبر ؟ فلم تبدي جواباً . فقالت كورابليوفا لما الرعل هل غير فكره بشأن الزواج ؟

فقالت ماسلوفا . كلا لم يغير فكره ولكنى رفضت طلبه . فقالت كورابليوفا ما احمقك ياجاهلة . فقالت تيوديزيا ما الفائدة من الزواج اذا لم يعش الزوجان سوية ، فقالت زوجة الحفير ها زوجك ذاهب معك . فقالت تيوديزيا نعم ولكننا متزوجان وأما نيليدوف فما الذى يدفعه الى الاقتران بفتاة لايريد ان يعيش معها فقالت كورابليوفا انك حمقاء نظيرها الا تعلمين انها ترفل بحلل المجد اذا اقترنت به . قالت ماسلوفا هو يقول انه سيتبعني الى حيث يسوقونني فاذا اتم قوله كان حسناً وادا لم يتمه كان حسناً أيضاً . وانا لا اسأله ان يتبعنى وهو ذاهب الآن الى بطرسبرج لاعادة النظر في القضية وله علاقة بجميع الوزراء هناك ولكن ذلك لايهمنى وانا لا حاجة بى اليه .

فقالت كورابليوفا وهي تبحث فى صرة ثيابها : نعم قد خطر لها خاطر جديد ثم سألت ماسلوفا شرب شيء من الفودكا فقالت لها ماسلوفا اشربى انت أما انا فلا

﴿ تم الكتاب الاول ﴾

رواية

البشير

تأليف

الفيلسوف الروسي الشهير الكونت لاون تولستوي

الطبعة الخامسة عشرة المنقحة

بقلم الكاتب المجيد رشيد افندي الحداد

طبعت على نفقة

ابراهيم وهبي

صاحب المكتبة الشرقية بمصر

(ثمن الجزء ثمانية عروش صاغ)

(حقوق الطبع محفوظة للمكتبة)

طبع بالمطبعة التجارية بشارع وجه البركه بمصر

﴿ ١ ﴾

كان الراجح ان تنظر قضية ماسلوفا في مجلس الشيوخ واراد نيليدوف ان يكون في بطرسبرج حينذاك وان يعرض الامر على جلالة القيصر اذا لم يعتبر المجلس المذكور الاستئناف كما اشار عليه المحامي . وقد عرف انه يقتضي له وقت لا تمام العمل وان سفر ماسلوفا سيكون في اوائل يونيو وحتى يتمكن من اللحاق بها الى سيبيريا رأى من الضرورة ان يزور اراضيه ويدبر الامور فيها فقصد اولاً المزارع القريبة الكائنة في مقاطعة كوسمنسكي وهي اخصب اراضيه التي تدرُّ له خيراً وافراً

وقد عاش نيليدوف فى تلك المقاطعة ايام طفوليته وايام صباه وبعد ان برح عنها لم يزرها الاّ مرتين وذهب اليها مرة بطلب والدته مع وكيل اشغاله الالماني وفحصا الحسابات فكان عالماً باحوال تلك المزارع . وكانت علاقة المزارعين بالمالك علاقة العبيد بالسيد وعرف نيليدوف ذلك حين كان تلميذ مدرسة عليا ودرس تعليم هنري جيورجايزم واذاعها. وعلى قاعدة هذه التعاليم وهب المزارعين الاراضي التي ورثها عن ابيه . ولكنه بعد ان خدم فى الجيش واخذ ينفق عشرين الف روبل فى العام لم يعد يعتبر تلك التعاليم بل نسيها ولم يكف فقط عن طلب معرفة مصدر المال الذي حولته اليه والدته بل كف عن التفكر في ذلك المال بالمرّة . ولكن موت والدته واستيلاءه على الميراث وضرورة تدبير الاملاك عادت فاثارت فيه مسألة ماهية مركزه تجاه الاستئثار بملك خاص . وقبل هذا التاريخ بشهر كان جواب نيليدوف لنفسه انه لا يقوى على تغيير النظام الحالي لانه لم يكن يدير املاكه ومزارعه وكان ضميره مرتاحاً الى

بقائه بعيداً عنها وان يرسل اليه المال منها دون ان يتعب او يشقى . اما الآن فقد رأى الواجب عليه تغيير ذلك النظام ولو عاد عليه بالخسارة مع علمه بعلاقته بامر السجون وما تتطلب هذه العلاقة من النفقات الباهظة وخصوصاً مسالة سفره الى سيبيريا ولذلك قرر ان لا يحرث الارض بل يؤجرها للمزارعين باجور قليلة ويجعلهم يشتغلونها احراراً . وقد قابل اكثر من مرة علاقة الملاك بالاراضي بعلاقة السادة بالعبيد في الزمن الماضي وحسب تأجير الاراضي للفلاحين بدلا من حرثها باجور معلومة كاستحصال السادة على المال من عمل العبيد . ومع ان حرث الاراضي بالاجور لم يكن حلا تاماً لكل شكلة فقد حسبه الخطوة الاولى فى تخفيف الاستبداد وعزم على اتخاذ هذه القاعدة لاعماله

وقد بلغ كوسمنسكي عند الظهر ولما كان يريد ان يعيش عيشة بسيطة من كل وجه لم يرسل اشارة تلغرافية بل استأجر عربة فى المحطة . وكان الحوذي فتى حقيراً فسر بحادثة سيد جليل خصوصاً لان هذه الحادثة سمحت للحصانين الهزيلين ان يسيرا على مهل . فاخذ الحوذي يتكلم عن وكيل املاك كوسمنسكي دون ان يعلم انه يكلم المالك ولم يعلمه نيليدوف بنفسه قصداً . فقال ان هذا الالماني المندفع فى الشهوات والمحب للزهو والبذخ قد احرز ثلاثة خلجان بما يكتنفها من الاراضي الخصبة وحين يركب العربة مع زوجته تشخص اليه الابصار ويمثل منتهى المجد والابهة ومرة اركبت بعض الزائرين الى منزله فبهرت عيني الانوار الكهربائية ودهشت مما نظرت وليس في كل المقاطعة ما يماثل ذلك المنزل في الفخامة والاتقان فقد احرز هذا الرجل مالاً وفيراً دون حق ، وجميع الزارعين يشكون منه سراً ويخشون اظهار شكواهم وقد علمت انه سيبتاع لنفسه مزرعة واسعة خصبة

فلم يرق نيليدوف كلام السائق ولم ينبس ببنت شفة وقد ابهجه جمال النهار فكان الضباب الكثيف القاتم يخيم على الشمس تارة وينقشع أخرى والفلاحون منتشرون في الحقول يبذرون الحبوب والمروج الخضراء ترفرف فوقها القنابر وتغرد الطيور والاشجار كسيت اغصانها بالخضرة والمواشي ترعى الاعشاب المغطية الارض والحقول البعيدة محروثة ومهيأة فكان يجيل بنظره طرباً مسروراً منشرح الصدر من تلك المناظر البهيجة المنعشة ولكن كان يتخلل هذا السرور همٌّ وانقباض مما سمعه من الحوذي عن وكيل املاكه الالماني ولما وصل الى محل اشغاله وبداء في العمل برحته تلك الافكار المقلقة

وبعد فحص الدفاتر ومحادثة الوكيل عزم نيليدوف عزماً وطيداً على ان يكف عن حرث الارض وزراعتها وان يعطيها للفلاحين

وعرف من الدفاتر والحديث ان ثلثي الارض المزروعة يحرثها فعلة لهم اجور معينة بآلات حديثة وان الثلث يحرثه الفلاحون الذين يأخذون خمسة روبلات عن كل دسياتين (١)

وذلك ان الفلاحين كان عليهم ان يحرثوا الارض ثلاث مرات ويبذروا الحبوب ويحصدوا الزرع ويجمعوه الى البيدر بخمسة روبلات مع ان اجرة هذا العمل تبلغ على الاقل عشرة روبلات وكل ما كان يأخذه الفلاحون من النظارة كانوا يدفعون عنه ثمناً باهظاً بعملهم وكان اكثرهم مديوناً للادارة وقد عرف نيليدوف كل ذلك قبلاً ولكنه نظر اليه الآن بنظر جديد وعجب كيف انه هو وغيره من امثاله يرتاحون الى مرأى هذا الغبن الفاحش والبراهين التي قدمها الوكيل مثبتاً فيها ان اعطاء الارض

(١) الدسياتين مساحة من الارض تبلغ فدانين وثلاثة ارباع الفدان

تغيير النظام الحالي لا بد لم يعن بعد

للفلاحين يتلف الآلات الزراعية حتى لا تعود تساوي ربع ثمنها وتتلف الارض وتوقع الخسائر عليه كل ذلك لم يزده الا تمسكاً بمبدأه ورأى نفسه يفعل خيراً عظيماً بما يهب وبما يخسر وقرر ان يتم العمل على الفور وترك للوكيل بيع الآلات والابنية التي لا فائدة منها وطلب منه ان يدعو مزارعي الثلاث قرى الواقعة في وسط مقاطعة كوسمنسكي الى جلسة يبلغهم فيها قصده ويتفق معهم على طريقة الايجار

وترك محل الادارة بشعور بهجة وانشراح من ثباته في وجه الوكيل ومن استعداده لتضحية شيء من ماله واخذ يجيل في فكره المشروع الذي وطد نفسه على القيام به في غرف المنزل أو في حديقة الزهور المهملة . وبعد ان استعد للخطابة التي اراد القاءها على الفلاحين عاد الى مخاطبة الوكيل . وبعد شرب الشاي قصد الغرفة المعدة له وكان معهُ ثلاثة كتب تبحث في القوانين الجنائية احدها روسي والثاني الماني والثالث انكليزي اراد درسها اثناء تجوله في اراضيه ولكنه لم يكن له وقت للمطالعة حينذاك فاستلقى على السرير لينام ويستريح ويبكّر لمقابلة الفلاحين

ودهمته افكار متناقضة متباينة وهو مستلق فكان تارة ينبذ مبدأه ويقول انه ليس من الصواب تنازلي عن املاكي بل يجب ان افكر في المستقبل فسمع صوت هاتف يقول له : بل يجب عليك ان تجرد نفسك من ارض يشتغلها غيرك وانت ذاهب الى سيبريا . وسمع صوتاً آخر يقول : انك لن تقضي حياتك هناك بل ستعود وتتزوج وترزق اولاداً يجب عليك ان تسلمهم الارض كما استلمتها . ثم اخذ يسأل نفسه ما اذا كان ضميره هو الذي يدفعه الى العمل الذي وطدّ نفسه على القيام به او أن ما سيفعله يريد به التظاهر

وكسب الشهرة وفكر ايضاً فيما يقوله الناس عنه . وكان كلما فكر بمسألة ولدت له مسائل وزادت اشكالاً فاغمض عينيه لينام ويبعد عنه هذه الهواجس ويصبح بفكر رائق ليحل هذه المسألة المعقدة ولكن الارق تغلب عليه وكان الهواء منعشاً وضوء القمر داخلا من النافذة والضفادع تنق والبلابل تغرد في الحديقة فانتقل فكره حالا الى ماسلوفا وكيف ارتجفت شفتاها كنق الضفادع حين قالت له يجب عليك ان تتحول عن عزمك وتكف عن الاقتران بي لانك امير وانا مجرمة . فقال لا ـ لا اتحول عن عزمي سواء كنت مخطئاً او مصيباً وليقل عني الناس ما يشاؤن ثم اغمض عينيه ووقع في سبات عميق

٢

نهض نيليدوف في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي حيث وقف لخدمته كاتب المكتب واخبره ان الفلاحين في انتظاره فلبس نيليدوف ثيابه وجمع افكاره وازال القلق الذي كان مستحوذا عليه امس ونظر الى مشروعه بفرح وارتياح لا بل بعزّ وفخر

واطل من النافذة عدت مرات ينظر الى الفلاحين المتجمعين على الاعشاب الخضراء المحاذية للحديقة فكانوا يأتون الواحد بعد الاخر ويرفعون قبعاتهم وينحنون بعضهم لبعض احتراماً ثم وقفوا بشكل دائرة متكئين على عصيهم يتحدثون . حينئذ جاء الوكيل بلباسه المتقن الى نيليدوف وقال له : ان الفلاحين قد اجتمعوا وعليهم ان ينتظروا حتى تنتهي من شرب الشاي

فقال نيليدوف : لا بل ساواجههم على الفور . ومع انه كان يقصد لهم الخير الذي ما كانوا يحلمون بالحصول عليه فقد كان خجلا من نفسه يفكر بالخطاب

الذي سيلقيه عليهم والحديث الذي سيحدثهم به . ولما خرج وقابل اولئك المحتشدين الذين كشفوا رؤوسهم فظهرت الشعور الشقراء والحمراء والمجعدة والجماجم الصلعاء تغلب عليه الحياء حتى لم يقوَ على الكلام . وكان المطر يتساقط خفيفاً على تلك الشعور واللحى والاردية والفلاحون يحدقون برب الارض وينتظرون سماع حديثه ولكنه بلغ درجة من الخجل اوقفته عن التكلم . ولكن هذا السكوت ابطله الوكيل الالماني المتعظم الذي كان يعد نفسه قاضياً متشرعاً بين فلاحي الروس . وكان يتكلم الروسية جيداً فقال ان الامير يريد ان ينعم عليكم بنعمة كبيرة وان يهبكم الارض ولكنكم لا تستحقونها

فاجابه رجل احمر الشعر كثير الكلام كيف لا نستحقها ياوسيلي كلين السنا جميعنا مسخرين لك وقد كنا مرتضين من الاميرة الجليلة التي رحلت الى دار البقاء اغدق الله عليها وافر رحمته واجزل اجرها واكرم مثواها والامير الشاب لايهمل امرنا الان وانا نقدم له وافر الشكر وعاطر الثناء

وقال اخر عريض الكتفين انا لانشكو من مولانا الامير في شيء والذي نشكو منه الحاجة الى الارض فالذي نمتلكه منها ليس فيه الكفاف

فقال نيليدوف : نعم وهذا الذي دعوتكم من اجله فساهبكم الارض باكملها اذا شئتم . فلم يجبه احد كانهم لم يفهموا كلامه او انهم لم يصدقوه

فقال رجل متوسط في العمر : هب انا اخذنا الارض وما الذي تطلبونه منا ؟

فقال نيليدوف : اني اريد ان اهبكم الارض لتشتغلوها بمقابل زهيد

فقال رجل شيخ : انه لامر موافق جداً . وقال اخر فقط اذا كان الريع الذي تطلبه لا يثقلنا بل نقوى على دفعه . ثم علت الاصوات فقال بعضهم

لا يوجد سبب يمنعنا عن اداء الريع . وقال البعض : انا نشأنا على حرث الارض وقال اخرون ان هذه الطريقة اوفق لك و اهدأ لبالك اذ لا يكون عليك الا استلام الريع ولكن الان انظر الى الشر و النكد السائدين

فقال الوكيل الالماني : ان الشر كله منكم فلو اتممتم اعمالكم وكانت منتظمة و.. فقاطعه رجل مسن وقح وقال : ان ذلك يستحيل على امثالنا فانت تقول لماذا سمحت للحصان بان يدخل الى الزرع كأني انا الذي ادخلته فقد كنت احصد بمنجلي النهار بطوله حتى خيل لي النهار اطول من عام فغلب علي النوم وانا احرس الخيل فدخل واحد منها الى زرعك فامرت بجلدي في الحال

فاجابه الوكيل : يجب عليك ان تسكت ولا تقلق الراحة

فقال رجل طويل القامة اسود الشعر : يهون عليك ان تتكلم عن الراحة ونحن لا يهون علينا بل لا نقوى على احتمال الجور

فقال الوكيل: ألم اقل لكم ان تبنوا سياجاً ؟

فقال فلاح قصير القامة طاق الوجه : اعطنا الخشب حتى نبني لك السياج فقد كنت عازماً على بناء سياج في العام الماضي وقطعت شجيرة صغيرة فسخطت علي وغضبت وزمجرت وارعدت وابرقت وقيدتني بالسلاسل وطرحتني في ظلمات السجن ثلاثة شهور وهكذا كان ختام ذاك السياج

فتحول نيليدوف نحو الوكيل وقال : عن اي شيء يتكلم هذا الرجل ؟

فاجابه الوكيل بالالمانية : هذا اشهر لص في القرية وفي كل عام يقبض عليه متلبساً بسرقة الاخشاب من الغابة ثم تحول نحو الفلاح وقال يجب عليك احترام ملك غيرك

فقال رجل شيخ : لماذا ؟ الا نحترمك؟ انا مرغمون على احترامك

ويمكنك ان توثقنا جميعاً بالحبال وتنزل علينا بالسياط

فقال الوكيل : يستحيل ان افعل باحدكم ذلك بل انكم انتم متأهبون على الدوام لتفعلوا بنا هذا الفعل

فقال الشيخ : احقٌّ ما تقول ؟ ألم تشج لي رأسي ولم احصل على شيء مقابل ذلك ولا فائدة لي من الذهاب الى المحاكم اذا كان خصمي غنياً

فقال الوكيل : يجب عليكم ان تطيعوا القانون

فصرخ الجميع بصوت واحد لا ريب . وشف صراخهم عن تذمر ومرارة كان الخوف يمنعهم من اظهارهما مع ان خصمهم المذنب ظهر بمظهر الابهة والقوة والبطش فشق على نيليدوف الاصغاء الى ما كان دائراً من الحديث فعاد الى مسألة الهبة وتقرير المبلغ الذي يدفع عن الاراضي

فقال كفانا الآن وما الذي تقولونه عن الارض ؟ هل ترغبون اخذها وما هو المال الذي توافقون على ادائه اذا منحتكم اياها

فقالوا الارض ملكك وانت الذي تقرر الثمن

فعين نيليدوف مبلغاً زهيداً يساوي نصف قيمة الارض تقريباً . فلم يرضهم ذلك واخذوا يساومون كما هي عادتهم . وظن نيليدوف ان هبته تقبل بسرور وانشراح ولكنه لم يبد اثر للسرور على وجوههم . ولكن امراً واحداً دل نيليدوف على شعور الفلاحين بفائدة صنيعه معهم وهو قيام النزاع بينهم على من يتكلف دفع الايجار هل انه يوزع على الجميع او يخص بلجنة منهم . ذلك لان فيهم اناساً كسالى واناساً يماطلون ارادوا اخراجهم من دائرتهم واخيراً توصل الوكيل الى حل المشكل وتقرير الثمن حسب رغبة نيليدوف وانصرف الفلاحون الى قراهم وعاد نيليدوف والوكيل الى المكتب ليكتبوا صورة الاتفاق

فاعطيت الارض للفلاحين بنقص ثلاثين فى المائة عما كانت تعطى لهم واسقط نيليدوف من ايراده النصف ولكنه رأى هذا النصف يفوق حاجته خصوصاً لانه اراد بيع احد الاحراج والآلات الزراعية واتم بعمله هذا ما كانت تتوق اليه نفسه ومع ذلك فقد شعر بخجل تولاه لما بدا على الفلاحين من دلائل عدم الرضى فانهم معما فاهوا به من الفاظ الشكر والثناء كانوا ينتظرون الزيادة ومما يدل على طمع الانسان ان هذا المحسن جرّد نفسه من شيء كثير ومع ذلك لم يحقق آمال الفلاحين

وفى اليوم التالي وقع على الموافقة وركب العربة قاصداً المحطة فشيعه عدد من الرجال انتدبوا عن سكان تلك المقاطعة وكان قلقاً دون ان يعرف السبب

٣

ذهب نيليدوف من كوسمنكي الى المقاطعة التي ورثها عن عمتيه والتي قابل فيها كاتيوشا الاول مرة واراد ان يفعل بالارض هناك كما فعل فى كوسمنسكي وعدا ذلك اراد ان يجمع ما امكنه من الاستعلامات عن كاتيوشا وعن ولدها وهل مات حقيقة وكيف كان ذلك

فبلغ بانوفو باكراً وفيما هو راكب عربة كان اول ما استلفت نظره الخراب المستحوذ على جميع المنازل وخصوصاً محل الادارة فكانت التوتيا مصدية وبعض الالواح مقتلعة والحيطان متهدمة والخراب شامل اكثر المنازل حتى منزل الوكيل . ولكن الحديقة كانت يانعة نضرة لم يبدُ عليها اثر للخراب فكانت اشجار التفاح والرمان والكمثرى مثقلة بالاثمار وزهر العوسج تفوح رائحته عن بُعدٍ فتذكر نيليدوف منذ زمناً مضى اثنتي عشرة سنة كان يلعب فيه مع كاتيوشا وكانت اذ ذاك في السادسة عشرة وتذكر سقوطه في ذاك الحين

في العوسج وغرز الشوك في كفيه . ونظر شجرة الشربين التي غرستها عمته صوفيا صغيرة اصبحت شجرة كبيرة تظلل باغصانها ما حولها وشاهد مياه النهر تجري والمروج التي تنساب فيها المياه مكتظة بقطعان المواشي ترعى واول من وقع نظره عليه هو الوكيل فقابله هذا متبسماً وسأله الدخول الى المكتب

وجلس نيليدوف ينظر الى الحديقة ويصغي الى ما حوله . فهب نسيم عليل يحمل رائحة الارض المحروثة حديثاً ولعب بشعر رأسه وبالاوراق الموضوعة امامه . وكانت النساء يغسلن الثياب على ضفة النهر وضجيجهن يملاء الفضاء وصوت هدير المياه المتساقطة كشلال من الطاحون ينقله الهواء الى تلك الناحية فتذكر نيليدوف ايام صباه اذ كان خالي الذهن ينظر الى هذه الاشياء بقلب طاهر نقي لا يعرف الغش ولا يألف الرذيلة وعند هذه الافكار المؤلمة استفاق كانه فى حلم وشعر بانقباض وحزن شديدين

وفي تلك الدقيقة سمع صوت الوكيل يدعوه الى مناولة الطعام . فاجابه . اني لست جائعا الآن لن اريد التجول في القرية قليلا فهل يوجد بين السكان امرأة اسمها ماتريونا هارينا « وهي عمة كاتيوشا »

قال : نعم هى فى القرية وتبع في بيتها الخمر سرا وقد نهيتها مراراً ونبهتها فلم ترتدع ولم ارد طردها لانها عجوز ولها حفدة . وكان يتبسم وهو يتكلم لزعمه ان مولاه ينظر الى هذه الامور كما ينظر اليها هو

فقال نيليدوف : واين تسكن هذه المرأة فاني ارغب زيارتها

قال : تسكن في طرف القرية فاذا اردت ان اصحبك الى مكانها فانا مستعد لذلك

اجاب نيليدوف : لا لزوم لذلك فانى ساهتدى اليه والذى ارجوه منك ان تدعو الفلاحين وتخبرهم انى سأتكلم معهم بشأن الاراضي التي يحرثونها

وقد اراد ان يعاملهم كما عامل فلاحي كوسمنسكي وان يتم الامر في المساء ان امكن

﴿ ٤ ﴾

عندما خرج نيليدوف من الباب التقى بفتاة حاملة ديكاً وضاغطة عليه وكان هادئا ساكنا يمد رجليه ويغرز اظافره في مئزرها وحين اقتربت منه ابطأت السير وانحنت له احتراما . وبينما كان سائراً نحو البئر قابل امرأة عجوزاً بمئزر وسخ تحمل انائين مملوئين ماء معلقين بحبل على ظهرها فلما نظرته انزلتهما في الحال وفعلت فعل الفتاة

وبعد ان جاوز البئر دخل القرية وكان الجوّ صافيا والهواء حاراً وكانت الساعة العاشرة اذ ذاك ورائحة الاسبخة متصاعدة ومالئة الهواء والفلاحون حفاة والبستهم قذرة يقفون عن عملهم ويحولون انظارهم نحو سيد طويل القامة يرتدي الخز والديباج وبيده عصا قبضتها مذهبة لامعة براقة والذين كانوا عائدين من الحقول على عربات النقل رفعوا قبعاتهم ورمقوه بعيون بدت عليها الدهشة والاستغراب وخرجت النساء من المنازل والاكواخ ووقفن على الابواب يشرن اليه ويحدقن فيه . وحين جاوز نيليدوف الباب الرابع اوقفته عربة نقل مثقلة بالسباخ ومغطاة بحصيرة ليجلس عليها سائقها وهو شيخ حافي القدمين لابس قميصاً ولباساً قذرين فلما نظر نيليدوف نزل عن العربة وانحنى امامه بوقار وقال له : انت ابن اخ سيدتنا فقد تفضلت واتيت لترانا أليس كذلك

قال : نعم وكيف حالكم

اجاب : إنا في اسوأ حال

قال : ولماذا ؟ اخبرني ثم قفز الى داخل الباب

فقال الرجل : ما هي عيشتنا ونحن لا نرى سوى الشقآء والبؤس فهذا البيت الحقير تنضمّ تحت سقفه اثنتا عشرة نفساً ولا يمضي علينا شهر الاّ واضطرّ الى ابتياع ست بودات (١) من الذره ومن أين آتي بالمال ؟

فقال نيليدوف : هل تزرع مقداراً كافياً من الذره لنفسك ؟

فتبسم الرجل تبسم سخرية وقال : لنفسي ؟ ياللعجب ؟ فما امتلك من الارض يكفي ثلاثة اشخاص فقط وفي العام الماضي لم يأتِ عيد الميلاد وعندنا شيءٌ من المؤونة

ـ وماذا تفعلون بعد ذلك ؟

ـ ماذا نفعل ؟ قد ارسلت ولداً يشتغل بالاجرة واستلفت مبلغاً من سيادتكم انفقناه كله قبل الصوم والرسوم لم تدفع حتى الآن

ـ وكم هي الرسوم ؟

ـ سبعة عشر روبلاً . ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال : ما اتعس حياتنا وما اشقاها ايها المولى لا يعرف احد حالة الآخر ولا كيف يعيش

ـ هل تسمح لي ان ادخل كوخك هذا

ـ لِمَ لا ؟ ادخل وخطا امامه بقدميه الحافيتين على الزبل المرن وفتح له الباب

وعقدت النسآء المناديل على رؤوسهن وارخين اطراف أثوابهنّ ووقفن يحدقنَ بدهشة في ذاك السري الرافل بفاخر الثياب الداخل الى منزلهنّ الحقير . وكان بينهنّ فتاتان صغيرتان ليس عليهما سوى قميصين ذعرتا من مرأى ذاك الرجل الذي لم تنظرا نظيره في حياتهما فرفع نيليدوف قبعته

(١) البود ٣٦ رطلاً فيكون المجموع ٢١٦

ودخل فوجد في ذاك الكوخ ركاماً من الاوساخ والاقذار والروائح النتنة القتالة تملأه ولا منفذ لها ونولان بشغلان قسماً كبيراً منه وامرأة عجوز واقفة عند الموقد وكاشفة ذراعيها الضئيلين

فقال الرجل الشيخ : ها هو مولانا آت ليرانا

فقالت العجوز : مرحباً به وارخت كميها لتغطي ذراعيها

فقال نيليدوف : اردت ان ارى كيف تعيشون

فقالت العجوز : نعيش كما ترى فالكوخ اوشك ان يسقط وربما قتل احداً في أحد الايام ولكن رجلي الشيخ يقول انه متين وها قد اعددت الطعام وساذهب لاغدي الفعلة

فقال نيليدوف : وما هو الطعام الذي اعددتيه ؟

قالت متهكمة : طعام جيد جداً فالصنف الاول هو خبز وكواس (١) والصنف الثاني كواس وخبز واسفرت في كلامها عن اسنان سوداء بالية نخرها السوس

فقال نيليدوف : لا لا اصدق ـ ارينى ما الذي ستأكلونه

فقال الشيخ ضاحكا : ما سنأكل ؟ اريه يا امرأة طعامنا

فهزت العجوز رأسها وقالت : اتريد ان ترى طعام الفلاحين المساكين ؟ انك كثير السؤال وتريد ان تعرف كل شئ ألم اقل لك خبز وكواس وفي بعض الاحيان نزيد عليه قليلاً من البطاطس

فقال نيليدوف : أهذا كل ما تأكلون

قالت : وماذا تريد اكثر من ذلك ؟ سنشرب قليلاً من اللبن

---

(١) مشروب حامض غير مختمر يصنع من الذره

ونظرت الى الباب ضاحكة حيث كان جمهور من النسآء والاولاد محتشدين ليروا السيد الغريب الذي اراد ان ينظر طعام الفلاحين فظهرت كأنها تفتخر بين قومها بكيفية سلوكها مع سيد نبيل

وقال زوجها الشيخ : نعم ان حياتنا تعيسة للغاية ولا يقدّر احد التعاسة التي نحن فيها يامولاي

فنهض نيليدوف وودعهم وشعر بخجل وانقباض عظيمين . فشكره الشيخ على تنازله ودخوله منزله الحقير والنصق المتجمعون بعضهم ببعض ليفتحوا طريقاً لنيليدوف . فخرج وواصل السير في الشارع فتبعه صبيان حافيان يلبس كبيرهما قميصاً كان ابيض في احد الايام فالتفت نيليدوف الى ورائه وابصرهما فسأله الكبير عن المحل الذي يقصده . فقال : اقصد محل ماتريونا هارينا فهل تعرفه ؟

قال : اي ماتريونا تعني هل هي عجوز ؟ قال نعم . قال هي في الطرف الثاني من القرية ونحن نرشدك اليه ثم التفت الى رفيقه وقال : هيا يافيدكا لنريه البيت وهكذا سار الثلاثة صعوداً في ذلك الطريق

وشعر نيليدوف بارتياح الى محادثة الصغار اكثر من ارتياحه الى محادثة الكبار فبدأ بالحديث معهما اثناء السير فقال :

ـ هل يمكنكما ان تقولا لي من هم افقر الناس هنا ؟

فاجابه الكبير : الافقر ميخائيل وكذلك سيمون ماكاروف ومرتا افقر من الجميع

فعارضه الصغير قائلاً : وهل نسيت انيسيا فهي افقر اهل القرية وليس عندها حتى ولا بقرة واحدة وهي تدور تتسول مع اولادها

فقال الكبير : نعم ليس لها بقرة ولكنهم ثلاثة في البيت لا غير أما بيت مرتا فيتألف من خمسة اشخاص

فقال الصغير : ولكن انيسيا ارملة . اجابه الكبير : ولكن مرتا لاتفرق عن الارملة وزوجها ليس معها

فقال نيليدوف : وأين زوجها اذن ؟

فاجابه الكبير : انه مطروح في السجن لسبب تافه لانه منذ عام قطع شجرتين من غابة رب الارض فقبض عليه وطرح في السجن . وقد مضى عليه ستة اشهر الآن والمرأة تدور تستعطي ولها ثلاثة اولاد ووالدة مريضة

فسأله نيليدوف . أين تسكن هذه المرأة ؟

فاشار الى كوخ قريب منهم وقال له : تسكن في هذا البيت . فابصر نيليدوف على بابه ولداً نحيلاً لاتكاد ساقاه تحملانه لضعفه واذا بامرأة لابسة ثياباً قذرة بالية خرجت من الكوخ ونادت باسكا ؟ أين ذهب الطفل الخليع ؟ ثم اسرعت مرعوبة وحملت الطفل وعادت به الى الكوخ كأنها خشيت ان يلحقه اذى من نيليدوف وهذه هي المرأة التي سجن زوجها من اجل شجرتي نيليدوف

ولما اقتربوا من بيت ماتريونا قال نيليدوف وهل هذه المرأة فقيرة أيضاً ؟

فاجابه الصغير : كلاً بل هي تبيع الخمور

ولما وصلوا البيت ترك نيليدوف الولدين خارجاً ودخل الكوخ وكان طوله اربعة عشر قدماً وفيه سرير صغير وراء المستوقد لايكفي لمد الرجلين فظن نيليدوف ان كاتيوشا وضعت طفلها على هذا السرير وانه كان فراش مرضها بعد ذلك. واشغل القسم الاكبر من هذا الكوخ نول كانت

العجوز وحفيدتها الكبرى تضعان السداة عليه حين دخل نيليدوف وتبعه ولدان حفيدا العجوز ووقفا على الباب عند ما ابصراه

فصاحت العجوز حين رأته غاضبة : من تريد ؟ فانها كانت تخشى دخول كل غريب عليها لانها كانت تتجر بتجارة محرّمة

فقال نيليدوف : انا مالك هذه الاراضي واروم ان اكلمك فصمتت العجوز وتغيرت فيه وتغير وجهها للحال . ثم قالت آه أانت هو يا أعزّ عزيز ؟ حقيقة اني رعناء فقد ظننتك عابر سبيل فسامحني ولا تؤاخذني

فقال نيليدوف اريد ان اكلمك على حدة . فقالت انتظرني قليلاً : فصرفت الولدان واقفلت الباب ثم جلست بجانبه وقالت : كنت اقول من هذا وهو المولى بذاته جوهرتي وذخيرتي . افتكري ياما تريونا كيف تنازل ودخل هذا المكان وكنت حسبته شيطاناً داخلاً علينا .. وهو انت المولى الطيب المحسن الينا .. سامحني ما كان احمقني اصبحت كفيفة البصر

فجلس نيليدوف ووقفت العجوز بازائه مسندة خدها الى يدها وبدأت تتكلم بصوت رخيم فقالت : قد كبرت يارجائي وكنت اعهدك رشيقاً ولكنك لا تزال تهتم بنا كما كنت قبلا

فقال : هذا ما اتيت لاجله فاخبريني هل تتذكرين كاتيوشا ماسلوفا ؟

فقالت : كيف لا اتذكرها وهي ابنة اخي فكم ذرفت من الدموع لاجلها . انا عالمة بكل شيء آه ياسيدي من الذي لم يخطيء أمام الله ؟ ومن لم يخالف وصايا القيصر ؟ نحن نعرف ما هو الشباب فقد كنت تشرب الفودكا وتغلب عليك الشيطان وهو قوي في بعض الاحيان فماذا نفعل ؟ واذا كنت قد اذيتها فقد كافئتها بماية روبل . وهي ماذا فعلت؟ سلكت طريق

الغواية ولو انها اصغت اليَّ لعاشت احسن عيشة فانا اقول الحق ولو كانت ابنة اخي فهي ابنة شريرة فقد وجدت لها محلاً مناسباً ولم تسلك سلوكاً حسناً بل اغضبت سيدها وهل يليق بمثلنا ان نغضب النبلاء ؟

فقال نيليدوف : اريد ان اعرف شيئاً عن الطفل فقد علمت انها وضعته في منزلك فماذا جرى له ؟

فقالت قد اعتنيت بالطفل تمام الاعتناء لانها سقطت في مرض شديد لم ارج لها البرء منه فنصرته وارسلته الى ملجأ اللقطاء وكان معي من النقود ما يقوم بالنفقة

فقال نيليدوف : هل اخذت نمرة تسجيله من ملجأ اللقطاء ؟

قالت : نعم ولكن الطفل مات بعد ان اوصلته الى الملجأ

قال : وهل كان الطفل جميلاً ؟

قالت لا يمكنك ان تجد اجمل منه فهو يمثل صورتك أتم تمثيل

قال : لماذا اعتلَّ أكان الطعام رديئاً

قالت : دون شك لان المرأة التي اوصلته الى الملجأ والمكلفة بأمر اللقطاء غريبة وهل يؤمل من امرأة غريبة ان تعول طفلاً كما تعوله والدته فتلك المرأة لم تقدم الى الطفل من الغذاء الاَّ ما ابقى له الرمق ولما مات أتت بشهادة رسمية تثبت موته وهذا كل ما امكن نيليدوف ان يعرفه عن الطفل

« ٥ »

خرج نيليدوف من ذلك الكوخ الى الشارع فوجد الولدين اللذين ارشداه ينتظرانه وحولهما جمع من الناس وكان بين النساء اللواتي يحمل

اكثرهنّ اطفالاً المرأة الهزيلة التي كانت على باب كوخ ماتريونا حاملة طفلاً لم يكن فيه اثر من الدم فكان كريشة في يدها يبتسم ابتسامة ألم فسأل نيليدوف الولدين عن هذه المرأة فقال له الاصغر هي انيسيا التي اخبرتك عنها . فتحول نحوها وقال لها كيف تعيشين ؟ فقالت : ادور استعطي واخذت تنتحب وشاركها الطفل في البكاء فاخرج نيليدوف من محفظته قطعة بعشرة روبلات وناولها اياها وبعد ان خطا بضع خطوات امسكت به امرأة اخرى حاملة طفلاً ثم اقتربت منه عجوز ثم صبية وسألنه المساعدة فاعطاهن الستين الروبل التي كانت في محفظته وعاد الى منزل الوكيل شديد الاسف والتأثر مما رأى وسمع

فاستقبل الوكيل نيليدوف بشاشة وابلغه مجيء الفلاحين الى الجلسة في المساء فشكره نيليدوف وذهب الى الحديقة ليروح النفس باستنشاق ريا الازهار البديعة وكان كل شيء ساكناً في بدء الامر ولكن بعد قليل سمعت ضوضاء بين الوكيل وامرأتين يبديان السخط فاصغى نيليدوف بجملته الى ما كان يقال فسمع احداهما تقول : قد فرغ صبري ماذا تريد ان تفعل اتسحب الصليب من عنقي (١) قلت لك ان البقرة لم تدخل الغيط الا منذ برهة وجيزة فلماذا تريد ان تبقيها عندك والاولاد ينتظرون لبنها

وسمع الوكيل يقول : ادفعي الغرامة اذن او اشتغلي لتفيها

فترك نيليدوف الحديقة وخرج فنظر امرأتين احداهما حامل قد اقتربت ساعة ولادتها وكان الوكيل واقفاً وواضعاً يديه في جيبه فلما ابصر نيليدوف تبسم واخرج فسأل نيليدوف ما الخبر ؟ فاجابه الوكيل : ان الفلاحين

(١) الذين ينصرون في روسيا يعلقون صليباناً في اعناقهم ويسمحون بانفسهم ولا يسمحون بها

اعتادوا ادخال بقرهم الى مروج المقاطعة وقد وجدت اليوم بقرتين لهاتين الامرأتين فحجزتهما وطلبت منهما ثلاثين كوبيكاً عن كل بقرة أو شغل يومين فادعتا ان لا مال عندهما وطلبتا رد البقرتين الواقفتين في الشمس تجأران ثم نظر الى نيليدوف كأنه يستشهده وقال : كم مرة اوصيتكم حين تعودون بقطانكم عند الظهر ان لاتحولوا اعينكم عنها

فقالت احداهما : ذهبت لارضع طفلي قليلاً ففرتا فهل كنت انتظر منك ان ترضعه قليلاً من ثديك او تحنّ اليه لا لعمري

فقال : ان جميع المروج قد تلفت فاذا لم اوقع العقاب عليكما وعلى كل من اهمل امر بهائمه لانجد تبناً فيما بعد

فصاحت المرأة الحامل : لا تتمادى في الشر الى هذا الحد فبقرتاي لم تمسا المرج قبل هذه المرة ثم اخذت تنتحب وتقول : هذه هي حالتي لا اجد لي راحة لا في الليل ولا في النهار فحماتي مريضة وزوجي سكير وعليّ ان اقوم بكل شيء فقد وهنت قوتي واصبحت اطلب الموت ولا أجده

فطلب نيليدوف من الوكيل ان يرد لهما البقرتين وعاد الى الحديقة ليبحث في مشروعه ولكنه لم يجد شيئاً اكثر مما رأى وسمع فقد وضح له كل شيء الآن وعجب من عدم توصل كل انسان الى ما توصل هو اليه ومن اغفاله هو نفسه حتى الآن مثل هذا الامر الجلي الواضح فقد اصبح الشعب مائتاً واستخدم للشره المؤدي الى الاضمحلال فتطبع بطبائع تلائم هذه الحال فالوفيات كثيرة بين الاطفال والعمل شاق على النساء ومهلك للرجال والغذاء اقل مما تتطلبه الحياة خصوصاً غذاء الشيوخ وهكذا تدرج الشعب في سبيل التقهقر والانحطاط حتى لم يعُدْ يدرك مقدار الشقاء الذي هو فيه

فلم يشك ولم يتذمر . وقد ثبت له ان الاولاد والشيوخ يموتون لعدم وجود اللبن وان اللبن غير موجود لعدم وجود المرعى ولعدم وجود اراضي ينمون عليها الحبوب ويستحصلون على التبن . وثبت له أيضاً ن السبب الاكبر لهذا الشقاء ناشئ عن حصر الاراضي التي نفقتهم في ايدي الافراد الذين مع انتفاعهم من ملكية الارض يعيشون بعمل هؤلاء الناس . فالارض اللازمة الضرورية للناس والتي يميتهم تجريدهم منها هم الذين يحرثونها ويشتغلونها واهني القوى من الجوع ليباع محصولها في الاسواق ويبتاع ملاكها لانفسهم القبعات الجميلة والخيول المطهمة والمركبات الفاخرة والعصي المذهبة والحلى الثمينة . فوضح لنيليدوف كل ذلك بجلاء وسمت به نفسه ورأى ان الطبقة العلياء في العالم من امراء وحكام وتجار واغنياء كلهم سلابون نهابون سفاحون يبيح لهم القانون الذي سن لمصلحة هذه الطبقة ولتمكينها من رقاب الطبقة الدنيا اقتراف كل فظيعة دون عقاب ولا مؤاخذة وينكر على الفقراء الضعفاء الاذلاء اقل مخالفة يأتونها مرغمين للقيام بضروريات الحياة وينكل بهم شر تنكيل . وليس ما يصرح به القانون من المساواة والقسط بين الطبقات سوى حبر على ورق لا يعمل به بل هو لاسكان ثائر ذاك البحر الزاخر من جماهير البؤساء المسلوبة حاجياتهم المهضومة حقوقهم حتى لا يقوموا على من ولي امرهم عسفاً ومن امتص دماءهم جوراً فيطرحونهم الى اسفل السافلين ويجعلونهم عبرة للاولين والآخرين . فقال في نفسه انه لامر فظيع هائل لا يطيقه من فيه ذرة من الانسانية ويجب ان يبطل . يجب ان تتخذ الوسائل لتغيير وجه الارض أو على الاقل لاقوم انا بهذا التغيير في دائرتي . وقال وهو يغدو ويجيء في ممر الحديقة تحت اشجار التفاح اني سأجد هذه الوسائل

بلا مراءٍ ففي الاندية العلمية وفي دوائر الحكومة وفي الصحف نتكلم عن اسباب الفقر بين الناس وعن وسائل تحسين حالتهم ولكننا لا نتكلم عن الوسيلة الوحيدة الصحيحة التي تخفف عنهم المصاب بلا ريب وهي اعادة الارض المسلوبة التي عليها اعتمادهم ومنها رزقهم اليهم

عادت الى مخيلة نيليدوف تعاليم هنري جورج الاساسية وتذكر خضوعه لها في الماضي واعترته الدهشة من نسيانه اياها « الارض لا يمكن ان تكون ملك أحد ولا يمكن ان تشرى وتباع ولا فرق بينها وبين الماء والهواء ونور الشمس ولكل انسان نصيب غيره منها »

والآن عرف سبب الخجل الذي اعتراه حين تذكر معاملته لاهالي كوسمنسكي فقد خدع نفسه لانه مع علمه بعدم احقية أي انسان بامتلاك أيّ ارض قبل لنفسه هذا الحق ومنح الفلاحين جزءاً من شيء عرف جيداً ان لا حق له فيه وعزم على ان لا يفعل هنا كما فعل هناك وعلى ان يغير شروط الاتفاق في كوسمنسكي أيضاً فسن في فكره قانوناً يسير بموجبه وهو ان يمنح الفلاحين الارض ويبقي لهم الايجار ليدفعوا منه الرسوم ويستخدموا الباقي في المنافع العمومية ولم تكن هذه طريقة توحيد الرسوم التي ارادها من جعل الارض مشتركة بين مشتغليها ولكنها كانت اقرب طريقة اليها في الظروف الحاضرة. واهمُّ ما توخاه في هذا العمل هو ان لا ينتفع فيما بعد من ارض يمتلكها

وحين عاد نيليدوف الى المنزل قابله الوكيل باسماً ودعاه لمناولة الطعام ولما جلسوا على المائدة ادخلت الاطباق المذهبة وعليها اصناف المأكولات الفاخرة من طيور واسماك ولحم ضانٍ وبقول وجلس الوكيل مقابل نيليدوف

معجباً بمهارة زوجته في الطبخ ولكن كل هذه الاصناف لم تفتح شهية نيليدوف للاكل لان افكاره كانت منشغلة بما هواهم وبعد الفروغ من الطعام دعا الوكيل على حدة وابلغه رغبته في منح الارض للفلاحين . فتبسم الوكيل كأنه فكّر في هذا الامر من قبل والحقيقة انه لم يفهم كلام نيليدوف ولم يخطر في بال الوكيل ان انساناً في العالم يضحي منفعته لمنفعة غيره لعلمه ان كل انسان يعمل لنفعه الذاتي ولايذاء غيره . وكان هذا المبدأ قد رسخ في ذهنه وتأصل في نفسه ولذا لم يفهم مراد نيليدوف من قوله ان كل ريع الارض يخصّ بتأسيس رأس مال مشترك للفلاحين . ولما كرر عليه نيليدوف القول وفهم مراده تنهد واكمد وجهه لما عرف انلا فائدة له من المشروع فلم يبق له أقل اعتبار عنده ولكنه تبسم مرغماً ليرضى مولاه فقط . ولم يخف على نيليدوف ما ألمّ به ولذا صرفه من امامه بعد ان امره بان لايدعو الفلاحين الى المكتب بل الى القرية حيث يجتمع بهم واسرع فى شرب الشاي وذهب اليهم

« ٦ »

وكانت الاصوات خارجة من الجمع المحتشد أمام منزل شيخ القرية ولما اقترب نيليدوف منهم ابطلوا الكلام ووقفوا له باحترام .فبدأ نيليدوف بخطابه مبيناً مقصده ورغبته فى منحهم الارض باكملها فنصت الفلاحون ولم يبدُ عليهم أقل تأثير واستطرد فى الكلام يعلو وجهه الاحمرار وقال لاني اعتقد باحقية كل انسان فى استخدام الارض

فارتفعت اصواتهم قائلين : لا شك فى ذلك ولا ريب

وواصل نيليدوف الحديث فقال : ان ريع الارض يجب ان يوزع على

الجميع بالسوآء ولذلك عزمت على ان اهبكم اياها لتعينوا لها ايجاراً مقرراً ويكون هذا الايجار راسمالاً مشتركاً لمنفعة جميعكم . فسمع كلمات القبول والموافقة من كل جانب ولكن تلك الوجوه العابسة زادت عبوسة وتلك العيون التي كانت مصوَّبة اليه أُخفضت كأنهم ارادوا ان لايخجلوه ويجعلوه يشعر بان كل واحد منهم عرف الاحبولة التي نصبها لهم وبانهم لاينخدعون باقواله فقد كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بان من طبيعة كل انسان ان يعمل لمنفعته الذاتية وقد عرفوا بالاختبار منذ قرون عديدة ان ارباب الاراضي لا تهمهم الاّ منافعهم الذاتية عاش الفلاحون أو ماتوا ولذلك حسبوا دعوة رب الارض لهم لحضور جلسة ليست سوى طريقة مبتكرة يريد بها سلبهم ما بقي لهم من المورد القليل بمكر ودهآء

فقال نيليدوف : اذن أي ثمن تقررونه للارض ؟

فقالوا كيف نقرر الثمن فالارض ارضك ولك الحق ان تقرر ما تشاء

قال : ولكنكم ستستخدمون المال للمنفعة المشتركة بينكم

فالوا : لايمكننا ان نفعل ذلك فالمنفعة المشتركة شيء وهذا شيء آخر فقال الوكيل مبتسماً : الا تفهمون ؟ فالامير سيعطيكم الارض بثمن معلوم ثم يهبكم المال الذي تدفعونه لتؤسسوا راسمالاً للجمهور

فقال شيخ غاضب مقلعة اسنانه : نحن نفهم جيداً فالمسألة مسألة مصرف يتحتم علينا ان ندفع له في وقت معين . إنّا لا نريد ذلك نعم ان حالتنا الحاضرة صعبة ولكن هذه البدعة الجديدة ستودي بنا في الحال . ثم ارتفعت اصوات مختلفة تقول بلهجة حنق وغيظ ان هذا لايمكن اتمامه فنحن نفضل ان نبقى على حالتنا القديمة وزادت شدتهم في الرفض حين قال نيليدوف

به سيكتب اتفاقاً ويوقع عليه معهم . فقالوا لِمَ نوقع ؟ سنظل نشتغل كما كنا نشتغل كل ايام حياتنا . لِمَ كل هذا التفنن فكما كنا نحب ان نكون ولا نطلب الاّ ان يُعطى لنا البذار فقط . وعنوا بهذا القول ان النظام الحالي يفرض عليهم تقديم البذار فارادوا ان يقدمه لهم المالك

فقال نيليدوف مخاطباً رجلاً متوسطاً في العمر عليه دلائل النباهة : هل تريدون ان تفهموني سبب رفضكم أو هل تعنون بذلك ان عندكم ارضاً كافية لكم ؟

فاجابه : كلاّ ياسيدي ليس عندنا كما تقول

فقال نيليدوف : فالاوفق اذن ان تفكروا فيما شرحته لكم ثم اخذ يكرر ما شرحه بزيادة اسهاب

فقال الشيخ العبوس : لا لزوم للتفكير فكما قلنا يجب ان يكون

فقال نيليدوف : انا باق هنا غدا فاذا غيرتم افكاركم اعلموني . فلم يجبه احد الفلاحين بكلمة وهكذا لم يتوصل الى نتيجة في هذه المقابلة

وبينما كانا عائدين قال الوكيل : اسمح لي ايها الامير بان ابدي ملاحظتي فهؤلآء الناس لايمكنك ان تعقد اذنى اتفاق معهم لشدة عنادهم وتصلبهم ففي الجلسات يتمسكون برأي واحد لايتزحزحون عنه وذلك لانهم يخافون من أي شيء والذين ابدوا المعارضة الشديدة منهم يعدّون الاذكيآء فيهم واذا أتى احدهم الى المكتب ودعي ليجلس على كرسي وقدم له فنجال شاي حسب نفسه في قصر بترهوف واصبح سياسياً يوافق على كل ما يقال له ولكنه في الجلسة العمومية يتمسك بقول واحد ويكرره ويعيده ولا يتحول عنه

فقال نيليدوف : هلاَّ يمكن الاتيان باذكاهم الى هنا حتَّى اقول لهم ما اريده باجلى وضوح. فاجابه الوكيل هذا امر ممكن .فقال نيليدوف ارجوك ان تدعوهم غداً . فقال سمعاً وطاعة

« ٧ »

ولما عاد نيليدوف الى البيت وجد المكتب معداً له كغرفة نوم فيه جميع ما يلزم من الفرش الفاخر . وبعد قليل أحضر له الطعام فامتنع عن الأكل وبقي في الغرفة منفرداً ولم يزعجه رفض الفلاحين على الاطلاق بل بالعكس ومع ان تقدمته في كوسمنسكي قبلت في الحال واسدي اليه الشكر عليها وقوبل هنا بالجفآء وسوء الظن فقد شعر بالارتياح والسرور الفائقين

وكان الهوآء ساكناً في الغرفة فاراد الخروج الى الحديقة ولكنه تذكر تلك الليلة ونافذة غرفة الخادمة والدهليز فشعر بانقباض ولم يشاء ان يمرّ في النقطة التي تلطخت بالاثام فجلس على عتبة الباب واخذ يتنشق النسيم الحار العابق برائحة الزهور الزكية ويصغي الى تغريد البلابل وزقزقة عصفور على شجرة قائمة بالقرب منه فاطفأ النور. واشرق نور القمر من ورآء الاكام وتوالى وميض البرق وكان في كل لمعة يضيء جدران البيت واشجار الحديقة المكتسية زهوراً وقصف الرعد وانبسطت غيمة سوداء كبيرة غطت ثلث الجلد وابطلت البلابل وغيرها من الطيور التغريد وصاحت الديوك في القرية وفي صحن دار الوكيل قبل الميعاد كما يحدث في الليالي الحارَّة البارقة ويقول المثل الروسي : ان الليلة التي تصيح فيها الديوك قبل الميعاد تكون ليلة بهجة فغاص نيليدوف في لجة التفكر بالايام الماضية ونقله التصور الى ايام السرور التي صرفها في هذا المكان وهو فتى بار ولم يقتصر على هذه الذكرى بل شرع كما

كان يشعر وهو في سن الرابعة عشرة بوجوب الابتهال الى الله بان يهديه الى السراط المستقيم أو كما كان وهو طفل ينتحب على صدر امه حين الوداع ويعدها بان لا يغضبها ويحزنها ويجلب لها الآلام وشعر كما كان يشعر هو ونيكولنكا ارتنهيف بعضد بعضهما البعض ليعيشا العيشة الطاهرة السامية ويسعيا في اسعاد كل انسان .

وتذكر التجربة التي تغلبت عليه في كوسمنسكي حتى اسف لفقد البيت والمزرعة والارض واخذ يسأل نفسه ما اذا كان يأسف لفقدها الآن . وتذكر كل ما رآه في ذلك النهار المرأة واطفالها التي سجن زوجها لقطع شجيرات من غابته وماتريونا بتأدبها في حضرته واعتنائها بالاطفال . وكيفية نقل الاطفال الى ملجأ اللقطاء والطفل المعتل والمائت جوعاً والمرأة الحامل المرغمة على دفع الغرامة أو العمل لانها اغفلت امر بقرتها الجائعة ثم تذكر بغتة السجن والرؤوس المحلوقة والسلاسل والحجر والروائح المنتنة والى جانب ذلك كله العيشة المدنيّة عيشة الجنون والتبذير والتهتك التي يعيشها الاغنياء وهو منهم

وتوسط القمر القبة الزرقاء وهو بدر بجلاله وبهائه وبسط اشعته على الغبراء وعادت البلابل الى التغريد وملأت الفضاء باصواتها الشجية فاعاد نيليدوف الى مخيلته وقوفه في حديقة كوسمنسكي يفكر فيما يفعل وتذكر الفشل الذي اعتراه من عدم توصله الى قرار ومن قيام صعوبات بينه وبين كل مسألة . وقد سأل نفسه هذه المسائل الآن وعجب من بساطتها كلها ومن العجيب انه لم يقوَ على تقرير ما يجب عليه ان يفعله لنفسه ولكنه عرف بلا ارتياب ما يجب عليه ان يفعله للغير وقد ايقن وتحقق ان الواجب

عليه ان لا يترك كاتيوشا بل ان يستمر في مساعدتها ويكفر عن الذنب الذي اذنبه اليها . وقد عرف وتحقق ان الواجب عليه ان يدرس ويبحث ويوضح ويفهم كلما يتعلق بالقضاء وبالعقاب اللذين شعر بانه ينظر اليهما بعين غير عين سائر الناس وهذا التصميم اورثه البهجة والسرور

وانبسطت الغيمة السوداء على الجلد وتوالى وميض البرق وقصف الرعد كأنه قنابل جيوش متلاطمة فصمتت الطيور ومالت الغصون وخشخشت الاوراق وعصفت الرياح فلعبت بناصيته ثم انهملت الامطار بغزارة وملىء الفضاء بالشهب وقبل ان يتمكن نيليدوف من عدّ الثلاثة انقضت صاعقة دوت في الارجاء وملأت السماء بلمعانها وزعزعت فنن الجبال بقصفها فدخل نيليدوف داخل الغرفة واخذ يفكر قائلا : نعم . نعم ان العمل الذي تنتهي به حياتنا والمراد منه لا افقهه ولن افقهه قط ؟ لأي غرض وجدت عمتاي ؟ لماذا مات نيكولنكا وانا حيّ ؟ لاي غرض وجدت كاتيوشا ؟ ما سبب جنوني وكيف اسقطتها في وهدة الضلال ؟ لما نالك الحرب ؟ لما حياتي السافلة الدنيئة ؟ ليس في قوتي ان افهم ذلك وان افهم كل ارادة المولى عزّ وجل ولكن في قوتي ان افعل مشيئته المسطرة في ضميري واني اعرف هذه المشيئة بلا ريب وحين اتمها احصل على الراحة والسلام

وساقط المطر كأنه من افواه القرب وخف وميض البرق فالقى نيليدوف بنفسه على السرير دون ان يخلع ثيابه وان يحسب للبق حساباً وقال ما اجمل ان يحسب الانسان نفسه خادماً لا سيداً فانا سأذهب الى سيبيريا حيث أجد الذباب والبق والاقذار واتحمل كل شيء اذا كان لا بُدَّ من ذلك وطفح سروره حين دهمه هذا الفكر والقى رأسه على الوسادة ونام

« ٨ »

وفي صباح اليوم التالي نهض نيليدوف من فراشه وجلس في النافذة تجاه الحديقة فرأى سبعة رجال جالسين تحت شجر التفاح حيث كان الوكيل وضع طاولة ومقاعد للجلوس فاسرع اليهم . فلما رأوه مقبلاً ادّوا له الاحترام فجلس امام الطاولة ووضع الاوراق التي خطّ عليها مشروعه واخذ في ايضاح ما يريد ولم يشعر بتشويش كما شعر امس لان عدد المجتمعين كان قليلاً فخاطب الرجل الشيخ العريض الصدر منتظراً منه المقاومة والمعارضة ولكن ظنه لم يصدق فان هذا الرجل فهم مقصد نيليدوف حالاً ومثل ذلك رفاقه الذين كانوا يبدون علامات الاستحسان والقبول وكان ما اوضحه نيليدوف لهم هو انه بسط اول كل شيء رأيه في ملكية الارض الشخصية فقال : ان الارض في نظري لا يجوز ان تُشترى ولا ان تباع لانه لو جاز ذلك لتمكن رجل ذو مال من مشترى كل الارض وفرض ما يريده من الرسوم على الذين لا ارض لهم

فقال الرجل ذو الانف الطويل بصوته الخشن : حقٌّ ما تقول . وقال الجندي لقد نطقت ذهباً . وقال ذو اللحية البيضاء تأخذ المرأة قليلاً من العشب لبقرتها فتسجن . وقال الشيخ العبوس ان اجرة الارض كادت تثقل كاهلنا وهم فوق ذلك يشدون وثاقنا فحالتنا اشد من حالة الرقيق

فقال نيليدوف : اني افكر كما تفكرون واعدّ امتلاك الارض اثماً ولذلك اريد ان اتنازل عما املك ولهذا الغرض اتيت الى هنا فيجب ان نتفق على طريقة مثلى لتقسيمها

فقال الشيخ العبوس : اعطها للفلاحين والسلام

فاطرق نيليدوف خجلاً لانه شعر من هذه الكلمات بشك يسند الى نياته الصادقة ولكنه تنبه في الحال واجاب ملمعاً الى هذه الملاحظة فقال : انه راغب في اعطائها لهم ولكن لمن . وكيف . ولأي الفلاحين ولِمَ لجمعكم وليس لجمع ديومنسك ؟ « اسم قرية مجاورة لها زمام صغير » فصمت الجميع برهة ثم قال الجندي حقٌّ ما تقول

فقال نيليدوف : اخبروني اذن كيف تقسمون الارض اذا كلفتكم التقسيم ؟ فقال احدهم وهو يرفع حاجبيه ويخفضهما . إنّا نقسمها الى اجزاء متساوية يأخذ كل فردٍ منا جزءاً . ووافق الجميع على هذا القول

فقال نيليدوف : تعطون كل فرد جزءاً فهل يصيب الخدمة الذين ينتمون الى بيت نصيباً من هذه القسمة

فقال الجندي : لا . ولكن رجلاً طويلاً قام وعارضه قائلاً : اذا كان لا بدَّ من القسمة فيجب ان يصيب كل فرد نصيب منها

فقال نيليدوف : ذلك لا يمكن فلو اصاب كل فرد نصيب من الارض قام الذين لا يشتغلون انفسهم ولا يحرثون وباعوا انصبتهم الى الاغنياء فتعود الارض ثانيةً الى أيدي الاغنياء والذين يعيشون من شغل الارض يتوالدون ويزيدون فلا تعود الارض تكفيهم فيعودون إلى ما كانوا عليه من الشح ويعود الاغنياء الى التسلط على اولئك الذين يكونون في حاجة الى الارض

فأمن الجندي على كلامه . وقال آخر غاضباً امنع بيع الارض وضعها تحت تصرف اولئك الذين يحرثونها

فاجابه نيليدوف على هذا بقوله : انه يستحيل معرفة من يحرثون لانفسهم ومن يحرثون لغيرهم

فاشار الطويل القامة بعقد اتفاق يفرض على الجميع العمل اشتراكاً فالذين يعملون في الارض يقتسمون نتاجها والذين لا يعملون لا ينالون شيئاً فاجاب نيليدوف على هذا المشروع الاشتراكي بقوله : ان مثل هذا الاتفاق يقضي بان يكون للجميع محاريث متساوية وخيول متعادلة حتى لا يتخلف البعض عن البعض وان تكون المحاريث والخيول وآلات الدراسة وغيرها من الادوات مشتركة وحتى يتوصل الى هذه الغاية يجب ان يوافق كل فرد على ذلك

فقال الشيخ العبوس : ان قومنا لا يمكن ان يتفقوا على امرٍ ما . وقال آخر سيقع بيننا من اجل ذلك خصام ونزاع على الدوام

فقال نيليدوف : وماذا يكون من امر نوع الارض ولماذا يأخذ الواحد ارضاً تربتها جيدة ويأخذ الآخر ارضاً تربتها رديئة رملة

فقال أحدهم . لتقسم اذن الى قطع صغيرة ويأخذ كل واحد نصيباً معادلاً لنصيب غيره

فقال نيليدوف : انا لا ننظر الآن الى جمع واحد بل الى جموع متفرقة في مقاطعات مختلفة فلماذا ينال البعض تربة خصبة والبعض الآخر ارضاً قاحلة ؟ والجميع في مثل هذا الحال يطلبون الارض الجيدة . فامن الجندي على هذا الكلام وصمت الآخرون

فقال نيليدوف : ليس الامر بسيطاً كما يظهر بداهة ولسنا الوحيدين في هذا المشروع بل قد فكر فيه كثيرون من قبلنا وقد اوجد هذه الفكرة رجل اميركي اسمه هنري جورج وانا اوافقه في هذا الرأى واخذ يبسط لهم طريقة هنري في توحيد الرسوم فقال : الارض ليست للانسان بل هي لله ومشتركة بين الجميع ولكلٍّ نصيب غيره فيها . ولكن هناك ارضاً خصبة وارضاً قاحلة

وكل يريد اخذ الارض الجيدة فكيف يفعل الانسان ليقسمها بالقسط بين الجميع ؟ فالطريقة هي ان الذي يستخدم الارض الجيدة يدفع ثمنها لاولئك الذين لا ارضَ لهم وبما انه يصعب الحكم على من يدفع ومن يدفع اليه ـ وبما ان المال لازم للمنفعة العامة ـ فيجب ان تتخذ التدابير لجعل الذين يستخدمون الارض الجيدة يدفعون ثمنها الى الجمهور من اجل منفعته . وحينئذٍ يصيب كل واحد ما يصيب غيره على السواء فاذا كنتم تريدون استخدام الارض فادفعوا الثمن زائداً عن الجيدة منها وناقصاً عن الردية واذا كنتم لا تريدون ان تستخدموا الارض فلا تدفعوا عنها شيئاً واولئك الذين يستخدمونها يدفعون الرسوم لصاحب الرسوم والنفقات العمومية لكم

فقال احدهم : هذا عين الصواب فالذي يأخذ ارضاً جيدة يجب عليه ان يدفع ثمناً عالياً

وقال الشيخ المتأني في الكلام ان جورج هذا كان ذا رأس عظيم لانه عرف مؤدى هذا المشروع وعظم فائدته فقط لو كان الدفع لا يثقل عاتقنا

فقال نيليدوف : لا يجب ان يكون الثمن عالياً جداً ولا بخساً جداً لانه اذا كان عالياً امتنع الناس عن الدفع ووقعت الخسارة واذا كان واطياً عادوا الى التملك بالبيع والشراء واخذت التجارة تتلاعب بالارض وهذا الذي انا راغب في فصله بينكم هنا

ففهم الفلاحون الفحوى تماماً وصاحوا بصوت واحدٍ هذا عدل هذا حق هذا ما يجب ان يعمل به بالحقيقة ان جورج هذا كان عقله كبير واختراعه عظيم

فقال الوكيل باسماً : واذا اردت انا ان اخذ قطعة ارض . فاحابه

نيليدوف اذا بقي شيء استغنى عنه الفلاحون امكنك ان تأخذه . وقال الشيخ ضاحكا : لِمَ ذلك وعندك ما يكفيك

واعاد نيليدوف منحته على اسماعهم ولم يطلب منهم جواباً عاجلاً بل نصح لهم ان يتروّوا ويتناقشوا مع باقي رفقائهم ويبلغوه النتيجة

فقال الفلاحون انهم سيتناقشون ويأتون بالجواب وانصرفوا في حالة تهيج وتأثر شديدين وسمع صوت محادثتهم وهم سائرون في الطريق وفي الليل سمعت اصوات يحملها النهر من القرية

ولم يذهب الفلاحون الى الشغل في اليوم التالي بل مكثوا في القرية يتباحثون في منحة رب الارض وانقسم الجمهور الى قسمين رأى الواحد منهما المشروع مفيداً ولا خطر عليهم من قبوله وارتاب الآخر فيه وخشي قبول منحة لا يفقه معناها . وفي اليوم الثالث تمت الموافقة بين الجميع وذهب البعض منهم ليبلغوا نيليدوف ذلك والذي أثر على افكارهم ايضاح رجل شيخ عن سيرة رب الارض حيث قال لهم ان مولانا هذا بدأ يفكر في اموره الروحية واتخذ له هذه الطريقة رجاء الخلاص واستشهد على كلامه بالمبالغ الكبيرة التي احسن بها نيليدوف على الفقراء في بانوفو . والحق يُقال ان نيليدوف لم ير مثل هذه المرة فقراً مدقعاً وبؤساً شديداً ولذلك رأى نفسه مضطراً الى الاحسان بالمال مع علمه بانه لم يكن مصيباً في عمله فقد تجمعت الجماهير حوله خصوصاً النساء يطلبن المساعدة فلم يدرِ كيف يعطي وكم يعطي ولمن يعطي ولكنه شعر بأنه يستحيل عليه رفض الاحسان بالمال على اناس بدا عليهم الخوار والفاقة المدقعة ومع ذلك لم يرَ من الحكمة

الاحسان بلا تروي على كل من طاب الاحسان

وقد تعهد في آخر يوم صرفه في بانوفو جميع الاشياء المتروكة في بيت عمتيه وعثر اثناء البحث على عدة رسائل وعلى رسم يحتوي على عمتيه صوفيا وماريا وعليه وعلى كاتيوشا بطهارتها وجمالها وبهجتها فلم يأخذ من كل ما وجده في البيت سوى الرسائل والرسم المذكور

واعاد الى مخيلته شعوره في كوسمنسكي بالاسف لفقد مقتنياته فعجب من امكان تغلب الاسف عليه هناك ولم يشعر الآن بشيء سوى بالبهجة والسرور لاكتشافه طريقة الخلاص وتجديد الحياة كما يسر رائد لاكتشافه ارضاً جديدة

« ٩ »

بدت المدينة لنيليدوف في مظهر جديد فقد دخلها المساء بعد ان اضيئت الانوار فركب عربة من المحطة الى بيته . وبعد كل التأثر الذي شعر به من شقاء الفلاحين وبؤسهم لم يعد له اطاقة على سكن الدور الفخيمة المؤثثة بفاخر الرياش فعزم على ترك المنزل والسكن في غرفة بسيطة يستأجرها فسأل الخادمة اغرافينا ان تدبر الاشياء بمعرفتها حتى تأتي شقيقته وتقر القرار النهائي بشأن البيت. في اليوم التالي استأجر غرفة بالقرب من السجن وبعد ان امر بارسال بعض اشياء له اليها ذهب ليرى المحامي وقد كان الطقس بارداً كما هي الحال عادة بعد هطل المطر وصحو الجو في ايام الربيع وكان رأسه ممتلئاً بالافكار من حيث الفلاحين والنساء والاطفال والشيوخ والفاقة والاعياء اللذين شاهدهما وخبرهما بنفسه لاول مرة وخصوصاً الطفل الضعيف المحرك ساقيه الصئيلتين كالقصبة فلم يتمالك نفسه من المقابلة بين تلك الحال

وحالة المعيشة في المدينة . فحين مرّ بالجزارين وبائعي السمك وتجار الاقمشة والملابس اشتد عليه التأثر كأنه يرى هذه الاشياء لاول مرة فهناك الوف من اصحاب المخازن والدكاكين معلوفون تكاد ثيابهم تتمزق من سمنهم ولا يوجد بين ملايين الفلاحين واحد يماثلهم والذي ضاعف تأثره انه كان يرى كل شيء جديداً فالحوذيون بصدورهم الواسعة وثيابهم النظيفة وازرارهم اللامعة والبوابون بالشرائط المذهبة على قبعاتهم والخادمات بمآزرهن الجميلة وشعورهن المفتولة والاغنياء في عرباتهم متقنو اللباس مصقولو الذقون يحدقون بالمارة وينحنون في جلوسهم من فرط السمن وقد رأي بين هؤلاء بعض اولئك الفلاحين دفعتهم الفاقة الى المدينة فلقي بعضهم اعمالاً جعلتهم يعيشون عيشة الرخاء وزاد شقاء البعض الآخر فاصبحوا اتعس حالاً من اخوانهم في قرى الفلاحين واكثر استحقاقاً للرأفة منهم

فقد نظر صانعي الاحذية في محلات صغيرة رطبة عفنة والغسالات صفراء الوجوه باذرع ضئيلة في غرف كالقبور وسائقي عربات النقل حفاة الاقدام باوجه سوداء والمتسولين والمتسولات واقفين في مفارق الشوارع مهزولين منكوبين تنفطر لحالتهم المرائر

وفيما هو سائر يفكر واذا بصوت يناديه باسمه فوقف . واذا بضابط مفتول الشاربين بارق الوجه جالس في عربة يشير بيده اشارة وداد ويبسم فلما وقف صاح به : هذا انت ياعزيزي نيليدوف .

فتبسم نيليدوف وقال : آه شونبوك ؟ ثم عاد الى رزانته

وكان هذا شونبوك نفسه الذي زار نيليدرف في بيت عمتيه وقد غاب عنه منذ زمن طويل ولكنه سمع انه رغم الدين الذي اثقله تمكن من

حفظ مركزه بين الاغنياء ورأى من حسن بزته وبهجته ما ينطبق على ما سمع فبادره شونبوك بقوله :

ـ ما اجمل الصدفة التي جمعتني بك ايها الصديق بعد طول الايام فهل لك ان نتناول الغداء معاً

ـ اخشى ان لا يسمح لي الوقت بذلك ولكن اخبرني ما الذي أتى بك الى هنا ؟

ـ اشغال كثيرة مهمة فانا الآن ادير اشغال سمالوف صاحب الملايين العديدة الذي يملك اربعة وخمسين الف دسياتين من الارض وقد كانت اشغاله مضطربة ومهملة وكانت جميع الاراضي مؤجرة للفلاحين الذين لم يدفعوا شيئاً وتجمع عليهم دين بلغ ثمانين الف روبل فتوليت انا امر التحصيل وحصلت سبعين في المايه زيادة عن المطلوب فما قولك في صديقك ؟

ـ انك لبطل عظيم لا تخشى لقاء الاموات

فضحك شونبوك وقال : اذا كان لا يمكنك ان تتغدى معي فهلاّ يمكنك ان تقابلني في ميدان السباق لان عندي جواد سيخوض المضمار وبعد ذلك نتناول طعام العشاء سوية

ـ ولا هذا يمكنني

ـ لِمَ هذا الجفاء وأي جهة تقصد الآن

ـ اني ذاهب الى احد المحامين

ـ نعم فلك اشغال تتعلق بأمر السجون فقد اصبحت مغيثاً للمسجونين كما اخبرني آل كورتشاجين الذين غادروا المدينة فما معنى ذلك ؟ قل لي

ـ نعم ان ما تقوله حقٌّ ولا يمكني ان اقول لك شيئاً في الشارع

- لا بأس ولكن هل تحضر السباق الليلة

- لا - لايمكني - ولا اريد - وارجوك ان لا تزعل مني ثم صافحه وافترقا وواصل نيليدوف السير نحو بيت المحامي قائلاً في نفسه هل كنت انا كهذا الرجل ؟ نعم اردت ان اكون مثله ولكن العناية لم تسمح بذلك

و لما وصل البيت أُدخل قبل دوره على المحامي الذي بدأ يتكلم في قضية آل منشوف التي كان قد درسها متأفقاً مما وقع فيها من المخالفة للقانون فقال : ان هذه القضية مثيرة للغضب حقاً فالمرجح فيها ان صاحب الخان نفسه اشعل النار في خانه ليتحصل على مال التأمين ولكن الامر المهم فيها ان جريمة آل منشوف لم يقم عليها ادنى دليل وهي لم تصل الى هذه الدرجة الا من اهمال قاضي التحقيق ومن عنفوان وكيل النيابة ولو حوكموا هنا لضمنت لك برآتهم دون اجر . أما قضية تيوديزيا فقد كتبت العريضة التي ترفع الى القيصر بشأنها فاذا ذهبت الى بطرسبرج فالاوفق ان تأخذها معك وتسلمها بيدك مع التماس خاص منك والا بحثوا فيها بحثا سطحياً دون جدوى وعليك ان تتوصل الى العضو النافذ في لجنة الاستئناف فتنال مطلوبك

فقال نيليدوف : ها معي رسالة الآن

فقال المحامي مبتسماً : اراك تحولت الى انبوب يتدفق منه جميع شكاوي المسجونين فهو حمل ثقيل عليك ترزح تحته ولا تستطيع السير

فقال نيليدوف : ولكن هذه القضية من اغرب ما رأيت واخذ يلخص قضية فلاح في قرية كان يقرأ الانجيل ويجادل رفاقاً له في مواضيعها فعد الكهنة عمله جريمة وابلغوا الحكومة امره فحققت النيابة دعواه وحكم القضاة عليه كمجرم وهو في الحقيقة امر فظيع هائل وهل يمكن ان يكون مثل ذلك

فقال المحامى : وما الذي يدهشك ؟

قال : كل شيء فقد امكنني ان ادرك عمل ضابط البوليس الذي ما عليه الا اطاعة الاوامر ولكني لا افهم كيف يقيم وكيل النيابة الرجل المهذب مثل هذه الدعوى

فقال المحامي : هنا موضع الخطأ فقد اعتدنا ان نعتبر اعضاء النيابة والقضاة على العموم احراراً . فقد كان هؤلاء فى الازمنة الماضية كذلك ولكنهم الآن على غير ما نعتقد فما هم الا موظفون لايهتمون الا بالراتب الذي يأخذونه ويرغبون دائماً فى الزيادة والى هذا الحد تنتهي مبادئهم فهم يتهمون ويعاقبون ايًّا شئت

فقال نيليدوف : نعم ولكن هل يوجد حقيقة قانون يقضي بنفي انسان الى سيبيريا من اجل قراءة الانجيل

فقال المحامى : يمكن نفي اي رجل اذا ثبت انه اتخذ الحرية فى تفسير الانجيل بما يخالف عقائد الكنيسة فيعاقب بمقتضى المادة ١٦٩ بالنفي الى سيبيريا

فقال نيليدوف : ان ذلك مستحيل

فقال المحامى : اني أؤكد لك ذلك وانا اقول لهؤلاء السادة القضاة على الدوام اني انظر اليهم بالامتنان والشكر على بقائي خارج السجن وانت وغيرك وسائر الناس لستم مطلقي السبيل الا من لطف اولئك السادة وحنانهم أما تجريدنا من امتيازاتنا وحقوقنا وارسالنا الى اقصى سيبيريا فليس بالامر الصعب عليهم

فقال نيليدوف : اذا كان الامر كذلك وكل شيء يتعلق بعضو النيابة وغيره الذين يقدرون لو ارادوا ان ينفذوا القانون أو لاينفذوه فما المراد

اذن من المحاكمات ؟

فلم يتمالك المحامي نفسه من الضحك وقال انك تلقي اسئلة غريبة فهذه فلسفة ياسيدي العزيز سنبحث فيها فهل يمكنك ان تأتي اليَّ يوم السبت فتجد رجال علم ورجال قلم ورجال فنون فيمكننا ان نتجادل ونسهب ونفحص بكل تدقيق فى هذه الملخصات

فقال نيليدوف : اشكرك وساحاول المجيء وعرف انه يكذب فيما قاله لان كل مبتغاه الابتعاد عن رجال العلم والفنون . فالضحك الذي قابل به المحامي ملاحظة نيليدوف واللهجة التي اجابه بها اثبتت له الاختلاف بينهما وليس ذلك فقط بل وجد أيضاً اختلافاً بينه وبين اصدقاء المحامي في النظر الى الامور . وشعر بان المسافة الواقعة الآن بينه وبين اصدقائه القدماء كشونبوك وغيره اقصر كثيرا من المسافة بينهُ وبين المحامي ورفاقه

« ١٠ »

كانت السجن بعيداً وقد قارب الغروب فركب نيليدوف عربة وكان الحوذي شاباً نبيهاً بشوشاً فالتفت الى نيليدوف واشار الى بيت فخيم كانوا يبنونه وقال انظر الى هذه البناية الجميلة يامولاي . وكانت البناية فخيمة حقيقة والفعلة مصطفين كالنمل يغدون ويجيئون هذا يحمل حجارة وذاك ينقل لبناً وغيره يحمل خشباً أو حديداً وامام البناية رجل فاخر اللباس كأنه مهندس يتأمل ويشير الى كبير الفعلة وهذا يخفض رأسه مؤمناً ويصغى باحترام وكانت العربات المحملة تدخل من باب والفارغة تخرج من آخر .وكان هذا الجمع الكبير القائم بهذا العمل يعتقد تمام الاعتقاد بوجوب اقامة هذا المحل الهائل فبينما تكون نساءهم فى البيوت حاملات اطفالاً يشتغلن فوق

طاقتهنَّ واولادهم العراة يموتون خواراً ويفتلون ارجلهم الضئيلة كما تفتل الحبال يقومون هم ببناء هذا الصرح العقيم والعديم الفائدة لشخص احمق شره عديم النفع . شخص من اولئك الذين يمتصون دماء الفقراء وينهكون قواهم ويهلكونهم . هذا ما فكر فيه نيليدوف وهو ينظر الى البيت وقال بصوت عال « نعم انه بيت عقيم عديم الفائدة »

فقال الحوذي بلهجة الاستغراب : ولِمَ ذلك ؟ الا يشتغل الناس فيه ؟ الا يأكلون منه خبزاً فاذا كان ذلك فقط فهو مفيد دون شك

فقال نيليدوف : كيفما كان الحال فالعمل عديم الفائدة . ولما اقتربا من السجن قال الحوذي كم من الجماهير تتهافت على المدينة في كل يوم فاذا دام الحال على هذا المنوال تسوء العاقبة واشار الى جماعة من الفلاحين قادمين يحملون الفؤوس ويلبسون جلود الاغنام ويحملون اكياساً على اكتافهم

فقال نيليدوف : هل يحضر منهم في هذه الايام اكثر من الذين كانوا يحضرون السنين الماضية ؟

ـ اكثر بما لا يقاس فجميع المحلات ازدحمت والموظفون يذرون الفعلة كما يذرّى التبن ولم يبقَ لاحد عمل

ـ ولِمَ ذلك ؟ وما المراد من مجيئهم ؟ ولِمَ لا يمكثون في القرى ؟

ـ لا عمل لهم في القرى ولا ارض يشتغلونها

فشعر نيليدوف كما يشعر المجروح حين يمس جرحه فقال في نفسه أ من الممكن ان يكون الامر ذاته حاصلاً في كل مكان ثم اخذ يسأل الحوذي عن مساحة الارض التابعة لقريته وعما يصيبه من الارض وعن سبب مغادرته قريته

فقال الحوذي : لي اب وام واربعة اخوة نملك من الارض دسياتين

فابي واخ لي باقيان فى القرية يشتغلان في الارض واخ آخر فى خدمة الجيش واخي الذي مع ابيه عازم على المجيء الى موسكو أيضاً

فقال نيليدوف : وهلاَّ يمكن استجئار الارض ؟

فقال الحوذي : كيف يمكن الاستجئار ؟ فالخاصة قد بددوا كلما يمتلكونه على البذخ والتهتك واستولى على املاكهم ارباب الاعمال وهم يحرثون الارض لا نفسهم فلا يمكن استئجارها منهم وعندنا رجل فرنساوي حاكم في جهتنا ابتاع المقاطعة من مالكها السابق ولا يؤجرها وهذه هي حالتنا

ـ من هو هذا الفرنساوي

ـ اسمه دوفور ينظم اشعاراً للمراسح الكبيرة ويربح اموالاً طائلة وقد ابتاع المقاطعة باكملها واصبحنا بين يديه كالعبيد يتصرف فينا كما يشاء ومع شدة قسوته فهو ارق خلقاً من زوجته الروسية الشريرة فانها تسومنا مرَّ العذاب .

وقبل ان يتم الحوذي خطابه كانت العربة قد بلغت السجن فنزل نيليدوف وعند ما قرع جرس الباب هلع قلبه لانه فكر في كيفية مقابلته لماسلوفا في تلك الساعة وكيف يكون حالها بعد غيابه . ولما فتح السجان الباب سأله عنها . فقال له انها في المستشفى . فسار الى هناك وحين دخوله الباب قابل طبيباً شاباً تشرب جسمه رائحة الادوية وسأل نيليدوف بعنفٍ عما يريد وكان هذا الطبيب يخفف الاثقال عن المسجونين على الدوام ولذلك حصل على المكانة بين رؤساء السجن وخشي ان يطلب نيليدوف امراً مخالفاً للقانون ولرغبته في اظهار نفسه محافظاً على القانون وان لا ميزة عنده بين رجل وآخر بدا على وجهه الحنق وقال لا نساء هنا بل هذا سجن الاحداث

فقال نيليدوف : انا عالم بذلك ولكن هنا سجينة اسمها ماسلوفا اتي بها لتساعد الممرضة واني ذاهب الى بطرسبرج لارفع عريضة الى مجلس الشيوخ بشأن قضيتها واروم ان اعطيها هذا الرسم واخرج الظرف من جيبه

فقال الطبيب لا بأس من ذلك والتفت الى امرأة عجوز وقال لها : ادعي ماسلوفا الى هنا ثم دعى نيليدوف الى الجلوس في غرفة الاستقبال . فشكره نيليدوف مفضلاً البقاء حيث كان واغتنم فرصة ملاطفة الطبيب له فقال هل انتم راضون عن ماسلوفا في المستشفى ؟

فقال : نعم انها حسنة الخلال وعملها منتظم خصوصاً اذا نظر الانسان الى حياتها الماضية . وها هي قد اتت . ودخلت ماسلوفا لابسة ثوباً ازرق بمئزر ابيض ومنديل يغطي شعرها . ولما نظرت نيليدوف احمر وجهها وخفضت عينيها ولم تشأ ان تمدّ اليه يدها الاّ بكل حياء وزاد وجهها احمراراً ولم ينظرها نيليدوف قط كما نظرها الآن لان حالتها اختلفت تماماً عما كانت عليه وقد بدا على وجهها دلائل جديدة تدل على التحفظ والحياء يشوبها شيء من الحقد عليه فقال لها ما كان قد قاله للطبيب انه ذاهب الى بطرسبرج وناولها الظرف الذي فيه الرسم واخبرها انه وجده في بانوفا واحضره لها . فرفعت حاجبيها الاسودين وحدّقت فيه باندهاش ودون ان تفوه بكلمة اخذت الرسم ووضعته في جيب مئزرها

فقال لها نيليدوف : قد نظرت عمتك هناك

فقالت غير متأثرة أصحيح ما تقول ؟

فقال : هل انت براحة هنا ؟ وهل تجدين صعوبة في عملك ؟

كلاّ ولكني لم أعتد مثل هذا العمل حتى الآن

ـ انا مسرور من اجلك فالحالة هنا احسن لان الناس الموجودين هنا افضل من هناك على ما اظن

ـ ويوجد بين اولئك البؤساء اناس طيبو الاخلاق أيضاً

ـ قد نظرت في قضية آل منشوف وارجو اطلاق سراحهم

ـ اسأل الله ان يتم ذلك فان تلك المرأة لا تستحق مثل هذا العذاب

ـ انا ذاهب الى بطرسبرج اليوم وستنظر قضيتك على الفور وارجو ابطال الحكم

ـ سيان عندي أبطل ام لم يبطل ـ قالت هذا ورمقته بنظرة حادة

فهم نيليدوف معنى الكلمة واللحظة اللتين ارادت بهما معرفة ما اذا كان لا يزال مصمماً على عزمه او انه اقتنع برفضها فقال لا افهم معنى قولك سيان وكلما فهمته ان لا فرق عندك بين التبرئة والنفي وانا على كل حال مصمم على ما قلته لك

فرفعت رأسها وظلّت عيناها مصوبتين اليه وطفح وجهها بشراً وسروراً ولكنّ الكلمات التي فاهت بها لم تنطبق على ما نطقت به عيناها فقالت الاوفق ان لا تقول مثل هذا القول

فقال : لا انفك عن القول حتّى تتثبتي من عزمي

فقالت وهي تحاول الابتسام : قد قلت ما يجب ان اقوله في هذا الشأن وكفى

وسمع بغتة وقع اقدام وصوت طفل يبكي فقالت انهم يدعونني ونظرت الى ما حولها حائرة

فقال اذن استودعك الله ومدّ يده . فادارت وجهها دون ان تصافحه وسارت نحو السجن محاولة اخفاء ما تولاها من التأثر

فاخذ يسائل نفسه قائلاً ما الذي جرى لها ؟ بمَ تفتكر ؟ بمَ تشعر ؟ هل تريد ان تمتحنني أو انها لا يمكنها حقاً ان تصفح عني ؟ هل لانت أم قست ؟ ولم يجد لهذه الاسئلة جواباً ولكنه عرف انها تجددت وان تغييراً مهماً داخل نفسها وان هذا التغيير لم يقربه منها فقط بل من نفسه أيضاً وهذا التقرب مسَّ عواطفه وهيجه تهيج سرور وابتهاج وحين عادت الى السجن اخذت تصلح السرائر فزلّت قدمها وكادت تقع فضحك الاولاد عليها واخذت هي تضحك فانتهرتها احدى الممرضات غاضبة وقالت : ما الذي تفعلينه اتزعمين انك لا تزالين حيث نشأت فتأثرت ماسلوفا من كلامها وسكتت وكانت كلما انفردت تخرج الظرف وتتفرس في الرسم معجبة . وفي المساء حين فرغت من العمل وانفردت في غرفة النوم اخرجت الرسم من الظرف واخذت تتفرس في كل وجه على حدة واطالت التحديق فيه معجبة بنفسها ومحيّاً صباها الجميل وشعرها المتجعد المجلل جبهتها فتممت واسترسلت في لذة الكرى حتى لم تسمع وقع اقدام زميلتها الممرضة التي دخلت الغرفة في تلك الاونة

فقالت الممرضة الطيبة القلب : ما الذي اعطاكِ ؟ ومن هذه ؟ انتِ

ـ فاجابتها ماسلوفا متبسمة ومن غيري ؟

ـ وهل هذا هو نفسه ؟ وهذه أمه ؟

ـ كلاَّ بل هي عمته وهل كنتِ عرفتِ ان هذا الرسم رسمي لو لم اقل لك

ـ كلاَّ فالوجه قد تغيَّر ولا ريب ان بين ما كنتِ في ذاك الحين وبينك الآن عشر سنين

ـ لا بل حياة باكملها وفي الحال تلاشت قواها وبدت الكآبة على وجهها

والتقطب بين حاجبيها

- لِمَ ذلك ؟ فيظهر ان حياتك كانت حياة هنيئة ؟

- هنيئة ؟ واي هناء ؟ حياة امر من العلقم

- لماذا ؟ ما هي الاسباب ؟

فصاحت ماسلوفا قائلة : ما الفائدة من الكلام ورمت الرسم في الدرج غاضبة وخرجت الى الرواق واغلقت الباب وراءها واطلقت لعينيها الدموع

ولما القت رأسها على الوسادة غاصت في لجة الافكار وتصوّرت نفسها كيف كانت عائشة بالقرب منه وحلمت بسرورها حينذاك وفي امكان عودة السرور اليها معه الآن ولكن كلمات رفيقتها ذكرتها بحالتها الحاضرة وبما كانت عليه قبلاً فذكرها ذلك بتلك الليالي المملوءة كآبة خصوصاً ليلة من ليالي المرافع اذ كانت تنتظر فيها تلميذاً وعدها بالاقتران بها وتخليصها من حياة الشقاء . وهي لابسة ثوب حرير احمر مقوّر العنق ملطخاً بالخمر وعلى شعرها المسترسل مشط احمر وهي نشوانة من فعل الخمر وكان الوقت اذ ذاك الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وبينما كانت تتأهب للرقاد هي ومن معها سمعن اصوات السكارى في الغرفة المقابلة وعزف آلات الطرب والرقص ودخل رجل قصير سيء الخلق قبيح المنظر يتصبب العرق من جسمه وتخرج من فيه رائحة الخمر وخلع رداءه واتى اليها وامسك بذراعها واتى رجل آخر سمين ملتح وامسك بزميلتها برتا واخذوا يرقصون ويضجون ويشربون.. وعلى هذه الحالة السيئة قضت عدة سنوات وقد كان هو سبب كل هذه المصائب . فلما جالت هذه الافكار في مخيلتها ثار حقدها عليه واشتدّ فيها الميل الى شتمه وراهانته ولومه وتبكيته واسفت لعدم اغتنامها فرصة اليوم لان

تعيد عليه القول بانها تعرفه وبانها لن تسلمه نفسها ولن تدعه يستخدمها لغرضه الروحي كما استخدمها لغرضه الجسدي وتاقت حينذاك الى شرب المسكر لتقصي عنها الافتكار بحالتها الشقية ولم يكن في امكانها الحصول على المشروبات الروحية في المستشفى الا بسماح من معاون الطبيب ولكنها كانت تخافه لانه كان يشاغلها ويتقرب منها وكان التقرب من الرجال ينغصها ويمجه ذوقها الآن وبعد ان جلست على فراشها برهة تفكر بما حدث لها في ماضي حياتها استغرقت في البكاء والنحيب على شقائها وتعاستها

« ١١ »

كان لنيليدوف اربع قضايا في بطرسبرج وهي عريضة ماسلوفا في مجلس الشيوخ . وقضية تيوديزيا عند لجنة فحص العرائض . وطلب فيرادهوفا بالافراج عن صديقتها شوستوفا . والحصول على اذن من دائرة الضبط لام تريد زيارة ابنها في السجن وهذان الطلبان عدّهما قضية واحدة والقضية الرابعة التي اراد الاهتمام بها هي قضية السكتاريين الذين فصلوا عن عيلاتهم ونفوا الى القوقاس من اجل قراءة الانجيل والمناقشة فيه . ومنذ زيارته الآخرة لماسلنيكوف وخصوصاً اثناء وجوده بين الفلاحين شعر بمقت وكره للمجتمع الذي عاش بينه حتى ذاك الوقت المجتمع المتعظم المتكبر الذي لا يهتم بالشقاء والآلام التي يتحملها ملايين من البشر ويسعى جهده لارضاء افراد قلائل ليخفي شروره وفظائعه الكثيرة التي يفعلها مع الطبقة الدنيا كل يوم ولم يعد في امكان نيليدوف الانخراط في سلك هذا المجتمع دون ان يشعر بالانقباض وتبكيت الضمير ومع ذلك فان جميع روابط القربى والصداقة كانت تجذبه اليه وعدا هذا فان كل اهتمامه كان منصرفاً الى مساعدة ماسلوفا

وغيرها من المنكوبين وهذا الاهتمام يقضي بطلب معونة اشخاص من هذا المجتمع لم يقوَ على عدم احترامهم فقط بل كانوا في كثير من الاحيان يثيرون فيه السخط والاحتقار أيضاً

وحين وصل الى بطرسبرج ونزل ضيفاً على خالته الكونتس تشارسكي زوجة وزير سابق وجد نفسه ضمن تلك الدائرة الارستوقراطيه « النبيله » التي اصبح غريباً عنها وقد كان دخوله اليها حملاً ثقيلاً على عاتقه متعباً لجسمه مكدراً لنفسه ولكنه لم يرَ له بُدًّا منه فلو نزل في فندق لاغاظ خالته وعدا ذلك فان له علاقات مهمة بالمقامات العليآء وكان يرجو من خالته عضداً كبيراً في نيل مآربه والحصول على رغائبه

وبعد ان قدمت له خالته الكونتس القهوة قالت : ما هذا الذي اسمعه عنك ؟ انك تفعل افعال الابطال العظام فتساعد المجرمين وتزور السجون وتواسي المحزونين وتطعم الجائعين وتقوم المعوَّج ان هذه الافعال تعدُّ من المعجزات

- خفني عنك ِ ياخاله لا شيء مما تذكرين

- لِمَ لا ؟ انه عمل حميد لكنه لايخلو من حكاية روائية تتعلق به . اعلمني كل شيء ولا تخفِ عني

فقص عليها نيليدوف علاقته بماسلوفا بكل صراحة ولم يخفِ عنها حرفاً فهزت الكونتس رأسها وقالت : نعم . نعم اذكر ان والدتك كانت تحدثني عنها حين كنت عند عمتيك فاذاً هي هي وهلاً لا تزال جميلة ؟

وقد كان نيليدوف يحب الكونتس محبة شديدة فقال : لا ياخالتي . والجمال لم يعد له تأثير على قلبي وانما ابني مساعدتها لانها اتهمت افتراءً وحكم عليها ظلماً وانا

السبب في المصائب التي حلّت عليها وارى من الواجب عليّ ان لا اذخر وسعاً في اغاثتها

ـ ولكني سمعت انك عازم على الاقتران بها

ـ نعم هكذا كانت رغبتي ولكنها رفضت طلبي

فرفعت كاترينا ايفانوفنا حاجبيها وحدقت فى ابن اختها وتغيّر وجهها بغتة ونظرت اليه نظرة ابتهاج وقالت انها احكم منك وما انت الا احمق وهل كنت تزوجتها لو قبلت ؟

ـ دون شك

ـ بعد ان كانت ما كانت ؟

ـ هذا ما يزيد ارتباطي بها لاني كنت السبب

ـ اذن انت ابله وايّ ابله وانى من اجل هذا البله احبك وقد جئتني بوقت مناسب فانّ لي لن منزلاً جميلاً تأوى اليه النسآء المتهتكات وسنسعى في ادخال فتاتك اليه

ـ ولكنها منفية الى سيبيريا وقد اتيت خصيصاً لاستئناف قضيتها وهذا مطلب من المطالب التي ساعتمد عليك فيها

ـ يا لله ؟ والى أي مرجع سترفع هذه القضية ؟

ـ الى مجلس الشيوخ

ـ نعم ان ابن عمي ليو في ذلك المجلس ولكنه في قسم المنادين ولست اعلم ما اذا كان يعرف احداً من الاعضآء الاساسيين فهم اكثرهم من الجرمان الذين تنتهي اسماؤهم بجاي وحاي وداي وجميع حروف الهجآء ولكن مهما كان الامر فاني ساخبر زوجي الذي يعرفهم ويعرف جميع انواع الشعب . سأخبره وعليك

الايضاح لانه لايفهم كلامي على الاطلاق

وفي هذه اللحظة دخل حاجب حاملاً رسالة على طبق من فضة فتناولتها وفضتها وقالت انها من أولين نفسها وسيسعدك الحظ بسماع كيزفتر

- ومن هو كيزفتر ؟

- تعال في هذا المساء فتعرف من هو . انه يتكلم كلاماً يلين القلوب الصلدة ويجعل السامعين يستغفرون عن خطاياهم

وكانت الكونتس كاترينا ايفانوفنا مع غرابة طباعها وقلة مخالطتها للاسر التي من طبقتها خاضعة للتعاليم التي تحصر جوهر المسيحية في الايمان بالفداء فقد كانت تحضر الاجتماعات التي يبشر فيها بهذه التعاليم وكانت تجمع المؤمنين في منزلها ومع ان هذه التعاليم كانت تؤدي الى نبذ التقاليد الكنسية فقد كانت معلقة الايقونات في جميع الغرف وحتى فوق سريرها دون ان تلاحظ ادنى فرق بين ما تعتقد وبين ما تفعل

فقالت لنيليدوف : اعلم انه لو سمعت مجدليتك كلام هذا الواعظ لرجعت الى الله في الحال فابقَ في البيت هذه الليلة واسمعه انه لرجل عجيب

- ان هذه التعاليم لا تفيدني ياخالتي

- بل هي مفيدة لك وعليك ان تذهب الآن حيث تشأ وبعد ذلك عُدْ الى البيت فماذا تريد مني غير ذلك افرغ جعبتك

- الثانية في القلعة

- اني اعطيك رسالة بشأنها الى البارون كريجسموث . انه رجل طيب القلب وانت تعرفه فقد كان صديق ابيك وهو يعتقد بمخاطبة الارواح ولكن

لا خوف من ذلك فما الذي تريده من القلعة ؟

ـ اريد الحصول على السماح لام بزيارة ولدٍ لها فيها وقد قيل لي ان ذلك لايتعلق بكريجسموث بل بتشرفياتسكي

ـ انا اكره تشرفياتسكي ولكنه زوج ماريت وهي لا تتأخر عن قضاء هذا الامر من اجلي فانها لطيفة جداً

ـ اريد أيضاً ان ارفع عريضة بشأن امرأة مسجونة دون ان تعرف السبب

ـ لاتصدق فانها تعرف جيداً وجميع اولئك القصيرى الشعور يعرفون ذنوبهم ويستحقون الحبس الذي يؤدبهم ويردعهم عن اقلاق البشر

ـ لست اعلم ما اذا كانوا يستحقون الحبس وما اذا كان الحبس مفيداً لهم ولكن اعلم انهم يقاسون أشد العذاب واعجب من كونك مسيحية وتعتقدين بصحة تعاليم الانجيل ولا يوجد في قلبك ذرة من الشعور

ـ لا صلة بين الانجيل والمجرمين فالانجيل انجيل والشرير يظل شريراً والاشر من ذلك ان اتعمد حب النيهلست وخصوصاً النساء قصيرات الشعر منهم في حين اني لاقدر ان اراهم

ـ لماذا تكرهينهم ؟

ـ تقول لماذا بعد حادثة اول مارث (١)

ـ لم يكن لجميعهم دخل في حادثة اول مارث

ـ ولكن لايجب على النساء التداخل فيما لايعنيهن فليس العمل عمل نساء ومع ذلك فاني ارجو مريت ان تقوم بهذه المهمة

ـ ماريت هي ماريت على الدوام ولكن هؤلاء الطغاة لا يريدون ان

---

(١) تشير الى مقتل اسكندر الثاني في اول مارث سنة ١٨٨١

يساعدوا احداً من الناس فالعَمَلة والفلاحون في أشد الفاقة والاحتياج فهل من العدل ان يبذل هؤلآء البؤسآء منتهى قواهم في العمل دون تحصيل القوت الكافي بينما نعيش نحن وامثالنا بالبذخ والترفه والتنعم

- ماذا ؟ أتريد ان اشتغل انا وامثالي من الموسرات دون ان نأكل شيئاً ؟

- كلاَّ لا اريد ذلك بل اريد ان جميعنا يشتغل وجميعنا يأكل

فرفعت حاجبيها وحدقت فيه وقالت : ستكون عاقبتك وخيمة ياعزيزي وقبل ان يجيبها بكلمة دخل زوجها الجنرال والوزير السابق الطويل القامة والعريض الصدر فحيّا نيليدوف وادار له خده الناعم ليقبله وقال له متى اتيت ياعزيزي وتقدم نحو زوجته فقبلها في جبينها

فتحولت الكونتس نحو زوجها وقالت : لا ؟ انه لايحاكى فهو يريد ان اذهب واغسل الثياب واعيش على البطاطس . انه لاحمق حقيقةً . ولكن مهما كان من امره فاجب سؤاله . انه غريب في جنونه . وبعد ان سكتت هنيهة استأنفت الحديث مع زوجها قائلة : هل سمعت ان ام كامنسكي بلغت درجة من اليأس يخشى منها على حياتها فاذهب لزيارتها

فقال زوجها انه لامر محزنٌ ومؤثر جداً

فقالت : اذهب الآن وتحادث مع نيليدوف وانا ساكتب بعض رسائل ولم يكد يخطو نيليدوف قاصداً الغرفة حتى دعته خالته وقالت له هل تريد ان اكتب لماريت ؟ فقال نعم ياخالتي . فقالت ساترك لك في الرسالة محلاً لتكتب فيه بشأن قصيرة الشعر ولا تظنني شريرة فهما كان اولئك الذين وضعتهم تحت رعايتك مقلقين ومنكدين فاني لا اريد لهم الشر . واياك ان تغيب هذه الليلة لئلا يفوتك سماع كيزيفتر فلك في سماعه فائدة كبرى .

فتبسم ولم يجبها

« ١٢ »

كان الكونت ايفان ميخايليتش وزيراً في الماضي وكان شديد الاقتناع بما في ضميره ومن جملة اعتقاداته انه كما ان من طبيعة العصفور ان يعيش على الدود والهوام وان يكتسي بالريش والوبر كذلك من طبيعته هو ان يأكل المآكل الفاخرة الكثيرة الكلفة التي يعدها الطهاة ذوو الرواتب العالية وان يرتدي بافخر الملابس واثمنها وان يركب العربات الفاخرة التي تجرها اجود الخيول وعلى ذلك يجب ان تكون جميع هذه الاشياء مُعدَّة له على الدوام وكان يعتقد فوق ذلك انه بقدر ما يزيد استنزافه للخزينة باية وسيلة تزيد أيضاً رتبه ووساماته وبقدر ما تزيد معاشرته للطبقة العليا من رجال ونساء تزيد حالته تحسناً . وكل شيء يخالف هذا المبدأ لم يكن يعبأ به ولا يهتم بالتفكر فيه وقد عاش واتبع هذا المذهب ولم يحد عنه مدة اربعين سنة حتى بلغ منصب وزارة الخارجية

واهم الصفات التي اهلته لبلوغ هذا المنصب كانت اولاً مقدرته على فهم اللوائح والقوانين وكتابة الاوامر الرسمية بركاكة ولكن بوضوح . وثانياً منظر الانتفاخ الذي اهله حين الضرورة لا ان يظهر في مظهر الكبرياء والعجرفة فقط بل في مظهر الوقار الذي لايدنى منه وفي مظهر الابهة والجلال أيضاً مع انه كان بامكانه في الاوقات الاخرى ان يظهر حقيراً ذليلاً . وثالثاً تجرده من المبادي الادبية الشخصية والادارية حتى امكنه ان يوافق أو يخالف أيَّ احدٍ في أي وقت كان حسب مقتضيات الظروف وحين كان يفعل ذلك كانت غايته اظهار حسن سجاياه . وسواء كانت افعاله ادبية أو

غير ادبية في حد ذاتها وسواء انتجت اعظم خير او جلبت اكبر شر للملكة الروسية وحتى لجميع الارض لم يكن لينظر الى عواقبها

وحين بلغ منصب الوزارة كان جميع من ينتمون اليه والذين لهم علاقة به وحتى كثيرين من الغرباء وهو ذاته يعتقدون انه سياسي ماهر ولكنه بعد ان مضت عليه مدة ولم يتم امراً ولا اوضح شيئاً واظهر قصوراً في وضع القوانين وعزل ظهر لكل انسان انه بعيد عن العلم قاصرٌ في الادراك متصلب في الرأي لايفرق شيئاً عن الموظفين الاصاغر وقد عرف هو نفسه ذلك ولكن معرفته لم تحوله عن الاعتقاد بوجوب اخذه مالاً كثيراً من الخزينة في كل عام ووسامات جديدة يزين بها صدره وقد كان هذا الاعتقاد راسخاً فيه حتى لم يجرأ احد على تحويله عنه فكان يتقاضى في كل عام عدة عشرات آلاف من الروبلات بعضها مكافئة وبعضها راتباً عن عضويته في مجلس احدى مدارس الحكومة ورئاسته لعدة جمعيات ولجان خيرية عدا تخويله الحق الذي كان يفوق كل شيء عنده بتركيب جميع انواع الشرائط على كتفيه وبنطلونه وتعليق جميع انواع النجوم والصلبان على ثيابه وبالنظر الى ذلك كان للكونت ايفان علاقات كبرى باعلى المقامات

فاصغى الكونت الى نيليدوف كما كان يصغي الى سكرتيره الخاص وبعد ان سمع كلامه وعده بان يعطيه رسالتين احداهما الى وولف احد اعضاء مجلس الشيوخ والثانية لعضو نافذ في لجنة العرائض وقد ابدى الكونت اهتماماً زائداً بما اخبره نيليدوف عن مسألة تيوديزيا وحين اخبره انه ينوي عرض امرها على القيصرة اجاب انها حادثة مؤثرة ويمكن عرضها على مسامعها اذا سمحت الظروف .

فاخذ نيليدوف الرسالتين ورسالة ثالثة من خالته الى ماريت وسار قاصداً المحلات الثلاثة . فذهب اولاً الى منزل ماريت وكان يعرفها فتاة وهي من اسرة نبيلة ليست ذات ثروة وعرف انها تزوجت برجل سمع عنه اموراً لا ترضي ولكنه كان ذا منصب سامٍ فشعر نيليدوف كعادته بصعوبة سؤاله نعمة من رجل لايحترمه وفي مثل هذه الظروف كان يحسُّ على الدوام بانقباض ويتراوح بين سؤال النعمة أو عدمه ثم يقرُّ رأيه على السؤال وقد كان يشعر بالفساد السائد على الطبقة العليا من البشر التي لم يعد يحسب نفسه منها والتي كانت لاتزال تعده من افرادها وشعر الآن بانه عاد ثانية الى تلك الدائرة واستسلم رغم انفه الى عدم المبالاة والبعد عن الادب السائدين عليها

وكان اول ما شعر بذلك في بيت خالته وحين كان يكلمها عن امور غاية في الحطارة كان يضطر الى استعمال الهزل في كلامه

وكانت بطرسبرج التي لم يرها منذ عهد بعيد مؤثرة عليه تأثير نشاط من حيث الطبيعة وتأثير كآبة من حيث الآداب فكان كل شيء فيها نظيفاً ومنتظماً مجلباً للراحة والناس كثيرو التساهل في الامور الادبية حتى بدت الحياة هنيئة للغاية

فقد اركبه حوذيٌّ جميل نظيف بعربة نظيفة مارًّا ببوليس جميل نظيف في شوارع جميلة منتظمة مرشوشة قائم على جوانبها بيوت جميلة نظيفة الى البيت الذي كانت ماريت ساكنة فيه

وكان امام الباب زوج من الجياد الانكليزية بطقمين انكليزيين وحوذي انكليزي المنظر برداء رسمي وبسالفين مدليين حتى منتصف خديه جالساً

على كرسي العربة وماسكاً السوط باعجاب . وفتح الباب بواب لابس طقماً رسمياً غاية في النظافة فدخل نيليدوف القاعة حيث لقى حاجباً بلباس فاخر مثقل بالشرائط المذهبة وبسالفين مسترسلين على خديه فقال ان الجنرال لا يقبل احداً ومثل ذلك الكونتس لانها ستركب العربة وتخرج الآن . فاخرج نيليدوف رسالة خالته وتقدم نحو طاولة موضوع عليها دفتر الزائرين وبدأ يكتب انه آسف لعدم تمكنه من رؤية احد . ثم صعد الخادم الدَرَج وخرج البواب لينبه الحوذي ووقف جندي معين للخدمة جامداً بذراعيه ملصقين بجنبيه يتبع بناظريه سيدة نحيفة قصيرة كانت نازلة على الدرج بخفة غير منطبقة على عظمتها . وكانت لابسة ثوباً حريرياً اسود وعلى رأسها قبعة كبيرة مجلّلة بريش النعام فلما ابصرت نيليدوف رفعت القناع عن محيا جميل بعينين براقتين جذابتين وقالت بصوت رخيم : آه البرنس نيليدوف هذا انت ؟

فتبسم وقال : ماذا اسمع ؟ هلا تزالين تتذكرين اسمي ؟

قالت : كيف لا ؟ ألم نكن انا واخواتي نحبك ؟ ولكنك قد تغيّرت كثيراً .. اني آسفة لاضطراري الى الخروج ـ دعنا نصعد ـ ثم نظرت الى الساعة وقالت لا . لا يمكن فاني ذاهبة الى آل كاسمنسكي لاحضر قداساً عن روح الفقيد والوالدة قد تولاها حزن شديد يكاد يودي بها

ـ من هم آل كاسمنسكي

ـ ألم تسمع حكايتهم فالابن قد قتل في مبارزته لهوزن وهو الابن الوحيد ووالدته في اتعس حال فالاوفق ان اذهب الآن ويجب عليك المجيء ثانية في هذه الليلة أو غدا ثم خطت نحو الباب بخطوات رشيقة خفيفة فتبعها وقال : ليس في طاقتي المجيء في هذه الليلة ولكن لي سؤالاً عندك

تجديه ضمن رسالة خالتي هـذه ثم قدم لها الرسالة فاخذتها منه وقالت : انا عالمة ان الكونتس كاترينا تحسبني ذات نفوذ على زوجي فى اعماله ولكنها مخطئة فى هذا الزعم لاني لا اقدر ان افعل شيئاً ولا اريد التداخل بشيء ولكني ساشذ عن قاعدتي من اجلك واجلها فما هو الغرض الذى تريد مني قضاءه ؟

ـ فى القلعة فتاة اسمها ليدياشوستوفا سجينة وهى مريضة وبريئة كما هو مبين فى الرسالة

ـ لا بأس سافعل ما اقدر عليه ثم قفزت الى العربة فصعد الحاجب الى الكرسي واشار الى الحوذى بالسوق فرفعت مظلتها وتحولت نحو نيليدوف وقالت يجب عليك ان تجيء ولكن لا تأتنا منشغل الخاطر وابتسمت عالمة بمقدار تأثير هـذه الابتسامة ثم اسدلت النقاب كأنها اتمت تمثيل الرواية وانزلت الستار وقالت على هذا اتفقنا ثم مست الحوذى بمظلتها فرفع نيليدوف قبعته واحنت له رأسها واخذ الجوادان ينهبان الارض نهباً وصوت حوافرهما يسمع عن بعد كأنه آلة منتظمة

« ١٣ »

لما تذكر نيليدوف الابتسامة التي تبودلت بينه وبين ماريت هزّ رأسه وقال فى نفسه لم أكد اخرج من هذه الدائرة حتى جذبت اليها وشعر بالنفور والارتياب اللذين كانا يزعجانه عادة حين كان يضطر الى التماس نعمة من اناس لايحترمهم . ثم قصد مجلس الشيوخ وادخل الى مكتب فاخر لقى فيه عدداً كبيراً من الموظفين الكاملي التهذيب والنظافة الذين اعلموه بوصول عريضة ماسلوفا وباحالتها على السناتور وولف الذى حمل اليه رسالة من زوج خالته للنظر فيها ووضع تقرير بشأنها . واخبره احد الموظفين بانه

ستنعقد جلسة للشيوخ في هذا الاسبوع ولكنه من الصعب عرض مسألة ماسلوفا على تلك الجلسة ما لم يكن هناك التماس خصوصي

واثناء انتظاره في المكتب كان الحديث دائراً على حادثة المبارزة فسمع تفصيل مقتل الشاب كاسمنسكي وهذه اول مرة سمع فيها حقيقة هذه المسألة التي ملأ خبرها جميع انحاء عاصمة الروس وتفصيل الحادثة ان بعض الضباط كانوا يأكلون . وكانوا كعادتهم يكثرون من شرب الخمر فطعن احدهم على الفرقة التي ينتمي كاسمنسكي اليها فدعاه هذا كاذباً فقام ذاك وصفعه وفي اليوم التالي تبارزا فجرح كاسمنسكي في صدره جرحاً بالغاً وقضى بعد ساعتين من الاصابة واوقف القاتل وقيل انه سيفرج عنه بعد بضعة اسابيع

وركب نيليدوف العربة قاصداً منزل البارون فيروبيوف العضو النافذ في لجنة فحص العرائض فقابله البواب بعنف وقال : ان البارون لا يراه أحد الاَّ في ايام الاستقبال وانه مع جلالة القيصر اليوم وسيكون منشغلاً بكتابة تقرير في اليوم التالي . فسلمه نيليدوف رسالة زوج خالته وذهب ليرى السناتور وولف . ولما دخل نيليدوف كان وولف قد فرغ من طعام الغداء وكان كعادته يساعد الهضم بتدخين التبغ وبالغدو والمجيء في الغرفة . وقد كان فلاديمير وولف رجلاً كاملاً في المظهر حافظاً لمقامه يعتز بصفاته وينظر الى الناس من شاهق . وكان يفتخر بتلك الصفات لانها هي التي اهلته للاندماج في سلك راق اليه طويلاً وهو الاقتران بفتاة جلبت اليه دخل ثمانية عشر الف روبل في السنة وتوصل بكده واجتهاده الى منصب السناتور ولم يكن يعتبر نفسه رجلاً كامل الصفات فقط بل ذا مجد اثيل ايضاً

وقد فهم ان الشرف عدم قبول رشوة من الافراد ولكنه لم يرَ من الدناءة والخيانة تكليف الحكومة كل انواع الاعتمادات كالنفقات الشخصية ومصاريف السفر وما اشبه . ولم يكن مشيناً في نظره اهلاك المئآت من الابرياء وسجنهم ونفيهم لمحبتهم قومهم ودين آبائهم كما فعل حين كان حاكماً احدى مقاطعات بولونيا فكان يحسب اعماله هذه جهاداً في سبيل الوطنيه . ولم يحسب مشيناً أخذ كل ما تمتلكه زوجته التي وقعت في حبه وما تمتلكه اخت زوجته أيضاً ورأى من باب الحكمة استيلاءه على كل شيء ليقوم بتدبير عائلته المؤلفة من زوجته واختها التي اغتصب ميراثها ببيعه ما تمتلكه من الاراضي واضافة ثمنها الى امواله المغتصبة ومن ابنته الوديعة السليمة القلب التي كانت عائشة عيشة حزن وتعب من التعاليم الانجيلية المؤدية بالانسان الى الزهد والقناعة التي كانت تتقاها في الجمعيات في منزل ألن ومنزل الكونتس كاترينا . أما ابن وولف فقد عاش عيشة رخاء وحين بلغ الخامسة عشرة اخذ يتعاطى المسكر وغيره من المنكر وظل على ذلك حتى بلغ العشرين فاخرجه ابوه من المدرسة لعدم اتمامه دروسه وسلك سلوكاً منحطاً واخذ يستدين مالاً من أي محل اقرضه وابوه يوفي هذه الديون المتراكمة عليه واخيراً انذره بانه يوفي عنه الدين لآخر مرة واذا لم يصلح نفسه طرده من البيت وقطع كل علاقة بينه وبين العائلة ولكن الابن لم يصلح نفسه بل وقع تحت الف روبل من الدين وتجرأ فابلغ اباه انه لا يقدر على معيشة البيت فطرده ابوه طرداً مشيناً وابلغه انه لم يعد يحسبه ابناً له ومنذ ذاك الحين لم يعد يعرفه مطلقاً ولم يجسر احدٌ في البيت على ذكره امامه وهكذا اعتقد فلاديمير وولف تمام الاعتقاد بانه دبّر امر عائلته احسن تدبير

وحين ادخل نيليدوف توقف وولف عن المشي وحياه مبتسماً ابتسامة ازدراء كما كانت عادته في اظهار حسن خلقه وقرأ الرساله التي تناولها من نيليدوف فدعاه للجلوس وقال : لقد سررت جداً لتعرفي بك واني مستعد للقيام بما يطلبه الكونت ايفان مني .

ـ كل ما ارجوه الاسراع في نظر القضية حتى اذا كان لابد من ذهاب السجينة الى سيبيريا ان يسرع بارسالها

ـ نعم في اول باخرة تقوم من نيزني . وكانت عادة وولف مقاطعة محدثه وافهامه انه عالم بما يريد ان يقول ثم سأل عن اسم السجينة فقال نيليدوف ماسلوفا فخطا وولف نحو الطاولة ونظر الى ورقة ملقاة عليها وقال: نعم ماسلوفا. ساسأل الآخرين وسننظر في القضية يوم الاربعاء

ـ هل ارسل تلغرافاً الى المحامي ؟

ـ المحامي ؟ لأي سبب ؟ ولكن لا بأس اذا شئت ذلك

ـ ربما كانت الاسباب التي يطلب من اجلها الاستئناف غير كافية ولكني اظن ان هذه القضية تدل على ان الحكم فيها صدر عن سوء فهم

ـ نعم . نعم . ذلك ممكن ولكن مجلس الشيوخ لا يمكنه ان يقرر درجة القضية وما تستحقه بل يبحث فقط في صحة تطبيق القانون وصوابيته

ـ ولكن هذه قضية مستثناة

انا عالم وجميع القضايا مستثناة وسنقوم بما هو مفروض علينا

وبعد ان مشى عدة مرات جيئة وذهاباً وقف وقال لنيليدوف هل حضرت منذ زمن الى بطرسبرج ؟ وهل سمعت حادثة كاسمنسكي الفظيعة فقد ساءني قتل هذا الشاب الجميل والوحيد لامه . واعاد على مسمع نيليدوف

تفصيل الحادثة كما سمعها في مكتب مجلس الشيوخ ثم قرع الجرس فانحنى نيليدوف مودعاً فقال له تعالَ وتناول الغداء معنا يوم الاربعاء اذا امكنك فاجاوبك الجواب النهائي فودعه نيليدوف وعاد الى منزل خالته

« ١٤ »

وكان موعد العشاء في منزل الكونتس كاترينا في الساعة الثامنة ورأى نيليدوف في خدمة الطعام نظاماً جديدا لم يكن قد رآه من قبل فبعد ان وضعت الاطباق على المائدة خرج الصفرجي واخذ الآكلون يخدمون انفسهم وحين كانوا يفرغون من احد الاصناف كانت الكونتس تضغط على زرٍّ كهربائي فيأتي الصفرجي بصنف آخر . وقد كان العشاء فاخراً والخمور من احسن الانواع وتألفت حلقة الآكلين من ستة هم الكونت والكونتس وابنهما ضابط في الحرس ونيليدوف وضيف افرنسي ووكيل املاك الكونت الذي جاء من الريف في ذلك اليوم واقتصر حديثهم على المبارزة واخذ كلٌّ يبدي رأيه في كيفية نظر القيصر الى هذه الحادثة وقد كانوا يعلمون بشدة حزن القيصر على حالة الأُم وشعروا جميعاً بحزنٍ شديد عليها وكما انهم عرفوا ان القيصر لم ينوِ استعمال الشدة مع القاتل الذي دافع عن شرف ردائه العسكري مالوا هم أيضاً مع الضابط الذي دافع عن ذلك الشرف ولم يكن سوى الكونتس التي نافضتهم ولم تجاريهم في الرأي فقالت انهم يسكرون ويقتلون شباناً ابرياء فانا لا يمكنني مسامحتهم في أيّ حال

فقال الكونت : هذا امر لا يمكنني ان افهمه

قالت : انا عالمة بانك لا تفهم ما اقول ثم التفتت الى نيليدوف وقالت كل انسان يفهم عدا زوجي فانا اقول اني حزينة على الام ولا اريد القاتل

يقتل ونرض عن عمله

وكان الابن صامتاً حتى هذه الدقيقة فبدأ بالكلام منحازاً الى صف القاتل وقاوم والدته بغلظة مبرهناً على ان الضابط لا يمكنه ان يسلك غير هذا السلوك والاّ نبذه رفقاؤه واخرجوه من فرقتهم : وكان نيليدوف يصغي الى هذه المحادثة ولا يشترك فيها غير انه لم يسمعه في الوقت ذاته الاّ المقابلة بين هذا الضابط وبين ذلك الشاب الجميل المجرم الذي نظره في السجن محكوماً عليه بالاشغال الشاقة في المناجم من اجل قتله رجلاً في المبارزة فكلاهما تحولا الى قاتلين من السكر احدهما الفلاح الذي قتل رجلاً في لحظة غضب شديد فقصل عن زوجته وعيلته مكبلاً بالسلاسل حليق الرأس يساق الى الاشغال الشاقة في سيبيريا والآخر ضابط جالس في غرفة جميلة نظيفة في دار الحرس يأكل طعاماً شهياً ويشرب خمراً جيداً ويقرأ ما يريد من الكتب وسيفرج عنه بعد ايام قليلة ليعود الى ما كان ولم ينله الاّ زيادة الشهرة بما فعل . فجاهر نيليدوف بما كان يفكر ووافقته خالته كاترينا وصمت جميع الحاضرين فشعر نيليدوف بانه ارتكب أمراً إدّاً . وبعد العشاء بدأ الزائرون يتوافدون الى ردهة الرقص الكبيرة المتلألئة بالانوار لسماع الواعظ الغريب كيزفتر . وجلس في تلك الغرفة الفاخرة الرياش سيدات مندمجات في الحرير والكشاكش والقطيفة بشعور مستعارة واجسام مكسوة بالقطن لتظهر في غير مظهرها الطبيعي وجلس بينهن رجال بملابسهم الرسمية . وكان كيزفتر رجلاً ضخم الجثة اشيب اللحية عظته بالانكليزية وترجمتها فتاة الى الروسية بعبارة واضحة وهاك ما قاله : ان خطايانا عظيمة جداً جداً والقصاص عظيم لا مفرّ منه ولا نجاة . ايها الاخوة الاعزاء دعنا نفكر لحظة فيما نفعل

وكيف نعيش وكم مرة فى اليوم نخالف وصايا الاله الرحوم فنتحقق ان لا غفران لنا ولا خلاص وان مصيرنا الى الهلاك الابدي . الى العذاب الدائم فى ذلك اللهيب الذي لايطفأ .. وكان يقول هذا الكلام بصوت مترجرج ثم صمت برهة وتساقطت العبرات على خديه فعلا الزفير فى جميع انحاء الغرفة وجلست الكونتس كاترينا مسندة رأسها الى كفيها ونظر حوذي كان موجوداً الى الجرماني برعب ودهشة وجلس الجميع ممثلين لكاترينا ايفانوفنا وجثت ابنة وولف النحيفة على ركبتيها ووجهها بين يديها

فكشف الخطيب وجهه بغتة وابتسم ابتسامة صحيحة كما يتبسم الممثلون فرحاً حين يمثلون دوراً مؤثراً وعاد الى الكلام بصوت رخيم فقال :

ـ ولكن لنا طريقاً للخلاص ـ طريقاً بهيجاً سهل المسلك ـ فالخلاص فى الدم الذي اهرق من اجلنا والدي اهرقه ذاك العظيم الذي تنازل من اعلى مجده لاجل خطايانا وآلامنا

فشعر نيليدوف عند سماعه هذه الموعظة بانقباض فى صدره ونهض صامتاً خجلاً ومشى على رؤوس اصابعه ذاهباً الى غرفته

« ١٥ »

لم يكد نيليدوف يفرغ من لبس ثيابه فى اليوم التالي حتى اتاه الحاجب برقعة من محامي موسكو كان قد قدم الى بطرسبرج لقضاء غرض خاص به ولحضور الجلسة التي يفحص فيها مجلس الشيوخ قضية ماسلوفا اذ وصله تلغراف نيليدوف فى الطريق ولما عرف من نيليدوف اسماء الاعضاء الفاحصين تبسم وقال انهم من الطبقات الثلاث فوولف أحد موظفي بطرسبرج . وسكوفوروف محلف نظري . وباي محلف تمريني وهو انقاهم ضميراً وعليه الأعتماد . ثم قال

وماذا كان من امر لجنة فحص العرائض

فقال نيليدوف : اني ذاهب اليوم الى البارون فوروبيوف . وقد لحظ المحامي ان نيليدوف لفظ هذا الاسم الغريب بازدراء فقال هل تعرف لماذا لقب بهذا اللقب . اجابه نيليدوف كلاً . فقال انه دعي بارونا لان القيصر بولس كافأ جده الذي كان خادماً في القصر بهذا اللقب مكافئة عن خدمة مجهولة ولذلك وجد البارون فوروبيوف الذي تراه اليوم فخوراً بلقبه وهو احمق لا يباريه أحد في الحماقة

فقال نيليدوف انا ذاهب لاراه . قال المحامي لا بأس فنذهب سوية

وحين همّا للمسير دخل حاجب برسالة من ماريت تقول فيها : اني خالفت مبدئي لارضيك وتداخلت مع زوجي بشأن التي تسعى في خلاصها والظاهر انه سيطلق سراحها في الحال لان زوجي قد كتب الى القومندان بهذا الصدد فتعال اذن غير منشغل البال واني انتظرك

فقال نيليدوف للمحامي : تأمل ؛ أليس الامر فظيعاً ؟ فقد سجنوا امرأة سبعة اشهر في القلعة وظهر الآن انها بريئة ولم تحتج للافراج عنها سوى الى كلمة واحدة فتأمل بما يجرى هناك من الظلم

فقال المحامي : ان الامر كذلك على الدوام فالاوفق ان لا تتعمق في مثل هذه الامور وساعده لركوب العربة واشار الى الحوذي بان يوصله الى دار البارون فوروبيوف وحين وصوله وجد في الغرفة الاولى موظفاً مرتدياً رداء رسمياً وسيدتين فسأله عن اسمه فاعطاه اسمه فقال ان البارون تكلم عنك تفضل وادخل ثم فتح له باب المكتب . فدخل نيليدوف ونظر رجلاً ضخماً متوسط القامة بشعر قصير جالسا على كرسي هزار مقابل طاولة

كبيرة وشاخصاً الى ما امامه . ولما شعر بدخول نيليدوف تحول نحوه بوجهه المتورد وابتسم له ابتسامة صداقة وقال : اني مسرور جداً لرؤياك فاني اعرف والدتك منذ زمن طويل وكانت الصداقة متمكنة بيننا وقد عرفتك صبياً وعرفتك ضابطاً فاجلس وقل لي ما الذى يمكنني ان افعله من اجلك . فاخذ نيليدوف يقصُّ عليه قصة تيوديزيا وهو يقول نعم ـ نعم ـ تم الحديث

ـ انا فاهم ـ انها حادثة مؤثرة ـ وهل سلمت العريضه ؟

ـ ان العريضه معي « واخرجها من جيبه » ولكني فكرت بان اكلمك اولا حتى تعار القضية جانب الاهتمام

ـ حسناً فعلت وساشرح القضية بذاتي وحاول ان يبدى على وجهه علامة الحنان والرفق فلم يفلح ثم قال انه امر مؤثر ومن الواضح انها لم تكن سوى طفلة وعاملها زوجها بالغلظة وهـذا ما دفعها الى ارتكاب الجرم ولكن مع كرور الايام تأصل الحب بينهما ومحي كل سوء ـ نعم ساشرح القضيه . والاوفق ان تسلم العريضة الى الموظف وسافعل ما اقدر عليه

وفى هذه اللحظة دخل موظف متأدباً وقال ان تلك السيدة تسأل السماح لها بتكلم بعض كلمات زيادة عما قالت . فقال البارون ادخلها . والتفت الى نيليدوف وقال : آه ياعزيزى كم يجب علينا ان نرث دموعاً منذرفة ؟ وليتنا نتمكن من تجفيفها ولكننا نفعل جهد استطاعتنا

فدخلت السيدة وقالت سهى عليَّ ان اسألك عدم السماح له بتزويج ابنته فانه مستعد .. فقاطع البارون كلامها وقال :

ـ قلت لك انى سافعل ما اقدر عليه

ـ استحلفك بالله ايها البارون بان تخلص والدة من الهلاك وامسكت

وامسكت ثلثمها . فقال البارون سنجري المقتضي اجراءهُ

ولما خرجت استأذن نيليدوف بالانصراف . فقال البارون سابذل جهدي في نظارة الحقانية وغيرها وحين الحصول على الجواب نفعل ما يقدرنا الله عليه

وخرج نيليدوف من غرفة البارون وعاد الى المكتب فلقي هناك كما لقي في مكتب مجلس الشيوخ من الزخرفة والاتقان وقد كانت القاعة مكتظة بالموظفين المتانقين في ملابسهم المتأدبين في كلامهم وحركاتهم المنتظمين في اعمالهم . فقال ما اكثرهم وجميعهم معلوفون يتمزقون سمناً وما انظف اقصتهم وايديهم وما اشد لمعان احذيتهم المصقولة فمن يصقلها لهم ؟ ما اسعدهم جميعاً اذا قوبلوا ليس بالمسجونين فقط بل بالفلاحين أيضاً . وعادت هذه الافكار فتراكمت عليه وعاد الى حزنه وكآبته

* * *

كان الرجل الذي يعتمد عليه في تخفيف آلام سجناء بطرسبرج جنرالاً هرماً حسن السمعة وهو بارون من اصل جرماني قيل عنه انه بلغ منصبه بحذقه وذكائه . وقد نال عدداً وافراً من الرتب والوسامات ولكنه اقتصر على حمل وسام الصليب الابيض منها وقد نال هذا الوسام الذي فاخر به حين كان موظفاً في القوقاس فجند عدداً من الفلاحين وحملهم البنادق والحراب فقتلوا تحت امرته نحو الف رجل من الاهالي الذين كانوا يدافعون عن حريتهم واوطانهم وخدم بعد ذلك في بولونيا حيث حمل الفلاحين الروس على ارتكاب جرائم كثيرة ونال رتباً ووسامات لبزته . وبعد ان

ضعفت همته واضناه الكبر تولى هذا المنصب الذي ضمن له بيتاً جميلاً ودخلا وافراً واحتراماً زائداً وقد حرص على النظامات التي كانت تسنّ من « شاهق » بدقة وكان شديد الغيرة على انفاذ تلك الاوامر الصادرة « من فوق » (١) وكانت واجباته الحجر على السجناء السياسيين من رجال ونساء منفردين في حالة تقضي على نصفهم في نحو عشر سنين فتذهب عقول بعضهم ويموت البعض بالسل والبعض بالانقطاع عن الاكل وبقطع شرايينهم بأيديهم

ولم يكن الجنرال الشيخ يجهل ذلك لانه كان يقع تحت عينيه ولكنه لم يكن ليؤثر على ضميره اكثر من تأثير الحوادث الطبيعية كانقضاض الصواعق وانهمال الامطار بغزارة وجريـ السيول الجارفة لانه كان يعدّ هذه الامور نتيجة لانفاذ الاوامر الصادرة « من فوق » وكان من العبث تفكيره بعواقب هذا التنفيذ لانه كان يحسب هذه الاوامر من اكبر الواجبات الوطنية المقدسة

وقد كان هذا الشيخ يطوف القاعة مرة في كل اسبوع متفقداً جميع الحجر يسأل المسجونين عما يلزمهم ويصغى الى مطالبهم بكل انتباه لكنه لايجيب واحداً منها لانه لم يكن بينها وبين النظامات انطباق

وحين ركب نيليدوف العربة قاصداً منزل الجنرال الشيخ دقّت ساعة القبة المثلثة لحن « ما أعظم الرب » فاعادت هذه الالحان الى مخيلته ما كان قد قرأه عن الدسمبريين (٢) وكيف كان هذا اللحن العذب الذي يردد في كل

(١) يعني المؤلف : الاوامر الصادرة من السلطة العليا برئاسة القيصر

(٢) الدسمبريون جماعة حاولوا وضع حدّ للحكم المطلق في روسيا بواسطة ثورة عسكرية زمن ارتقاء نقولا الاول العرش في عام ١٨٢٥

ساعة يقع صداه في قلوب اولئك المسجونين سجناً مؤبداً

وكان الجنرال الشيخ جالساً في غرفة الاستقبال يقلب صحناً صغيراً على فرخ من الورق بمساعدة استاذ شاب اخ لاحد مرؤوسيه وكانت اصابع هذا الشاب النحيفة ضاغطة على اصابع الجنرال الضخمة واليدان على هذه الصورة تمران بالصحن على الورقة المرسوم عليها جميع احرف الهجآء وكان الصحن يجيب اسئلة يلقيها الجنرال عن كيفية تعارف الارواح بعد الممات . وحين ارسل نيليدوف رقعة الزيارة مع الخادم كانت روح جان دارك تتكلم بمساعدة الصحن وكانت قد لفظت حرفاً بحرف الكلمات الآتية « انهم يعرفون بعضهم بعضاً بواسطة » ولما دخل الخادم وقف الصحن على حرفي « ب و « ي » واخذ يترجرج فزعم الجنرال من هذه الرجرجة ان الحرف التالي يجب ان يكون « ف » وان روح جان دارك ستقول ان الارواح تتعارف بواسطة تطهيرها من كل شيء معارضاً الاستاذ الشاب الذي زعم ان ما تقوله الروح هو ان الارواح تتعارف بواسطة النور المنبثق من اجسامها الكوكبية . وجلس الجنرال عابساً مقطباً حاجبيه يحدّق باليدين المبسوطتين فوق الصحن ويجذبه نحو حرف « ب » زاعماً انه يتحرك من ذاته . وكان الاستاذ الشاب مصوباً عينيه الى زاوية مظلمة في الغرفة ويجذب الصحن نحو حرف « ل » فعبس الجنرال عند ما ناوله الخادم الرقعة وقال دعه يدخل الى المكتب . فقال الاستاذ الشاب دعني اتم العمل واذهب انت اليه . فسار الجنرال يخطو خطوات كبيرة ثابتة الى المكتب . وحين رأى نيليدوف قال انني مسرور بلقياك فهل انت منذ عهد بعيد في بطرسبرج فقال نيليدوف: اني اتيت حديثاً

فقال الجنرال : وهل البرنسيس والدتك في صحة تامة

ـ والدتي ماتت منذ ثلاث سنين

ـ سامحني فقد تولاني اسف شديد من هذا الخبر المكدر لاني اعدُّ نفسي من اصدقاء بيتكم الكريم وقد خدمت مع والدك زمناً كنا فيه صديقين حميمين فاخبرني ماذا تريد ؟ وبمَ يمكني ان اخدمك

قال نيليدوف : اكلف خاطرك بامر وهو ان في القلعة سجيناً اسمه غوركوفتش تريد والدته مقابلته أو على الاقل ان ترسل اليه بعض كتب فلم يبدِ الجنرال ارتياحاً ولا اشمئزازاً الى طلب نيليدوف ولكنَّهُ امالَ رأسه واغمض عينيه كأنه يفكّر . وهو في الحقيقة لم يفكّر في شيء ولم يهتمّ بما طلبه منه ثم انتبه وقال لنيليدوف : انَّ الامر ليس من خصائصي بل انَّ للمقابلات قانوناً خاصاً وضعه القيصر بنفسه . وأمّا من حيث الكتب فلنا في القلعة مكتبة تحتوي على الكتب اللازمة وللمسجونين ان يأخذوا منها ما هو مسموح به .

فقال نيليدوف نعم ولكنَّ السجين يطلب كتباً عليَّةً ليتم دروسه

فقال الجنرال بصوتٍ جهوري لا تصدّق ذلك ثم سكت برهةً واستطرد فقال ليس مرادهُ الدرس بل انَّ طلباته المختلفة صادرة عن قلقٍ وضجر .

قال نيليدوف : وماذا يُفعلُ اذاً ؟ يجب ان يشغلوا انفسهم بامر ما في حالتهم الصعبة المرَّة .

قال الجنرال : انهم يتظلّمون على الدوام ونحن نعرفهم . وقد اطال الكلام على مجموعهم كأنهم من ذوي الاخلاق المنحطة ومن

الاشرار . واستطرد في الكلام فقال انّ لهم من رغد الحياة هنا ما لا يجده الانسان في كثير من المحلاّت لانّ ذوي السلطة قد اوجدوا لهؤلآء المسجونين مساكن رحيبة ومريحة . ولا انكر انّ هذه المساكن كانت غير وافية بالمراد من قبل ولكنها تحسنت تحسناً بيّناً الآن واصبح المسجونون فيها كأنهم بين اهلهم وذويهم . ولهم ثلاثة اصناف لطعام الغداء احدها من اللحوم . وفي أيام الآحاد لهم صنف رابع من الحلوى . وانعم الله على كلّ روسيّ بان يعيش كما يعيشون . وقد كان الجنرال كلّ شيخ سواه بعد ان رسخ في ذهنه معتقد يسرد البراهين العديدة التي اقامها مراراً في الماضي مثبتاً فيها عدم احقيّة المسجونين في مطالبهم وجحودهم النعمة فقال : انّ لديهم كتباً دينيّة وصحفاً قديمة وحديثة ولنا في القلعة مكتبة ولكنهم لا يقرأون الاّ نادراً . وهم يبدون شيئاً من الاهتمام اوّل دخولهم ولكنهم لا يلبثون ان ينبذوا القراءة والكتابة ويهداء روعهم في الحال بعد ان يظهروا قلقاً وضجراً عظيمين فيسمنون ويتعافون . وقد قال هذا القول دون ان يبالي بما تؤدي كلماته اليه من المعاني المشينة .

وقد اصغى نيليدوف الى صوت الشيخ الجهوري ناظراً الى ساقيه الثابتتين وعينيه الباهتتين تحت الحاجبين الاشيبين والفكّين المتجعّدين المصقولين بالموسى المطوّقين بطوق اللباس العسكري والى الصليب الابيض الذي كان يفخر به هذا الشيخ لانه غنمهُ من اجل فظائع هائلة ارتكبها ومذابح بربرية اقترفها وعرف انهُ من العبث اجابة هذا الرجل أو ايضاح معنى كلماته له . فسأل سؤالاً آخر عن السجينة شوستوفا التي تلقّى خبر صدور الامر بالافراج عنها في هذا الصباح .

فقال الشيخ شوستوفا : لايمكني ان اتذكر كلّ اسمائهم لأنّ هنا كثيراً منهم . فقرع الجرس وامر باستدعاء كاتم السرّ وأثناء انتظاره اخذ يقنع نيليدوف بالاندماج في خدمة الحكومة قائلاً ان الرجال الامناء (معتبراً نفسهُ واحداً منهم) يفتقر اليهم القيصر والبلاد . وانا رجلٌ شيخٌ ولا ازال اخدم قدر استطاعتي . ثم دخل كاتم السرّ وقال انّ شوستوفا مسجونةٌ في محلّ حصين منيع وانهُ لم يتلقَّ اوامر بشأنها

فقال الجنرال متبسماً حين يصلنا الامر لا نبقيها ساعةً واحدةً فاننا لا لا نروم حفظهم

فنهض نيليدوف محاولاً عدم اظهار امارات الاحتقار الذى شعر به نحو هذا الشيخ المخيف . وشعر الشيخ بانّ الواجب عليه عدم ابداء القساوة نحو ابن صديقهِ الكريم العديم الفكر والقليل التدبر فرأى ان لا يدعه يذهب دون ان يزوّده بنصائحهِ المفيدة فقال : استودعك الله أيها العزيز ولا ترتب في ما اقولهُ لك الآن فانّ مودّتي هي التي تدفعني الى نصحك . فلا تلتصق بمثل هؤلاء الناس الذين نحجر عليهم هنا اذ ليس بينهم واحد بريء وجميعهم منحطّو الاخلاق ونحن نعرفهم . وقد قال هذا القول بلهجةٍ دلّت على عدم ارتيابهِ في كلمةٍ ممّا يقول

ولم يرتب الشيخ لا لانّ الامر كان كذلك بل لانه لو لم يكن كذلك لوجب ان لا يعدّ نفسهُ رجلا نبيلاً عائشاً آخر ايام حياتهِ عيشةً راضيةً بل نذلاً باع ولا يزال يبيع ضميرهُ في شيخوخته .

واستطرد فقال لنيليدوف اذهب واخدم فالقيصر والوطن في حاجة الى رجال امناء . ولو فرض اني انا وسواي نرفض الخدمة كما ترفضها انت

فمن الذي يبقى . أيجوز ان نرى الاختلال والاعتلال في النظام سائدين ولا نمدّ ايدينا للمساعدة.

فتنهد نيليدوف تنهداً عميقاً وانحنى أمام الشيخ وودّعهُ وانصرف

فهزّ الشيخ رأسهُ غير مرتاحٍ الى ما بدا لهُ من ابن صديقهِ وعاد الى غرفة الاستقبال حيث كان الاستاذ في انتظاره . وكان الجواب الذي اجابته روح جانِ دارك قد كُتِب فوضع الجنرال نظارتيهِ على عينيه وقرأ : « إنهم يعرفون بعضهم البعض بالروح المنبثقة من اجسادهم الكوكبية » .

فتنهد الجنرال وقال مغمضاً عينيه كيف يمكن الانسان ان يحققهم اذا كان نور الجميع متماثلاً وعاد الى قرن اصابعهِ باصابع الاستاذ ووضعها على الصحن

وساق الحوذيُّ نيليدوف الى خارج الباب ثم قال لهُ انَّ النفس تنقبض في هذا المحلّ وقد جال بفكري ان اذهب بعربتي دون ان انتظرك .

فوافقه نيليدوف وقال نعم انهُ محلٌّ كآبة وتنفَّسَ تنفُّساً عميقاً ونظر الى الغيوم المتلبّدة في السماءِ والى السفن الماخرة في نهر النيفا نظرة الخلاص والفرج .

« ١٦ »

وكان اليوم التالي موعد سماع قضية ماسلوفا في مجلس الشيوخ وتقابل نيليدوف والمحامي عند مدخل البناءِ الفخيم حيث كانت عربات كثيرة في الانتظار . وبعد ان صعدا الى لدور الاوّل وكان فانارين خبيراً بمداخل المحل ومخارجه سار نيليدوف يتبعه فدخلا من بابٍ مرسوم عليه تاريخ ادخال قانون الشرائع .

وبعد ان خلع فانارين رداءهُ في الغرفة الضيقة عرف من الخادم انَّ اعضاء المجلس جميعهم هناك . فدخل بسترته الطويلة الذيل وبالرباط الابيض فوق القميص الابيض وبابتسامة دلت على اعتداده بنفسه الى الغرفة المجاذية حيث كان الى اليمين خزانة والى الشمال سلمٌ متحركٌ نزل عليه موظف متقن اللباس متأبطاً محفظة . وكان في هذه الغرفة شيخ جليل بشعر ابيض طويل وهيئة وقورة جذب اليه انظار الجميع . وكان مرتدياً رداءً قصيراً ولباساً ابيض والى جانبه حاجبان واقفان باحترام فدخل هذا الشيخ الخزانة واغلقها عليه .

نظر فانارين محامياً نظيرهُ مماثلاً لهُ في اللباس فاخذ للحال يجاذبهُ اطراف الحديث وكان نيليدوف يجيل نظرهُ فاحصاً الحاضرين . وكان الجمهور مؤلفاً من نحو خمسة عشر شخصاً بينهم سيدتان الصغرى منهما بنظارتين والكبرى بشعر ابيض .

وقد كانت القضية التي ستنظر في تلك الجلسة قضية طعن صحافية ولذلك كان عدد الجمهور فوق المعتاد واكثرهم من عالم الصحافة .

واقبل حاجب متقن اللباس بقرطاس في يده على فانارين وسأله عمَّا يريد ولما عرف انهُ آت لمسألة ماسلوفا دوَّن شيئاً في القرطاس وذهب . ثمَّ فُتح باب الخزانة وخرج منها الشيخ الجليل لابساً الصدير المصنوع من صفائح معدنية لامعة على صدره وداخل كسوة مزركشة بالذهب جعلته يظهر كاحد الطيور الملوَّنة . وظهرت على محيَّا هذا الشيخ دلائل السآمة من هذا الشكل المضحك الغريب .

فقال فانارين لنيليدوف هذا هو بأي الرجل الذي فاق اقرانهُ بالذكاء

ثم عرّفه برصيفه الذي اخذ يشرح القضية التي ستسمع مظهراً عظم اهمّيتها ثم بدئ بسماع القضية فنهض نيليدوف مع الجمهور ودخلوا غرفة مجلس الشيوخ وجلسوا جميعهم مع فانارين وراء الحاجز عدا محامي بطرسبرج الذي جلس الى طاولة مقابلة للحاجز .

وكانت غرفة مجلس الشيوخ اصغر من غرفة محكمة الجنايات وابسط اثاثاً ولكنّ الطاولة التي امام الشيوخ كانت مغطاة بغطاء من القطيفه قرمزيّ اللون مزركش بالذهب بدلاً من الجوخ الاخضر . وصاح الحاجب حسب العادة المألوفة « المحكمة » فنهض كلٌّ من الحضور حسب المعتاد ودخل الشيوخ بالاردية الرسمية الوهّاجة وجلسوا على كراسي عالية واسندوا اذرعتهم الى الطاولة محاولين الظهور بمظهر طبيعي كما يفعل القضاة في محكمة الجنايات . وقد كان اربعة من الشيوخ حاضرين وهم نيكيتين الذي رأس الجلسة مصقول الخدّين بوجهٍ ضئيل وعينين جامدتين وورلف بشفتين منطبقتين تدلاّن على شيءٍ في ضميره ويدين صغيرتين بيضاوين كان يقلب بهما اوراق العمل . وشوفور رجلٌ ثقيل سمين وكان محلفاً عالماً . وباي ذو المنظر الوقور الذي وصل بعد الجميع

ودخل مع الشيوخ السكرتير والنائب وهو شابٌّ متوسط القامة اسمر البشرة وعينين سوداوين دلالتهما الكآبة . وقد عرف نيليدوف هذا الرجل في الحال رغم ردائه الرسمي الغريب وبعده عنهُ منذ ستّ سنين . لانه كان من اعزّ اصدقائه في ايام الدراسة . فحوّل نظرهُ نحو المحامي وقال : « النائب سلانين ؟ »

فقال المحامي : « نعم . هو بعينه ماذا تريد منه

قال : اني اعرفه وهو شابٌّ حسنُ الاخلاق .

فقال المحامي : وهو نائب من احسن النوّاب ورجل عمل . وهو الرجل الذى كان يجب عليك ان تنتفع منه .

فقال نيليدوف : مهما كان الامر فهو يعمل بما يوحي اليه ضميره وتذكر عند هذا القول صداقته للرجل وما كان عليه من حسن الطوية وعزة النفس وشرف المحتد.

فقال فانارين : نعم قد فاتت الفرصة وكان يصغى الى تقرير القضية الذي بُديءَ بتلاوته .

وكانت قضية نقض لحكم استئنافي ايّد حكماً ابتدائياً . فاصغى نيليدوف بامعان محاولاً ادراك كنه ما كان جارياً ولكنّ الامر لم يختلف هنا عنهُ في محكمة الجنايات فلم تدر المناقشة على النقط الجوهرية المهمة بل على امور عرضية لا طائل تحتها . وكانت القضية نشر احدى الجرائد تزويراً اتى به مدير احدى الشركات . والذي ظهر منها ان المسألة الوحيدة المهمة فيها هي ما اذا كان المدير قد خان ما اؤتمن عليه حقيقة واذا كان الامر كذلك فايقافه عن الاستمرار في الخيانة . ولكن المسائل التي طرحت للبحث فهى ما اذا كان للمحرر حق شرعي بنشر هذه المقالة وما هو الذنب الذي يعاقب عليه من نشرها أذنب الوشاية ام ذنب الطعن وفي اي الوجوه تشتمل الوشاية على الطعن او يشتمل الطعن على الوشاية . وامور كهذه مبهمة لعامة الشعب عن انواع سنن وروابط وافقت عليها احدى المقامات .

والامر الوحيد الذي وضح لنيليدوف هو انهُ رغم القاعدة التي اسند

نيليدوف قولهُ اليها في اليوم الفائت وهي (ان مجلس الشيوخ لا يمكنهُ البحث في قضية من حيث استحقاقها) ـ كان في هذه القضية مصمماً على نقض قرار محكمة الاستئناف . وان سلانين خلافاً لما نشأ عليه من طبيعة التحفظ دافع عن الوجه المعارض بحدة غير منتظرة . وهذه الحدة التي ابداها سلانين المستقل في الرأي والتي ادهشت نيليدوف كانت ناشئة عن علمه باتساع ثروة مدير الشركة وعما اتصل به من ان وولف كان مدعوا مع عدد كبير من العظماء الى وليمة اولمها المختلس في بيته منذ بضعة ايام .

وقد عرف وولف انهُ هو المراد بمعارضة سلانين الشديدة فاحمر وجهه وذهب مع رصفائه الشيوخ الى غرفة المداولة

ثم اقبل الحاجب على فانارين ثانية وقال لاية قضية اتيت .

فقال فانارين لقضية ماسلوفا كما اخبرتك قبلاً .

قال جيداً ستسمع اليوم ـ ولكن ـ

فقال المحامي ولكن ماذا ؟

قال انهم لم ينتظروا سماع ادلة عليها حتى ان من البعيد عودة الشيوخ بعد اصدار قرارهم في القضية التي سمعت ولكني ساخبرهم .

فقال فانارين : ماذا تعني بذلك ؟

قال ساخبرهم ساخبرهم وعاد فدوّن شيئاً في الورقة

وقد اراد الشيوخ حقيقة اصدار قرارهم بشأن قضية الطعن واتمام باقي الاعمال ومنها قضية ماسلوفا بين شرب الشاي والتدخين دون ترك غرفة المداولة . ولكنَّ حضور فانارين حال دون رغبتهم هذه وحرمهم الراحة والتلذُّذَ بالملذات .

« ١٧ »

في حال جلوس الشيوخ حول الطاولة في غرفة المداولة اخذ وولف بحماسٍ شديد يبين الاسباب التي توجب النقض . أما الرئيس الذي كان سيءَ الاخلاق فقد استولى عليه الحقد والغيرة في ذاك النهار وكانت افكارهُ مصوّبة الى كلمات دوّنها في مذكّرتهِ بشأن الاغضاء عنهُ وتعيين ويجلانوف في منصبِ سامٍ كان يتوق اليهِ ويعلق آمالهُ عليه . وقد كان الرئيس نيكيتين يعتقد تمام الاعتقاد انّ آراءهُ في ذوي المناصب من الرتبتين الساميتين اللتين كان لهُ بهما علاقة سيكون لها شأن كبير عند مؤرخي المستقبل . من الرتبتين الساميتين المشار اليهما فد منعاهُ من ايقاف الدمار الذي كان الحكام الروسيون الحاليون يقذفون بالبلاد اليه . وكانت حقيقة المراد من هذا الفصل انهم حرموه من الحصول على راتبٍ اعلى . وكان الآن يصوّر في عقلهِ النور الجديد الذى سيلقيه هذا الفصل على الاعقاب . فقال مجيباً على كلمات وولف « نعم ـ بلا ريب » ولم يكن قد اصغى الى شيءٍ منها.

وكان باي يصغى الى كلام وولف بوجهٍ كئيب ويرسم اكليلاً على ورقة امامهُ . وكان ينتمي الى الحزب الحرّ ويحافظ سرّاً على التقاليد القديمة وحين كان يتعدّى حدود العزلة كان يميل نحو مذهب الاحرار . ولذلك رأى في هذه القضية عدا ادانة المدير المختلس انّ معاقبة صحافي من اجل طعن يعدّ حجزاً لحرية الصحافة وكان هذا السبب وحدهُ كافياً لان يرفض باي النقض

وحين انتهى وولف من تقديم ادلته توقف باي عن رسم اكليله وقال بصوتٍ لطيف كئيب (وشعر بالكآبة لانه رأى نفسه مضطرّاً الى اثبات

حقائق ثابتة من نفسها) انّ المدعي لا حقّ لهُ بطلب النقض ثم احنى رأسه الابيض وعاد الى رسم اكليله .

أما سكوفور الذي كان جالساً مقابل وولف يدخل شعر لحيته وشاربيه في فيه فقد اخرج الشعر من فيهِ حين انتهى باي من كلامه وقال بصوتٍ عالٍ : ومع ان في عمل المدير خيانةً عظيمةً فلهُ الحق في طلب النقض لو كان ثمّت اسباب قانونية تسوّغ لهُ ذلك وحيث لا توجد هذه الاسباب فهو اي سكوفور من رأي باي . وقد سرّ من وضعه لهذه العقبة في سبيل وولف .

ووافق الرئيس على قول سكوفور ورفض الاستدعاء .

فامتعض وولف مما جرى خصوصاً لزعمه ان رفاقهُ تحاملوا عليه ولكنه اظهر عدم الاكتراث . وحين بسطت اوراق قضية ماسلوفا اراد افراغ سم انتقامه فيها . ثم امر الشيوخ باستحضار الشاي واخذوا يتحدثون بحادثة المبارزة التي ملأ خبرها جميع انحاء بطرسبرج وفي قضية رئيس احدى نظارات الحكومات الذي اتهم بجرم اسندت اليه المادة ٩٩٥ . من قانون العقوبات فقال باي مستنكفاً ما اقبح هذا العمل .

فقال سكوفور وايُّ ضرر فيه ؟ فاني اقدر ان اريكَ كتاباً روسياً محتوياً على مبداء لاحد كتّاب الالمان مبيناً فيه بوضوح ان هذا العمل لايجب ان يعدّ جرماً من الاجرام وانه يجب ان يرخص للذكور بان يتزوّجوا ذكوراً . واستلقى على ظهره من الضحك بعد ان فاه بالكلمة الاخيرة .

فقال باي : هذا امرٌ مستحيل .

فقال سكوفور سأريكَ الكتاب . وذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه

وتاريخ طبعه والمحل الذى طبعَ فيه .

قال باى سمعتُ ان الرجل عيّن حاكماً لاحدى مدن سيبيريا .

فقال سكوفور نِعمَ ما فعلت الحكومة . وسيقابلهُ الاسقف حاملا الصليب . والواجب عليهم ان يعينوا لذالك المحل اسقفاً من المذهب ذاتهِ ولو سئلتُ لارشدتهم الى واحد . ثم وضع عقب لفافتهِ في الصحن وعاد الى مضغ شعر لحيته وشاربيه .

ودخل الحاجب واعلن رغبة المحامى ونيليدوف بخصوص البحث في قضية ماسلوفا.

فقال وولف : ان هذه القضية روائية محضة واخذ يشرح ما عرفهُ عن علاقات نيليدوف بماسلوفا . وبعد ان تحدثوا قليلا عنها وفرغوا من شرب الشاي عادوا الى غرفة الجلسة واصدروا قرارهم في قضية الطعن وبدأوا بسماع قضية ماسلوفا

فاخذ وولف يتلو استدعاء ماسلوفا بلهجة تدل على رغبته في نقض الحكم

فحول الرئيس نظره الى فانارين وقال هل لك شيء تقوله ؟ فوقف فانارين واخذ يبرهن بمهارة وذلاقة لسان شرود محكمة الجنايات في ست نقط عن مؤدي نص القانون وعدا ذلك فقد تجاوز الى ماتستحق هذه القضية من النتيجة والى الظلم البادي من الحكم . وقد كانت لهجة خطابه القصير الشديد عبارة عن دفاع لدى الشيوخ الذين كانوا بادراكهم وحكمتهم القضائية لا يسعهم الا النظر اليها وفهمها احسن منه وكانت خطبته لازمة فقط لاتمام الواجب الذي اخذه على عاتقه .

وبعد ان فرغ فانارين من خطابه كان يظن الانسان انه لم يبق ريب في نقض مجلس الشيوخ لحكم محكمة الجنايات . وحين اتم هذا المحامى كلامه نظر

الى ما حوله بابتسامة الظفر ولما رأى نيليدوف هذه الابتسامة ايقن بربح القضية ولكنه لما حول نظره الى الشيوخ رأى فانارين متفرداً في الابتسام . فان الشيوخ والنائب لم يبتسموا ولا تهللوا بل ظهروا كاناس قد ملوا وسروا بانتهاء المحامي من كلامه قائلين في انفسهم لقد سمعنا منك مثل هذا القول كثيراً واقد اجهدت نفسك باطلا . ثم تحول الرئيس نحو النائب فطلب هذا ابرام حكم المحكمة لانه لم ير اسباباً قانونية تستلزم النقض . وبعد ذلك دخل الشيوخ غرفة المداولة وانقسموا في الرأى . فطلب وولف قبول الاستدعاء ووافقه باى . ولكن نيكتين الذى كان يميل الى الشدة والقساوة اتخذ الوجه الاخر وتوقف صدور القرار على رأى سكوفور فرفض هـذا النقض بانياً رفضه بوجه خاص على رغبة نيليدوف في الاقتران بالمرأة لدافع ادبي وكان هـذا العزم منافياً لمعتقده لانه كان مادياً وداروينياً فعد أي اعلان لخلاصة ادبية أو بالحرى لدين من الاديان ليس فقط ضرباً من الجنون بل أيضاً اهانة شخصية له . ولذلك ادخل شعر لحيته في فيه وقطب وجهه ولم يشأ ان يعرف شيئاً عن هذه القضية سوى ان الاسباب التي تستلزم النقض غير كافية وانه يوافق الرئيس على ابرام حكم المحكمة فأُبرم الحكم .

قال نيليدوف وهو خارج الى غرفة الانتظار مع المحامي انه لامرٌ مريع . ففي امر واضح جلياً يعلقون الاهمية على الشكل الظاهر فقط ويحجمون عن التعمق للبحث في الحقائق فما افظع ما يفعلون .

فقال المحامي ان القضية قد اتلفت في محكمة الجنايات

فقال نيليدوف وسلانين أيضاً كان من الرافضين . باللفظاعة وباللقساوة ؟ وما الذى يمكن عملهُ الآن ؟

فقال المحامي سنرفع الامر الى جلالة القيصر ويمكنك ان تقديم العريضة وانت موجود هنا . وساكتبها انا لك .

وفي هذه اللحظة خرج وولف بنجومه ولباسه الرسمي واقترب من نيليدوف وقال لم يكن في المسئلة حيلة أيها الامير فالاسباب المدرجة في الاستدعاء غير كافية وقد هز كتفه وهو يتكلم وظل ساثراً .

وخرج سلانين وراء وولف وكان قد سمع من الشيوخ بوجود صديقه القديم نيليدوف هناك فقال مبتسماً بشفتيه فقط مع بقاء عينيه جامدتين لم انتظر ان القاك هنا ولا علمت بوجودك في بطرسبرج .

فقال نيليدوف وانا لم اعلم بأنك النائب العمومي .

فقال سلانين مصححاً لا بل مساعد ولكن كيف وجدت هنا في مجلس الشيوخ ؟ فقد سمعت بطريق العرض انك في بطرسبرج ولكن ما الذي تفعله هنا ؟

فقال انى هنا لانى رجوت ان اجد عدالة واخلص امرأة بريئة حكم عليها ظلماً

- واية امرأة هي ؟

- هي التي صدر القرار في قضيتها الآن .

- فتذكر سلانين حالا وقال « قضيه ماسلوفا » ولكن الاستدعاء لم يبنَ على اساس .

- ليست المسألة مسألة استدعاء بل هي مسألة امرأة بريئة وقد حكم عليها بالعقاب .

- فتنهد سلانين وقال ذلك ممكن . ولكن ؟ ؟

- ليس الامر ممكناً بل هي الحقيقة بعينها

- وكيف تعرف ذلك ؟
- لاني كنت من المحلفين وعرفت الخطاء الذي اخطأناه .
- فاخذ سلانين يفكر ثم قال كان يجب عليك ان تقدم تقريراً .
- قد قدمتُ تقريرا .
- كان يجب تدوين ما قررتهُ في تقرير رسمي . واضافة هذا الى العريضة
- نعم ولكن مهما كانت الحالة فالحكم لا شك جائر .

فقال سلانين ليس لمجلس الشيوخ الحق بان يقول مثل هذا القول . فلو أخذ المجلس على نفسه نقض قرارات محاكم القضاء لمجرّد نظره فيما اذا كانت هذه القرارات عادلةً في نفسها لفقدت احكام المحلفين كلّ معناها ويكون مجلس الشيوخ بدون اساس يركز عليه فيناقض على الغالب العدل بدلاً من ان يقيمهُ .

فقال نليدوف كلُّ ما اعرفهُ ان هذه المرأة بريئة وان آخر رجاء لخلاصها من قصاص لا تستحقهُ قد اضمحل . وافظع ظلم قد ايدته المحكمة العليا.

فقال سلانين : قد أيد الحكم ومجلس الشيوخ لا يمكنهُ التداخل في درجة استحقاق القضية نفسها . ولم يكن قد سمع بعلاقة نليدوف بما سلوفا وعرف نليدوف ذلك فلم يشاء ان يطلعه على سره .

« ١٧ »

برح نليدوف والمحامي مجلس الشيوخ فاخذ المحامي يقص عليه خبر رئيس احدى نظارات الحكومة الذي كان الشيوخ يتحدثون بامره فقال ان الحادثة قد ضبطت والرجل الذي كان يجب ارساله الى المناجم ليشتغل بالاشغال

الشافة بحكم القانون قد عين حاكماً لمدينة في سيبيريا . وبعد ان فرغ من هذه القصة مع كل ما تعلق بها من الفذارة اخذ يتلو حكاية عددٍ من ذوي النفوذ اختلسوا اموالاً طائلة جمعت لاجل اقامة التمثال الذي لا يتم ابداً الذي قرأ عنه في ذاك الصباح . وحكاية وصيفة احد العظماء التي ربحت الملايين في البورصه وحكاية كبير اتفق مع كبير آخر على ان يبيعه زوجته . وحكايات نصب وجنايات ارتكبها رجال ذو مناصب عالية وبدلا من ان يزجوا في السجون يجلسون على كراسي الرئاسة في دواوين الحكومة المختلفة . وقد سر المحامي لسرد هذه الحوادث مبيناً ان الوسائل التي يتخذها لكسب المال شرعية اذا قورنت بالوسائل التي يتخذها كبار رجال الحكومة في بطرسبرج . ولذلك دهش حين رأى نيليدوف راكباً عربة يودعه قبل ان يسمع ختام حديثه .

وشعر نيليدوف بحزن عميق نشأ اكثره عن رفض مجلس الشيوخ الاستدعاء مؤيداً التعذيب الناتج عن حكم صدر بدون احساس وفكر الذي كانت ماسلوفا البريئة تقاسيه وخصوصاً لان هذا الرفض صعب عليه التوفيق بين اموره وامورها .

واسف ايضاً شديد الاسف للحوادث التي قصها المحامي عليه مثبتة تفاقم الجرائم والآثام بين عظماء الشعب في عاصمة المملكة وايضاً لنظره الفتور الذي قابله به سلائين ذاك الصديق الطيب القلب والشريف العواطف الذي قلبته وظيفة الحكومة الى عكس ما كان .

وحين عودته ناوله البوّاب رسالةً وقال انّ امرأة كتبتها في القاعة . وكانت الرساله من والدة شوستوفا قالت فيها انها اتت لتشكر مخلّص ابنتها وتدعوهُ لزيارتهم في فاسيليفسكي .

ووجد أيضاً رسالةً من صديق قديم لهُ اسمهُ بوجاتيريف من اركان حرب القيصر كان قد سألهُ تسليم عريضة بشأن السكتاريين لشخص الامبراطور . فقال هذا في رسالته انه يسلم العريضة لشخص الامبراطور كما وعد ولكنهُ يرى الاوفق ان يذهب نيليدوف اولاً الى الشخص الذي تتعلق المسألة بهِ .

وبعد ما حدث من العراقيل في بضعة الايام الآخرة شعر نيليدوف بقطع الرجاء من اتمام امرٍ ما . فكل الخطط التي اختطها في موسكو كانت كاحلام الشباب . ولكنه لوجوده في بطرسبرج رأى من الواجب القيام بما نواهُ وعزم في اليوم التالي بعد استشارة بوجاتيريف على ان يتبع نصحه ويقابل الشخص الذي تتعلق به قضية السكتاريين . فتناول عريضتهم من محفظته واخذ يتلوها واذا بالباب يطرق ودخل حاجب برساله في يده من الكونتس كاترينا ايفانوفنا تسألهُ المجيء وشرب الشاي معها .

فقال نيليدوف انهُ آتٍ واعاد الاوراق الى المحفظة وقصد خالتهُ في غرفة الجلوس . ونظر من النافذة الى الطريق فرأى عربة ماريت أمام باب القصر فابرقت اسرته وشعر بالميل الى الابتسام . وحين وصوله كانت ماريت جالسة الى جانب الكونتس بالقبعة على رأسها مرتدية ملابس خفيفة كثيرة الالوان وفنجال الشاي في يدها وعيناها الجميلتان الضاحكتان تبرقان . وحين دخل نيليدوف كانت ماريت قد قصّت حكاية عرف انها مضحكة للغاية من جسم خالتهِ الكونتس الضخم الذى كان يهتزّ من شدة الضحك . وعرف من بعض كلمات التقطها انهما كانتا تتكلمان عن حادثة بطرسبرج والحاكم السيبيري الجديد وانّ ماريت لفظت عبارةً مضحكة جعلت الكونتس لا تملك

حواسها مدة طويلة .

فجلس نيليدوف بعد ان القى التحية . وقد كاد ينتقد طيش ماريت في فكره فلحظت ذلك منه وغيّرت للحال مظهر محيّاها لمرضاته حين نظرت اليه وابدت الرزانة وعدم الارتياح واظهرت انها تبحث عن شيء ثم سألته عما اجراهُ في مهماته المختلفة فاخبرها عن فشله في مجلس الشيوخ وعن مقابلته لسلانين

فقالت لله دره ما اطهر نفسه ثم رددت الاثنتان هذه العبارة وقالتا انه زهرة الهيئة الاجتماعية في بطرسبرج .

فقال نيليدوف وكيف حال زوجته ؟

فقالت لا اشاء ان احكم في امرها ولكنها لا تقدره حق قدره . ثم قالت وهل من الممكن ان يكون سلانين ايضاً قد وافق على رفض الاستدعاء؟ انه لامر مريع ما اشد حزني عليها . وتنهدت تنهداً عميقاً .

فهز نيليدوف كتفيه وحتى يغير الموضوع اخذ في الكلام على شوستوفا التي كانت مسجونة في القلعه وأفرج عنها الآن بمساعدة ماريت . فشكرها على ما حملت نفسها من المشقة وكاد يبدي ما خامره من السخط مما تكبدته هذه المرأة وجميع عائلتها لانه لم يوجد واحد يذكر ولاة الامور بامرهم ولكن ماريت قاطعته وابدت سخطها هي فقالت : لا تقل لي شيئاً عن هذه المسألة فحين اعلمني زوجي بامكان الافراج عنها كان اول ما دهمني من الفكر هو كيف امكن سجن هذه المرأة اذا كانت بريئة . واخذت تقول ما كان في عزم نيليدوف ان يقوله وهو انه لامر مزعج ومريع ومثير للسخط والغضب .

ولحظت الكونتس كاترينا ايفانوفنا ان ماريت تذلل ابن اختها

وتلاطفه فسرت بذلك . وقالت لهما حين سكتتا أومل ان تذهبا غداً الى منزل ألن فانّ كيزفتر سيكون هناك ثم لفتت نحو ابن اختها وقالت انهُ قد رمقك حين خروجك وقد اعدت على سمعه ما قلتهُ لي فقال انها دلالة جيدة وانك ستقبل على المسيح بلاريب فيجب عليك ان تذهب انت وماريت.

فقالت ماريت اولاً لا حق لي ان اقدم نصيحة للاميرمهما كانت الحال والقت نظرة على نيليدوف دلت على ما بينهما من الاتفاق في شأن كلام الكونتس خصوصاً والمذهب الانجيلي عموماً . وثانياً لاني لا اهتم بالمذهب كثيراً كما تعلمين ....

قالت نعم وانت تتخذين لاعمالك على الدوام الخطة الموجآ ولا تعملين الا برأيك .

فقالت ماريت مبتسمة رأيي ؟ فانا اومن كما تؤمن ابسط امرأة فلاحة . وثالثاً فاني ذاهبة مساء غد الى مرسح التمثيل الفرنساوي .

فقالت الكونتس لنيليدوف وهل رأيت الممثلة الفرنساوية الشهيرة ؟ يجب عليك ان تذهب وتراها فانها مدهشة .

فقال نيليدوف مبتسماً من الذي يجب عليّ ان اسمعه اولا يا خالتي : الممثلة ام الواعظ ؟

فقالت ارجوك ان لا تلتقط كلماتي لتفندها .

فقال أرى سماع الواعظ اولا ثم الممثلة لئلا تضمحل رغبة سماع الواعظ بتاتاً .

فقالت لا بل اذهب الى المرسح الفرنساوي اولا ثم تب واستغفر عند سماع الوعظ . وهل تريد ان تجعلني سخرية ؟ فالواعظ واعظ والمرسح مرسح ولا يجب على الانسان ان يعبس وينتحب ليخلص . بل عليه ان يؤمن فيجد

امامه جميع اسباب الابتهاج والسرور .

فقالت انت تعظين احسن من اي واعظ يا خالتي

فقالت ماريت تعالَ الى لوجي غداً .

فقال اخشى ان لا اتمكن فقاطع الحاجب الحديث باعلان قدوم زائر وكان هذا كاتم سرّ جمعية خيرية كانت الكونتس رئيستها .

فقالت الكونتس انه رجلٌ بليدٌ وساستقبلهُ في غرفة اخرى واعود اليكما في الحال . قدّمي لهُ قليلاً من الشاى يامارييت فجرّدت ماريت يدها اليمنى من القفاز فبدا البنصر يبرق بالذهب اللامع والجواهر الوهاجة فامسكت ابريق الفضة بيدها وقالت اتريد قليلا من الشاي ؟ وبدت على محياها ملامح الكآبة والرزانة وقالت ان مايؤلمني على الدوام رؤيتي الناس الذين احترم رأيهم يخلطون بين شخصي وبين المركز الذى وضعت فيه . وكادت تبكي عند ذكر الالفاظ الآخرة . ومع ان هذه الالفاظ لم تكن تحتوى على معنى او هي احتوت على معنى لا يصح السكوت عليه فقدظهرت لنيليدوف ذات معنى رقيق عميق وذات فائدة كبيرة لانه جذب بلفتات تينك العينين البراقتين اللتين عززتا كلمات تلك السيدة الصبية الحسناء المتقنه اللباس . فحدّق نيليدوف فيها صامتاً ولم يقو على تحويل عينيه عن محياها .

فقالت تظنني لا اعرف حالتك ولا ما هو جائل في فكرك . مع ان كل انسان يعرف ما انت فاعل وما هو الا سر مكشوف . واني مسرورة باعمالك وموافقة عليها

فقال الحق انه لا يوجد ما يسر لاني لم افعل الا القليل حتى الآن .

فقالت لا بأس وحسبي انى افهم احساساتك واقدر الفتاة حق قدرها

وحين لحظت عدم الارتياح على وجهه قالت فهمت ولن اعود الى التكلم بهذا الصدد . ولكنني افهم ايضاً انه بعد ان يرى الانسان انواع الشدة والعذاب في السجون لايستغرب اقدامك على اغاثة المنكوبين. وقد ارادت بهذا الكلام استلفاته لانها عرفت بغريزتها الانثوية الشيء العزيز والمهم لديه وقالت ان اولئك البؤساء يعذبهم رجال نظيرهم مر العذاب باشد القظاعة وعدم الاكتراث . واني افهم رضاء الانسان بتضحية نفسه واني قادرة على تضحية نفسي في هذا السبيل ولكن لكل منا قدراً محتوماً عليه .

فقال هل انت اذاً غير مرتضية بنصيبك ؟

فقالت « انا ؟ » كأنها دُهشت من توجيه مثل هذا السؤال اليها . واجبٌ عليَّ ان ارتضي واني مرتضية . ولكن هناك عاطفة لاتكاد تهمد حتى تثور

فقال نيليدوف وقد وقع في الشرك والواجب ان لا يُسمح لها بالهمود ثانيةً .

وقد تذكر نيليدوف مراراً حديثه معها واخجلته الذكرى . فتذكر كلماتها التي لم تكن افكاراً بل تقليداً لكلماته . ووجهها الذي كان ينظر اليه باهتمام وود اد حين كان يقص عليها اهوال السجون وعذاباتها وتأثيراته من حالة الفلاحين السيئة .

وحين عادت الكونتس كانا يتحادثان كصديقين قديمين بل كحبيبين فهم كلٌ منهما مبادىء الآخر ولم يفهمها احدٌ من الاعيان المنغمسين بالشهوات العديمين الحاسيات والعواطف .

فقد تكلما عن ظلم اصحاب السلطة وعن مقاساة البؤساء وعن فاقة

الشعب وكانت اعينهما اثناء الحديث تتغازل وتشفُّ عن سؤال الواحد الآخر « أتحبني »؟ فيجيب « احبك » وجرى شعور الجنسين مجراهُ فقرَّب بينهما .

وحين ارادت الانصراف قالت لهُ انها مستعدةٌ لخدمته في ما يمكنها القيام به وسألته ان يأتي ويراها اليوم التالي في المرسح لأنَّ لديها امراً غايةً في الاهمية تريد ان تطلعه عليه .

فوعد نيليدوف بان يقابلها وانصرفت . وحين خلا بنفسه تلك الليلة في الغرفة واستلقى على سريره لم يستطع ان ينام . فتذكر ماسلوفا وقرار مجلس الشيوخ وعزمهُ على ان يتبعها مهما كانت الحالة وتوزيعه اراضيه واذ اخذ يجيب نفسهُ على هذه الاسئلة تصوَّر بغتة وجه ماريت وتنهدها وتحديقها حين قالت « متى اراك ثانية ؟ » وتخيل ابتسامتها فتبسم كانهُ يراها . فسأل نفسهُ قائلاً هل اصيب في سفري الى سيبيريا ؟ وهل اصبتُ في توزيعي ثروتي؟

واضطرب فكرهُ بين الاسئلة والاجوبة ولم يهتدِ الى حلٍّ يرضيه وبينما هو في هذا المعترك استولى عليهِ النعاس ووقع في سبات عميق .

* * *

نهض نيليدوف في صباح اليوم التالي شاعراً باثم اقترفه في اليوم الفائت واخذ يبحث متفكراً فلم يجد له ذنباً اذنبه او خطأً اخطأه لانه لم يأت فعلا ذميما . ولكنه كان خاضعاً لافكار اثيمة . فقد فكر بأن جميع مشاريعه الحاضرة كاقترانه بكاتيوشا وتوزيعه لاراضيه لم تكن سوى اضغاث احلام وانه لايقوى على احتمالها وانها اصطناعية لا طبيعية وان عليه ان يعيش عيشتهُ السالفة .

فهو لم يقترف اثماً ولكنه خضع لافكار اثيمة لاتلبث ان تتجسم

وتورث الاثم .

فالعمل الاثيم يمكن ان لا يعاد وان يستغفر عنه ولكنّ الافكار الاثيمة تولّد جميع الاعمال الاثيمة

والعمل الاثيم يمهد فقط السبيل لاعمال اثيمة اخرى ولـكنّ الافكار الاثيمة تجرُّ الانسان قسراً وتسيره في ذاك السبيل .

وحـين اعاد نيليدوف الى مخيلته افكار اليوم الفائت دُهش من امكان تصديقه لها لحظةً واحدة . ومهما بلغت الصعوبات فيما قرَّر عملهُ فقد عرف انهُ الطريق الوحيد الذي يمكنهُ سلوكهُ لحياتهِ الحاضرة . ومهما كان امر عودتهِ الى حالتهِ السالفة سهلاً وطبيعياً فقد عرف انّ تلك الحالة هي الموت. وقد اشبهت تجارب الامس شـرور الانسان حين افاقتهِ من سبات عميق بانه لم ينم وميله الى الاضطجاع في السرير بهناء ثانيةً مع علمه بانّ الوقت قد ازف لنهوضه وبدئه بالعمل الخطير الذى ينتظرهُ .

وعلى ذلك ذهب في ذاك الصباح الى فاسليفسكي اوستروف لينظر شوستوفا. وقد كانت ساكنةً في الدور الثاني وارشد نيليدوف الى الدرج الخفي فدخل توًّا المطبخ الذى كان ممتلئاً برائحة الطبخ القوية فنظر عجوزاً مشمرة عن ذراعيها وواضعةً مئزراً على وسطها ونظارتين على عينيها جالسـةً بالقرب من النار تقلب شيئاً في حلة

فنظرت اليه شزراً وقالت بعنف من تريد ؟

ولم يكد نيليدوف يلفظ اسمهُ حتى بدت على وجهها علامات الوَجل والفرح معاً . فقالت وهي تمسح يديها بمئزرها « آه ايها الامير ! »

« ولكن لمَ اتيت من الطريق الخفية ايها المحسن الينا ! » انا امها وقد كادوا يقتلون فتاتي. وانتَ الذي خلصتنا . « وهجمت على يده فقبضت عليها وارادت تقبيلها » .

وقد ذهبتُ لأراك بالامس . وشقيقتي سألتني ذلك . وهي هنا تفضل وسر في هذه الوجهة . وارشدته الى باب ضيق وممرّ مظلم وهي تصلح شعرها وترخي ذيل ردائها المشمر - واسم شقيقتي كورنيلوفا . واظنك سمعت هذا الاسم . وقد اختلطت بمسألة سياسية . وهي امرأة حاذقة

ثم فتحت الباب وادخلت نيليدوف الى غرفة صغيرة حيث كانت فتاة قصيرة القامة شقراء الشعر المسترسلة جعداته على وجهها الاصفر النحيل جالسة على كرسي الى جانب طاولة يقابلها شابٌ بلحية خفيفة سوداء وشاربين اسودين لابساً قميصاً روسياً طرزاً . وقد كانا منفعلين من الحديث الدائر بينهما حتى لم ينتبها الاّ حين دخول نيليدوف الغرفة .

فصاحت الام « ليديا . البرنس نيليدوف ! الشخص ذاته ...»

فقفزت الفتاة الصفراء متشنجةً راميةً خصلةً من الشعر وراء اذنها وحدّقت بعينيها الكبيرتين في القادم بنظرة خوف ورعب

فقال نيليدوف مبتسماً اذن انتِ هي تلك الفتاة المخيفة التي طلبت اليّ فيرا دوهوفا ان اتوسط لها

قالت « نعم . انا هي » وابتسمت ابتسامةً شفّت عن درّ منضد في فيها . وإنّ خالتي هي الراغبة في ان ترك . ونادت خالتها بصوت رخيم

فقال نيليدوف إنّ حبسك احزنَ فيرا دوهوفا جدًّا .

فقالت حين نظرت نيليدوف يحدق بالشاب « هذا ابن عمي زهاروف » .

فحيا الشابُّ الزائر مبتسماً وحين جلس نيليدوف جلس الى جانبه . ودخل فتى تلميذ اشقر الشعر في السادسة عشرة من العمر الزرقة وجلس الى جانب النافذة دون ان ينبس بكلمة .

فقالت شوستوفا إنَّ فيرا دوهوفا صديقة خالتي الحميمة ولكني انا لا اكاد اعرفها .

ثمَّ دخلت امرأة سمحة الوجه لابسة جلباباً ابيض ومتمنطقةً بمنطقة جلد وجلست الى جانب ليديا وقالت لنيليدوف كيف حالك واني اشكرك على مجيئك . وكيف حال فيرا ؟ فقد رأيتها . وكيف تتحمل ما قُدِّرَ عليها ؟

فقال نيليدوف انها لاتشكو من حالتها ولا تبدي تذمراً .

فقالت « آه » هذا هو طبعها . انى اعرفها . وعلى الانسان ان يعرفها . فانها خصال مجيدة نبيلة . كلُّ شيءٍ للغير لا لها .

فقال « نعم » لم تطلب شيئاً لنفسها بل صرفت كلَّ اهتمامها الى ابنة اختك والامر الوحيد الذي اشغل بالها هو الحكم على ابنة اختك بالحبس من اجل لا شيء . فقالت الخالة نعم هذا هو الحق انه لامر مريع وقد قاست في الحقيقة المشقة من اجلي ثم تحولت نحو نيليدوف وقالت ان الحادثة وقعت لان شخصاً معيناً سألني حفظ اوراقه مدة وحيث لم يكن لي بيت اتيت به اليها وفي تلك الليلة ذاتها فتش البوليس غرفتها وقبض عليها وعلى الاوراق وطلب منها معرفة الشخص الذي استلمت منه الاوراق .

فقالت ليديا : اني لم اخبرهم وبدت عليها علامات التشنج برهة ثم عادت الى الكلام قائلة : اذا كانوا قد قبضوا على ميتين فذلك لم يكن بواسطتي

فقالت امها : لاتعيدي ذكر هذه الامور ياعزيزتي ليديا . فقالت لِمَ

لا ؟ فانا اريد ان اقص الحكاية تماماً . ثم زال ابتسامها وزاد احمرار وجهها فقالت امها هل نسيت ما حدث امس حين بدأت بالكلام . قالت دعيني وشأني يا اماه فانا لم أبح بشيء حين استجوبني بشأن ميتين وخالتي غير ان بتروف هذا .. فقاطعتها خالتها لتوضح لنيليدوف كلمات ابنة اختها وقالت ان بتروف جاسوس من رجال الضبط سيء الخلق . فاستأنفت ليديا الحديث وقالت : ثم اخذ يستقصي مني كل شيء فقال لي ان ما تقولينه لا يؤذي احداً ما بل بالعكس اذا بحت لي امكننا الافراج عن ابرياء نعذبهم بلا فائدة . فقلت له لا تجهد نفسك بالباطل فانى لا اوح بشيء فقال لا بأس لا تبوحي ولا تنكري ما سافوله وذكر اسم ميتين . فقالت خالتها كفى لا تذكري شيئاً عنه . فقالت آه ياخالتي لا تعترضي كلامي ..

ثم قالت تأملوا في خبثهم ومكرهم . في اليوم التالي سمعت صوتاً من وراء الجدار يقول انهم قبضوا على ميتين وزجوه في السجن فاضطربت وقلت اني خدعته واوقعته وهذا ما عذبني حتى كدت اجن وكنت اسير في حجرتي والطم وجهي بالحائط واقول انى خدعته وكنت القي بنفسي الى الارض واغطي رأسي فاسمع صوت همس يقول . خُدع ميتين ؟ وقد عرفت انه لم يكن سوى مجرد وهم ولكنني لم استطع صم اذنى عن الاصغاء واردت ان انام واطرد عني هذا الفكر فلم استطع

وقد بلغ منها التهيج اثناء الكلام حدًّا يفوق الوصف فكانت تلف شعرها على اصبعها وتجيل نظرها فى ما حولها . فقالت لها امها هدئي روعك ياعزيزتي . فلم تستطع الفتاة ان تملك نفسها فاخذت تردد هذه الجملة : « انه لامر مريع مخيف » ثم قفزت بغتة وصرخت صرخة دوت لها جوانب

البيت وخرجت من الغرفة مسرعة فتبعتها والدتها . فقال التلميذ يجب ان يعلقوا اولئك الانذال الارذال على خشبة .. ثم تناول لفافة واشعلها واخذ يدخن

فقالت الخالة : نعم ان ذلك الحجر انفرادي مريع للاحداث

فقال نيليدوف : بل هو مريع لكل انسان

فقالت الخالة : لا ليس للجميع فقد قيل لي انه للثوار الحقيقيين راحة وطمأنينة فالرجل الثائر اذا كان البوليس يبحث عنه يكون في حالة اضطراب مستمر بسبب خوفه على نفسه وعلى الذين من مبدئه وحين يقبض عليه وينتهي الامر وترفع كل تبعة عن عاتقه يمكنه ان يجلس ويستريح وكثيرون يشعرون بالارتياح حين يحجر عليهم ولكن الاحداث والابرياء « نظير ليديا » تكون الصدمة الاولى لهم مريعة ومخيفة . وليس فقدان الحرية ورداءة الطعام وفساد الهواء بشيء بل ان اضعاف هذه البلايا يمكن احتمالها بجانب الضربة الادبية التي يتلقاها الانسان لاول وهلة حين الحجر عليه

فقال نيليدوف : هل جربت ذلك اذن ؟

قالت : اني حبست مرتين « وابتسمت ابتسامة حزن » وحين قبض علي لاول مرة لم اكن فعلت شيئاً وكنت في الثانية والعشرين ولي ولد وانتظر ولادة آخر ومع صعوبة فقداني الحرية وفصلي عن ولدي وزوجي لم يكن ذلك شيئاً لقاء ما شعرت به حين رأيت اني لم اعد مخلوقاً حياً بل شيئاً من الاشياء فقد اردت وداع ولدي فمنعت وامرت ان اركب عربة مقفلة رغم انفي وسألت عن المحل الذي اساق اليه فلم اجب وجردت من ثيابي والبست ثياب السجن القصيرة ودفعوني الى داخل كالبهيمة واقفلوا الباب وتركوني

منفردة . وكان حارس حامل بندقية يغدو ويجي أمام حجرتي ويتطلع بين حين وآخر من ثقب الباب فشعرت حينئذٍ بكآبة وغم شديدين والذي فكرت فيه اكثر من كل شيء اذ ذاك هو ان الضابط الذي قام بتحقيق مسألتي قدم لي لفافة لادخن فقد عرف ان الناس يرومون التدخين وكان من الواجب عليه ان يعرف ايضاً انهم يرومون الحرية والنور وان الامهات يحببن اولادهن والاولاد يحبون امهاتهم فكيف امكنهم اذن ان يفصلوني بلا شفقة عن كل ما كان عزيزاً لدي وان يحجروا عليَّ في السجن كما يحجر على الوحوش الضارية فمثل هذه المعاملة لم يمكن احتمالها دون نتيجة سيئة . كل انسان يؤمن بالله وبالانسانية ويعتقد محبة الناس بعضهم لبعض يبطل ايمانه ومعتقده بعد الابتلاء بكل هذه البلايا وقد زال اعتقادي بوجود الانسانية منذ ذلك الحين واصبحت ناقمة ساخطة على البشرية . . .

ودخلت والدة ليديا من الباب الذي خرجت منه ابنتها وقالت ان اضطرابها شديد وانها لا تستطيع العودة الى الغرفة.

فقالت الخالة : قد اتلفت حياة هذه الفتاة والذي يؤلمني بنوع خاص اني كنت سبب هذه البلايا عن غير ارادة مني ثم تحولت نحو نيليدوف وقالت : وانه لولاك ياسيدي لهلكت لامحالة فنسدي اليك الشكر الجزيل على حسن صنيعك وارجوك ان تتم معروفك معنا وتأخذ هذه الرسالة الى فيرا دوهوفا . والرسالة ليست مختومة فيمكنك ان تقرأها ولك بعد ذلك ان تمزقها أو تسلمها اليها كما تقضي مبادئك اذ ليس فيها ما يخالف النظام . فاخذ الرسالة من يدها ووضعها في جيبه دون ان ينظر اليها وودع وانصرف

« ١٨ »

ما حمل نيليدوف على البقاء في بطرسبرج الاّ عريضة السكتاريين التي عزم على رفعها لجلالة القيصر بواسطة صديقه القديم اركان الحرب بوجاتريف . فقصد منزله في الصباح وكان على اهبة الخروج . وكان بوجاتريف معتدل القامة قوي البنية حتى امكنه ان يلوي نعل فرس وكان انيساً صادقاً عفيفاً وحرًّا . ورغم جميع هذه الصفات كان اميناً في البلاط ومشغوفاً بالقيصر واسرته وبخطة غريبة رسمها لنفسه امكنهُ من ان يعيش في تلك الدائرة السامية لا يرى شيئاً فيها سوى الحسن غير ملتفت الى الاثم والفساد الضاربين اطنابهما . ولم يدِن احداً ولا انتقد عملاً بل كان يلزم الصمت ولم يفعل ذلك لاسباب سياسية بل لان طباعه اقتضت مثل هذه المعاملة

فقال لنيليدوف : لقد اتيت في الوقت المناسب وقد كنت افكر في امرك وساضع العريضة في يده وعليك ان تثق بكلامي ولكني انصحك ان تقابل توبوروف اولاً . فعبس نيليدوف عند ذكر اسم توبوروف فاستطرد بوجاتيريف الكلام وقال: ان كل شيء متعلق به ولا بد من ان يستشار وربما امكنه هو نفسه قضاء غرضك

فقال نيليدوف اذا كان هذا رأيك فساذهب اليه . فاجابه حسناً تفعل واذا لم يُجب طلبك فاعد اليّ العريضة وانا ارفعها للقيصر غداً وبعد ان لفظ هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ نهض واصلح لباسه الرسمي وتقلد سيفه وودع نيليدوف وخرج وسار نيليدوف يقصد منزل توبوروف اتباعاً لنصيحة صديقه بوجاتيريف وكان أمله ضعيفاً بنجاح مسعاه . أما المنصب الذي كان

يتولاه توبوروف فكان يتطلب بلادة وانحطاطاً في الاخلاق وقد حازهاتين الصفتين السلبيتين . فكانت واجباته ان يؤكد ويدافع بالوسائل التي لاتخلو من الشدة عن تلك الكنيسة التي تعلن بتصريحاتها ان منشئها هو الله ذاته وانه لايمكن لابواب الجحيم ان تقوى عليها فهذه البيعة المقدسة الثابتة الاركان المؤسسة من الله ذاته يجب ان تدعم ويدافع عنها ببيعة بشرية هي المجمع المقدس الذي يديره توبوروف وحاشيته. ولم يرَ توبوروف ان من مصلحته ابقاء كاهناً روماني أو قساً بروتستنتياً أو أحد السكتاريين ضمن حظيرة خرافه التي يرعاها وكان يعتقد الاعتقاد التام بان عامة الناس تختلف تمام الاختلاف عنه وان الجميع في اشد الحاجة اليه ولا يمكن لاحد الاستغناء عنه ذلك لأنه لم يؤمن بشيء في اعماق قلبه ووجد هذه الحالة مناسبة ومسرة جداً ومع ذلك فقد خشي ان يصل الشعب أيضاً اليها ورأى من واجباته المقدسة ان يخلصه منها

وكانت وظيفته بالنسبة الى الدين الذي يحفظه كنسبة مربي الطيور الداجنة الى الجيفة التي يقيت طيوره بها فالجيفة مقرفة جداً ولكن الطيور تحبها وتأكلها ولذلك كان من الصواب تقويت الطيور منها

وحين وصل نيليدوف الى منزله دخل غرفة الاستقبال وكان توبوروف في مكتبه يحادث رئيسة دير حارمة نبيله كانت تنشر المذهب الارثوذكسي في غربي روسيا بين الاتحاديين الذين يعترفون بسلطة البابا والذين ارغموا على اعتناق المذهب الارثوذكسي تاخذ العريضة من نيليدوف موظف وادخلها لتوبوروف واذ ذاك خرجت رئيسة الدير واذن لنيليدوف بالدخول فدخل ورأى توبوروف يقرأ العريضة ويهز رأسه من لهجتها الشديدة. فوضع العريضة على الطاولة وأخذ يفكر في قضية هؤلاء السكتاريين

وكان قد وصلت اليهم عريضة منهم قبلاً . وكانت قضيتهم كما يأتي : هؤلاء المسيحيون الذين ابتعدوا عن الكنيسة الارثوذكسية القيت عليهم النصائح والارشادات ولما لم يذعنوا حولوا امام القضاء ولكنهم تبرأوا ثم دبر الاسقف والحاكم استناداً الى كون زواجهم غير شرعي وسيلة لنفيهم والفصل بين الازواج والزوجات والاولاد وقد دفع هؤلاء هذه العريضة الآن يلتمسون فيها عدم فصلهم عن بعض . وتردد توبوروف حين عرضت عليه القضية بين انفاذ هذا القرار وبين التنفيذ فرأى ان لا ضرر ينتج من تأييده لقرار يقضي بنفي وتفريق اعضاء مختلفين من عائلات السكتاريين بحجة انه لو بقيت هذه الطائفة متجمعة حيث هي لامتدت العدوى منها الى الجهات المجاورة لها فيفسدون بين رعيته . ثم ان النفي والتفريق يدل على غيرة الاسقف ونشاط الحاكم ولذلك قرر توبوروف انفاذ ما ارتآه الاسقف والحاكم . اما الآن وقد اتخذوا لهم محامياً كنيليدوف له نفوذ في بطرسبرج فيمكن عرض المسألة على شخص القيصر كأمر فظيع او يمكن نشرها في الصحف الاجنبيه ولذلك اتخذ له في الحال خطة غير منتظرة فاستقبل نيليدوف واقفاً وبش في وجهه قائلاً : حين وقعت عيناي على هذه العريضة تذكرت قضية هؤلاء القوم السيئة الطالع واني ممتن لك من اجل تفكيري بها والامر نشأ عن تناهي رجال الحكومة والكنيسة في الغيرة الدينية وساصدر الاوامر بنقض هذا القرار وباعادة اولئك البائسين الى اوطانهم

فقال نيليدوف : اذن لا لزوم لرفع هذه العريضة ؟

اجاب توبوروف : انا اعدك وعداً شافياً والافضل ان اكتب في الحال

فتفضل واجلس . وتقدم نحو الطاوله وبدأ في الكتابة ونيليدوف ناظر اليه بازدرآ معجباً كيف ان هذا الرجل العديم الشعور يفعل ماهو فاعل بمثل هذا الاعتنآء ولما استلم نيليدوف الكتاب منه قال : اذا كانت نياتك حسنة نحو هولآء فلماذا تعذبهم ؟

فرفع توبوروف رأسه وتبسم كأنه سرّ من القآء نيليدوف هذا السوأل عليه وقال هذا لا يمكن ان اجيبك عليه وكل ما يمكنني التصريح به هو ان لمنافع الشعب المسلم لنا اهمية كبرى حتى ان الغيرة في الامور الدينية لا يقاس خطرها وضررها باضرار التغاضي والتواني السائدين الآن

ـ ولكن كيف يجوز باسم الدين خرق اول قانون من قوانين الشرع الالهي وهو تفريق الزوجين عن بعضهما

ـ ان مثل هذا الخرق يبدو اذ نظر اليه بعين الفرد ولكنه يظهر من الوجهة الاداريه بمظهر اخر وعلى كل فيجب عليّ ان اودعك الآن واحنى رأسه ومدّ يده . فضغط نيليدوف على يده صامتاً واسرع في الخروج . وكان وهو سائر في الطريق يكرر هذه الكلمات «منافع الشعب: منافع الوطن . منافع الرعية . هذا ما كان يردده وجال في مخيلته الذين مرّن فيهم نشاط الايدي القابضة على ازمة الدين وتهذيب الشعب فبدأ بالمرأة التي عوقبت من اجل بيع الخمور . والفتى من اجل السرقة . وحارق البيت تعمداً على زعمهم . ومدير المصرف من اجل التزوير . وتلك التعيسة ليديا التي انما سجنت ليتمكنوا بواسطتها من الوصول الى الايضاحات التي يرومونها . وبالسكتاريين الذين عوقبوا لا لنبذهم تعاليم الكنيسة وغور كوفتش من اجل طلبه حكومة دستورية ووضح لنيليدوف جلياً ان جميع هولآء سجنوا وابعدوا لا لانهم اخطاءوا حقيقة

ضد العدالة او سلكوا سلوكاً مغايراً للادب والدين فقط بل لانهم وامثالهم كانوا عقبة يمنعون الموظفين والاغنياء من التمتع بالاملاك التي سلبوها . ووضح له باتم وضوح ان جميع هولآء الموظفين من زوج خالته والشيوخ وتوبوروف حتى اولئك السادة النظيفين المتقني الباس الجالسين على الكراسي في دوائر الحكومة والقضآء لم يهتموا قط بالعذاب الواقع على الابريآء بل جل اهتمامهم منحصر في كيفية خلاصهم مما هو مخطر حقيقة

وعلى ذلك لم تكن النتيجة فقط اهمال القانون الذي يفضل فرار عشرة مجرمين على معاقبة بريء واحد بل بالعكس اخذوا يعاقبون عشرة ابريآء لا خطر منهم على امل التخلص من رجل واحدٍ مجرمٍ ومخطر كما لو اراد الانسان قطع جزء عفنٍ فاسد من احد الاعضآء فيقطع معه جزءاً سليماً . وظهر هذا التعبير بسيطاً وواضحاً جداً لنيليدوف ولكنه تردد في قبوله فقال هل من الممكن ان تكون جميع هذه الالفاظ المعتبرة السامية عن العدالة والشرع والديانة والاله وما اشبه مجرد الفاظ يستر اغلاط فظاعة واعظم طغيان!

« ١٩ »

وكان في عزم نيليدوف مغادرة بطرسبرج في ذلك المسآء ولكنه كان وعد ماريت بان يوافيها الى المرسح ومع علمه بعدم ارتباطه بذلك الوعد فانه عزم على اتمامه . وسأل نفسه هل هو قادر على مصادرة هذه التجارب ام لا ؟ ثم قال اني ساجرب لاخر مرة

فلبس ثيابه المخصصة للسهرات وسار الى المرسح فوصل اثنآء تمثيل الفصل الثاني الذي كانت ممثلة اجنبية تمثل فيه كيفية موت النسآء المسلولات . وكان المرسح غاصاً بالمتفرجين من جميع الطبقات وجميعهم يرقبون بشدة واعتنآء

حركات تلك الممثلة الهزيلة التي كان ترفل بالحرير والديباج المطرز وتتلوى كالمريضة الحقيقية وتتكلم بصوت تصنع

ودخل نيليدوف لوج ماريت فوجد معها زوجها وسيدة جميلة بلباس فاخر . وكان زوج ماريت الجنرال رجلاً طويل القامة بهي الطلعة بوجه عبوس وانف روماني ولباس رسمي ملون ومزركش بالقصب وسالفين متدليين ودقن حليقة

وظهرت ماريت بمظهر الابهة والخفة و الكياسة بثوب مقور العنق شف عن كتفين جميلين يعلوهما خال « شامة » عندماتقاهمافلمارأت نيليدوف ابدت ابتسامة ترحيب وامتنان مملوءة بالمعاني ومدت مروحتها مشيرة اليه بالجلوس وراءها . فنظر اليه الزوج بالسكينة التي عرف بها في جميع اعماله وانحنى وعرف من النظرة التي تبادلها مع زوجته انه مالك لها وان سلطته عليها شديدة

وحين انتهآء الفصل ضج المرسح بتصفيق الايدي فنهضت ماريت وتأخرت الى الورآء وقدمت نيليدوف لزوجها فابدى الجنرال سروردمتبسماً وعاد الى سكينته

فقال نيليدوف لماريت : قد كان الواجب عليَّ ان اغادر المدنية اليوم لو لم اعدك بالحضور الى هنا . فقالت ان لم يكن من اجلي فمن اجل هذه الممثلة البارعة .ألم تكن جميلة في المظهر الاخير ؟

قال نيليدوف : ان هذا النوع من المسرات لا يؤثر عليَّ وقد نظرت من الآلالم الحقيقية اليوم ما كاد ينفطر قلبي من الحزن

فقالت ماريت : اجلس واخبرني ماذا نظرت . واصغى زوجها وهو

يتبسم تهكماً واستهزآء

فقال نيليدوف : ذهبت اليوم لاري المرأة التي افرجوا عنها بعد ان حجروا عليها في السجن مدة طويلة فوجدتها ذاهلة منحطة القوى شاحبة الوجه

فقالت ماريت لزوجها : هذه هي الفتاة التي تكلمت معك بشانها

فقال الزوج : نعم وقد سررت جداً من امكان الافراج عنها . وظهر لنيليدوف ان كل كلمة فاه بها يشتم منها رائحة الاستهزآء والاستخفاف . ثم خرج الجنرال طالباً التدخين ودنا نيليدوف من ماريت ينتظر سماع ما ارادت ان تلقيه ولكنها لم تقل شيئاً بل مزحت وضحكت لنجاح حيلتها وظنت انها بعملها هذا تؤثر عليه فعرف نيليدوف انه لم يكن لديها شيء تقوله بل ارادت فقط ان تريه نفسها ببهآء ملابسها الفاخرة وحلاها الثمينة وان تريه ايضاً الجمال الجميل الذي على كتفها وكان ذلك بهيجاً لناظره ولكنه شعر بالمقت والكدر

ورفع برقع الافتتان الذي كان يحجب عن عيني نيليدوف مثل هذه الامور فنظر الى ماريت وأعجب بمرآها ولكنه عرف انها كاذبة وعائشة مع زوج اوجدله مركزاً بدموع ونفوس مئآت من الشعب وانها لا تكترث ولا تتأثر من هذه الفظاعة وكل ما قالته في اليوم الفائت كان افكاً وان ما ارادته منه هو ان يقع في شرك حبها واوقعه هذا الامر بين عاملين عامل الجذب وعامل الدفع . وتناول قبعته مرّات عديدة قصد الذهاب ولكنه لبث جالساً حتى اذ رأى زوجها داخلاً استأذن وانصرف . وفيما هو سائر نحو المنزل على ضفة نهر النيفسكي نظر امرأة طويلة القامة متقنة اللباس كانت تمشي ببطء على الرصيف وكان يظهر على هيئتها انها من المبتذلات فتفرس

في وجهها رغماً عنه فبسمت له وابرقت عيناها ولدهشة نيليدوف دهمه تذكار ماريت بغتة واخذ يفتكر في نفسه قائلاً : ان تلك ابتسمت لي الابتسامة ذاتها حين دخلت المرسح ومعنى الابتسامتين كان واحداً والفرق هو ان هذه تقول بجلاء وصراحة : اذا كنت في حاجة الي فخذني واذا لم تكن فسر في سبيلك وتلك تظاهرت بانها لا تفكر في ذلك بل انها عائشة عيشة سامية ادبية في حين ان ذات الامر واحد وهذه على الاقل كانت صادقة واما تلك فكذبت وعدا ذلك فان هذه دفعت الى هذا الامر بالضرورة في حين ان تلك جعلت هذه الشهوة الفاتنة الكريهة تسلية والعوبة لها وامرأة الشوارع هذه كالمياه الراكدة المنتنة التي تقدم لرجال عطاش يفوق عطشهم كراهتها فينهالون عليها واما تلك التي في المرسح فكالسم الذي اذا لم يلاحظ سمم كل شيء لمسه . واعاد الى مخيلته ذكرى علاقته بزوجة الماريشال فتراكمت عليه الافكار المخجلة . وفكر في كيف إن الحيوانية في طبيعة الانسان الوحشية كريهة ولكنها ما دامت في شكلها الفطري فهي في مقام الحياة الروحية السامية وسواء سقط الانسان او قاوم فانه يظل كما كان لا يتغير شيء من جوهره ولكن حين تتستر هذه الحيوانية تحت ثوب من الشعر والغزل والشعور الرقيق وتتطلب منا السجود فحينئذ نسلم انفسنا بكليتنا فنسقط ونخرُّ للبهيمية سجداً فلا نعود نميز الخير من الشر وهناك الطامة الكبرى

ورأى نيليدوف كل ذلك الآن بجلاء ووضوح كما رأى القصر والحراس والقلعة والنهر وزالت عن نفسه تلك الظلمة الكامنة ظلمة الجهل والغباوة فتأكد لديه ان كل ما كان يراه حسناً ويحسبه ضروريا انه ممقوت وعديم الفائدة وان هذا الترفه والتبهرج ليس الا ستراً للجرائم والمنكرات التي توجب العقاب

الشديد . وقد كان يروم ان ينسى ذلك ويطرد من رأسه الهواجس والوساوس فلم يقدر ورغما عن قلق افكاره شعر بابتهاج داخلي لم يشعر بهِ من قبل

وحين عاد الى موسكو قصد توّا مستشفى السجن ليبلغ ماسلوفا الخبر المحزن حتى تتأهب للذهاب الى سيبيريا ولم يكن له امل عظيم بالعريضة التي رفعها الى القيصر والتي اتى بها الى ماسلوفا لتوقع عليها . ومن الغريب انه لم تكن له رغبة هذه المرة في نجاح مأموريته لا نه وطد عزمه على الذهاب الى سيبيريا والمعيشة بين المنفيين والمجرمين لانه لم ير سهولة في تكييف حياته مقرونة بحياة ماسلوفا فيما لو برئت وتذكر كلام الكاتب الاميركي « ثورو » الذي قال اثناء وجود الرق في اميركا ان السجن هو مسكن الرجل البار الحقيقي ما دامت الحكومة تظلم أيا كان ظلماً وهكذا كان فكر نيليدوف بعد زياراته لبطرسبرج وبعد كل ما رآه فيها . وقال في نفسه وهو راكب عربة ومتجه نحو السجن . نعم ان المحل الوحيد الذي يناسب الانسان الصادق البار في روسيا هو السجن ووجد هذا الفكر ينطبق عليه كل الانطباق

وعرف بواب المستشفى نيليدوف واخبره في الحال ان ماسلوفا ليست هناك لانها اعيدت الى السجن . فقال ولم اعيدت ؟

قال : الا تعرف عقول هولاء الناس فقد كانت تمازح معاون الطبيب وتداعبه فاضطر الطبيب الى اخراجها من المستشفى واعادتها الى السجن ولم يكن نيليدوف قد تصور او حدد النسبة التي بينه وبين ماسلوفا وحالتها العقليه فبغت لهذا الخبر وشعر كما يشعر الانسان حين يتلقى خبر فاجعة او ملمة واشتدت عليه الآلام واول شعور دهمهُ كان الخجل فانه مع ابتهاجه بالتغيير الذي طرأ عليها رأى نفسه الآن حقيراً وان كل كلامها عن رفضها

ضحيته وكل تبكيتها وعبراتها لم تكن سوى حيل امرأة فاسدة الاخلاق رغبت في استخدامه لاغراضها وتذكر الآن ما كان قد لمحه في وجهها من دلائل الصلابة والقساوة اثناء المقابلة الاخرة كل ذلك مرّ في مخيلته حين وضع قبعته على رأسه وبرح المستشفى . فاخذ يسأل نفسه قائلا : ماذا افعل الآن ؟ الا ازال مرتبطاً بها ؟ ألم يفك العمل الذي عملته قيدي ؟ ولكنه بعد ان القى على نفسه هذه الاسئلة عرف بداهة اذا مدّ ذاته منحلا من القيد ونبذها لم يعاقبها هي بل عاقب نفسه ولذلك استولى عليه الخوف والوجل فقال لا والذي حدث لا يمكنني تبديله ولا يزيدني الا تمسكا بعزمي دعها تفعل ما تشأ فاذا كانت الظروف دفعتها الى مداعبة الطبيب فهذا عمل خاص بها . ويجب عليّ ان اقوم بما يتطلبه مني ضميري الذي يتطلب تضحيتي لحريتي والاقتران بها بصيغة شرعية واللحاق بها الى حيث تساق وقد قال نيليدوف هذا القول لنفسه بكل ثبات وشهامه وسار بقدم ثابتة نحو السجن وحين وصوله سأل البواب ان يبلغ المفتش انه يروم مقابلة ماسلوفا وكان هذا البواب يعرفه فقص عليه خبراً كان حديث جميع سكان السجن وهو عزل المفتش السابق وتعيين ضابط قاس جائر بدلا عنه وقال ان المعاملة اضحت صارمة جداً وعلى كل سابلغه امرك

وكان المفتش الجديد داخل السجن فخرج في الحال لمقابلة نيليدوف وكان طويل القامة قوي البنية عبوساً بطيء الحركة فقال دون ان يوجه نظره الى نيليدوف ان المقابلات تكون في غرفة الزيارة في ايام معينة . فقال نيليدوف ولكن معي عريضة للقيصر اريد التوقيع عليها

فقال المفتش : يمكنك ان تعطني اياها

فقال : يجب ان اري السجينة بنفسي فان معي جوازاً يخول لي ذلك

ارني الجواز

فقدمه له نيليدوف وبعد ان قرأه قال تفضل وادخل الى المكتب

وبعد ان جلس نيليدوف قليلاً جاءت ماسلوفا ودخلت عليه فرفع المفتش رأسه وقال لنيليدوف يمكنكما الآن ان تتحادثا مع بعض ثم اخذ يقلب اوراقاً كانت في يده وينظر اليهما خلسة

ولما وقع نظر ماسلوفا على نيليدوف تشربت لوناً قرمزياً واطرقت بعينيها الى الارض . فلما عاين نيليدوف ذلك ثبت له ما قاله البواب عنها واحجم عن مدّ يده اليها واشتد كرهه لها هذه المرة وخاطبها بصوت منخفض قائلاً : اتيتك بخبر سيئ فان مجلس الشيوخ رفض الاستدعاء . فقالت بلهجة غريبة علمت انهم سيرفضونه ثم اغرورقت عيناها بالدموع . ورغماً عن شدة سخطه عليها قال لها : لاتقنطي فاني ارجو ان تقرن عريضة القيصر بالنجاح

فقالت وهي تنهنه دمعها : اني لست مفكرة في ذلك

قال : في أي شيء اذن تفكرين؟

قالت : افكر بما حدث لي في المستشفى والاغلب انهم اخبروك بذلك فاجابها ببرود . وماذا يهمني ذلك فانت حرة . وحين ذكرت المستشفى ثار فيه ثائر الغضب فقال في نفسه اية ابنة من اكرم الاسر تحسب الاقتران بي سعادة لها فكيف اعرض نفسي كزوج على هذه الفتاة فلم يمكنها الانتظار بل اخذت تداعب معاون الطبيب وقد اشتد فيه الحقد والغيظ ثم اخرج غلافاً كبيراً من جيبه والقاه على الطاولة وقال لها وقعي على هذه العريضة فمسحت الدموع بطرف منديلها وجلست توقع على العريضة ووقف وراءها صامتاً

شاخصاً الى ظهرها الذي كان يهتزّ من شدة الانفعال فاخذت حاستا الاثم والصلاح تختلجان في صدره وتقتتلان وكان الشعور الاثيم ناتجاً عن المجد المثلوم والشعور الصالح عن الشفقة عليها لانها كانت تقاسي مرّ العذاب وكان النصر للشعور الآخر

ولم يمكنه ان يتذكر ما الذي دخل قلبه اولاً الرفق بها ام اثمه والذنب الذي اقترفه معها والذي كان يعاقبها الآن من اجل ذنب صغير وكيف كان الامر فقد شعر شعوراً مزدوجاً بذنبه وبالرفق بها . وبعد ان وقعت على العريضة نظرت اليه بحزنٍ . فقال لها كيف كانت الحاله فعزمي لا يتغيّر واني سافعل كما قلت لك وساكون معك اينما تكونين

فقالت : وما الفائدة من ذلك ؟ ثم طفح قلبها سروراً وابرقت اسرتها لدى سماع قوله الصادق الذي لا يحتمل الشك

فقال : الاجدر ان تفكري فيما تحتاجين اليه في الطريق

قالت : لا اجد نفسي في حاجة الى شيءٍ معين واني اشكرك

فتقدم اليها المفتش ودون ان ينتظر نيليدوف اشارة منه استأذن وانصرف مملوءا سلاماً وسروراً ومحبة لكل انسان في قلبه لم يشعر بمثلها من قبل . فقال لنفسه دعها تداعب معاون الطبيب أو غيره فهي حرة في ما تفعل فانا لا احبها من اجلي بل من اجلها ولوجه الله . أما هذه المكيدة التي أخرجت ماسلوفا بسببها من المستشفى والتي عدها نيليدوف ذنباً عليها فكانت كما يأتي :

ارسلتها رئيسة الممرضات الى الصيدلية لتأتي بقليل من الشاي فلقيت معاون الطبيب منفرداً وكان يعترضها ويشاغلها منذ مدة وأرادت التملص

منه فدفعته بعنف دفعة جعلت رأسه يصطدم باحد الرفوف فسقطت زجاجتان على الارض وكسرتا . وكان رئيس الاطباء مارًّا في تلك اللحظة فسمع صوت تكسر الزجاج واذ رأى ماسلوفا راكضة محمَّرة الوجه صاح فيها غاضباً ايتها المرأة ان لم ترجعي عن الطيش والخفة تعودي من حيث اتيتِ ثم نظر الى معاون الطبيب نظرة تأنيب فتبسم هذا واخذ يبرر نفسه وفي اليوم التالي ارسل الرئيس يطلب ممرضة هادئة بدلاً من ماسلوفا

فهذه هي حكاية ماسلوفا مع معاون الطبيب فان الافتراء عليها بتبادل الحب آلم نفسها لان العلاقات بالرجال التي اورثتها النكبات اضحت بوجه خاص كريهة لديها منذ اجتماعها بنيليدوف والذي كان يزيدها مرارة هو ان سيرتها الماضية جعلت كل رجل حتى معاون الطبيب يجد له حقًّا باهانتها ويستغرب رفضها لطلبه فانجرح قلبها واغرورقت عيناها بالدموع . وحين خرجت لمقابلة نيليدوف هذه المرة ارادت ان تبرئ نفسها من التهمة التي عرفت انه أُبلغها ولكنها حين بدأت بالكلام شعرت بانه لا يصدقها وبان اعذارها لم تكن الا لتقوي شكوكه فخنقتها العبرات ولزمت الصمت

وكانت ماسلوفا لا تزال تظن بانها تمقته وانها لم تسامحه ولكنها بالحقيقة كانت تحبه وتفعل ما يريده منها فابطلت شرب المسكر والتدخين والتدلل ودخلت المستشفى مرضاة له واذ كانت في كل مرة ترفض الاقتران به فذلك لانها عرفت ان اقترانه بها يكون تعاسة له ولذلك وطدت العزم على رفض ضحيته بتاتاً

وقد زعمت انه يحتقرها لاعتقاده ببقائها على ما كانت عليه ولم يلاحظ التغير الذي طرأ عليها فوقع ذلك في نفسها موقعاً سيئاً اشدّ من خبر تأييد الحكم

« ٢١ »

كان المنتظر ارسال ماسلوفا مع اول زمرة من المسجونين فتأهب نيليدوف للسفر . وكان ثمت لديه اعمال كثيرة حتى شعر بانه لايمكنه اتمامها جميعها في الوقت المعين . وقبلاً كان يعمل لاجل نفسه ومنفعته فكانت اعماله تورثه الضجر والملل أما الآن فانه يعمل لخير ومنفعة الاخرين ويجد في عمله بهجة وراحة ضمير

أما الاعمال التي اشغلته في الوقت الحاضر فتقسم الى ثلاثة اقسام . الاول يختص بماسلوفا وكان اهمها اتخاذ التدابير اللازمة للحصول على نتيجة عريضتها المرفوعة الى القيصر والتأهب لسفرها الى سيبيريا

وخص القسم الثاني بتنظيم حاله اراضيه فقد اشترط على الفلاحين دفع الريع له ولكن الشروط لم تكن قد حددت بعد ولا عرف مقدار المال الذي يلزمه لمعيشته ولا المقدار الذي يمكنه ان يتركه للفلاحين ولا عرف مقدار النفقة التي تلزمه في سفره الى سيبيريا ولذلك لم يكن قد وطد عزمه على التنازل عن كل دخله ولكنه اكتفى بنصفه الآن

وخص القسم الثالث بمساعدة المسجونين الذين استنجدوه المرة بعد المرة . وفي بادئ الامر حين اخذ يختلط بالمسجونين الذين سألوه المساعدة على تخفيف بلاياهم واخيراً تراكمت عليه العرائض حتى شعر بتعذر قيامه بمساعدة الجميع ولكنه آلى على نفسه ان لايدخر وسعاً في عمل كل ما يقدر عليه من ضروب المساعدة

وهذا العمل الجديد كان متضمناً المسائل الاتية وهي : ما هذه السنة العجيبة المسماة قانون العقوبات التى اوجدت ذلك السجن المخيف واوجدت

عدداً من محلات اخرى للحجز على التعساء من قلعة بتروبافلوسكي في في بطرسبرج حتى جزيرة سخالين حيث مئات والوف من ضحايا هذا القانون العجيب يذبلون ويتلاشون . ولِمَ وجد هذا القانون ؟ ومن اين اتى ؟

واستنتج نيليدوف من علاقاته الشخصية بالمسجونين ومن الرسائل التي تلقاها من بعض المحجوز عليهم ومن اسئلته للمحامي ولكاهن السجن ان المسجونين الذين يسمون مجرمين يقسمون الى خمس فئات : الاولى هم اولئك الابرياء الذين حكم عليهم بخطاء قضائي . ولم يكن هؤلاء كثيرين بل بلغ معدلهم بمقتضى تقدير الكاهن سبعة في المائة ولكن حالتهم أثارت فيه اهتماماً خاصاً والفئة الثانية تتألف من اناس حكم عليهم من اجل اعمال اتوها في ظروف معينة كالعشق . أو الحسد . أو السكر . وهي ظروف اتى فيها اولئك الذين حكموا عليهم نظير اعمالهم بلا ريب . وتتناول هذه الطبقة بمقتضى ما لاحظ نيليدوف اكثر من نصف المجرمين

والفئة الثالثة من اناس عوقبوا من اجل اتيانهم اعمالاً هي في معتقدهم وبمقتضى آرائهم طبيعية بحتة ونافعة ولكنها في نظر الذين وضعوا القانون جرائم كبيرة وهؤلاء هم الذين يبيعون الخمور بدون رخص والذين يهربون البضائع والذين يقطعون الاخشاب من الغابات التي تخص الحكومة . والجاحدون الذين يسلبون الكنائس

والفئة الرابعة . اولئك الذين سجنوا لوقوفهم بارائهم على سطح الهيئة الاجتماعية وهؤلاء هم السكتاريون والبولونيون والجركس الذين ثاروا لاسترجاع استقلالهم ومن هؤلاء المسجونون السياسيون والاشتراكيون

وكان عدد هؤلاء كثيراً بمقتضى ما لاحظ نيليدوف وبينهم بعض من افضل الرجال حكم عليهم لمقاومتهم اولياء الامور

والفئة الخامسة تتألف من اشخاص اذنب اليهم اكثر مما اذنبوا بنسبتهم الى الهيئة الاجتماعية وهؤلاء هم المطرودون المعرضون على الدوام للشهوات والتجارب كالفتى الذي سرق الحصر ومئات غيره نظرهم نيليدوف داخل السجن وخارجه فحالاتهم المعاشية هي التي تقودهم قيادة منتظمة نحو اعمال تنتهي بالجرائم ورأى ان كثيراً من السارقين والقتلة الذين اجتمع بهم مؤخراً ينتسبون الى هذه الطبقة وكثيراً من هذه الفئة اغروا وافسدت اخلاقهم فجعلتهم مدرسة علم الجرائم من المجرمين وعدّ وجودهم اعظم برهان على ضرورة وجود قانون العقوبات والعقاب . فهذه الطبقة المنحطة الفاسدة الاخلاق والمرذولة هي في نظر نيليدوف نظير تلك الطبقة التي اذنبت اليها الهيئة الاجتماعية ولكن هؤلاء لم يوجه اليهم الذنب رأساً بل وُجهَ الى آبائهم واجدادهم من قبلهم

وقد استلفت انظار نيليدوف من هذه الطبقة الاخرة بنوع خاص رجل اسمه هوتين وهو لصٌّ شهير وابن غير شرعي نشأ في بيت فجور ولم يصادف مدة حياته شخصاً فاقت ادابه آداب رجال البوليس فانضم الى عصابة من اللصوص حين كان فتىً فقد مُنح هذا الرجل طيبة خلق فائقة الحدّ جذبت اليه محبة جميع الذين عاشروه فسأل نيليدوف التوسط له . وكان في الوقت يهزأ بنفسه وبالقضاة وبالسجن وبالشرائع العالمية والالهية. واجتمع ايضاً بشخص آخر جميل الصورة كريم السجايا اسمه فيدوروف كان رئيس عصابة لصوص وسلب شيخاً من رجال الحكومة وقتله وقد كان

فلاحاً انتزع من والده بطريقة غير شرعية ثم خدم في الجيش وتعذب لوقوعه في حب وصيفة احد الضباط وكان ذا طبيعة شهوانية يميل الى اللهو والطرب مهما كلفه الامر ولم يصادف قط رجلاً نهاه أو ابدى له نصحاً ولم يسمع قط كلمةً عن غرض من اغراض الحياة عدا الطرب والملذات فتبين لنيليدوف جلياً ان هذين الاثنين منحتهما الطبيعة احسن السجايا ولكنهما اهملا واقعدا عن العمل النافع كما تهمل النباتات التي لا يعتنى بها واجتمع ايضاً بشريد وشريدة فلم يجد فيهما اشارة واحدة من اشارات طبقة المجرمين التي كتبت عنها المدرسة الايطالية ولكنه وجد فيهما فقط شخصين لا يختلفان عن بعض الاشخاص الذين لقيهم خارج السجن باردية ذات ذيول دقيقة برمانات مذهبة على الاكتاف

وهكذا كان السؤال عن سبب زج هؤلاء الاشخاص المختلفين في السجن في حين ان آخرين نظيرهم يسرحون ويمرحون مطلقي السراح بل يجلسون على منصة الاحكام يحكمون على الانام . وقد رجا ان يجد جواباً على هذا السؤال في الكتب فابتاع منها كل ما يبحث فيه وهي كتب لامبروزو وجارو وفامو وفرّي وليزت ومودسلي وقراءها باعتناء وامعان . ولكنه كان يزيد بلباله كلما قرأ فيها فحدت له كما يحدث على الدوام للذين يرجعون الى العلم لا ليلعبوا فيهِ دوراً وليكتبوا ويباحثوا فيه بل لينالوا جواباً على سؤال يكرر كل يوم عن الحياة . فالعلم اجاب على آلاف من الاسئلة المتناهية في الدها والبراعة التي لها مساس بقانون العقوبات ولكنه لم يعثر على السؤال الذي حاول حلَّهُ فقد سأل سؤالاً بسيطاً جداً وهو : لماذا وبأي حق يحجر بعض الناس على آخرين ويعذبونهم وينفونهم ويجلدونهم ويقتلونهم في حين انهم انفسهم

نظير اولئك الذين يعذبون ويجلدون ويقتلون ؟ وفي الجواب اخذ يناقش نفسه فيما اذا كان الناس ذوى ارادة حرّةٍ ام لا . وفيما اذا كانت علامات ارتكاب الجرائم بقياس الجمجمة ام لا وأي دور لعبته الوراثة في الجرائم وهل ينتقل سوء الخلق بالوراثة وما هو تأثير الجنون في الذرية وما هو الانحطاط وما هو الاعتدال وكيف يؤثر الطقس والطعام والتقليد والتنويم على الجرائم وقد وجد في الكتب العلمية والطبية والقضائية كثيراً من الحكمة والفائدة ولكنه لم يجد فيها جواباً شافياً على السؤال الاساسي المهم وهو : باي حق يعاقب بعض الناس البعض الآخر . كما انه لم يجد حلاً لهذا السؤال فقط بل ان جميع البراهين والادلة التي اوردت استخدمت لايضاح العقاب وتبريره والدفاع عنه مثبتة ضرورة وجوده كمبدإ وكحقيقة من الحقائق .

وقد قرأ نيليدوف ولكن بسرعة كلية وبعد ان اسند فشله الى هذه القراءة السطحية رجاء ان يجد الجواب فيما بعد

« ٢٢ »

كان يوم ٥ يوليو « تموز » ميعاد سفر زمرة المسجونين التي كانت ماسلوفا واحدة منها فتهيأ نيليدوف للسفر في اليوم ذاته

وقبل سفره بيوم واحد جاءت المدينة شقيقته وزوجها . وكانت ناتالي اكبر من شقيقها نيليدوف بعشر سنين . وكانت شغوفة به حين كان صبياً الى ان بلغ سن الرشد ودخل الخدمة العسكرية حيث فسدت اخلاقها هي باقترانها برجل احبته محبة شهوانية وهو عديم المبالاة بالامور التي تدفع الانسان نحو الكمال الادبي وخدمة الانسانية . وكان رجلاً لا شهرة له ولا مال ولكنه كان حاذقاً في مهنته يتلاعب بين حزبي الاحرار والمحافظين

مستفيداً من الذي كان يناسب غرضه في الزمان والمكان وكان بنوع خاص حائزاً على بعض صفات ترضي النسآء فتمكن من احراز مركز سام له في القضآء فتعرف بنيليدوف واوقع ناتالي في حبه رغم ارادة والدتها التي عدت مثل هذا الزواج فاصلاً بينها وبين ابنتها وقاوم نيليدوف لهذا الحب فلم ينجح فابغض زوج اخته بغضاً شديداً . وكانت كراهته له بالاكثر ناشئة عن تصلبه في رأيه وكرهه لاخته بسبب طيشها ورعونتها حتى انها من شدة شغفها بزوجها لم تراع خاطر امها ولا حفلت بكلام اخيها

وكان نيليدوف يتألم كثيراً عند تذكره ان ناتالي هي زوجة ذاك الرجل المتصلب الرأي وحينما سمع انها حامل وانها ستلد طفلاً رثا لحالها وشعر بان عدوى الفساد قد سرت اليها مرة اخرى من هذا الرجل الذي عدّه غريباً عنه

وحين حضور ناتالي وزوجها روجوزنسكي الى المدينة نزلا في احسن نزل واكتريا اغلى غرفة فيه . وقصدت ناتالي منزل والدتها القديم حيث ابلغتها الخادمة اغرافينا بترك اخيها المنزل وسكناه في محل استأجره . وحين وصولها دخلت توًّا الى الداخل لانها ارادت ان تكتب له رسالة فتعهدت غرفتي اخيها الصغيرتين بامعان ولحظت في كل شئ المحبة والنظافة والنظام التي عهدتها فيه واستلفت نظرها بنوع خاص البساطة الحديثة في جميع المشتملات فجلست وكتبت رسالة لاخيها تلح عليه فيها بالاتيان اليها في ذاك اليوم ثم عادت الى النزل وهي تفكر في امرين يتعلقان باخيها احدهما اقترانه بكاتيوشا الذي كان دائراً على الالسن والثاني منحه الاراضي للفلاحين الذي كان

شائعاً وعدّهُ الكثيرون عملاً ذا صبغة سياسية وخطراً على الهيئة الاجتماعية

وقد ابهجها خبر اقتران اخيها بكاتيوشا فانها اعجبت بذلك الشمم الذي كان مستحوذا عليها في ايام سعادتهما قبل زواجها . ومع ذلك فقد اضطربت حين فكرت باقترانه بتلك المرأة المخيفة . وكان الشعور الثاني اقوى من الاول فعزمت على استخدام كل نفوذها لتحويله عن عزمه مع علمها بصعوبة هذا الامر

أما الامر الثاني وهو منحه الارض للفلاحين فلم يكن ليهمها كثيراً ولكنه اثار سخط زوجها فأمل منها افراغ جهدها في ايقاف هذا التنازل . وكان روجوزنسكي يعد هذا العمل من نوع مخالفة الجمهور والطيش والكبرياء الذي يراد به التفاخر والشهرة فكان يكرر هذا القول : اذا كان مصمماً على عمل كهذا فلماذا لا يبيع الارض للفلاحين بواسطة البنك العقاري فيكون في ذلك شيء من التعقل وفي الحقيقة ان هذا العمل ناشئ عن اختلال في الشعور واخذ يفكر في وضع نيليدوف تحت المراقبة القضائية وكثيراً ما سأل زوجته ان تخاطب اخاها بعنف في هذا الموضوع

وحينما عاد نيليدوف في المساء ونظر رسالة اخته على الطاولة ذهب توًّا ليراها فوجدها وحدها وكان زوجها في الغرفة المجاورة وكانت لابسة ثوباً حريراً اسود وعاقصة شعرها على آخر طراز

وقد كانت الامها شديدة باضطرارها الى اظهار نفسها صغيرة امام زوجها الذي كان يساويها في السن

ولما نظرت اخاها قفزت واسرعت نحوهُ فتعانقا وتبادلا النظرات مبتسمين ودار الحديث بينهما فقال لها : الحمد لله على ما اراك فيه من

العافيـة ويظهر عليك انك اصـغر ممـا انت . فسرت بهـذه الـكلمات غاية السرور وقالت له : اني اشكر الله على رؤيتك بخير

فقال : كيف حال زوجك ؟

ـ هو في الغرفة الثانية ولم يغمض له جفن طول الليل الفائت . وبعـد ان سكتت هنيهة عادت فاستأنفت الحديث قائلة : ذهبت الى منزلك امس فعلمت انك لا تقيم فيه الا نادراً

ـ نعم قد تركته لاني شـعرت بالـكآبة والوحدة ولست في حاجة الى شيء مما فيه فخذي ما يحتوي عليه من الاثاث والاشياء

ـ انا عالمة بكل شيء يا ديمتري « قالت هذه العبارة بحزن »

ـ اني مسرور بما تعلمين يا نا تالي

ـ كيف يمكنك ان ترجو اصلاحها بعد تلك الحياة التي صرفتها فاعتدل نيليدوف في جلوسه واصغى اليها جيداً واستعد لمجاوبتها . وكانت التأثيرات التي استولت عليه بعد مقابلته الآخرة لماسلوفا لاتزال ماثلة روحه بهجة وانعطافاً نحو جميع البشر فقال :

ـ ليست هي التي اريد اصلاحها بل اريد اصلاح نفسي

فتنهدت نا تالي وقالت : ولـكنَّ لذلك طرقاً غير الزواج

ـ ولـكني اجد الزواج افضل هذه الطرق وعدا ذلك فانه يقودني الى عالم يمكني فيهِ ان اكون ذا نفع

ـ لا اخالك تنال الغبطة بما تفعل

ـ ليست غبطتي هي المقصودة من عملي

ـ لو كان لها قلب لما املَّت السعادة . بل لرفضت ما تعرضه عليها

ـ انها رفضت ذلك رفضاً باتاً . قال هذا وهو ينظر الى وجه اخته الذي كان لايزال جميلاً مع ما بدا عليه من التجعد فقال في نفسه كيف امكن هذه المحبوبة المسكينة ان تتغير الى هذا الحد ؟ واعاد الى مخيلته ناتالي كما كانت قبل زواجها وشعر بانعطاف شديد اليها . وفي تلك اللحظة دخل روجوزنسكي الغرفة متباطئاً ناقلاً خطواته بلطف كعادته فلما رأى نيليدوف صاح به كيف حالك ايها العزيز ثم تصافحا وجلس روجوزنسكي على كرسي وقال : هل قاطعت حديثكما

اجابه نيليدوف : كلاّ فاني لا اريد ان اخفي عن احد ما اقوله او ما افعله

فقالت ناتالي : قد كنا نتكلم عن مقاصده

فقال : وما هي تلك المقاصد

قال نيليدوف : عن ذهابي الى سيبيريا مع زمرة من المسجونين بينهم امرأة اعتبر نفسي مذنباً اليها

ـ سمعت انك لاتريد ان تصحبها فقط بل اكثر من ذلك

ـ نعم وان اقترن بها ان شاءت

ـ احق ما تقول ؟ ولا تحسبني فضولياً اذا رجوتك ايضاح الاسباب التي تدفعك الى ذلك لاني لا افهمها

ـ ان الاسباب التي دفعتني هي اني انا المذنب اليها وهي تنال القصاص

ـ اذا كانت هي تقاصص ففير ممكن ان تكون بريئة

ـ هي بريئة لا محالة . واخذ نيليدوف يقصُّ عليه الحكاية كما حدثت فاجابه روجوزنسكي : كان من الواجب ان تُحوَّل القضية على مجلس الشيوخ

قد رفض مجلس الشيوخ الاستدعاء

ـ اذا كان مجلس الشيوخ قد رفضه فلأنه لم يكن فيه اسباب كافية تدعو الى قبوله لان مجلس الشيوخ لا يمكنه ان يعين ما تستحقه القضية من عقاب او عدمه واذا كان ثمت خطأ حقيقة فيجب عرض الامر على القيصر

ـ قد فعلنا ذلك ولكن الامل بالنجاح ضعيف فان العريضة ستحال على مقام الوزارة وهذا المقام سيستشير مجلس الشيوخ والمجلس سيعيد قراره وتكون النتيجة كما جرت العادة معاقبة البريء

اولاً : ان الوزارة لا تستشير مجلس الشيوخ بل تصدر امراً بارسال الاوراق الاصلية من المحكمة واذا اكتشفت خطأ اصدرت قرارها في الحال . ثانياً : ان الابرياء لا يعاقبون قط او ان ذلك نادر الحدوث وفي ظروف مستثناة

ـ اما انا فاعتقد خلاف ذلك واني مقتنع تمام الاقتناع بان العدد الاكبر من اولئك الذين حكم عليهم القانون ابرياء

ـ بأي معنى ؟

ـ بالمعنى الحرفي للفظة ابرياء كبراءة هذه المرأة من جريمة التسميم المتهمة بها وكبراءة فلاح عرفته من تهمة قتل اسندت اليه وكبراءة والدة وابنها حكم عليهما من اجل احراق منزل احرقه صاحبه لينتقم منهما بهذه التهمة

ـ نعم بلا ريب فقد وجد ولا زال يوجد على الدوام اغلاط قضائية لان محدثات البشر لن تبلغ درجة الكمال

ـ وعدا ذلك فان كثيرين من المعدودين مجرمين هم ابرياء من اتيان امور تعدّ ذنوباً في نظر الهيئة الاجتماعية التي نشأوا فيها

- لا تؤاخذني اذا قلت ان الامر ليس كذلك فكل سارق يعرف ان السرقة خطأ وانه لايجب علينا ان نسرق وان السرقة من مخالفات الآداب

- كلاَّ انه لايعرف ذلك . يقولون له لاتسرق وهو عالمٌ بان صاحب المعمل يسرق اجرة عمله او يؤجل دفعها ويعرف ان الحكومة بواسطة جميع موظفيها تنهبه على الدوام بما تفرض من الرسوم

- ان ما تقوله لمن مبادي الفوضويين

- انا لا اعرف ما هو ولكني اذكر ما يحدث فهو يعلم ان الحكومة تنهبهُ ويعلم اننا نحن اصحاب الاراضي نهبناه منذ زمن بعيد حيث سلبنا منه الارض التي يجب ان تكون ملكاً مشتركاً للجميع ثم لو جمع من هذه الارض التي سلبت منه بعض اعشاب او قطع بعض اخشاب ليشعل ناره بها حجزنا عليه وعددناه سارقاً

- لست افهم اقوالك ولا يمكني ان اوافق عليها فالارض يجب ان تكون ملكاً لبعض الناس فاذا قسمت قسمة متساوية بين الجميع عُدَّ ذلك ضرباً من الجنون . واذا قسمتْ قسمة متساوية اليوم عادت غداً الى أيدي النشيطين والحاذقين

- لا احد يفكر في تقسيم الاراضي قسمة متساويةٍ فالارض لايجب ان تكون ملك احد ويجب ان لاتكون شيئاً يُباع او يشرى او يؤجر

- حقوق التملك مولودة في الانسان ولولاها لما كان في الناس ميل الى حراثة الارض وزراعتها ولو نُزعت حقوق التملك لاصبح الانسان في درجة التوحش

الامر بالعكس فلو لم تكن الارض ملك احد لما بقي شيء منها مهملاً

كما هي الحالة الآن اذ ترى اصحاب الاراضي الواسعة كالعضو المشلول فلا يأتون عملاً فيها ولا يسمحون لاولئك النشطاء الذين يقوون على العمل بتعميرها

ـ ان هذا الكلام محض جنون وهل الممكن نزع تملك الارض في زماننا ؟ انا عالم انها انشودتك القديمة واسمح لي ان اقول لك بصراحة بانه يجب عليك ان تدقق في هذه المسألة قبل الشروع في حلها حلاً فعلياً نعم اننا وجدنا في ظروف معينه فيجب علينا ان ندعم هذه الظروف وان نسلم الى الخلف ما استلمناه من السلف . واعلم يا نيليدوف ان كلامي هذا لا اقصد به غرضاً ذاتياً بل انه ناشئ عن عدم موافقتي لاميالك ولذلك فاني انصح لك بان تفتكر وتحقق وتقرأ

ـ آني في سنّ يؤهلني لمعرفة ما يجب على قرأنه والتمعن فيه ولست بحاجة الى من يرشدني ثم صمت عن الكلام واخذ يشرب الشاي

وبعد ان سكن تأثر نيليدوف سأل اخته عن اولادها . ولسرور ناتالي بختام الجدال بينه وبين زوجها قالت له انهم كثيرو الشبه بك عند ما كنت صغيراً . وكانت تشعر ان زوجها يقصد تكدير اخيها وظن روجوزنسكي بانّ نيليدوف يخطئه ويحقر اعماله وشعر نيليدوف باغضاب نسيبه له لتداخله في امر تصرفه وقد عرف جلياً ان اخته وزوجها واولادها كورثاء له كانت لهم اغراض ذاتية من ذلك وتحقق ان نسيبه قاصر الادراك متصلب الرأي ومقتنع تمام الاقتناع ان كلامه لا يمكن ان يراجع فيه فاثار ذلك سخط نيليدوف فقال له : بماذا تحكم على المجرمين السياسيين هل يستحقون عقوبة صارمة كاولئك المجرمين على زعمك

ـ لا ارى المجرمين المنعوتين بالسياسيين يعاقبون على كونهم من طالبي

الاصلاح حقيقة بل لانهم من منبوذي الهيئة الاجتماعية فضلاً عن كونهم من فاسدي الاخلاق ويحسبون من كبار المجرمين الذين يجب معاقبتهم اشد عقاب

ـ ولكنه تسنى لي ان اعرف اناساً منهم هم فوق القضاة الذين حكموا عليهم بما لا يقاس في العلم والآداب وعليه لا اوافق مطلقاً على كون القانون وغاية حكمته هي حفظ الحالة الحاضرة والا فافضل الاصلاح بالزج في السجن

ـ كان السجن او اقصاء فاسدي الاخلاق والاشقياء الذين يهددون المجتمع الانساني الى سيبريا ينقسم في الازمنة الغابرة الى قسمين من القصاص كانا يستعملان وهما القصاص البدني والاعدام اللذان هذبتهما الطبيعة البشريه ولطفتهما المدنية تدريجاً حتى أصبح القصاص كما هو عليه الآن سجناً او نفياً على قدر الجريمة فقل خوف الاشقياء وكثرة الجرائم

ـ ان من الغريب ان تفوه بهذا الكلام . نعم من المعقول ان يؤلم الانسان اذا كان مؤذياً وخطراً على الهيئة الاجتماعية حتى لا يعود في المستقبل الى عمله ولكن ما الفائدة من الحجر على انسان فاسد الاخلاق في السجن مع حاجته الى العمل بل ما الفائدة في ايداعه محلاً يعال فيه حيث يجتمع باشر الناس وافسدهم خلقاً واية منفعة في نقل انسان على نفقة الجمهور من (التولا) الى مقاطعة اركوتسك وهذه النفقة لا تقل عن خمسماية روبل

ـ ولكن الناس يخافون هذه الاسفار التي لولاها ولولا هذه السجون لما امكننا انا وانت ان نلبث حيث نحن

ـ السجون لا يمكنها ان تضمن سلامتنا لان اولئك الناس لا يبقون فيها الى الابد بل يطلق سراحهم فيكونون في هذه المدة التي قضوها في السجن بلغوا اقصى درجات الانحطاط فيزداد الخطر من حيث يراد تخفيفه

— تعني بقولك انه يجب اصلاح السجون وتحسينها

ـ لا يمكن الاصلاح لان ذلك يكلف اكثر من كل ماينفق على تعليم الامة ويوقع الشعب تحت حمل اثقل

— ولكن التراخي في نظام السجون يضعف القانون نفسه

— ألا يوجد علاج لهذا التراخي

— اذن ماذا تريد ؟ ان نقتلهم أو كما قال أحد السياسيين ان نفقأ عيونهم

— نعم ان ذلك فظيع ولكنه فعال أما ما يفعل الآن ففظيع وليس عديم التأثير فقط بل مما يجعل الانسان لا يفهم كيف ان اناساً ذوي عقول كبيرة يمكن ان يكون لهم يد في عمل سخيف وفظيع كالقانون الجنائي

فاصفر وجه روجوز نسكي وقال بصوت متهدج: ولكني انا ذو ضلع فيه . واظن ان هنا لك أمورا كثيرة غامضة عليك

— لم يبق شيء غامضاً لديّ فقد نظرت كيف ان أحد أعضاء النيابة بذل جهده لاصدار حكم العقاب على فتى بائس حالته التعيسة تستنهض عاطفتي الشفقة والرحمة في كل قلب لم يدخله فساد . وعرفت كيف ان آخر استنطق أحد السكتاريين وأجهد الفكر في استخراج جريمة له من قراءة الانجيل والخلاصة ان جميع أعمال المحاكم ليست سوى سخافة وفظاعة من هذا القبيل

فوقف روجوزنسكي وقال آسفا : لو كنت أعرف ذلك لما امتزجت بهذه الخدمة ثم مسح عينيه وسار نحو النافذة . فعلم نيلدوف انه يبكي وشعر بألم وخجل من مقاومته له ولاخته الى هذا الحد خصوصاً وانه كان عازماً

على السفر في اليوم التالي وعلى انه لا يراهما فيما بعد . فانفصل عنهما مشوش البال وركب العربة قاصداً منزله

(٢٣)

تقرر سفر ماسلوفا وباقي المسجونين في الساعة الثالثة بعد الظهر فعزم نيليدوف على ان يذهب الى السجن قبل الوقت المعين لينظر كيفية تسفيرهم ويسير الى المحطة معهم

وحين كان يحزم معدات سفره وينظم اوراقه ليلاً عثر على مفكرته وقرأ فيها قطعاً مختلفة منها ما كتبه قبل ذهابه الى بطرسبرج ذكر فيها مايلي

— لا تريد كاتيوشا ان تقبل ضحيتي بل تريد ان تضحي نفسها وقد ظفرت وظفرت أنا أيضاً . وهي تبهجني بالتغيير الداخلي الذي يبدو لي مع انني اتردد في تصديق ما ارى. اتردد في التصديق ومع ذلك فيظهر لي انها عائدة الى الحياة . ثم قرأ مايلي : مر علي حادث مكدر جداً وبهيج جداً عرفت انها سلكت سلوكاً سيئاً في المستشفى وشعرت بغتة بالم شديد ولم افكر قط في ان يكون الامر مؤلماً الى هذا الحد. تكلمت معها بعنف وباحتقار ثم اعدت الى مخيلتي بغتة المرات العديدة التي سقطت فيها بنفس هذا الذنب الذي احتقرتها لاجله وفي الحال احتقرت نفسي ورثيت لحالها وشعرت بالسرور ثانية ! ما كان اودعنا لو امكنا فقط ان نرى الخشبة في أعيننا وقت وجودها . ثم كتب مايلي : ذهبت لاري ناتالي ورضاي عن نفسي واعتدادي بها حملاني مرة أخرى على الفظاظة والحقد واخلفا بي شعوراً محزناً ولكن الامر قد قضي وغداً تبدأ حياة جديدة ووداع أخير للحياة القديمة

وحين أفاق نيليدوف في الصباح كان أول مادهمه من الشعور اسفه

لما جرى بينه وبين نسيبه فقال : لايمكني ان اسافر على هذه الحال بل يجب عليَّ ان اذهب واتصافح معهم . ولكنه وجد ان الوقت لايساعده، فجهز كل شيء بسرعة وأرسل الاشياء الى المحطة مع خادم وتراس زوج تيودينيا وركب عربة قاصداً السجن

وكان قطار المجرمين قد سار قبل القطار الذي ركبه بساعتين وكان ذلك في شهر لوليو « تموز » والحر لايطاق وكان الهواء محرقاً يحمل عثيراً ورائحة كريهة ولم يكن في وسط الشوارع غير الفعلة الذين يصلحون الطرقات وكان رجال الشرطة الشرسون باردیتهم الهولندية والمسدسات مشدودة الى وسطهم واقفين في منتصف الشارع بحالة كئيبة مكربة وكانت عربات التراموای تسير في الطريق ذهاباً وايابا

وحين وصل نيليدوف الى السجن لم يكن المسجونون قد برحوا ساحته بعد وكان عملهم الشاق قد بدأ من الساعة الرابعة صباحاً ولم ينته حتى ذلك الوقت لان عددهم كان يبلغ ٦٤٣ رجلا واربعاً وستين امرأة . وكانوا جميعهم يحصون ويستلمون بمقتضى كشف التسجيل ويفرز منهم المرضى والضعفاء ويرسلون جميعاً الى محافظي القطار. وكان المفتش الجديد ومعاوناه والطبيب ومعاونه وضابط حراسة القطار والكاتب جالسين حول منضدة وقد دعوا المسجونين واحداً فواحداً وفحصوهم واستنطقوهم وكتبوا ملاحظاتهم

وبدأت الشمس تلقى اشعتها على المنضدة فالهبتها بحرارتها الهاجرة وضاق التنفس من سكون الهواء ومن ازدحام جماهير المسجونين فقال احد الضباط رحماك ايتها السموات اليس لهذا العمل نهاية . ثم تحول نحو الكاتب وقال انك تقتلني من اين اتيت بهذا العدد اباق كثير منهم؟ فنظر

الكاتب الى الكشف وقال ان الباقي من الرجال اربعة وعشرون عدا النساء

وبينما كان هذا يجري في فسحة السجن كان خارج الباب نحو عشرين عربة نقل أتي بها لحمل امتعة المسجونين ونقل العاجزين عن المشي وجلس عند الزاوية جمهور من الاقرباء والاصدقاء ينتظرون رؤية المسجونين حين خروجهم ليودعوهم بنظرة قبل الفراق. وكان نيليدوف بين هؤلاء وبعد ان وقف نحو ساعة سمع قرقعة السلاسل واصوات أولي الامر وتذمر ذاك الجمهور العظيم . واخيرا صدرت الاوامر ففتحت الابواب وكان لفتحها صوت كقصف الرعد فعلا صوت قرقعة السلاسل وخرج عساكر الحرس بملابسهم البيضاء حاملين البنادق وكونوا في وقفتهم دائرة مقابل الباب ثم صدر امر آخر فبدأ المجرمون بالخروج ازواجا وعلى رؤوسهم لبد خفيفة ويحملون اكياسا ثقيلة ويجرون ارجلهم المكبلة . وخرج اولا الرجال المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالبستهم البيضاء واردیتهم المنمرة بين شبان وشيوخ بينهم الهزيل والضخم والاصفر والاحمر والملتحي والحليق من روس وتتر ويهود .. خرجوا يقرقعون بسلاسلهم وبعد ان خطوا عشر خطوات وقفوا واصطفوا وراء بعضهم البعض اربعة اربعة . ثم تدفق عدد اخر من محلوقي الرؤوس مشابهين للذين سبقوهم في اللباس ويخالفونهم في تجردهم من السلاسل وهؤلاء كان محكوما عليهم بالنفي فوقفوا أيضاً مصطفين اربعة اربعة . ثم خرجت النساء على النظام الاول . فخرج اولاً المحكوم عليهن بالاشغال الشاقة ثم المنفيات واللواتي تبعن ازواجهن بارادتهن لابسات البستهن العادية وكان بعض النساء يحملن اطفالا . وخرج مع النساء الاولاد من صبيان وبنات وحشروا بين المسجونين كما تحشر الحملان بين قطيع الاغنام

ثم امر ضابط الحرس بالمسير فسمعت قرقعة بنادق العساكر الذين احاطوا بالمجرمين ثم تقدموهم وساروا بانتظام : المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة اولا ثم المنفيون والمبعدون ثم النساء ووراءهم الضعفاء على عربات محملة اكياساً وكان على احدى العربات امرأة تصيح وتقول ارحموني ..

وكان نيليدوف لابساً ملابس خفيفة لان الحر كان شديدا لايطاق والهواء جافا مملوءاً غباراً وبينما هو سائر اخذ يفكر في المحادثة التي جرت بينه وبين اخته ونسيبه في الليلة الفائتة فلم يهجه هذا الفكر اذ ذاك كما هيجه سير تلك الصفوف مشفوعا بالحرارة القتالة ولكنه لما رأى انه يتعذر عليه الذهاب اليهما قبل سفر القطار اراد ان يكتب لهما فطلب من الحوذي ان يسير به الى مطعم قريب فصدع بالامر ولما وصل اليه لم يجد فيه غير الخدمة وقرفا فطلب زجاجة مياه معدنيه وقطعة لحم باردة مع قليل من الخبز وبعد ان اكل وشرب طلب دواة وكتب لاخته مايلي:

عزيزتي ناتالي — لايمكني ان اسافر بالحمل الثقيل الذي القاه علي امس حديثي مع زوجك .. فأساليه ان يسامحني على ماقلته له ولكني لم اقل الا ماشعرت به .. ثم ان تداخله في اموري الشخصية اهاج عواطفي ولم يعد يمكنني .. ثم توقف على الكتابة لانه شعر بحقد لهذا الرجل الذي عده غريباً عنه . فطوى الرسالة التي لم تتم كتابتها ووضعها في جيبه ودفع ماعليه وخرج وركب العربة ليدرك الجمهور المسافر

وزاد اشتداد الحر وظهر كأن الحجارة والجدران ترسل من اجوافها الحمم المحرقة وكانت الارصفة تحرق ارجل المارين وشعر نيليدوف بالتهاب يديه حين وضعهما على متكأ العربة. وكانت خيول العربة تضرب الارض

بقوائمها من شدة الحر ويتطاير الغبار والحوذي يتنازعه عاملا اليقظة والنوم فجلس نيليدوف غير مفكر في شيء بل كان محدقا بلا اكتراث في ما امامه فرأى جمهورا من الناس محتشدا امام باب منزل كبير وبينهم احد عساكر الحرس فاوقف نيليدوف السائق وسأل احد الواقفين عما حدث . فقال ان عارضا عرض لاحد المجرمين فنزل نيليدوف من العربة وتقدم من الجمع فنظر رجلا متقدما في السن ملقى على ظهره على حجارة قناة مدليا يديه ومصوبا عينيه الحمراوين الى السماء يتنفس تنفسا طويلا ممزوجا بالانين ووقف الى جانبه بوليس كئيب الوجه واحد الباعة ومأمور بوسطه وكاتب وامرأة عجوز فقال الكاتب مخاطبا نيليدوف انهم ضعفاء ويزدادون ضعفاً بجلوسهم محجورا عليهم في السجن ثم يسوقونهم في اشد درجات الحرارة المحرقة

وقالت العجوز بحزن . انه مائت لا محالة

وقال مامور البوسطة . يجب فك ازرار قميصه

فبدأ البوليس يفك طوق القميص المشدود الى عنقه وكان متهيجا ومضطربا بمن حوله وهو يقول . مالكم تجمعتم هكذا الا تكفي الحرارة الفتاكة حتى تحبسوا البقية الباقية من الهواء

فقال الكاتب . قد كان الواجب ان يفحصهم الطبيب ويبقى الضعفاء منهم فقد اخرجوه وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة

وبعد ان فك البوليس ازرار قميصه التفت الى نيليدوف طالبا المساعدة ثم علت اصوات مختلفة من الجمع المحتشد تقول ان الذين من واجباتهم هذا الامر لا يبالون فالمجرم مجرم ولكن لا يزال انسانا

فقال نيليدوف . ارفعوا رأسه واسقوه قليلا من الماء . وفي اثناء ذلك

سمع صوت يقول لم احتشدهذا الجمع هنا ؟ وظهر على الاثر ضابط بوليس حليق اللحية نظيف لامع الازرار والحذاء فتقدم من الناس وصاح بصوته الجهوري قائلا : انصرفوا من هناء فانه اصدر هـذا الامر قبل ان يعرف السبب الذي اجتمع الناس من اجله . وحين اقترب ونظر المجرم المائت ابدى اشارة برأسه فهم منها انه كان ينتظر حدوث مثل هذا الحادث والتفت الى البوليس وقال كيف حصل ذلك؟

قال البوليس : بينما كان صف المسجونين سائرا سقط هذا المسكين على الارض فامر ضابط الحرس بتخلفه

قال : هذا عين الصواب ويجب ان ينقل الى مركز البوليس فادع حوذياً وانقله

وكانت عربة نيليدوف بالقرب منهـم فامر الحوذي ان ينقله اليها وكان بعضهم قد اتى بالماء فتقدم البوليس ورفع رأسه المنحني وحاول سكب الماء في فمه فتعذر عليه ذلك وتسرب الماء على لحيته وبلل رداءه وقميصه القذر فامر الضابط بسكب الماء على رأسه فرفع البوليس الوعاء وسكب مافيه مرة واحدة على تلك الرأس الصلعاء ففتح الرجل عينيه فتحة متسعة ناشئة عن الخوف ولكـن حالته لم تتغير فظل يلهث كالاول وارتجفت جميع اعضائه فلما رأى الضابط ذلك صاح قائلا : ماالذي تنتظرونه ؟ عجلوا بنقله . فرفع البوليس وعسكري الحرس الرجل ونقلاه الى العربة واجلساه على المقعد وجلسا بجانبه يسندانه وامرا الحوذي بالمسير . فنظر اليهما شذراً وهز رأسه وسار ببطء الى مركز البوليس . وسار نيليدوف وراء هذا المشهد

(٢٤)

ومرت العربة برجل المطافي الذي وقف على المدخل حارساً ودخلت الى فسحة المركز ووقفت بالقرب من احد الابواب وكان في الفسحة عدد من رجال المطافي يغسلون عربة ويضجون باصوات مرتفعة وحين وقفت احاط بها عدد من البوليس وانزلوا جثة المجرم منها ونزل الجندي الذى كان بجانبها وحرك ذراعه المتخدرة ورفع قبعته ورسم اشارة الصليب ونقلت الجثة الى غرفة في الداخل وظل نيليدوف تابعاً لها. وكانت تلك الغرفة صغيرة فيها اربعة اسرة اشغل اثنين منها عليلان والقي المجرم الماثت على سرير من الاخرى . وصعد رجل صغير الجثة براق العينين متحرك الحاجبين بخطوات سريعة ونظر الى المجرم ثم الى نيليدوف وقهقه ضاحكاً . وقد كان هذا الرجل مجنوناً ومحجوزاً عليه في مستشفى البوليس وبعد ان نظر الى هذا وذاك هز رأسه وقال : انهم يريدون ارهابي ولكنهم لاينجحون

وحضر ضابط البوليس ومعه معاون الطبيب فتقدم هذا الى الجثة ورفع اليدين لحظة ثم تركهما فسقطا بلاحراك على صدر الميت. فقال المعاون قد قضي الامر ولكي يتثبت من صحة ماقال فك ازرار القميص المبلل ووضع اذنه على الصدر فلم يشعر بحركة فنهض وهز رأسه فقال المجنون . لم ارتعب.. لم أخف .. وبصق على معاون الطبيب فقال ضابط البوليس : ماذا رأيت؟ هل تحققت موته ؟ اجابه نعم ويجب ان يدفن في الحال . فقال الضابط لعسكري الحرس خذه الى المدفن ثم تعالى الى المكتب للتوقيع فرفع رجال البوليس الجثه واراد نيليدوف اللحاق بهم فاعترضه المجنون وقال لست انت في المؤامرة فابق معنا واعطني لفافة دخان ... فاعطاه نيليدوف لفافة فتناولها

منه وأخذ يقص عليه كيفية تعذيبهم له وأرهابهم اياه . فبرح نيلدوف الغرفة دون ان يصغى اليه فرأى الحوذي بانتظاره فركب العربة وامره ان يسير نحو محطة السكة الحديدية . ولم يسيرا قليلا حتى رأى عربة عليها مجرم آخر ميت وكان ملقى على ظهره ورأسه يتحرك لكل هزة ومشي السائق بجانب العربة يقود الخيل بيده وحوله نفر من رجال الحرس فامر نيليدوف الحوذي ان يقف ونزل وتبع العربة الى مركز البوليس . وكان ضابط الحرس واقفاً هناك وحين ابصر جثة اخرى تقدم نحو عسكري الحرس وقال متذمراً من اين التقطته قال من الطريق . قال ضابط فرقة المطافي اسجين هو ؟ قال نعم وهذا هو الثاني في هذا النهار

فقال الضابط : انهم يأتون اموراً ما انزل الله من سلطان ايسوقونهم في مثل هذا اليوم الملتهب يالها من قساوة بربرية

. ورفع البوليس الميت من العربة كما رفعوا الاول وادخلوه غرفة المستشفى ونيليدوف يتبعهم فاعترضه احد رجال البوليس فلم يعبأ به وكان المجنون جالسا على سريره يدخن اللفافة التي أخذها من نيليدوف فقال له ضاحكاً اراك قد عدت ثانية وحين نظر الجندعبس وقال ان هذا المنظر يكدرني جداً .. لا . لا يخيفني فاني لست صغيراً

وكان نيليدوف يتفرس في وجه الميت الجميل وجسمه الغض لانه كان في ربيع الحياة ذا عينين سوداوين جميلتين وانف دقيق فوق شاربين اسودين خفيفين وكانت الابتسامة لاتزال بادية على شفتيه اللتين تحول لونهما الى الزرقة وعلامات وجهه تدل على السكينة والرزانة والدعة

ومع كل ذلك فقد أميت ولم يوجد فرد يحزن على فقده كانسان وليس ذلك فقط بل انه لم يوجد فرد يحزن على تلاشيه كحيوان يشتغل والشعور الذى بدأ هو الانزعاج الناشئ عن ضرورة ازاحة هذه الجثة الفاسدة النتنة من الطريق .ثم دخل الطبيب الى المستشفى يصحبه مفتش البوليس فجلس الطبيب على السرير الى جانب الميت ورفع يديه كما فعل المعاون قبله ووضع اذنه على صدره ثم قال .لا يمكن ان يزيد موتاً على هذا الموت فسأله نيليدوف قائلا لِمَ حدث ذلك ؟

فتفرس الطبيب فيه وقال. حدث ذلك من ضربة الشمس لانهم يجلسون طول الشتاء بدون رياضة وبدون نور ويسيرون جمهوراً كبيراً مزدحمين فيحبس الهواء عنهم وتكون النتيجة كما ترى امامك

فقال نيليدوف : ولماذا يفعلون كذلك

فقال الطبيب . اما عن هذا الامر فاذهب وأسأل اؤلئك الذين يخرجونهم قال هذا هذا بحنق ثم تقدم الى المريضين واخذ يسألهما عن حالهما. امانيليدوف فخرج وركب العربة وامر الحوذي ان يسرع الى المحطة . ولما وصل اليها وجد المسجونين قد اجلسوا في عربات القطار ويوجد جمع خفير على الرصيف من المتفرجين حيث لم يسمح لهم بالدنو من العربات وكان انشغال الحرس كبيراً وشاقاً في ذاك اليوم وقد سقط عدا الاثنين اللذين رآهما نيليدوف اثناء المسير من السجن الى المحطة ثلاثة اخرين اصيبوا بضربة الشمس وماتوا للحال ونقل واحد منهم الى اقرب مركز للبوليس ومات الاثنان الاخران في المحطة وموت خمسة اشخاص لم يزعج رجال البوليس ذلك بل الذي ازعجهم انما هو خوفهم من اهمال شيء يحتمه القانون في مثل هذه

الظروف فقد كان عليهم نقل الجثة الى محلات معينة وارسال أوراقهم واشيائهم وشطب اسمائهم في كشف أولئك المنقولين الى محطة (نزني) وقد كان كل ذلك مزعجاً ومتعباً خصوصاً في يوم شديد الحر كهذا اليوم

هذا ما اشغل رجال الحرس وازعجهم حتى اتموا هذه المهمات . ولم يسمح لنيليدوف وغيره من الحاضرين ان يدنو من العربات ولكن نيليدوف لم يعدم واسطة عرفها وهي ارشاء جاويش الحرس فغمز كفه بروبل فسمح له هذا بالاقتراب مشترطاً سرعة اتمام الحديث قبل حضور أحد الرؤساء وكان عدد العربات ثماني عشرة كانت كلها غاصة بالركاب عدا عربة الضباط والموظفين . وحين مر نيليدوف بالعربات اصغى الى ما كان يتحادث به ركابها وهو كلام خلو من المعنى ولم يسمع لفظة واحدة عن الضحايا التي قدمت في ذلك اليوم على مذبح الظلم بل كان كل مادار من الحديث عن اكياس السفر ومياه الشرب وانتخاب المقاعد ونظر الجنود يفكون القيود من ايدي المسجونين ويجمعونها ويعدان مر بجميع عربات الرجال وصل الى عربات النساء فسمع امرأة تصيح وتقول : آه آه يا الله .. وحين الصق وجهه بالنافذة ليرى ما بداخل العربة شعر بالهواء الحار المثقل برائحة عرق الاجسام البشرية وسمع صخب النساء

وكانت المقاعد مزدحمة بالنساء موردات الخدود والعرق يتصبب منهن فاستلفت وجه نيليدوف انظار القريبات فدنون منه وكانت ماسلوفا جالسة الى النافذة المقابلة حاسرة الرأس وبالقرب منها تيوديزيا الجميلة ولما نظرت ماسلوفا نيليدوف غطت شعرها الاسود بمنديلها واقبلت عليه باسمة ودار ودار الحديث بينهما فقالت والابتسامة لم تبرح شفتيها : ان الحر شديد جداً

على حالتها ولكن كان من الواجب عليها ان تلزم الادب ولا تقلق راحتنا

« ٢٧ »

نهض نيليدوف فى صباح اليوم التالى شاعراً بأن حادثاً قد حدث له . وقبل ان يتذكر ما هو هذا الحادث عرف انه مفيد ومهم ثم فكر بكاتيوشا والمحاكمة وقال : نعم يجب ان أنبذ الكذب وأقول الحق . وبمصادفة غريبة ورد عليه فى ذلك الصباح رسالة من صوفيا فاسليفنا كان ينتظرها منذ زمن مديد وهى زوجة مارشال النبلاء وكان نيليدوف فى حاجة شديدة الى رسالتها . ولما فضّ الرسالة وجد فيها ان الاميرة تمنحه الحرية التامة وترجو له السعادة فى قرانه المنوى وكرر لفظة قران بدهشة واستغراب وقال ما أبعدنى عن ذلك فى هذا الوقت ثم تذكر ماعزم عليه فى اليوم الفائت من الاعتراف بالحقيقة لزوج الاميرة والاستعداد لترضيته بأية وسيلة ولكنه وجد الامر فى هذا اليوم اصعب مما كان يعده فى اليوم الفائت . ثم قال ما الذى يحملني على تنغيص عيش رجل بأخبارى اياه مالا علم له فيه . ولو كان أتانى وسألني لما أخفيت عنه الحقيقة . ولكن ذهابي اليه خصيصاً لا أكدره لا أرى له لزوماً

وصعب عليه ايضاً ما كان يتصوره بالامس من ان يبوح لماريا بكل شئ لان الانسان فى مثل هذه الاحوال لا يمكنه ان يفصح عما فى ضميره ولا مندوحة له عن كتمان بعض الشئ ولكن الامر الذى عزم عليه هو الانقطاع عن الزيارة والاباحة بالحقيقة لو سئل

ولكن ماكان يتعلق بكاتيوشا لايجب ان يهمل ولا ان يكتم فسأذهب الى السجن واقول لها كل شئ وأسألها المغفرة واذا وجدت لزوماً للاقتران

فقالت : وامر آخر هلا يمكن لتيوزيا ان تنظر زوجها تراس «واشارت بعينها الى تيوديزيا المبتسمة» وهو ذاهب معك

واعترض في تلك اللحظة احد الحراس وقال لنيليدوف كف عن الحديث ياسيدي . فابتعد نيليدوف وذهب يبحث عن ضابط يكلمه بشأن المرأة وبشأن تراس ولكنه لم يعثر بواحد ولا امكنه الحصول على جواب فقد كانوا جميعهم في شغل شاغل وحركة مستمرة فالبعض كانوا يركضون ليجلبوا لانفسهم زاداً واخرون يضعون اشياءهم في العربات وآخرون في خدمة سيدة يصحبها ضابط الحرس ولم يلق الضابط الا حين دق الجرس الثاني وكان يمسح شاربيه ويهز كتفيه موبخاً أو نباشياً على امر أتاه فسأل نيليدوف عما يريده . فاجابه : عندكم امرأة تعذرت عليها الولادة فرأيت ان الاوفق فقاطعه الضابط قبل ان يتم كلامه بقوله : لا باس سننظر في امرها فيما بعد ثم اخذ يحرك ذراعيه جذلا طروباً وقفز الى عربته وفي هذه اللحظة حضر حارس المحطة بصفاره كانت في يده فاخذ المجتمعون على الرصيف وفي عربات النساء يولولون وينتحبون ويضرعون الى الله . ووقف نيليدوف وتراس يرقبان حركه العربات . ثم بدأت عربات النساء تمر واكثرهن مطلات من النوافذ حاسرات الرؤوس وابصر ماسلوفا واقفة على النافذة تنظر اليه باسمة وعليها علامة التاثر الشديد

« ٢٥ »

وكان بين سفر هذا القطار وبين القطار الذي سيقل نيليدوف ساعتان فذهب وجلس على مقعد في غرفة الاستراحة فتغلب عليه النعاس ونام مسنداً رأسه الى يده وبعد برهة وجيزة جاءه خادم ونبهه قائلا : أنت البرنس نيليدوف

ياسيدي ، فان سيدة هنا تبحث عنك . فنهض نيليدوف ومسح عينيه وبغت من رؤيته نفسه على تلك الحالة وفي ذاك المكان وعاد الى مخيلته كل ماحدث في ذاك الصباح فتمثل له صفوف المسجونين وجثث الموتى وعربات السكة الحديدية بالنوافذ المشبكة بالحديد والنساء محجور عليهن فيها احداهن تطلب المساعدة وقد حرمت منها بل عذبت فوق عذابها وآلامها وأخرى تبسم له من بين القضبان الحديدية ابتسامة حب وحنان

وحين افاق جيدا وجلس يجمع افكاره رأى ان كل من في الغرفة مصوبا نظره الى خارج الباب فارسل بصره ايضاً واذا بفريق من الرجال يحمل تختاً عليه سيدة فعرف نيليدوف الحاجب الذي يتقدم التخت والبواب الذى يسير وراءه وكانت تمشي وراء البواب خادمة جميلة حاملة رزمة ومظلة ووراءها البرنس كورتشاجين بشفتيه الغليظتين وقبعة السفر على رأسه ووراءه ماريا وابنة عمها ميشا واوستن السياسي بحالة الزهو والطرب وكان يقول لماريا كلاماً شديد التأثير ولو كان مزاحاً ومشى الطبيب خلف الجميع غير مبال بشيء وهو يدخن لفافته . وكان آل كورتشاجين راحلين من مقاطعتهم بالقرب من المدينة الى مقاطعة لشقيقة البرنسيس على سكة نزني الحديدية . ومال الرجال الحاملون التخت والخادمة والطبيب الى غرفة الانتظار للنساء ولكن البرنس الشيخ بقي في غرفة الاستراحة وطلب من الخادم طعاماً وشراباً وبقي اوستن وماريا ايضا في تلك الغرفة وقبل ان يجلسا ابصرا بالباب السيدة ناتالي روجوزنسكي . وحين دخلت ناتالي غرفة الاستراحة لمحت اخاها وماريا في وقت واحد فاومت الى اخيها برأسها وقابلت ماريا اولاً وبعد ان تعانقتا مالت ناتالي الى اخيها وقالت قد ظفرت

بك اخرا. فنهض نيليدوف ليحيي ماريا وميشا واوستن فاخبرته ماريا ان النار اشتعلت في منزلهما واضطرتهما الى مغادرته والذهاب الى مقاطعة خالتها واخذ اوستن يقص خبر الحريق بمزاحه المعتاد فلم يبال نيليدوف بما قالا وتحول الى شقيقته وقال : ان سروري لمجيئك فائق الوصف

فقالت :قد جئت منذ مدة طويلة ومعي اغرافينا بتروفنا وقد بحثنا عنك في كل مكان

فقال :قد تولاني النعاس ونمت هناواني لمسرور جدا لمجيئك وقد كنت بدأت ان اكتب اليك

فقالت مضطربة :احق ماتقول ؟ وعن اي شيء ؟

وحين لحظ اوستن وماريا ان الاخوين بدأ بحديث هام ابتعدا عنهما فقال نيليدوف لاخته :بعد ان برحتكما بالامس شعرت بالميل الى العودة اليكما لابدي اسفي لاني تكلمت مع زوجك بنشوفه وجفاء الامر الذي يزعجني

فقالت : انا عرفت وايقنت بانك لاتعني ما تقول ثم نزلت دمعة من عينها ولم تكن جملتها واضحة ولكن نيليدوف فهمها كما هي وتأثر من مؤداها فقال : اشكرك ياشقيقتي العزيزة . وبعد سكوت هنيهة تنهد نيليدوف وقال: آه من الذي رأيته اليوم فقد قتل اثنان من المجرمين امامي

— قتلا ؟ وكيف ذلك

— نعم قتلا فقد اخرجوهما في هذا اليوم الشديد الحر فاتا بضربة الشمس وقد نظرت جثتيهما بعيني

— ولكن لم قتلا ومن الذي قتلهما

— أولئك الذين ارغموهما على الذهاب في هذا اليوم . قال هذه

الجملة بحماس شديد

قالت اغرافينا بتروفنا التي كانت قد اقتربت منهما «يارب ار[illegible] استطرد نيليدوف الحديث وقال: نعم لانعرف شيئاً مما يعامل به أولئك التعساء المنكودو الحظ

فقالت ناتالي . وما الذي تريد ان تفعله ؟

قال . الذي اقدر عليه لاني اشعر بواجب علي وسافعل الذي استطيعه

قالت . نعم فهمت ولكن ما رأيك فيهم وهل يمكن ان يكون قد تم الانفصال ؟ واشارت متبسمة الى آلى كورتشاجين

— قد قضى الامر بتاتاً ولست بآسف على شيء

— امر مكدر لاني مشغوفة بهما.. فاخبرني لماتربط نفسك؟ ولم انت ذاهب

— انا ذاهب لان الواجب علي يقضي بذلك . وعبس حين قال هذه الجملة راغبا في ايقاف هذا الحديث ولكنه شعر في الحال بخجل من نشوفته فقال في نفسه لم لااوضح لها كل ماافكر فيه وادع اغرافينا تسمع ماأقول ايضاً فقال تعنين عزمي على الاقتران بكاتيوشا ؟ فاعلمي انني وطدت النية على اتمام هذا الامر ولكنها ترفض قطعياً ولا تريدان تقبل ضحيتي بل انها نفسها تضحي مايعد بالنسبة الى مركزها شيئاً كبيراً ولا يمكنني انا ان اقبل هذه الضحية وعلى هذا فاني معها وساكون حيث تكون وسابذل جهدي في تخفيف مصيبتها قدر الاستطاعة

فلم تجب ناتالي بشيء بل نظرت الى اغرافينا وهزت رأسها. وفي هذه اللحظة سار جماعة من النساء الى جهة اليمين من القطار وسار نيليدوف والحمال الذي حمل امتعته وتراس بكيسه نحو الشمال . وقال نيليدوف لاخته مشيرا الي تراس هذا هو رفيقي . وكان قد قص عليها قصته

ولما رأت ناتالي أخاها واقفاً امام عربة من الدرجة الثالثة حيث دخل تراس قالت له . أأنت مسافر في هذه العربة؟

قال : بلى لاني افضلها عن الدرجة الاولى . ثم اخبرك يا اختاه قبل الوداع اني لم أهب اراضيّ في كوسمنسكي الى الفلاحين فلو مت فيكون أولادك ورثاي

فصاحت : ديمتري لاتقل مثل هذا القول

قال: وكل شيء سواها يكون لهم لان زواجي بعيد الحدوث واذا تزوجت فلن ارزق أولاداً

قالت :ديمتري قلت لك لاتقل مثل هذا الكلام . ولكن نيليدوف لحظ بانها سرت وتهلل فؤادها

وصعد نيليدوف الى العربة ووقفت ناتالي مع اغرافينا بالقرب منه . وكانت ناتالي تريد ان تقول شيئاً ولكن مسألة المال التي دار حولها الحديث كانت قد انتزعت الروابط من بين الاخ والاخت وحلت محلها فسرت بسير القطار واومأت الى اخيها وقالت له بحراسة المولى يا ديمتري . وكانت ينظر اليه بملء الحزن والكآبة

ولما سار القطار أخذت تفكر في كيفية القاء حديث أخيها على زوجها. اما نيليدوف الذي كان يشعر بارق شعور نحو اخته ولم يخف عنها شيئاً فقد أحس الآن بعدم الرضاء منها ولذلك سرّ بالابتعاد عنها وجال بخاطره ان ناتالي التي كانت اقرب شخص اليه ابتعدت عنه واصبحت آمة لرجل غريب كريه وقد وضح له ذلك اذ ابرقت اسرتها حين وعدها بهبة الارض وهذا

ما احزنه وجعله لايحس بالم الفراق

« ٢٥ »

وكان الحر شديداً جداً فضاق التنفس على نيليدوف ولم يشعر بقليل من الانتعاش الا حين كانت البنايات الشاهقة تحجب الشمس عن القطار. فاخذ يكرر في نفسه كلمة « نعم قتل » وتصور له باتم وضوح وجه الميت الثاني الجميل بالابتسامة على شفتيه والرزانة والدعة على محياه فقال والذي يزيد البلاء ان الرجل قد قتل ولا يعرف أحد من الذي قتله فقد أخرج بامر ماسلنيكوف موقعاً عليه بخطه على دفتر الحكومة الرسمي وهو بكل تأكيد لايعد نفسه مذنباً ومثله الطبيب المدقق الذي فحص المجرمين فقد ادى واجباته باتقان وفرز الضعفاء واني تسنى له ان يتنبأ عن حدوث مثل هذا الحر القتال او عن تأخيرهم وتسييرهم في آخر ساعة من ساعات النهار وفي جماهير مزدحمة يمنع ازدحامها التنفس. ومن المذنب اذن؟ مفتش السجن؟ ولكن المفتش لم يقم الا بانفاذ الامر الوارد اليه من السلطة العلياء ومؤاده انه في يوم كذا ... يجب ارسال عدد من المنفيين والمجرمين رجالاً ونساء. وليس ضابط الحرس مذنباً ايضاً لان الواجب عليه هو استلام عدد معلوم من الاشخاص في محل معين ووقت معين . فقادهم حسب المعتاد ولم يكن ليعلم بان رجلين قويين لايمكنها ان يتحملا ذاك الحر فيموتان فالذنب لم يقع على احد ومع ذاك فقد قتل الرجلين وأولئك الذين ليسوا بمذنبين ولاهم بمسؤلين عن موتهما

ففكر نيليدوف بأن كل ذلك يتأتى من ان جميع هؤلاء الرجال كالحاكم والمفتش وضابط البوليس والبوليس يحسبون ان القيام بوظائفهم يقطع الروابط البشرية بينهم وبين الادميين وجميع هؤلاء الرجال لو لم يكونوا

حاكماً ومفتشاً وضابطاً لبحثوا وفكروا عشرين مرة قبل ان يسوقوا جمهوراً كبيراً في يوم مثل هذا اليوم واوقفوا عشرين مرة في الطريق واذا رأوا رجلا ضعيفاً يتعذر عليه التنفس اجلسوه في الظل واتوه بالماء ودعوه يستريح ولو حدث حادث بعد ذلك لابدوا اسفهم وحزنهم ولكن هؤلاء لم يفعلوا ذلك بل منعوا الاخرين من ان يفعلوه ذلك لانهم لم يفكروا في النفوس الموكولة اليهم وواجباتهم نحوهم بل فكروا فقط في المركز الذي اشغلوه انفسهم وحسبوا مقتضيات ذلك المركز فوق الروابط البشرية . فهذا هو السر وهذا هو السبب

وقد اشتد تأثير هذه الافكار على نيليدوف حتى لم يشعر بالتغيير الذي طرأ على الطقس فقد انبسطت غيوم كثيفة حجبت نور الشمس وتلبد الضباب في الفضاء وتساقط المطر رذاذا على الحقول والغابات وهب النسيم يخفف السعير الذي كاد يزهق الارواح واخذ البرق يومض والرعد يقصف وعصفت الريح فحملت بعض قطرات من المطر الساقط على رداء نيليدوف فلم ينتقل من مكانه لانه كان يستنشق الهواء المترطب المملوء برائحة الارض والاعشاب والازهار ووقف يجيل طرفه بين البساتين والغابات والارض المحروثة حديثاً فتهلل وجهه وسر لمرأى الحقول منتعشة بذلك الرذاذ الجزيل الخير ثم عادت الشمس الى الظهور وبدأ كل شيء يلمع وظهر في الشرق فوق الافق قوس براق مختلف الالوان وضح فيه اللون البنفسجي فزاده رونقاً وبهاء وقد بدأ القطار يصعد في جبل بحاجزين عاليين فعادت تلك الافكار الى مخيلة نيليدوف فقال في نفسه : انني اتعجب كيف ان جميع هؤلاء الناس المفتش ورجال الحرس وجميع الذين في الخدمة في اكثر احوالهم لطفاء رقيقو القلوب

وليسوا قساة الا لانهم مقيدون بالخدمة فيظلمون اخوانهم في الانسانية ويحسبون ذلك فرضاً يجب اداؤه. وتذكر عدم تأثر ماسلنيكوف حين اخبره عما كان يجرى في السجن . وقساوة المفتش وفظاظة ضابط الحرس في رفضه اعطاء محلات في العربات للذين طلبوها وعدم اهتمامه بالمرأة التي كانت تلد في القطار فقال : ان هؤلاء الناس لايشعرون بالرحمة والشفقة لانهم يشغلون مراكز وكموظفين لايرشح اليهم شيء من شعائر الانسانية كما ان هذه الارض المرصوفة بالحجارة لايرشح اليها شيء من الماء وكانت اذ ذاك المطر تجري عليها سيولا . فقال ربما كان لرصف هذه الارض لزوم ولكن مما يقبض النفس النظر الى ارض تجردت من النبات في حين ان في امكانها انبات الحبوب أو العشب أو الاشجار كالارض التي بجانبها . وهكذا الامر لايختلف في الرجال عنه في هذه الارض المرصوفة فربما كان لهؤلاء الحكام والمفتشين ورجال البوليس لزوم ولكنه ليس افظع من ان يرى الناس تجردوا من اهم مزايا الانسانية وهو الحب ورفق الواحد بالاخر وتخفيف الويلات عنه . وهؤلاء الناس يعدون ماليس شرعيا شرعيا ولايعترفون بالشريعة الازلية الابدية التي نقشها الله في قلوب البشر وهذا مايجعلني اشعر بانقباض حين اكون مع واحد منهم فاني اخافهم ولا آمن شرهم لانهم بالحقيقة مخيفون واشد ارعاباً من اللصوص فاللص بعد ان يقترف الجريمة لايبعد ان يشعر بالرفق ولكن هؤلاء لايمكن ان يشعروا لانهم تمرنوا على القساوة وعدم الشفقة كما رصفت هذه الارض فلا تنبت نبتاً

ولو القيت مسئلة في علم النفس عن ايجاد طريقة يجعل بواسطتها اناس من ابناء هذا العصر ملتصقون بالمسيحية والانسانية والبساطة

والدعة يقترفون افظع الجرائم دون ان يشعروا بالذنب وبتبعة ماقترفوه فلا نجد لهذه المسئلة سوى حل واحد وهو ان يستمروا في اجراء ماهو جار الآن بشرط ان يكونوا حكاماً ومفتشين ورجال بوليس يقتنعون تمام الاقتناع بان هناك نوعاً من العمل اسمه خدمة الحكومة يسمح لهم بان يعاملوا غيرهم معاملة سيئة دون ان يكون بينهم وبين من يعاملونهم روابط الانسانية والاخاء وان يكونوا مرتبطين بعضهم ببعض في خدمة الحكومة حتى تقع تبعة نتائج اعمالهم على فرد معين منهم وبدون هذه الشروط لايمكن وقوع مثل هذه الامور العظيعة التي شهدتها اليوم وحدوث مثل هذه الفظائع يتوقف فقط على وجود اناس يفتكرون بان هناك ظروفا يمكن الانسان فيها ان يعامل غيره من المخلوقات البشرية بدون عاطفة الحب ولكنه لايوجد مثل هذه الظروف . فيمكننا ان نعامل الاشياء بدون عاطفة ولامبالاة فنقطع الاشجار ونضرب الطوب وندق الحديد دون ان تشعر بميل اليها ولا يمكننا ان نعامل اخوتنا في الانسانية بدون الحب كما اننا لايمكننا ان نعامل النحل بدون ان نبدي الحذر . واذا عامل انسان النحل بدون حذر واعتناء فانه يؤذيها ويؤذي نفسه والحالة هكذا مع الناس ولايمكن ان تكون غير ذلك لان الحب المتبادل هو القانون الاساسي لحياة الانسان . ومما لاريب فيه ان الانسان لايمكنه ارغام اخر على ان يحبه ولكن ذلك لايستنتج منه انه يمكنه ان يعامل الناس بدون عاطفة الحب والاخاء . اذا كنت لاتشعر بالحب فاجلس ولا تتحرك وابتعد عن جميع الناس وعاملهم بالقسوة والفظاظة كما فعلت انا بالامس مع نسيبي تجد في نفسك انقباضاً وحزناً لاحد لهما كما تبرهن لي جلياً . نعم نعم

الامر كذلك بدون شك ولاريب

وعند مابلغ نيليدوف هذه النتيجة من التصور شعر بالتغير الذي طرأ على الطقس فانتعش وطفح قلبه سروراً بما تجلى له من حل مسألة اشغلته زمنا طويلا

« ٢٦ »

كانت العربة التي ركب فيها نيليدوف مملوءة من الخدمة والفعلة وعملة المعامل والجزارين ويهود اصحاب محلات تجارية وفيها جندي وسيدتان احدهما صبية والاخرى عجوز وسيد حاد البصر . وكانت جلبتهم قد سكنت قليلا واتخذ كل منهم مقعداً وكان بعضهم يأكل والبعض يدخن والبعض يتكلم

وجلس تراس الى يمين الممر حافظا محلاً لنيليدوف ومشتغلاً في حديث هام مع رجل قوي البنية مقابل له . وقبل ان يدنو نيليدوف منه وجد رجلاً جليلاً ذا لحية بيضاء يحادث صبية بملابس الفلاحين وكان الى جانب هذه الصبية ابنة في سن السابعة بمنديل على رأسها يستر شعرها الذهبي . وحين وقعت عينا الشيخ على نيليدوف جمع اطراف ثوبه ليخلي له محلا على المقعد وقال بلهجة صديق : تفضل . فهاهنا محل . فشكره نيليدوف وجلس ووالت المرأة الحديث فقالت انها عائدة الى قريتها بعد زيارتها لزوجها وانها لاتنقطع عن زيارته وستزوره في عيد الميلاد ان شاء الله . فقال الشيخ وهو ينظر الى نيليدوف : حسناً تفعلين وانها الطريقة المثلى والا سلك الشاب سبيل الفساد لانه عائش في المدينة

فقالت : لا ياسيدي فزوجي ليس من أولئك الرجال وحياته كلها

طاهرة وكل كسبه يرسله الى البيت وقد كان سروره بمشاهدة ابنتنا هذه لا يوصف . وكانت الابنة تصغي الى حديث والدتها بسرور كأنها أرادت تأييد ماتقول . فقال الشيخ اذا كانت هذه الحالة حالته فهنيئاً لك فليس هو اذن من هذا النوع . وقد اشار الى رجل وامرأة كانا دون شك من عملة المعامل وجلسا في الجانب الآخر من العربة وقد كان الزوج مائل الرأس الى الوراء يسكب من زجاجة مملوءة فودكا في حنجرته وزوجته تنظر اليه

فقالت المرأة : كلان زوجي لايشرب الخمر ولا يدخن فالارض تقل قليلين من مثله . والتفتت الى نيليدوف وقالت : يحق لي ان احبه وافاخر بطيبته . فقال الشيخ وهو ينظر الى عامل المعمل « ليس احسن من ذلك » فقد جرع الرجل جرعته وناول الزجاجة لزوجته فضحكت وهزت رأسها ورفعت الزجاجة الى فمها وحين لحظ الاثنان ان نيليدوف ينظر اليهما قال الرجل مخاطباً نيليدوف :

— ما الذي يدهشك ياسيدي ؟ أكوننا نشرب الخمر ؟ اواه لا احد ينظر كيف نشتغل ولكن كل واحد ينظر كيف نشرب . قد اشتغلت واخذت اجرة عملي وها انا اشرب واسقي زوجتي لا غير ها

فقال نيليدوف ؟ نعم . ولم يدر بما يكمل جوابه

فقال الرجل : انا لا اقول الا الحق ياسيدي فزوجتي عاقلة رزينة نا مرتضي منها لانها تشعر معي . احق ما اقوله يامافرا ؟

فقالت المرأة وهي تناوله الزجاجة ها هي خذها فقد اكتفيت ولم هذا الهذيان

فقال : آه ما احسن امراتي وما الطفها حين الرضا اما اذا تكدرت من شيء

أبا لصياح المزعج كالدولاب الذي يحتاج الى الزيت ؟ احق ما اقوله يا افرا

فضحكت مافرا وقالت : يالهي قد عاد الى سكره ثانية

فقهقه ضاحكا : وقال نعم انها جيدة جيدة للغاية ولكن دعي ترفع ذيلها الى مافوق اللجام وانظروا ماذا تكون اذ ذاك ... احق ماقوله باما قرا ثم امال رأسه على ركبة زوجته المتبسمة ونام

وجلس نيليدوف برهة مع الشيخ الذي قص عليه حكايته فقال : انه بنّا افران واشتغل في مهنته ثلاثاً وخمسين سنة وبني افراناً لم يتمكن من أحصاء عددها والآن يطلب الراحة فقد ذهب الى المدينة ووجد خدمات لاولاده الصغار وهو عائد الآن الى قريته ليرى ذويه وبعد ان سمع نيليدوف قصة الشيخ تقدم الى المحل الذي حفظه له تراس فوقف تراس والبستاني الذي امامه حتى جلس في مكانه

وقد كان تراس يقول عن نفسه انه لايستطيع التكلم مالم يشرب شيئا من الخمر يحل عقدة لسانه وحين ذاك يمكنه التعبير عن كل شيء والحقيقة انه كان يظل صامتاً واذا تكلم فكلامه تافهاً ومتى شرب يصبح مسامراً لطيفا ونديما ظريفا تسيل الرقة من عذوبة الفاظه ويظهر على عينيه الزرقاوين علامة الدعة وعلى فمه ابتسامة الوداد والحب النقي الطاهر هكذا كانت حالته في ذلك اليوم فانه بعد ان جلس نيليدوف في مكانه عاد فصوب عينيه نحو البستاني واستطرد الحديث حيث كان يقص عليه حكاية زوجته ويذكر سبب ارسالها الى سيبيريا ولحاقه بها فقال:

اخذت والدتي الكعكة وقالت انا ذاهبة للبوليس فاعترضها والدي وهو شيخ مسن وقال لها تمهلي قليلا فانها صغيرة السن لاتدري ماذا تفعل فيجب ان يكون عندنا شفقة ولا بد ان يرجع صوابها فاصرت والدتي وا أسفا

وقالت :اذا ابقيناها هنا لا يبعد ان تقتلنا جميعاً وذهبت الى ضابط البوليس وقصت عليه الواقعة فهرول هذا وطلب الشهود

فقال البستاني : وانت ماالذي جرى لك ؟

قال : شعرت بالم شديد في امعائي واخذت اتقياء فاخرجت كل ما كان في امعائي ولم اعد اقوَ على الكلام . وهكذا اخذ والدي تيوديزيا الى مركز البوليس ومنه الى دار الحكومة وهناك اعترفت بكل شيء واخبرت عن المحل الذي ابتاعت منه الزرنيخ وعن كيفية مزجه بالكعك . فسألها الحاكم ولمَ فعلت ذلك ؟ قالت لاني امقته وافضل سيبيريا على المعيشة معه . فاودعها الحاكم في السجن وعاد والدي وحده . واقترب وقت الحصاد ولم يكن في البيت سوى والدتي الضعيفة فقلنا ماالذي نفعله وهلا يمكننا اخراجها بالضمانة فذهب والدي وفاوض جملة من الموظفين على غير جدوى فرأينا ان نترك الامر لولا اننا توفقنا الى كاتب حاذق محتال يندر وجود مثله فقال ايتوني بخمسة روبلات وانا اخرجها واتفقنا ان نعطيه ثلاثة فذهبت ورهنت قماش الكتان الذي نسجته بيدها واعطيته المال واخذت منه ورقة وذهبت مروراً البرا الى السجن فسألني السجان ماذا تريد ؟ فقلت له زوجتي عندكم في السجن واعطيته الورقة فنظر اليها وقال لي انتظر. فجلست على مقعد هناك وبعد قليل خرج موظف وسأل هل انت تراس زوج الصبية الحسناء ؟ قلت نعم انا هو. قال هاهي امرأتك فخذها. فقلت لها تعالي. فخرجت وقالت لي هل اتيت ماشياً . اجبتها كلا ركبت فرساً هي على مقربة من هنا فسارت معي الى حيث كان الفرس فاركبتها وسرت ماشياً بجانبها ولم يكلم احدنا الاخر

حتى اقتربنا من البيت قالت لي : كيف حال الوالدة هل هي بصحة تامة؟ قلت نعم . قالت والوالد كيف حاله . قلت بخير هو . فتنهدت وقالت اغفرلي ياتراس ذنبي وجنوني فلم اكن عالمة ماالذي كنت افعله . فقلت لها قد غفرت لك منذ زمن طويل فسكتت . وحين وصلنا الى البيت وقعت على قدمي والدتي التي احتضنتها وقالت لها الله يغفر لك . ثم قبلت يدي والدي فذرف دموع الفرح وقال : الذي مضى قد مضى والان عيشي كمايطيب لك وفي الغد اذهبي مع زوجك الى الحصاد لان الذره قد نضجت وامالت القصبات . ومن تلك اللحظة اخذت ياصديقي في العمل حتى ادهشت كل من رآها فكنت انا احصد وهي تجمع وكلانا نشيط ولكنها هي انشط واجلد مني فكانت لاتكف عن الشغل حتى اضطر الى ايقافها ولما نعود الى المنزل منهوكي القوى فبدلاً من ان تستريح تسرع الى المذود فتصنع رباطات لحزم اليوم التالي

فقال البستاني : وكيف اصبحت حالتها معك ؟

قلت: على احسن حال فقد علقت بي حتى اصبحنا روحاً واحدة وبين تفهم كل مافكر فيه حتى ان والدتي التي كان غضبها لايوصف قالت حالته تيوديزيا قد ابدلت . وكنا مرة راكبين عربة وذاهبين الى المزرعة فقلت له كيف امكنك ان تفكري بذلك الامر ياتيوديزيا : فقالت: الامر بسيط فلم اشأ ان اعيش معك وفضلت ان اموت فقلت والان ؟ قالت الان انت في قلبي . وتوقف تراس وتبسم مبتهجاً . ثم قال وحينما عدنا الى البيت رأينا اعلاناً يطلب فيه ذهابها لتحاكم وقد كنا نسينا هذه القضية

فقال البستاني : وهل يمكن غير الشريران يفكر من نفسه باهلاك

نفس حية ؟ فقد كان عندنا فتى .. وقبل ان يبدأ البستاني بحكايته اخذ القطار يسير على مهل ثم وقف في المحطة واوقف الحديث

« ٢٧ »

قبل ان يخرج نيليدوف من العربة نظر عدة عربات فاخرة في فسحة المحطة وكل عربة يجرها اربعة من الجياد المطهمة . ونظر على الرصيف جمهوراً من الناس امام عربات الدرجة الاولى بينهم سيدة ضخمة بملابس ثمينة وكانت علامات الثروة والفخر بادية على هذا الجمهور فاجتمع حولهم في الحال ناظر المحطة وضابط البوليس ومأمور التلغراف وبعض الركاب من رجال ونساء . وقد كانت السيدة الضخمة شقيقة البرنسس التي كان آل كورتشاجين ذاهبين الى مقاطعتها فتقدم الكمساري وفتح باب العربة ووقب متأدباً ودخل فيليب وحمال وحملا البرنسس وهي مستلقية على كرسيها فحيت الشقيقتان بعضهما البعض وبدأت الجمل الافرنسية ترن في الآذان

ولم يشأ نيليدوف ان يقابل هذا الجمع ثانية فوقف في الباب منتظراً مرورهم فخرجت البرنسس وابنها وماريا والطبيب والخادمة وتخلف عنهم البرنس الشيخ وشقيقة زوجته

وظهر بغتة وراء المحطة جمع من الفعلة بالاحذية الخشبية حاملين اكياساً على ظهورهم وذهبوا الى اقرب عربة وارادوا الدخول فطردهم احد الكمسارية ودون ان يتوقفوا اسرعوا يزاحمون احدهم الآخر قاصدين العربة الثانية وبدأوا بالدخول ولكن كومساراً آخر نظرهم من باب المحطة وصاح فيهم غاضباً فتحولوا الى العربة الثالثة التي جلس فيها نيليدوف وكاد كساري آخر ان يطردهم لو لم يوقفه نيليدوف عند حده بقوله له دعهم يجلسون

ان هذا الامر هو اساس سعادة الدنيا

فكل انسان عائش من اجل نفسه ولا يطلب غير انشراحه وكل اما يقال عن الله وعن الصلاح ليس الاَّ خداعاً . وحين كانت الشكوك تتولد فى افكارها وتعجب من اختلال نظام كل شئ فى الكون ومن قيام كل انسان على ايذاً كل شخص سواه حتى لا يفلت واحد من الاذى كانت تجهد نفسها فى اقصاء هذه الافكار من مخيلتها كي لا تضطر الى البحث واستنتاج النتائج وكانت حين تتغلب عليها السويداء تعمد الى التدخين أو شرب المسكر ولا سيما الى تبادل الحب مع احد الرجال فينقضي كل شئ

« ٣٠ »

وفى الساعة الخامسة من صباح الاحد سمع صفير فى سجن النسآ وكانت كورابلوفا مستيقظة فاسرعت وايقظت ماسلوفا ولما فتحت عينيها قالت باضطراب يالله أنا مجرمة ومالت الى النوم رغبة فى العودة الى عالم التصورات ولكن خاصة الخوف كان قد تغلبت على خاصة النوم فنهضت ونظرت الى ما حولها فرأت جميع النسآء مستيقظات والاولاد لا يزالون نياماً فخرجت السجينات الى الفسحة ليغسلنَ وجوههنَّ وهناك اختصمت ذات الشعر الاحمر مع سجينة من حجرة أُخرى وعلا صياحهما فاقبل السجان ولكم ذات الشعر الاحمر فى ظهرها وقال لها انك ترومين الانفراد فى حجرة منزوية فاذهبي ولا تسمعيني صوتك فيما بعد . فلم تحفل بكلامه وقالت انني عجوز واذكر ايام الطفوليه باللعب . فانتهرها وقال لها اذهبي واستعدي لحضور القداس

ولم تكد ماسلوفا تفرغ من لبس ثيابها حتى دخل المفتش ومعاونوه

ألف المجلس بعد هنيهة وصار يوجه خطابه اليه والى تراس ويضع يده على ركبته حين يريد تنبيهه الى ما كان يقول

وقد اخبرهما عن جميع أحواله وعن شغله في المستنقعات التي كان عائدا منها الآن وكيف كان يشتغل مع رفاقه باجرة زهيدة من شروق الشمس الى غروبها والمياه تغطي سيقانهم حتى الركبة ولم يستريحوا الا ساعتين لتناول الغداء . وكان الطعام رديأ أولاً ولكن الفعلة رفعوا شكواهم وحصلوا على طعام جيد فهان عليهم العمل ثم اخبرهما انه بدأ في الشغل منذ ثماني وعشرين سنة وكان يرسل كسبه الى البيت ولا ينفق على نفسه سوى روبلين او ثلاثة من الستين روبلا التي كان يحصلها في العام وذلك على اللهو والدخان . ثم قال مبتسماً ولكني خاطئ لاني عند ما اتعب اشرب قليلا من الفودكا في بعض الاحيان ولكن الله تواب رحيم

وبعد ان سكت قليلا تحول نحو تراس وقال : اني لم انظر في جميع اسفاري سيداً جليلا كهذا السيد « واشار الى نيليدوف » فبدلاً من ان يلطمك يخلي محله لك فيظهر انه يوجد ودعاء بين اولئك المترفهين ايضاً

وفكر نيليدوف قائلا لنفسه : نعم ان هذا عالم جديد ومختلف عن ذاك تمام الاختلاف . ونظر الى كل من حوله فرأى ملابس بسيطة صنعها كل في بيته ووجوهاً احرقتها الشمس تدل على اللطف وشدة الاعياء وشعر بانه محاط من كل جانب باناس لا يعرفهم وبفوائد عالم العمل وافراحه وآلامه. فقال هنا العالم الحقيقي العظيم وقد تذكر كلمات البرنس كورتشاجين وتذكر نفسه في ذاك العالم المملوء كسلا وزهواً الذي انتمى اليه آل كورتشاجين وشعر بفرح سائح يجوب الفيافي والقفار مكتشفاً عالماً جديداً مجهولا جميلا

« ٢٨ »

كانت الزمرة التي بينهما ماسلوفا قد اجتازت نحو ثلاثة آلاف ميل وساورت وهي وغيرها من المسجونين المحكوم عليهم في السكة الحديدية وفي الباخرة حتى مدينة (برم) وهنالك افلح نيليدوف في الحصول على اذن لها بالسفر مع المسجونين السياسيين كما نصحت له فيرادوهوفا

وقد كان السفر الى برم شاقاً على ماسلوفا من حيث الازدحام والقذارة والبعوض المضجر الذي ازعجها على الدوام ومن حيث الرجال الذين لا يختلفون في ايراث السآمة فالرجال كالبعوض ولو انهم ابدلوا في كل محطة فقد تآلبوا حولها نازعين راحتها منها وقد نشأ بين النساء المسجونات والرجال المسجونين والسجانين ورجال الحرس من السفه والدعارة ما اضطر المرأة التي تروم صيانة عرضها الى الحذر الشديد ومن الامور الشاقة على الانسان ان يكون على الدوام في حالتي الخوف والحذر وكانت ماسلوفا بنوع خاص هدفاً للاقتناص بما بدأ على محياها من الجمال الجذاب وبما عرف من ماضيها المملوء بالتهتك والمقاومة الشديدة التي قاومت بها سفه الرجال ودعارتهم اغضبتهم وايقظت فيهم روح الحقد عليها ولكن وبلاتها خفت نوعاً بقربها من تيوديزيا وتراس الذي حركته الغيرة على زوجته اذ عرف مضايقة الرجال لها فاوقف من تلقاء نفسه في نجي نوفغورد قصد التمكن من حمايتها فسافر مع الزمرة كسجين

وقد تحسنت حالة ماسلوفا كثيراً حين أذن لها بالانضمام الى المسجونين السياسيين فقد كانت حالة هؤلاء اصلح من حيث اسباب الراحة والطعام وكانت معاملتهم اقل خشونة من معاملة المجرمين وفوق ذلك فانها تخلصت من مضايقة الرجال لها واصبح بامكانها ان تعيش دون التفكير بماضيها المكدر الذي

كانت تتوق الى نسيانه ولكن اعظم فائدة من هذا التغيير كانت بتعرفها بعدد من الاشخاص اثروا على سلوكها تأثيراً كبيراً نافعاً . وقد سمح لها ان تكون مع المجرمين السياسيين في كل محطة ولكنه بالنظر الى صحة جسمها وقوة بنيتها ارغمت على السير على قدميها مع المجرمين ومشي مع الزمر ايضاً اثنان من المسجونين السياسيين وهما ماريا بافلوفنا الفتاة الجميلة سوداء العينين التي استلفتت نظر نيليدوف حين زارفيرا دوهوفا في السجن وسيمونسون الاسمر اللون المسدول الشعر الذي نظره نيليدوف ابان تلك الزيارة والذى كان على طريق المنفى الى مقاطعة ياكوتسك . وسبب مسير ماريا على قدميها انها اعطت محلها في العربة لامرأة مجرمة كانت حاملاً ومشي سيمونسون لانه لم ير من الحق ان يتمتع بميزة عن غيره . وكان هؤلاء الثلاثة يسيرون مع المجرمين باكراً في الصباح قبل المسجونين السياسيين الذين كانوا يتأخرون عن راكبي العربات . وكان الترتيب للمرحلة الاخرة قبل الوصول الى احدى المدن الكبيرة حيث يستلم القيادة ضابط اخر ففي صباح يوم ماطر من ايام سبتمبر عصفت ريح باردة شديدة وتوالى سقوط المطر والثلج واجمعت زمرة المسجونين البالغة نحو اربعماية رجل وخمسين امرأة في فسحة المحطة وتأالب بعضهم حول رئيس الحرس الذي كان يفرق بعض النقود عليهم ليسدوا بها احتياجاتهم الضرورية

وخرجت ماسلوفا وماريا بافلوفنا الى خارج المحطة حيث جلست البائعات الى الجدار يتقين عصف الريح وكان معهن لحم مشوي وسمك وبيض وغير ذلك من المأكولات المختلفة

وكان سيمونسون مرتدياً رداء من الكاوتشوك وحذائه ايضاً من

هذا النوع لانه كان من النباتيين الذين يأنفون استخدام جلود الحيوانات المذبوحة ووقف في الفسحة ينتظر المسير فتناول مفكرته ودون فيها فكراً جديداً عنّ له وهو: اذا رقب الانسان بالمنظار البكتريولوجي ظفر انسان وفحصه عده مادة غير عضوية هكذا نحن بالنسبة الى الكرة نفحص قشرتها ونعدها غير ألية ولكن ذلك خطأ

وابتاعت الرفيقتان خبزا وسمكا وفيما هما داختلان حدثت حركة بين المجرمين سمع لها ضوضاء ثم صمت الجميع ولزم كل محله فخرج الضابط والقى الاوامر النهائية قبل الرحيل

جرى كل شيء حسب العادة فأحصى المسجونون وفحصت السلاسل وقبل ان يسيروا سمع ضابط غاضباً وصراخ طفل يبكي فصمت الجميع لحظة ثم سمع صوت التذمر من كل جانب وذهبت ماسلوفا وماريا بافلوفنا الى الناحية التي خرج منها الصوت فرأتا ضابطاً شاباً اشقر الشاربين واقفاً يجدف ويفرك راحته اليمنى التي آلمها بضربه لسجين على وجهه وامامه مجرم طويل هزيل الجسم برداء ولباس قصيرين يمسح الدم الجاري على وجهه باحدى يد ويحمل طفلة باكية بالاخرى

وكان الضابط يقذف الرجل بالشتائم ويتوعده ويتهدده ثم صاح قائلا سوقوا المجرمين

وهذا الرجل المنفي حمل طفلة كل الطريق من تومسك حيث ماتت زوجته بالتيفوس وقد امر الضابط بتقييد يده واهاجه اعتراض المنفيين له بان الرجل لايمكنه حمل الطفلة اذا كان مقيداً وكانت عليه روح شريرة اذ ذاك فانهال على السجين بالضرب لعدم اطاعته فورا ووقف نفر من الحرس

بالقرب منهما يجيل نظره بكآبة بين الضابط وبين الرجل المضروب وكرر الضابط الامر ثانية بالمسير وسمع صوت من وسط الجمع يقول : لمَ يوضع القيد في يد الرجل طول الطريق من تو مسك حتى هذه المحطة وهذه طفلة وليست لعبة . وسمع صوت اخر يقول : وماالذي يفعله مع هـذه الطفلة؟ واي قانون يجيز هذا ؟

فصاح الضابط : من الذي تكلم وكان كأنه أحس بوخز الضمير فدخل بين الجمع وقال : سيعلمكم القانون من الذي تكلم ؟ فقال سجـين عريض الأكتاف . كل واحـد يقول هكـذا لان ... وقبل ان يتم كلامه لطمـه الضابط بكلتا يديه على وجهه وقال . أهو تمرد ؟ ساريكم عاقبة عملكم واطلق الرصاص عليكم كالكلاب ولا يكـون الرؤساء الا شاكرين عملي . ثم صاح باعلى صوته وهو يرتب سيفه اعطها للنساء

وكانت الطفلة قد امتقع لون وجهها من كثرة البكاء فتقدمت ماريا بافلوفنا الى الامام واقتربت من الضابط وقالت هل تسمح لي بان احمل هذه الطفلة؟

فقال الضابط :من انت؟

قالت : سجينة سياسية

فاثر منظر ماريا الجميل على الضابط فقال . احمليها اذا شئت ولكـن من الذي يكـون مسئولا اذا فرّ الرجل ؟

فقالت ماريا . كيف يمكنه الهرب وهو مقيد . ثم اخذت الطفلة من الجندي وهي تبكي وتمد يديها الى والدها. فلما رأت ماسلوفا ذلك اخرجت

كعكة من كيسها وقدمتها لها . وحين وقع نظر الطفلة على ماسلوفاورات الكعكة في يدها القت بنفسها عليها

وكان سيمونسون كل هذه المدة يرقب ماكان جارياً وعلامة الحنق بادية على وجهه فاقترب اذ ذاك من الضابط الذي كان قد فرغ من اصدار الاوامر وقال انك سلكت سلوكا سيئاً

فقال الضابط . سر في مكانك فلا يعنيك من الامر شيء

فقال سيمونسون . يعنيني ان اقول لك انك اسأت السلوك وقد قلت لك . فلم يبال الضابط بكلامه بل امر الجمع بالمسير

« ٢٩ »

ورغماً عن صعوبة أحوال المسجونين السياسيين ظهرت لماسلوفا العيشة بينهم راضية بعد مدة الست سنين التي صرفتها في المدينة وكانت حياتها فيها ملأي بالدعارة والدنس والسجن عدة اشهر بين المجرمين . وكان اجتياز الخمس عشرة والعشرين ميلا على الاقدام مع الطعام الجيد مقوياً لجسمها وبصحبتها رفاقها الحديثين وجدت حياة جديدة مملوءة بالفوائد فقوم عقلاء كهؤلاء لم تكن تؤمل الاجتماع بهم مدى العمر فقالت في نفسها يالله العجب فقد بكيت وانتحبت حين صدور الحكم عليّ وكان من الواجب ان اشكر الله على ذلك كل ايام حياتي فقد عرفت الآن ما لم يكن في امكاني ان اعرفه من وجه آخر . وقد فهمت بسهولة الاسباب التي قادت هؤلاء الناس . ولكوني نظيرهم شعرت شعورهم وقد عرفت انهم للشعب وضد الطبقات العلياء . ومع كونهم انفسهم من تلك الطبقات فقد ضحوا امتيازاتهم وحريتهم وحياتهم من أجل الشعب وهذا مما يجعلني اقدرهم حق قدرهم واعجب بهم بنوع خاص وقد

كانت مسرورة من جميعهم خصوصاً من ماريا بافلوفنا فانها احبتها حباً مبرحاً واحترمتها احتراما فائقا ومما اثر عليها ان هذه الفتاة الجميلة ابنة احد القواد العظام الاغنياء تعرف الافرنسية والانكليزية والالمانية عدا لغتها الروسية وقد رفضت كل ما ارسله اخوها الغني اليها وعاشت كابسط فتاة تخيط ثيابها بيدها غير مبالية بشيء . فهذه الهيئة الخالية من كل زخرف وتأنق ادهشت ماسلوفا وجذبتها اليها

وكانت جميلة للغاية ومع ذلك فلم يكن تأثير جمالها على الرجال ليرضيها بل كانت تخافه وتحاذر الوقوع في شرك الحب . وقد عرف رفاقها الرجال عنها ذلك فلم يعلقوا بحبها قط بل لو علق واحد منهم لاخفى حبه وسلكوا معها كما يسلكون مع رجل . اما الغرباء الذين كانوا يضايقونها فقد كانت قوتها الجسدية التي افتخرت بها تدخرهم وتردهم على اعقابهم . وقد قالت لماسلوفا ضاحكة : حدث مرة ان رجلاً تبعني في الطريق ولم يغرب عني مع كل ما اتخذت من الوسائل واخيراً امسكته وهززته حتى انتفض وارتعب وفر من امامي

وقد قصت عليها كيف صارت ثورية فقالت . اني شعرت بمقت شديد لحياة المترفين منذ طفوليتي واحببت عيشة العامة فكنت اوبخ من ذوي على الدوام لصرفي اكثر اوقاتي في غرف الخدم بدلاً من صرفها في ردهة الجلوس وقد كنت أجد لذة عظيمة بجلوسي مع الطباخين والحوذيين بقدر مايتولاني من الكآبة في الاختلاط بالسادة المتنعمين. ولما بدأت افهم الاشياء رأيت ان كل حياتنا فاسدة وكنت قد فقدت والدتي ولم اكن احب والدي كثيراً فتركت البيت وانا في التاسعة عشرة وذهبت لاشتغل في معمل

مع رفيقة لي

وبعد ان تركت المعمل عشت في قرية ثم عدت الى المدينة وسكنت في محل مأجور كان فيه مطبعة وهناك أوقفت وحكم علي بالاشغال الشاقة . ولم تزد على ذلك حرفاً غير ان ماسلوفا سمعت من الغير ان اثناء تفتيش البوليس في ذلك المحل اطلق أحد الثوار عياراً نارياً فاتهمت هي بذلك وحكم عليها

ومنذ عرفتها ماسلوفا لحظت انها في جميع حالاتها لم تفكر في نفسها قط بل انها تسعى على الدوام الى خدمة الآخرين ومساعدتهم في امورهم صغيرة كانت او كبيرة وقال عنها احد رفاقها واسمه نوفوروف انها اوقفت نفسها على محبة خير البشر وكان قوله صحيحاً . وكان الغرض من كل حياتها البحث عن ظروف تخدم فيها الآخرين كما يبحث الصياد عن الصيد واصبح عمل الخير شغلا شاغلا لها وكان كل ما تفعله طبيعيا حتى ان اولئك الذين تعودوا فضلها ولم يعودوا يبدون امتنانهم لها بل كانوا ينتظرون ذلك منها

وحينما نظرت ماسلوفا لاول مرة شعرت بنفور منها ولكنها لما رأت سلوكها الحسن تغير شعورها نحوها واقتربت منها بنوع خاص ومالت اليها كل الميل ولا يخفى ان ميل مخلوقة نادرة المثال كهذه حرك ارق عواطف ماسلوفا حتى وهبتها قلبها با كمله وانقادت اليها بكليتها وسامت بارائها وسارت على اثرها في عمل الخير ومساعدة الغير

وكذلك ماريافانها قابلت حب ماسلوفا الصادق بمثله وقدرت هذا الحب حق قدره وقد ضمهما ايضاً مقتهما للحب الجنسي فنبذته احداهما بعد ان جربته وعرفت مايتخلله من الفساد والشرور . ونبذته الاخرى لانها لم تجربه بل نظرت اليه كشيء غير مفهوم وحسبته فوق ذلك كريهاً ومخالفا

« ٣٠ »

خضعت ماسلوفا لنفوذين احدهما نفوذ ماريا بافلوفنا ونشأ ذلك عن محبة ماسلوفا لها . والاخر نفوذ سيمونسون ونشأ عن محبته لماسلوفا

وجميع الناس يتبعون في معيشتهم وعملهم اراءهم الذاتية من وجه واراء الاخرين من وجه آخر . والمدى الذي يجتازونه في الوجه الواحد او الاخر هو اهم مايختلف فيه الناس بعضهم عن بعض والتفكير عند البعض كلعبة عقلية فيتصرفون بادراكهم في اكثر الاحوال كدولاب دائر بدون سير متصل به وينقادون في اعمالهم باراء غيرهم بالعادة او بالتقليد او بالقانون وغيرهم يعتبرون آراءهم الذاتية القوة الكبرى المديرة لجميع اعمالهم فيصغون الى مايوحي به ضميرهم ولا يقبلون آراء غيرهم الا بعد ان يزنوها وينتقدوها انتقاداً دقيقاً . وكان سيمونسون من هؤلاء الرجال فقد قرر وفحص كل شيء بمقتضى ادراكه الذاتي وشيد اعماله على اساس القرارات التي وصل اليها ادراكه واوحى بها ضميره

فبعد ان اقتنع وهو تلميذ بان دخل والده كنصراف في احد مراكز الحكومة كان يحصل بدون استقامة قال لوالده ان هذا الدخل يجب ان يعطي الى الشعب ولما وبخه والده ولم يصغ اليه ترك البيت ولم يشأ فيما بعد ان يتكل على مال ابيه . ولما تقرر لديه ان جميع الشرور الموجودة ناشئة عن جهل السواد الاعظم انضم الى طبقة الشعب حالما ترك المدرسة الكلية واتخذ التعليم في احدى القرى حرفة فكان يعلم اولاد الفلاحين بجرأة ماعده حقاً ويعترض بصراحة على مايعده باطلا فأوقف وحوكم وفي اثناء محاكمته اقر رأيه

على أن القضاة لاحق لهم في ادانته ولما لم يبالوا بقوله واستمروا في محاكمته قرر بان لايجيبهم وظل صامتاً حين وجهوا الاسئلة اليه وقد نفي الى مقاطعة «الاركنجل» وهناك انشأ تعليماً دينياً وهذا التعليم اسس على قاعدة ان كل شيء في هذا الكون حي وان جميع الاشياء التي نعدها عديمة الحياة اوغير عضوية هي اجزاء من جسم عضوي عظيم لايمكنا الاحاطة به وان مهمة الانسان بصفته جزءاً من ذلك الجسم العضوي العظيم هي ان يدعم حياة هذا الجسم وحياة جميع اجزائه الحية ولذلك عدّ اهلاك الحياة جريمة فكان مقاوما للحروب وقصاص الاعدام وكل نوع من القتل ليس في البشر فقط بل في الحيوانات غير الناطقة ايضاً وكان له تعليم خاص متعلق بالزواج وهو ان التوليد وظيفة الانسان الدنيا وان وظيفته العليا هي خدمة ذوي الحياة الموجودين ورأى وجود كريات في الدم مؤيداً لهذا الفكر والغير المتزوجين بمقتضى رأيه هم كالكريات ووجودهم لمساعدة الضعفاء والمرضى فقط ومنذ بلغ هذه النتيجة من الاقتناع عاش بمقتضاها ولو انه كان قد تهتك وزاغ في صباه واعتبر نفسه وماريا معه ككريات بشرية

ولم يكن حبه لكاتيوشا ناقضاً لهذا الرأي لانه احبها حباً طاهراً غير مدنس بالاتحاد الجسدي بمقتضى فلسفة افلاطون الحكيم اليوناني وعدّ حباً كهذا لايعيقه عن وظيفة الكريات بل بالعكس يفعل فيه فعل الوحي في الروح

وقد اقرّ بمقتضى تعليمه الخاص ليس على المسائل الادبية فقط بل والعملية ايضا فكان له تعليم خاص في جميع الامور العملية فاتخذ قواعد لمقدار ساعات العمل وساعات الراحة ولنوع الطعام الذي يجب ان يقتات

به ولنوع اللباس ولتدفئة المنازل وانارتها وكان سيمونسون في جميع احواله واعماله متحفظا ومتواضعاً ولكنه حين كان يقرّ على شيء لم يمكن لاحد ان يزعزعه

وكان لحب هذا الرجل لما سلوفا نفوذ عظيم عليها وعرفت هي بالسليقة الانثوية حبه لها وامر تمكنها من اشغال قلب هذا الرجل رفع قدرها في عينيها . فنيليدوف عرض عليها الاقتران بها عن شهامة وبسبب ماكان في الماضي واما سيمونسون فقد احبها كما هي الان . وشعرت بانه يعتبرها امرأة مستثناة حائزة على صفات ادبية سامية خاصة بها ولم تكن على بينة تامة من الصفات التي نسبها اليها فحاولت جهد استطاعتها تحسين جميع احوالها بغية الوصول الى مقام سام لاتشوبه شائبة

وبدأ ذلك فيما حين كانوا لا يزالون في السجن في ذات يوم لحظت عينيه اللطيفتين الزرقاوين مصوبتين اليها فلاحظت انه ينظر اليها بصفة ممتازة وشاهدت في طلعته وشعره المسترسل ونظره الحاد الرزانة وطهارة القلب. وعادت فنظرته مرة ثانية في تومسك حيث انضمت الى المسجونين السياسيين ومع انهما لم يتبادلا كلمة واحدة فقد كانت النظرات التي تبادلاها كافية لان تؤثر في قلبيهما . وبعد هذا الاجتماع لم يدر بينهما حديث خاص ولكن ماسلوفا شعرت بانه اذا تكلم في حضرتها يوجه كلامه اليها محاولا ايضاح مايكنه ضميره بقدر الامكان ولم تتوثق العرى بينهما الا حين سارا على الاقدام مع المسجونين المجرمين

*
* *

ومنذ بدأ هذا السفر الطويل لم يتمكن نيليدوف من رؤية ماسلوفا الا

مرتين الاولى في نجني نوفغوردو والثانية في برم . ووجدها في كلتا هاتين المقابلتين متحفظة تجيب على اسئلته مواربة خجلة فظن انها لا تزال توجه اليه التبكيت العدائي الذي بدأ منها مرارا من قبل . والكآبة التي استولت عليها من مضايقة الرجال لها اثناء السفر فاقلقت بال نيليدوف وخشي ان مشقات السفر تؤثر عليها تأثيرا سيئاً فتعود الى اليأس والقنوط اللذين يدفعانها الى شرب المسكر والتدخين ومعاملته بالنزق والحدة كما حصل قبلا

وبعد مسير شهرين على الاقدام اصبح التغيير الذى حدث في داخلها ظاهراً عليها واسمر لونها من تأثير الشمس وزادت نحولا وظهر عليها الكبر واصبحت على الدوام تستر رأسها بمنديل ولم يبق في نظام شعرها وفي لبسها وفي صفاتها اثر للتهتك

وهذا التغيير الذي تأصل ولم يزل يزيد فيها ابلغ نيليدوف السعادة والهنا وشعر نحوها بشيء لم يشعر به من قبل وهذا الشعور لم يكن له علاقة بمحبته الاولى الشعرية لها ولا بمحبته الشهوانية التي عقبتها ولا بارتياحه الى اتمامه الواجبات تدعى الاعجاب بالنفس جعلته بعد المحاكمة يقرر الاقتران بها. فالشعور الحالي لم يكن سوى شعور شفقة وانعطاف

وقد شعر بهما حين قابلها في السجن لاول مرة وايضاحين اباءته اذ غفر لها ذنبها المزعوم بمداعبة معاون الطبيب تلك التهمة التي ظهر بطلانها في حينه فذاك الشعور ذاته هو الذي عاد اليه الآن والفرق بينهما ان ذاك كان وقتياً وهذا اصبح دائما. وكل ما فكر فيه الآن وشعر به هو الرفق والانعطاف ليس نحو ماسلوفا فقط بل نحو كل انسان حتى ان مجاري الحب في قلبه فاضت وتدفقت على الجميع بالسواء من اعاظم الناس الى الحوذي والجندي ومفتش

وكل من وقعت عينه عليه وله علاقة معه

ومنذ انضمت ماسلوفا الى المسجونين السياسيين تعرف نيليدوف بكثير منهم حيث اجتمع بهم في حجرة كبيرة وبعد ذلك اجتمع مع الخمسة الرجال والاربع نساء الذين انضمت ماسلوفا اليهم وبالنظر الى مخالطته لهم تغيرت افكاره تغيرا تاماً من نحوهم

فمنذ بدأت الحركات الثورية في روسيا وعلى الخصوص في اول مارس الذي قتل فيه اسكندر الثاني كان نيليدوف ينظر الى الثوريين بحقد وجفاء فقد كان يمقت فظائعهم وشراستهم وخصوصاً فظائع جرائم القتل التي ارتكبوها ولكنه بعد ان اقترب منهم وعرف دخائلهم وكل ماتحملوه وما احلته عليهم الحكومة من النكبات ايقن بانهم لم يستطيعوا ان يكونوا غير ما كانوا

ومهما بلغت فظاعة انواع العذاب الناتجة عن عدم التفكر التي وقعت على اولئك المجرمين فقد كان فيها بريق من نور العدالة ظهر لهم قبل صدور الحكم عليهم وبعده ولكن قضايا المسجونين السياسيين لم يكن فيها شيء من ذلك كما رأى نيليدوف في قضية شوستوفا وفي قضايا كثيرين من معارفه الاجداء فقد كانت معاملة هؤلاء الناس كمعاملة السمك في الشباك فكل مايدخل الشباك يجر الى الشاطي وينتخب منه السمك الكبير ويلقي السمك الصغير على الشاطي غير معتنى به ليهلك فبعد ان قبضت الحكومة على مئات كانوا دون شك ابرياء لايخشى منهم خطراً وحجرت عليهم في السجن سنين حيث اصيب البعض بالسل وفقد البعض الشعور وانتحر البعض . ولم يحجر عليهم الا لان جماعة من الموظفين راوا ان بوجودهم

زرني اذن ولا تتأخر وابتسمت ابتسامة اعتادت ان تبتسمها امام الرجال الذين ترغب فى ارضائهم واستمالتهم . فقال نيليدوف : انك لاكثر من شقيقة لي فقالت ثانية ان هذا قول مستهجن وهزت برأسها وتوارت ورآء الشباك

« ٣٣ »

زعم نيليدوف قبل هـذه المقابلة ان كاتيوشا حين تعرف غايته ورغبته فى مساعدتها وخدمتها تسر وتنتبه من غفلتها وتعود الى ما كانت عليه قبلاً ولـكنه رأى عكس ذلك . رأى ان ضميرها قد مات وحلّت ماسلوفا محله فوقع فى حزن شديد

والذي زاد دهشته ان كاتيوشا لم تخجل من حالتها لا كونها سجينة بل مومس وظهرت مرتضية بل فخورة بما هى فيـه ومع ذلك لم يكن فى وسعها الظهور بمظهر آخر فالانسان لا يمكنه ان يعمل فى هذا العالم الاّ اذا عدّ عمله مهما وحسنا ومهما كان مركز الانسان فى العالم فانه يدأب فى تحسينه حتى يجعله مركزاً مهماً وحسناً فى الحياة الاجتماعية

وقد يتصور عادة ان اللص أو القاتل أو الجاسوس أو المومس اذا أعلن له أولها شر عمله أو عملها خجل أو خجلت ولـكن الامر بالعكس فانهم يحسبون عملهم مهنة ويجب عليهم اتقانها . فالذين يتخذون لاعمـالهم الشريرة مراكز معينة مهما كانت عليه تلك المراكز من الفساد يظهرون بمظهر من الحياة الاجتماعية يجعل حالتهم حسنة وشرعية . وحتى يبقوا لانفسهم هذا المظهر من الحياة يحصرون انفسهم فى دائرة اولئك الذين يشاطرونهم هـذه الحياة أو الذين يميلون اليها . وانه لامر يدهشنا خصوصاً عند ما نتصورهم لصوصاً يسلبون أموال غيرهم أو مومسات خلعن براقع الحيآء وابحنَ اعراضهن اوقتلة يفتكون

انهم كبقية الناس فيهم الجيد والردي والمعتدل

وقد تحول بعضهم الى ثوروبين لانهم عدوا من واجباتهم محاربة الشرور الموجودة ولكن البعض نهجوا هذا المنهج مدفوعين بعامل حب الذات والكبرياء والاكثرية فيهم جذبت الى رأي الثورة بدافع الميل الى احداث الخطر والتلذذ باللعب بانفس البعض وهي شعائر اختبرها نيليدوف بنفسه حين كان في الجندية . والبعض راؤا فرضاً عليهم تضحية كل شيء حتى الحياة في سبيل النفع العام وهم الفوم الافضل فيهم ولكنهم وقفوا على علو يعسر الصعود اليه في حين ان الارديا منهم كانوا في اسفل السافل فقد كانوا مرائيين كذابين معتدين بانفسهم ومتكبرين . وكان هذا رأى نيليدوف فهو يحترم البعض من معارفه الاجداء ويحبهم في حين انه لم يبال بالاخرين ولم يميل الى محادثتهم

« ٢٩ »

وقد شغف نيليدوف بشاب مسلول محكوم عليه بالاشغال الشاقة اسمه كريلتسوف تعرف به في اكاترنبرج وحين مرافقته له في الطريق قص عليه قصته واوضح له كيفية تحوله الى ثوروي فقال

— كان والدي غنياً صاحب املاك واسعة في جنوبي روسيا وفقدته وانا صغير وكنت وحيداً لوالدتي فاعتنت بتربيتي وتعلمت بسهولة في المدرسة وامتزت عن تلامذة صفي في الرياضيات وكنت احب فتاة جميلة اديبة وعزمت على الزواج بها والدخول في سلك القضاة لاني تمكنت من درس الشريعة . وفي تلك الاثناء سألني بعض تلامذة الكلية مساعدة مالية لمشروع خيري وعرفت ان المساعدة لجمعية ثوروية لم يكن لي اهتمام

ولا دخل فيها اذ ذاك ولكني اعطيت المال بشعور الصداقة وحتى لايسند الي الخوف . وقد قبض على الذين اخذوا المال ووجدت معهم رسالة اثبت فيها ان المال مأخوذ مني فاوقفت واخذت اولاً الى مركز البوليس ثم سجنت ولم يكن التدقيق شديدا في ذاك السجن فقد كنا نتحادث في الغرف ونتقاسم الطعام والدخان ونغني في المساء وكان لي صوت جميل ولولا والدتي والحزن الشديد الذي استولى عليها لما كنت شكوت مطلقاً لان الحالة كانت مبهجة ومفيدة وهناك تعرفت ببتروف الشهير الذي قتل نفسه بقطعة زجاج في القلعة ولم اكن لذاك الوقت ثورويا وتعرفت ايضا بشابين في حجرتين مجازيين لحجرتي وقد قبض عليهما من اجل الثورة ووجدت معهما منشورات بولونية . وكان احدهما بولونيا واسعة لوزنسكي والاخر يهوديا واسمه روزوفسكي وكان هذا في السابعة عشرة نحيل الجسم قصير القامة نشيطاً بعينين سوداوين براقتين وموسيقياً كاكثر اليهود فذهبا صباح يوم الى المحكمة وعادا في المساء ومع ان قضيتهما كانت بسيطة فقد حكم عليهما بالاعدام واعتقدنا جميعاً في السجن ان الحكم اصدر فقط لارهابهما وانه لاينفذ . وقد تهيجنا في بادي الامر ولكنا عزينا انفسنا فيما بعد وعدنا الى ما كنا عليه من البسط والانشراح. وفي مساء احد الايام اتاني الحارس واخبرني سراً ان النجارين أتوا وانهم ينصبون المشنقة . فلم اصدق كلامه وسألته أية مشنقة تعني ولمن المشنقة ؟ فقال للذين حكم عليهما ثم انهال الدمع من عينيه فاردت ان اخبر رفاقي بالامر ولكن خشيت ان يكدرهما ذلك فسكت . وفي تلك الليلة لم يسمع صوت ولم يبد احد حركة وكان سكون الموت ورهبته مخيمين على ذاك السجن فعرفت ان الخبر بلغ

الجميع . وعند الساعة العاشرة عاد الحارس واعلن وصول جلاد من موسكو ثم انصرف مسرعا فاخذت اناديه ليعود واذا بي اسمع روزوفسكي يقول لي : مابالك تناديه ولم يسمع لك ؟ وما الذي منعنا ان نغني في هذه الليلة ؟. ولا اتذكر ما الذي قلته ولكني تراجعت الى الوراء حتى لا اتكلم معه وما كان اخوف تلك الليلة وارعبها وقد كنت اصغي الى كل حركة في ذاك الظلام الدامس . وفي الصباح سمعت فتح الابواب ووقع اقدام كثيرة فتقدمت الى ثقب الباب لاعرف سبب هذه الحركة فنظرت المفتش اولاً وكان قوي البنية شديد العزم ولكنه كان في ذاك الصباح اصفر الوجه منخفض العينين مملوءاً رعبا . وتلاه المعاون بوجه كئيب وتبعهما الحارس . وبعد ان اجتازوا باب حجرتي وقفوا في الممر هنيهة ثم سمعت المعاون ينادي لوزنسكي بصوت غريب ويقول له ان ينهض ويلبس ملابس كتان نظيفة ويخرج ثم سمعت فتح الباب وبعد قليل خرج لوزنسكي وكان شاباً جميلاً من ذاك الشكل البولوني البديع عريض المنكبين بشعر اشقر مجعد كانه قبعة على رأسه وبعينين زرقاوين ساحرتين ولما صاروا امام حجرتي فتحت الباب فنظر الي باسماً وقال لي : اعندك لفافة دخان يا كريلتسوف وقبل ان امد يدي كان المعاون سبقني وقدم له لفافة فاشعلها وبدأ يدخن . وبعد ان سكت قليلا كأنه يفكر بدأ في الكلام فقال : انها فظاعة كبرى وظلم عظيم فانا لم ارتكب جناية ثم ارتعش وكاد يسقط الى الارض وفي تلك اللحظة سمعت صوت روزوفسكي بالقرب منا حيث أخرج من حجرته واخذ يجيل نظره هنا وهناك باستغراب ثم تساقطت الدموع من عينيه حينئذ امرهما المعاون بان يسيرا امامه بدون استعمال شيء من القسوة معهما وسيقا كخراف الى الذبح وبعد ذهابهما ساد السكون

على السجن كأن الذين فيه اموات لا احياء....

وعند المساء اخبرني احد الحراس انهما شنقا بحبل وان ڤوزنسكي لم يبد اقل مقاومة ولكن روزوفسكي نازعهم مدة طويلة حتى اضطروا لجره الى المشنقة مرغما ، وقد كان هذا الحارس غاية في البلادة فقال: قد اخبروني ياسيدي انه منظر مخيف ولكنه لم يكن مخيفاً على الاطلاق فحين علقا هزا كتافهما مرتين فقط هكذا واظهر بكتفيه كيف كانت الاكتاف ترتفع وتهبط ثم سحب الجلاد الحبل قليلا فقضي الامر

وردد كريلتسوف كلام الحارس: لم يكن مخيفاً على الاطلاق وحاول الابتسام ولكن العبرات خنقته وكانت ابلغ وصف لذلك المشهد الهائل. ولبث مدة طويلة يتنفس تنفساً طويلاً ويحبس العبرات التي كادت تخنقه ولما هدأ روعه قال . ومن ذلك الحين اصبحت ثوريا وانضممت الى جمعية مفقدي النظام الذين لامم لهم الا اقلاق راحة الحكومة حتى تستقيل أو تفقد قوتها وذهبت من اجل هذه المهمة الي بطرسبورج وكييف وموسكو واودسا وكللت مساعي بالنجاح حيثما حللت . ولكن رجلا كنت اثق به الوثوق التام وشي بي فوحكمت وحكم علي بالاشغال الشاقة مؤبداً وقد أصبت السل اثناء وجودي في السجن والآن لا امل لي بالحياة ولكن لو كان لي حياة اخرى لصرفتها في هذا الطريق

وكانت حكاية هذا الرجل وتقرب نيليدوف منه اوضحت له كثيراً مما لم يكن يفهمه قبلا

« ٣١ »

في يوم وقوع الخصام بين ضابط الحرس والمسجونين بشأن الطفل في

المحطة افاق نيليدوف متاخراً وصرف مدة في كتابة الرسائل ليرسلها من المدينة الاخرى. وبعد ان تناول الشاي في غرفة الفندق النظيفة خرج مسرعاً ليسأل الكاتب مقابلة كاتيوشا لانه لم يكن نظرها منذ اكثر من اسبوع وكان هذا التدقيق ناشئاً عن انتظارهم مرور موظف كبير من موظفي السجون اما الآن وقد مرّ ذاك الموظف دون ان يتعهد حالة أولئك المسجونين فقد رجا نيليدوف من الضابط في ذاك الصباح ان يسمح له بمقابلتها

وذهب معه شاب عريض الصدر كدليل يريه الطريق وكان الضباب مالئاً الجلد والظلام حالكاً ولم يحقق نيليدوف الشاب على بعد ثلاث خطوات ولكنه كان يسمع صوت حذائه الثقيل يخب في الوحل

وبعد ان اجتازا فسحة الكنيسة والشارع الطويل المنار بالانوار الخارجة من النوافذ وصلا الى ضواحي القرية حيث كانت المحطة فصاح الغفير عليهما من القادم؟ ولم يسمح لهما بالدنو حتى ولا بالوقوف بجانب كوخه ولكن الدليل لم يوقفه عنف الخفير فصاح فيه لم هذه الصرامة اذهب وابلغ الامر ونحن ننتظر. فلم يجب الخفير بل ارسل صوته الى الداخل ووقف ينظر اليهما وبعد مضى بضع دقائق فتح الباب وخرج منه جندي برداء على كتفه ولم يكن فظاً كالخفير ولكنه كان كثير التدقيق فاصر على معرفة مايريده نيليدوف من الضابط ومن هو وقد اشتم دون شك رائحة الكسب ولم يشأ ان تفلت الغنيمة من بين يديه فدنا منه نيليدوف وضغط على يده وقال له: خذ هذه الرسالة الى الضابط: فاخذها الجندي وانحنى احتراماً وانصرف

وبعد برهة قصيرة فتح الباب ثانية وخرجت منه نساء حاملات سلالا واباريق وأكياساً وكن يمزحن باللغة السيبيرية ولم يكن لابسات ثياب الفلاحين

فاحدقن بنيليدوف ودليله وهن مارات وسرت احداهن بمرأى الشاب العريض الصدر فلكزته بيدها قائلة :

— ماذا تفعل هنا ياجوهرة ؟ ليأخذك الشيطان

— أريت هذا السيد الطريق . وانت ماالذي اتيت به الى هنا ؟

— احضرت جبناً وبيضاً وسآتي بكمية اخرى في الصباح

— هل لم يقبلوا ان يبقوك عندهم هذه الليلة !

— كذبت ياملعون : قالت هـذا ضاحكة . ثم مالت اليه وقالت تعال معنا الى القرية

فاجابها بكلام اضحك النسـاء والخفير معاً ثم تحول نحو نيليـدوف وقال : انك تعرف الطريق في عودتك اليس كذلك ؟

فتبسم نيليدوف وقال : نعم اعرفه

فعاد الدليل مع النساء الى القرية وسمع صوته واصواتهن تخترق الضباب وفي اثناء ذلك فتح الباب وظهر الجندي ودعا نيليدوف ليتبعه الى غرفة الضابط.

وكانت المحطة نظير جميع محطات الخط السيبيري محاطة بفسحة ومؤلفة من ثلاثة بيوت منفصلة . الكبير منها بالنوافذ المشبكة للمسجونين والآخر لجنود الحرس والثالث الصغير مكتب الضابط فقاد الجندي لنيليدوف الى هذا الاخير وادخله الى غرفة داخلية حيث كان الضابط جالسا امام مكتبه مرتدياً رداء محكماً جميلا وحين رأى نيليدوف نهض واقفاً واحدق فيه احداق استخفاف وتخوف معاً وسأله ما الذي تريده ياسيدي ؟

ودون ان ينتظر الجواب صاح منادياً : يابتروف احضر الشاي

فقال نيليدوف وهو واقف : أروم ان يؤذن لي بزيادة سجينة

ـ اذا كانت سجينة سياسية فالقانون يمنع زيارتها

ـ انها ليست سجينة سياسية ولكن الرؤساء اذنوا لها اجابة لطلبي بالانضمام الى المسجونين السياسيين

ـ عرفتها تلك السمراء اللون ؟ ساجمعك بها . ثم امره بالجلوس وقدم له لفافة دخان . وكان الشاي قد حضر فسكب قدحاً وقدمه له وقال . تفضل اشرب ياسيدي فان الليل طويل وسارسل وراءها في الحال . واعلم ياسيدي انه اذا كان الانسان عائشاً في سيبيريا مثلي فليس احب عليه من ان يجتمع برجل متعلم لان عملنا متعب ومحزن للغاية . والرأي السائد بين الناس هو ان ضباط الحرس خشنون غير متعلمين ولا نرى واحداً يقول انا ربما خلقنا لنشغل مراكز غير هذه

فسئمت نفس نيليدوف من كثرة ثرثرته وفضوله ولكنه كان مضطراً للأطفته فقال له .

ـ اظنك تجد في حالتك هذه شيئاً من التعزية بمساعدتك الاناس المعذبين

ـ وما هو عذابهم ؟ لاتعرف انك من هم هؤلاء الناس

ـ هم كسائر الناس وبعضهم ابرياء

ـ نعم . ان بينهم من جميع الانواع والانسان يرفق بهم طبعاً وغيري لايدع شيئاً يفلت ولكني انا احاول تخفيف آلامهم حين الامكان وافضل ان اتحمل العذاب عنهم

وبعد ان سكت قليلاً قال : من هي هذه المرأة التي تيني ان تراها ؟

ولاي سبب سجنت ؟

— انها امرأة منكودة الحظ سيقت الى دار الخناء واتهمت فيها زورا بتسميم رجل مع انها سليمة القلب

فهز الضابط رأسه وقال : نعم قد يحدث مثل ذلك كثيراً لاني اعرف امرأة مجرية الاصل كانت قاطنة في مدينة قزان فذاع خبر جمالها في تلك الانحاء حتى ظن انها ستقترن بذي مقام رفيع وتصبح من الاميرات ...

فاعترض نيليدوف الضابط وعاد الى حديثه السابق فقال: اظنك قادراً على تخفيف آلام الناس مادامو افي عهدتك واذا فعلت ذلك، لا ارتاب في حصولك على البهجة والسرور

فحملق الضابط في نيليدوف منتظراً بذاهب الصبر توقفه حتى يتم حديثه عن المجرية الجميلة التي كانت دون شك قد تمثلت امام عينيه في ذاك الحين

فقال : حق ماتقول .اني ارثي لحالهم ولكني اروم ان اتم لك حكاية تلك المرأة . فماذا تظنها فعلت ؟

قال نيليدوف : حكايتها لاتهمني ويجب على ان افهمك صراحة انني امقت الآن كل علاقة بالنساء وكل كلام عنهن

فحدق الضابط في نيليدوف تحديقاً مفزعاً ونادى على الجندي برنوف وقال له خذ هذا السيد الى غرفة السجناء السياسيين المنفردة ودعه يبقى هناك حتى وقت التفتيش

(٣٢)

فخرج نيليدوف مع الجندي الواقف في خدمة الضابط وفيما هما سائران

سأل الحارس الجندي عن وجهتهما فاجابه انهما يقصدان غرفة المجرمين السياسيين . فقال لا يمكنكما المرور من هنا . وقادهما في طريق آخر وقبل ان يصلا الى الغرفة سمع نيليدوف صوتاً كدوي النحل وحين اقترب وفتح الباب علت الاصوات البذيئة والاقوال السفيهة الممزوجة بقرقعة السلاسل واشتم الرائحة الكريهة المائلة للهواء

وأول ما وقع نظره على وعاء كبير مملوء قذارة جلست امرأة على أحد اطرافه يقابلها رجل واقف وكانا يتحادثان معاً وحين نظرا نيليدوف خجلت المرأة وارخت اطراف ثوبها وغضب الرجل وقال : ان القيصر نفسه لا يمكنه ايقاف مجرى الماء ..

وكانت الغرفة الاولى للعائلات والتي تليها للعزاب ثم غرفتان صغيرتان منفردتان للمسجونين السياسيين . ولما كانت هذه الغرف لا تسع اكثر من مائة وخمسين مسجوناً فقد غصت كلها حيث ازدحم فيها اربعمائة وخمسون فاتكاء البعض في الممرات وجلس البعض على الارض وفي الفسحات حتى لم يبق قيد شبر خال من جسم انسان

واذ كان نيليدوف ماراً رأى تراس بين المسجونين مهشم الوجه فسأله ما الذي جرى لك ؟ اجابه حدث لي حادث صغير . فقال الحارس : حادث كبير وليس صغيراً فقد اقتتلوا كالثيران هو وفيدكا الاعمى وكله من أجل المرأة « وصدق من قال ان النساء اصل البلاء » فنظر اليه نيليدوف نظرة واسكتته ثم عاد فسأل تراس عن تيوديزيا فقال. انها في الصحة التامة

وكان الجميع يصخبون ويلغطون وحين نظروا الحارس وسيداً جليلا بملابس متقنة صمتوا وشيعوهما بنظرات حقد وغدر ورأى نيليدوف بينهم

المجرم فيدروف الذي عرفه قبلاً . وكان هذا الرجل قبيح المنظر مجدوع الانف اشتهر بين المسجونين بانه قتل رفيقاً له في احد المستنقعات وانه كما قيل اقتات من لحمه فوقف هذا المنشرد في الممر حاملا رداءه المبتل على كتفه وتفرس في نيليدوف مستهزئاً ساخراً ولم يحد عن الطريق . فمر نيليدوف بجانبه

ومع انه كان قد الف هـذه المناظر ورأى في الثلاثة الاشهر الفائتـة هؤلاء الاربعماية مجرم المرة بعد المرة في كثير من الظروف المختلفة في الحر الشديد والبرد القارص في السجن وفي الطريق ومحلات الاستراحة ورأى منهم كل انواع الوقاحة والفسق والدعارة فقد كان في مرة يجتمع بهم يشعر بوجوب مساعدتهم والالتفات اليهم وغض النظر عن سيئاتهم لانه كان يرى ان وجودهم في ظروف كهذه لا يمكنهم من ان يكونوا غير ماهم ولم تشمئز نفسه غير من وقاحة هذا الرجل وبشاعة منظره

وحين اقترب نيليدوف من غرفة المسجونين السياسيين سمع احدهم يقول : ما هم الا قوم ظلام لا يليق بهم الا اكل الخنافس . ثم اضاف بعض كلمات تهكم وسباب واعقب ذلك بقهقهة استهزاء وسخرية

وبعد ان اجتاز غرفة العزبان ترك الجاويش نيليدوف واعداً اياه بالعودة قبل التفتيش . وحالما ذهب الجندي اقترب من نيليدوف سجين حافي القدمين رافعاً سلسلة على كتفيه وقال همساً :

— امسك القضية بيدك اليمنى ياسيدي . فقد سبوا عقل الفتى واسكروه وقال اليوم اثناء التفتيش ان اسمه كرمانوف فاوقف الخيانة ياسيدي نحن لا نجسر على التداخل . ثم نظر الى ماحوله باضطراب وعاد من حيث اتى

وتحرير الخبر ان المجرم كارمانوف استمال اليه فتى محكوما عليه بالنفي

ومشابهاً له كل المشابهة واقنعه بان يتبادلا اسميهما وان يذهب الى المناجم بدلا منه ويذهب هو بدلا من الفتى الى المنفى

وقد عرف نيليدوف شيئاً عن هذا البيان المنوي لان مجرماً كان قد ابلغه الامر في الاسبوع الفائت وقد عرف ايضاً ان هذا المجرم الذى كلمه هو الذي سأله قبلا ان يحصل له على اذن لزوجته باتباعه . وكان رجلا من ابسط طبقات الفلاحين متوسط القامه في الحلقة الثالثه من العمر وحكم عليه بالاشغال الشاقه لمحاولته السلب والقتل وكان اسمه مقار دوكين وحين سرد قصته لنيليدوف قال : ان الجريمة لم تكن فعلة شخص مقار بل كانت فعلة الشيطان الذي حل في شخصه . فقال ان سائحاً جاء لى بيت ابيه واستأجر عربة ليركب الي قرية تبعد ٦٣ ميلا فامره ابوه بان يسوق العربة بالشخص الاجنبي وفيما هما على المائدة علم منه انه ذاهب ليتزوج وان معه خمسماية روبل حصلها من موسكو وانه لما سمع ذلك خرج الى الفسحة وخبأ فاساً تحت التبن في العربة

فقال ولم اكن انا نفسي عارفاً سبب اخذى للفاس فقال لي هو (١) خذ الفاس فأخذتها وركبنا العربة معاً وواصلنا السير على احسن حال . ونسيت امر الفاس بالكلية حتى بلغنا سفح جبل ولم يبق بيننا وبين القرية الا اربعة اميال ولما اخذت العربة في الصعود نزلت انا ومشيت وراءها فاتاني هو وهمس في اذني . ماالذى تفكر فيه ؟ اقض الامر في الحال لانك صرت على مقربة من القرية فقفزت الى العربة كأني أريد ان اساوي التبن وظهر لي ان الفاس قفزت الى يدي من ذاتها فالتفت الرجل وقال

---

(١) يريد بضمير الغائب الشيطان

ماالذي تبغي؟فرفعت الفأس وأردت ان اخمد انفاسه ولكنه كان اسرع مني واشد ساعداً لانه قفز من العربة وقبض على يدى بيده الحديدية وقال ماالذي تريد فعله ايها الشرير السافل ؟ ثم القاني على الارض واوثق ذراعي وطرحني في العربة وسار بي تواً الى مركز البوليس. وقد سجنت وحوكمت ورغماً عن الشهادات الحسنة التي تقدمت بحقي من عموم سكان القرية ومن جميع اصحاب الاعمال الذين يعرفوني حكم علي بالاشغال الشاقة اربع سنين

فهذا الرجل مع ماظهر من شره وفساده كان يبغي تخليص قروي مظلوم مع علمه بانه في كلامه يعرض نفسه للخطر فلم يبال به بل طاوع ضميره الحي واباح لنيليدوف بما عرفه ورجاه ان يسعى في خلاص قروي مثله

« ٣٣ »

وكان المسجونون السياسيون في غرفتين صغيرتين يفتح بابهما على قسم من الممر منفصل عن باقي الاقسام . وحين دخل نيليدوف هذا القسم نظر سيمونسون مرتديا برداء من الكاوتشوك حاملا قطعة خشب بيديه ورابضا امام مستوقد كان بابه يهتز من شدة الحرارة التي في داخله

وحين رأى نيليدوف مد له يده دون ان ينهض وقال: اني مسرور بمجيئك لان لي كلاما اتلوه عليك وقد صوب عينيه الى نيليدوف اشارة الى امر هام

فقال نيليدوف : ماالذي تريد ان تتلوه علي ؟

قال : سنتحادث فيما بعد لاني منشغل الان وعاد الى المستوقد الذي كان يشعل ناره بمقتضى تعليم خاص حتى لايفقد من قوة الحرارة شيئاً

ولم يكد نيليدوف يدخل من الباب الاول حتى نظر ماسلوفا خارجة من الباب الثاني تدفع كومة من الزبالة وحين رأت نيليدوف

بوردت وجنتاها وافلتت المكنسة من يدها واتجهت نحوه فصافحها باسما وقال : ماذا كنت تفعلين ؟

فابتسمت . وقالت عملي القديم الكنس والتنظيف لاننا مع شدة الاعتناء بالنظافة نرى الاوساخ والاقذار تكتنفنا .ثم التفت الى سيمونسون وقالت :هل نشف الرداء ؟ قال كاد ينشف . ونظر اليها نظرة معنوية كان لها تأثير عظيم على نيليدوف

قالت . حسن سآخذه واجلب بقية الاردية لتنشف ثم التفتت الى نيليدوف مشيرة الى الباب الاول وقالت . ان جماعتنا جميعهم هنا

ففتح نيليدوف الباب ودخل غرفة صغيرة منارة بنور ضئيل . وكان البرد قارساً والرائحة الكريهة منبعثة والدخان يملاء جوانبها . وكانت هناك فيرا دوهوفا صديقة نيليدوف القديمة وهي اشد اصفراراً من ذي قبل واكثر حزناً واميلي رانتسيفا التي عدها نيليدوف ابهج المسجونين السياسيين واكثرهم ظرفاً وخفة فكانت تعتني بتدبير لوازم رفقائها وتنشر بينهم الشعور بالراحه والرضى بما هم فيه وكانت على الدوام بشوشة الوجه تدل ملامحها على النباهة والوداعة اذا تكلمت تخال الشهد يخرج من فيها فيصغى لها الجميع ويودون ان لاتنقطع عن الحديث

وكانت ماريا بافلوفنا جالسة في زاوية مظلمة تداعب فتاة صغيرة شقراء الشعر وتضحك من عباراتها الحلوة وكثرة سؤالاتها . فلما نظرت نيليدوف تحولت نحوه قائله : ما احسن ان نراك بيننا هل نظرت كاتيوشا؟ قال: نعم نظرتها

وفيما هو يجيل نظره في الغرفة ابصر كريلتسوف جالساً القرفصاء من شدة البرد فسار نحوه وقبل ان يصل اليه رأى نوفوروف الثوروى الشهير

يحادث غرابيتس الجميلة وهي تضحك له فحياه نيليدوف فرد تحيته ببرود وازدراء لانه كان يكره نيليدوف كرهاشديداً لغير سبب الا زعمه انه من الطبقة العلياء التي يجب احتقارها واذلالها وكان نيليدوف يشعر بذلك ويلاطفه نظراً للمبدأ الذي أخذه على نفسه وهوانه يحب جميع الناس ويسعى لخير الجميع ولهذا لم يحفل بازدراء نوفورف الثوروى له بل بقى سائراً نحو كريلتسوف حتى وصل اليه وسلم عليه مصافحة وضغط على يده البارده وقال : كيف انت ياصاح!

قال ان البرد يؤثر في جداً ولكن كيفما كان الحال فاني اشكر الله. اخبرني كيف حالك ولم لم تزرنا منذ مدة؟

— لانه لم يؤذن لي بسبب تدقيق الرؤساء ولكن الضابط تساهل معي اليوم

— تساهل حقيقة ؟ ياللعجب سل ماريا ماالذى فعله هذا الصباح فقالت فيرادوهوفا بلهجة الغضب : ارى من الضرورة الاجماع على رفع احتجاج ضد هذا العاتي نعم ان سيمونسون احتج على اعماله الفظيعة ولكن ذلك لم يكن كافياً

فقال كريلتسوف :اي احتجاج ترومين ؟ وهل يسمع سكان القبور شكوى الاحياء ؟ثم خاطب نيليدوف قائلاً : اظنك تبحث عن كاتيوشا فهي تشتغل كل الوقت بتنظيف الغرف وترتيب امتعتنا ومطاردة البراغيث وقتل الهوام ولولا وجودها معنا لكانت حالتنا سيئة للغاية

وفي تلك اللحظة دخل رجلان الى الغرفة حاملين ماءً مغلياً وزاداً وكان احدهما شاباً نحيلاً قصير القامة وحين نظر نيليدوف تبسم وقال : اني ارى

اميرنا بيننا ثانية ثم نظر الى رفقائه وهو ينزع الفرو عن كتفيه وقال : اننا قد أتينا باشياء كثيرة مدهشة وقد ابتاع ماركل لبناً وبيضاً وسيكون عندنا مرقص جميل هذه الليله

ودل هذا الرجل بكامل وجوده وحركاته وصوته ونظراته على الهمة والطرب . وكان الاخر عكسه فدلت ملامحه على الانقباض والحزن . وكان قصيراً نحيلا باهت اللون رقيق الشفتين جميل العينين فبعدان التي الاصناف التي كان يحملها تقدم من نيليدوف وصافحه باحترام ورجع الى الوراء

كان هذان المسجونان من الشعب فاولهما ناباتوف كان فلاحاً والاخر ماركل كان عاملا . ولم ينضم ماركل الى الثوريين حتى اصبح رجلاً كاملاً ولكن ناباتوف انضم اليهم وهو في الثامنة عشرة . وبعد ان غادر ناباتوف مدرسة القرية دخل مدرسة الحقوق العالية . وبالنظر الى فرط حذقه وذكائه حصل معيشته بالقاء دروس في كل مدة تعلمه . وفي الختام نال المدالية الذهبية وحينذاك وطد عزمه على ان يذهب الى شعبه وينور اخوانه المهملين الذين لاقدرة لهم على التعلم وقد فعل ذلك وحصل اولاً على مركز كاتب حكومة في قرية كبيرة وأوقف حالا لانه كان ينشر مبادئه بين الفلاحين وانشأ بينهم جمعية تعاضد صناعية فحجر عليه الرؤساء ثمانية اشهر ثم اطلقوا سراحه ولكنه بقي تحت مراقبة البوليس . وحالما افرج عنه ذهب الى قرية أخرى عين فيها معلماً لمدرسة وفعل فيها مافعله في القرية الاولى فقبض عليه ثانية وزج في السجن اربعة عشر شهراً حيث رسخت معتقداته وتوطدت اركانها وبعد ذلك نفي الى حكومة برم وفر منها ثم اودع السجن سبعة اشهر

جاء السجان وقال قد فرغ الوقت فنهضت ماسلوفا . وقال لها نيليدوف : انك متهيجة الآن وانا آت اليك غداً فعليك ان تفتكري فيما قلته . فلم تجبه ماسلوفا ودون ان ترفع نظرها تبعت السجان وخرجت من الغرفة . ولما عادت الى غرفتها قالت لها كورابليوفا هنيئاً لك فقد أصبحت تصرفين اوقات ثمينة مع رجل يتعشقك ويرجو نوال رضاك فاغتنمي الفرصة وفوزي بما تشتهين ما دام يتردد عليك فانه يفيدك لانه غنيٌّ والاغنياء قادرون على كل شيء

فقالت امرأة الحفير نعم الامر كذلك وحين يطلب الفقير الزواج يرى الف عقبة في سبيله ولكن الغني ما عليه الاَّ ان يفكر فيتم له كل امر

أما ماسلوفا فلم تجب بشيء بل القت نفسها على السرير مصوبة عينيها الى سقف الغرفة وظلت على هذه الحالة حتى المساء وكانت الافكار المؤلمة المتناقضة تجول فى مخيلتها لان ما قاله نيليدوف اعاد اليها ذكرى العالم الذي عاشت فيه مرَّ الحياة والذي تركته نافرة دون ان تعرف السبب . وقد رأت نفسها الآن خارجة عن الدعارة التي كانت عائشة فيها ولكنها لم تسلم من ذكرى الامور المؤلمة المحزنة التي توالت عليها فى حياتها الاخيرة ولذلك ارادت ان تطرد جيوش الاحزان بمعاقرة بنت الحان ففي المساء ابتاعت زجاجة من الفودكا شربتها مع رفيقاتها

« ٣٧ »

وحينما غادر نيليدوف السجن قال فى نفسه قد عرفت الآن ما عنت بقولها وكان قد تمثل له جرمه كما هو . ولو لم يرد ان يكفر عن ذنبه لما تبين له على الاطلاق عظم هذا الذنب ولما شعرت هي بكل البلاء الذي حلَّ عليها . فلم يرَ الاَّ فى هذه الساعة ما فعله بنفس هذه المرأة ولم ترَ هى ولم تفهم الاَّ

في الحياة الآخرة وكان الله له كما كان « لاراغو (١) » ذاتاً افتراضيه لم تلجئه الحاجة اليها بعد ولم يبحث على الاطلاق في اصل العالم ولم يبال قط بما اذا كان موسى مصيباً او داروين . وتعليم دارون الذي كان ذا اهمية كبرى لرفاقه كان له فقط تلاعباً في العقل مماثلاً للخليفة في ستة ايام

ولم يكن يهتم باصل العالم وكيفية خلقه ولم يفكر قط في الحياة الاخرة بل كان حافظا في اعماق نفسه على الدوام المعتقد الثابت الصحيح الموروث عن اجداده والشائع بين جميع حارثي الارض وهو ان في عالمي النبات والحيوان لاشيء يضمحل بل كل شيء يغير شكله على الدوام فيتحول السباخ الى حبوب والحبوب الى طعام والبيض الى ضفدعة والدودة الى فراشة والبلوطة الى سنديانة فهكذا الانسان لا يضمحل بل يتغير من حال الى حال ولرسوخ هذا الاعتقاد فيه كان لايهاب الموت وقد احب العمل وكان على الدوام منكباً عليه ويحض رفاقه على الكد والنشاط

اما السجين السياسي الآخر « ماركل » الذي خرج من الشعب فقد كان مخالفاً لرفيقه على خط مستقيم . اذ بدأ في العمل وهو في الخامسة عشرة واخذ يدخن ويشرب الخمر آملا في اقصاء الكدر الذي تولاه من اعتقاده هضم حقوقه وكان بدؤ شعوره بذلك في ليلة عيد الميلاد اذ

---

(١) يقال انه حين قدم لابلاس مؤلفه الذي سماه الميكانيكات السماوية الى نابوليون قال له : قد قيل لي يامسيو لابلاس انك وضعت كتابك الكبير في ناموس الكائنات ولم تذكر الخالق قط اجابه لابلاس لم يكن لي من حاجة الى مثل هذا الافتراض ولما كان اراغو صغير السن في ذاك الحين عد من البعيد ان يكون هو اول من قال هذه الجملة ومع ذلك فهي تعزى اليه

دعي اولاد المعمل الى شجرة العيد التى اقامتها زوجة صاحب المعمل فنال هناك صفارة وتفاحة وجوزة مذهبة في حين ان اولاد صاحب المعمل اعطوا هدايا ثمينة تبلغ قيمتها نيفاً وخمسين روبلا. وحين بلغ الثلاثين أتت معلمهم فتاة ثورية شهيرة لتشتغل وحين لحظت في مار كل مايميزه عن رفاقه في الذكاء اخذت تعطيه كتباً ولوائح وتحادثه موضحة حالته السيئة وكيفية اصلاحها وحين وضح له ذلك تمثل له ظلم الحكومة الحاضرة افظع وارعب من ذي قبل وكان يتوق بذاهب الصبر ليس الى الحرية فقط بل ايضاً الى مقاصة اولئك الذين انشأوا هذا الظلم الفظيع والذين يقومون بانفاذه ولما علم انه لايمكنه عمل شيء بدون ان يتعلم ويتفقه جيداً انكب على تحصيل العلم كل ماسنحت له فرصة ولم تتضح له اماني الاشتراكيين الابعدان حصل جانباً منها فتجلى له الجور والظلم ورأى وجوب محاربة ذويه وملاشاتهم وابطل شرب الخمر والتدخين وخصص كل اوقاته للدرس والمطالعة . وقد ادهش الفتاة الثورية تلهفه على كل نوع من انواع المعرفة وسهولة التقاطه لها وفي مدة سنتين تعلم الجبر والهندسة والتاريخ الذى شغف به اكثر من غيره واطلع على الكتابات الفنية والانتقادية والاشتراكية

وقد اوقفت الفتاة الثورية واوقف هو معها لانهم وجدوا عندهما كتباً ممنوعة فنفيا الى « فولوجدا » وهناك تعرف بنوفوروف وقرأ كثيرا من المسائل المتعلقة بالثورة وزاد معتقده في ارائه الاشتراكية رسوخا وبعد نفيه اصبح زعيما لاعتصاب كبير انتهى بتدمير معمل وقتل مديره فقبض عليه ثانية وحكم عليه بالنفي الى سيبيريا. وكان متطرفاً في آرائه الدينية فبعدان رأى معاملة سيئة من رجال الدين تارة بالتهديد والوعيد وطوراً بالقطع

والحرم اراد ان ينتقم لنفسه من المعاملة التي عومل بها ولذلك حمل عليهم حملة شعواء وسلقهم بالسنة حداد وازدرى بارائهم وتعليمهم

وقد كان من طبعه زاهداً قنوعا كجميع الذين تعودوا الشغل منذ الطفولية قوي العضلات لا يتعبه عمل

وكان يحتقر النساء ويعدهن عقبة في سبيل كل عمل مفيد ولكنه كان مشفقاً على ماسلوفا وودیعا معها لانه اعتبرها مثالا للطريقة التي تغتصب فيها الطبقات العلياء اموال الطبقات الدنيا وعروضها والسبب ذاته جعله يكره نيليدوف حتى انه لم يكلمه الا قليلا ولا صافحه غير هذه المرة

« ٣٤ »

وقد اشعلت النار في المستوقد وغلي الشاى وسكب في الاقداح واضيف اليه اللبن واحضر الخبز والزبده والبيض ورأس عجل وسوق مسلوقة ورتبوا المائدة على الواح وضعوها وجلسوا جميعهم يأكلون ويتكلمون

وبعد سيرهم ذاك اليوم في الطقس البارد ومعاناتهم التعب والمشقات وجدوا لذة في الاكل والشرب تفوق كل لذة

ولم يكن وقع الاقدام المزدحمة وصياح المجرمين والشتائم التي اصمت اذانهم من وراء الجدار الا لتزيد رغبتهم في المحادثة والمباسطة وكانوا في تلك الفترة كقوم لجأوا الى سفينة في وسط البحر الهائج فلم يشعروا بالذل والهوان والآلام التي كانت تكتنفهم فسمت بهم نفوسهم وبلغ منهم التهيج اشده فتحادثوا في كل شيء الا في حالتهم الحاضرة ولما سيحدث لهم في المستقبل . وحدث بينهم كما يحدث غالباً بين الاحداث من الذكور والاناث خصوصا اذا ارغموا على البقاء معاً

كما كان هؤلاء فدارت المناقشات وحصلت الموافقات والمعارضات وكثر الخلط والخبط وكان كل منهم على وجه التقريب واقعاً في الحب . فكان نوفوروف يحب غرابيتس الجميلة الدائمة الابتسام . وكانت هذه الفتاة عديمة التفكير فبعد ان تلقت العلوم العالية درست مبادئ الفوضويين واشتركت مع الثوريين فسجنت ونفيت واهم فوائد حياتها اثناء المحاكمة وفي المنفى كان فوزها على قلوب الرجال واستمالتها اياهم كما كانت وهي مطلقة والان وجدت نوفوروف يتحبب اليها فتحببت اليه واشتبك الاثنان وفيرادوهوفا كانت تميل للوقوع في شرك الحب ولكنها لم تجسر على الدخول من بابه فكانت تتراوح بين ماركل ونوفوروف . وشعر كريلتسوف بميل الى ماريا بافلوفنا ولكنه اخفى شعوره تحت صورة الصداقة والامتنان الى الحنو الذي بدأ منها في مواساته . وكانت ماريا كاملة الطهر والعفة وحين كانت تلميذة وفي السادسة عشرة احبت طالباً في كلية بطرسبرج وزفت اليه قبل ان يغادر المدرسة وكانت قد بلغت اذ ذاك التاسعة عشرة

وفي خلال السنة الرابعة من سني دروسه اشترك في بعض اضطرابات احدثها الطلبة ونفي من بطرسبرج وتحول الى ثوروي فتركت ماريا الدرس الطبي الذي انتظمت في سلكه وتبعته وتحولت ايضاً الى ثوروية ولو لم تكن قد اعتبرت زوجها افضل واحذق الرجال لما احبته وتزوجته واتبعت اراءه ونظرت الى الحياة واغراضها بالعين التي ينظر هو بها. فافتكر في بادي الامر ان غرض الحياة هو التعليم ولذلك نظرت هي الى الدرس كغرض الحياة. واصبح هو ثوروياً فتمثلت به وثبت له بجلاء فساد الحالة الحاضرة وان من واجبات كل انسان مصادمتها ومقاومتها فشعرت هي بذات الشعور لانها

كانت تعتبر ان كل مايريده زوجها ويفعله هو حقائق راهنة لايجب الاعتراض عليها

وقد كان فراقها لزوجها وطفلها الصغير صعباً جداً عليها ولكنها احتملته بثبات وسكينة اذ كان من اجل زوجها ومن اجل غايته التي لم يكن لها ادنى ريب في صحتها فكانت على الدوام مع زوجها بالفكر ولم تحب ولا امكنها ان تحب احداً غيره ولكن حب ماركل المملوء غيرة وطهارة مس عواطفها وهيجها فهذا الرجل الحازم الاديب صديق زوجها كان يحاول ان يعاملها كاخته ولكن شيئاً اكثر من ذلك ظهر في سلوكه معها وخاف كلاهما مغبة هذا الحب ولكنه اكسب حياتها الشقية المرة لوناً مستحباً

وهكذا لم يكن في كل هذه الدائرة سوى ماريا بافلوفنا وماركل خاليين من الحب

« ٣٥ »

وجلس نيليدوف الى جانب كريلتسوف يحادثه رجاء ان يكون له حديث خاص مع كاتيوشا . وفي اثناء الحديث قص عليه نيليدوف حكاية الجريمة التي ارتكبها مقار وابلغه ايضاً الطلب الذي طلبه منه فاجابه كريلستوف قائلا : نعم اني افكر كثيراً باننا سائرين جنباً الى جنب مع هؤلاء الناس الذين من اجلهم نحن مساقون ومع ذلك فلسنا لانعرفهم فقط بل اننا لانريد ان نعرفهم ايضاً وهم نظيرنا بل أشد حقداً منا لانهم يمقتوننا وينظرون الينا كاعداء اليس الامر هائلا ومدهشاً

وكان نوفوروف يسمع الحديث فقال : ليس في الامر هول ولا دهشة فالناس يخضعون للقوة ويعبدونها والقوة بيد الحكومة الآن ولذلك يعبدونها

ويمقتوننا وغداً نحصل نحن على القوة فيعبدوننا

وفي تلك اللحظة سمع صوت الشتائم وراء الجدار ثم علا الصياح والصراخ فكان شخص يوسع ضربا وآخر ينادي ويقول جناية قتل ادركونا ؟

فقال نوفوروف بهدو : اسمعوا هؤلاء الوحوش اي اختلاط ممكن بيننا وبينهم ؟

فاجاب كريلستوف غاضباً : انك تدعوهم وحوشاً وقد كان نيليدوف يحدثني الآن عن حادثة كهذه عن رجل اسمه مقار عرض حياته للخطر ليخلص أحد مواطنيه فعمل كهذا ليس عمل وحوش بل عمل ابطال بواسل

فقال نوفوروف : من الصعب علينا ان نفهم انفعالات هؤلاء الناس والعوامل التي تدفعهم الى العمل فانك ترى كرم اخلاق في هذا العمل ولكنه لم ينتج الا عن حسد مقار للمجرم الآخر

فقالت ماريا بافلوفنا: انك لا تريد ان ترى شيئاً حسناً في غيرك على الاطلاق

اجابها : كيف يمكن الانسان ان يرى شيئاً لا وجود له . فلو اردنا عمل شيء فاول شرط هو ان لا ندع مجالا للتصورات والوساوس بل ان ننظر الى الاشياء كما هي وعلينا ان نبذل جميع قوانا في خدمة الشعب وان لا ننتظر مقابلاً لذلك . والشعب لا يمكنه ان يكون معنا في العمل مادام في حالة الخمول الحاضرة . ولذلك يكون انتظارنا المساعدة منه قبل تقرير الخطة التي نعدها له محض تغرير فقال كريلتسوف وقد صعد الدم الى وجهه : واية خطة تريد؟ نحن نقول انا ضد الظلم والاستبداد واي استبداد اعظم واشر من هذا

فقال نوفوروف بسكينة : ليس ثمة استبداد بل اقول اني اعرف الطريق

التي يجب على الشعب سلوكها واقدر ان اريهم تلك الطريق

فقال كريلتسوف : كيف يمكنك ان تثبت ان السبيل الذي تريهم اياه هو السبيل السواء : اليس هذا ذات نوع الاستبداد الذي كان ملقى في اساس اضطهادات مجلس التفتيش والثورة الفرنساوية فاولئك أيضاً عرفوا الطريق القويم بواسطة العلم

فقال نوفوروف : ان خطأهم لايؤخذ برهاناً على اني سأخطي أيضاً وكان يتكلم بصوت عال . فقالت ماريا بافلوفنا انهم لايفرغون من الخصام فسألها نيليدوف : ومارأيك فيهم!

قالت اظن . ان كريلتسوف مصيب في قوله انه لايجب ان نخضع الشعب لرأينا

فالتفت نيليدوف الى كاتيوشا مبتسماً وقال : وما الذي ترتئينه أنت وانتظر جوابها بلهفة وخشي ان يسمع منها كلاماً تافهاً

فتشرب وجهها لونا قرمزياً وقالت : اظن ان الشعب مساء اليه اساءة شديدة لاتغتفر

فصاح كريلتسوف . حسناً قلت يا ماسلوفا فان الشعب مساء اليه اساءة شنعاء ويجب ان يرفع نير الظلم عن عاتقه وهنا تنحصر جميع اعمالنا

فقال نوفوروف غاضباً انه رأي مستهجن في غرض الثورة واخذ يدخن لفافة وهو صامت

ومع علو مقام نوفوروف بين جميع الثوريين وسعة اطلاعه وحسبانه من الحكماء لم يعده نيليدوف من هذه الطبقة بل اوطأ منها كثيراً لان كبرياءه

واعتداده بنفسه غمرا قواه العقلية

وقد كان في طبيعته عكس ما كان سيمونسو . اذ كان ثانيهما من الناس المتغلبة عليهم طبيعة الرجال الذين يطبقون اعمالهم على هواهم امانوفوروف فكان بالعكس منتسباً الى طبقة الناس المتغلبة عليهم طبيعة النساء الذين تسير عقولهم حسب عواطفهم . ومجمل اعمال نوفوروف الثورية التي كان يشفعها بالحجج الدامغة بدت لنيليدوف غير مؤسسة الا على الطمع وحب الرئاسة وفي البدء كانت قدرته على مقارنة الاخرين والتعبير عنها تعبيراً صحيحاً قد انالته الزعامة بين الطلبة والمعلمين ولكنه حين اتم دروسه ونال الدبلوما بدل افكاره لينال الرئاسة في دائرة أخرى فتحول من حر معتدل الى حليف كلب لجمعية انقاذ الشعب وخلوه من تلك الصفات الادبية والذوقية التي تولد في الانسان الشك في اقتداره والاحجام عن التهور طمحت انظاره في الحال الى زعامة احد الاحزاب الثورية فكان اذا اختط خطة يسير عليها في الحال لزعمه انه لا يخطئ على الاطلاق وبلغ اعتداده بنفسه حداً جعل الناس اما ان يتحولوا عنه اوان يخضعوا اليه . ولما كان يقوم بعمله بين شبان حديثي السن حسبوا اعتداده بنفسه الفائق الحد تعمقاً في العلم وحكمة فكانت الاكثرية تخضع له. وكان له نجاح كبير في الاحزاب الثورية وانصرف همه الى اعداد ثورة يتمكن بها من ابادة السلطة وتأليف مجلس يكون مسئولاً امام الشعب . واحترمه رفاقه ولكنهم لم يحبوه ولم يحب هو احداً منهم وحسب جميع الرجال الممتازين اخصاماً مزاحمين له فكان يعاملهم معاملة كبار القرود لصغارها ولم يكن حسن السلوك الا مع الذين كانوا يحنون رؤوسهم امامه وفي سفره هذا كان يعامل ماركل برقة وادب لانه كان خاضعاً لتعاليمه كل

الخضوع وهكذا كانت فيرادهوفا وغرابيتس الجبلة اللتين كانتا واقعتين في شرك هواه ومع موافقة مبدئه لحركة النساء وثورتهن كان يحسب جميع النساء غبيات حقيرات عدا من كان يتظاهر بحبه لهن كما كانت حاله مع غرابيتس

وكان ينظر الى علاقة الجنسين الذكور والاناث كانها تحل حلاً نهائياً بقبول حرية الانضمام . وكانت له زوجة اسمية وزوجة شرعية انفصل عنها لعدم امكانه التآلف معها لرداءة طبعها على زعمه واشتد كرهه لنيليدوف بسبب ارائه التي ابداها وقال انها اراء امير مجنون . وشعر نيليدوف ايضاً بكرهه واراد ان يكيل له بالكيل الذي يكيل هو به

٣٦

سمعت اصوات الموظفين من الغرفة المحاذية حيث بدأوا يحصون المسجونين واحداً واحداً ولما جاء دور نيليدوف خاطبه الجاويش بلطف قائلاً : يجب ان تبرح المكان ياسيدي الامير

وعرف نيليدوف ماالذي عناه الجاويش بكلامه فتقدم اليه ووضع في كفه ورقة مالية قيمتها ثلاثة روبلات فضحك الجاويش وقال : ماحياتي معك يامولاي ان لطفك يمنع لساني عن الكلام فابق حيث شئت الى نهاية التفتيش . وقبل ان يخطو خطوة دخل جاويش آخر يتبعه سجين نحيف البنية خفيف اللحية واذا بصوت طفلة تقول « بابا » فقال السجين بحنو : نعم يابنتي . ها انا ذا

فقالت ماريا بافلوفنا وهي تنظر برفق الى وجه بوزكوفين المشوه : انها منشرحة هنا فدعها معنا . وكانت اذ ذاك تخيط لها ثوباً جديداً والابنة فرحة به . فسألت رانتسيفا الطفلة وهي تدغدغها : هل تريدين ان تنامي معنا؟

فقـالت الطفلة : نعم اريد فالتفت رانتسيفا الى والدها وقالت : دعها في راحة عندنا . وقال الجاويش : يمكنك ان تبقيها هنا وتذهب

وقبل ان يخرجا تقدم ناباتوف الى بوزوفكين وقال له . اصحيح ياصاح ان كرمانوف ينوي المبادلة ؟ فتحولت بشاشة بوزوفكين الى كآبة وقال بتأن لم نسمع شيئاً . ثم تحول نحو ابنته وقال . حسن يا اكسوتكا يظهر انك في راحة بين السيدات . ثم قبلها واسرع في الخروج

وبعد خروجه قال ناباتوف . ان المبادلة حقيقية وهو عالم بها فعلام وطدتم النية ؟

فقال نيليدوف : اني سابلغ ذلك الى اولياء الامر في المدينة التالية وانا اعرف السجينين اذا رأيتهما . وصمت الجميع خوفا من تجديد الخصام

وكان سيمونسون مسنداً رأسه الى ذراعه لا يتكلم . فنهض اذ ذاك واقترب من نيليدوف بقدم ثابتة وقال هل يمكنك ان تصغي الي الآن ؟

اجابه نيليدوف : بلاريب ونهض وتبعه . فنظرت كاتيوشا اليهما وظهرت عليها علامات الحيرة والارتباك

وحين بلغا الممر قال سيمونسون : ان ماارید ان اتلوه عليك هو انني لعلمي بعلاقاتك بماسلوفا أرى من واجباتي ان اوضح لك علاقاتي بها . فدهش نيليدوف من البساطة والوضوح اللذين تكلم سيمونسون بهما . فسأله ماذا تعني بما تقول ؟

فقال : اعني انني اروم الاقتران بكاتيوشا ماسلوفا

فقالت ماريا بافلوفنا مصوبة عينيها الى سيمونسون . ماأغرب ماسمع واستتلى سيمونسون الحديث فقال : ولذلك وطدت العزم على ان اسألها ان تكون زوجة لي

فقال نيليدوف : ماذا يمكني ان افعل ان ذلك متوقف على ارادتها

— نعم ولكنها لا يمكنها ان تقر على شيء بوجودك

ـ ولماذا ؟

— لانه مادامت علاقاتك بها غير مقررة فلا يمكنها ان تقر على شي

— ان الذي اعرفه ان ذلك مقرر فانا اريد ان افعل ما اعده واجباً عليّ وان اخفف آلامها ايضاً ولكني لا اريد على الاطلاق ان اقيدها او اقيم حاجزاً لها

— ولكنها لا تريد ان تقبل ضحيتك : وانا عالم ان قرارها هذا نهائي

— حسن . فلا لزوم اذن لان تكلمني بهذا الشان غير ان الذي يمكني ان اقوله لك هو اني لست حراً بخلافها فانها حرة

وبعد ان فكر سيمونسون قليلا عاد فقال : سأخبرها اذن بما قلت ولا يداخلك الظن باني واقع في حبها . فانا احبها كمخلوق مفرد جميل عانى كثيراً من المشقات . لا اريد منها شيئاً الا اغاثتها وتلطيف حالتها . وحيث لم تشأ قبول مساعدتك فدعها تقبل مساعدتي . واذا وافقتني اطلب ان اكون معها في المحل الذي تسجن فيه ومدة الاربع السنين ليست العمر كله وساعيش بالقرب منها وربما امكنني تخفيف آلامها

فقال نيليدوف : اني مسرور جداً من لقائها معين لها نظيرك

فقال سيمونسون : هل ترى من الموافق لها الاقتران بي ؟

فقال نيليدوف : نعم بلا ريب

فقال سيمونسون : اذن الامر متوقف على ارادتها وكل ما اروم هو ان تجد هذه الروح المعياة راحة لها — قال هذا القول بحنو ووداعة

طفلية لم يكن ينتظرها احد من رجل عبوس نظيره ثم اقترب من نيليدوف وابتسم خجلاً وقبله قائلا . اذن سأخبرها وانصرف

وبعد انصرافه التفتت ماريا بافلوفنا الى نيليدوف وقالت : ماذا تظن في ذلك ؟ في الحب ؟ في شرك الهوى ؟ هذا امر لم يخطر لي ببال ولم انتظر قط ان سيمونسون خاضع لسلطان الغرام وبالسذاجة الصبيانية . ان ذلك غريب بل محزن . ثم تنهدت تنهدا عميقاً . فقال نيليدوف : ولكن كيف تظنين ان كاتيوشا تنظر الى ذلك ؟ قالت : ان كاتيوشا رغماً عن حياتها الماضية ذات ادب وافر وعواطف شريفة وهي تحبك حباً خالصاً وتود ان تتمكن من مكافأتك المكافئة السلبية وذلك بان لا تدعك تشتبك معها لانها تحسب اقترانك بها سقوطاً هائلا لها شراً من كل ماضيها ولذلك لا توافق على الاقتران بك مطلقا ومع ذلك فوجودك يثير عواطفها

فقال نيليدوف : وماذا ينبغي ان افعل انا ؟

فابتسمت ماريا ابتسامة الطفل الحلوة وقالت لا اعلم ماذا تفعل ولكني اعجب من نوع حب سيمونسون فهو لم يكلمها في هذا الشأن بل هو يخجل ويخاف من ذلك ومع اني سمعت كلامه فاعتقد ان شعوره من نحوها لا يختلف عن شعور الرجل العادي في شيء الا في كونه متنكرا فهو يقول ان هذا الحب يثير فيه النشاط وانه حب افلاطوني ولكني اعرف انه ولو كان مستثنى فهو منطو على ذات القذراة ... التي بين نوفوروف وغرابيتس

وقد شردت ماريا عن الموضوع واسترسلت في الحديث المستحب لديها . فتبسم نيليدوف وقال : قلت لك ماذا ينبغي ان افعل فلماذا لا ترشدينني ؟

قالت : ارى ان تقول لها كل شيء وان توضح لها الامر بالتمام فهل بد ان ادعوها اليك

قال : نعم اذا شئت

فانصرفت ماريا بافلوفنا ودهم نيليدوف شعور غريب لان كلام سيمونسون اطلقه من الواجب الذي فرضه علي نفسه وشعر بصعوبته وغرابته في ساعات ضعفه ومع ذلك فقد علم الان بان تقدمة سيمونسون هذه ابادت الصفة المستثناة من ضحيته ولذلك قلت قيمتها في عينيه واعين الاخرين . فاذا كان رجل طيب القلب كهذا لم يكن مرتبطاً بها بحالة من الحالات قد رغب في ضم بؤسه الى بؤسها فلم تكن ضحيته شيئاً كبيرا اذاً وربما عقب ذلك شيء من الغيرة والحسد لانه كان قد الف حبها ولم يشأ ان يراها تحب احداً سواه

وقبل ان يتمكن من تحليل شعائره فتح الباب ودخلت كاتيوشا واقتربت منه تنقل خطواتها بخفة وقالت ان ماريا بافلوفنا قد ارسلتني

فقال لها : لي كلام أقوله لك فقد كان سيمونسون منذ برهة يكلمني . ولم يكد يلفظ اسم سيمونسون حتى توردت وجنتاها وقالت ماذاقال لك ؟

— قال انه يريد الاقتران بك

فبدأ التألم على وجهها في الحال ولكنها لم تقل شيئاً بل خفضت عينيها . فاستأنف الحديث وقال : انه يسألني الموافقة فقلت له ان الامر متوقف على ارادتك بالكلية ولا يبث فيه أحد غيرك . فنظرت الى وجهه بالعينين اللتين كان لهما تأثير خاص عليه وقالت .

ما معنى ذلك ؟

وجلسا صامتين بضع ثوان يحدقان في اعين بعضهما البعض وأدت تلك النظرات على معان كثيرة . فكرر نيليدوف قائلاً يجب عليك ان تبتي في الامر اذا كنت تقبلين تقدمة فلاديمير سيمونسون

فقالت : اية زوجه يمكني ان اكون انا المجرمة ؟ لماذا اتلف حياة فلاديمير سيمونسون ايضاً

— ولكن اذا عدل الحكم؟

— آه دعني وشاني لم يبق شيء لنبحث فيه ونهضت لتخلي الغرفة

« ٣٧ »

وحين عاد نيليدوف الى غرفة الرجال وجد كل واحد في حالة التهيج لان ناباتوف نقل اليهم خبراً ازعجهم جميعاً وذلك انه اكتشف على احد الجدران كتابة كتبها الثوروي بتاين الذي كان قد حكم عليه بالاشغال الشاقة وظنه الجميع قد وصل الى منفاه منذ زمن طويل وعرف الآن انه قد سر من ذاك الطريق حديثاً

وكان المسجون السياسي الوحيد بين المجرمين

وهذا نص الكتابة : في ١٧ اغسطس ارسلت وحدي من بين المجرمين وكان نفيروف معي ولكنه شنق نفسه في مستشفى المجاذيب في قازان . انا في صحة جيدة وعقل تام وارجو حسن الختام

وكان جميعهم يتناقشون في حالة بتاين وفي الاسباب الممكنة التي انتجت انتحار نفيروف

فقالت رانتسيفا : اخبرني زوجي ان نفيروف رأى رؤيا مخيفة حين كان لايزال في بترو بافلوسكي . فقال نوفوروف : نعم قد كان شاعراً

صاحب احلام وهؤلاء الناس لا يمكنهم احتمال السجن الانفرادي وحين كنت انا في السجن لم ادع تصوراتي تهيم في قط بل رتبت ايامي ترتيباً حسنا ولذلك تحملت بلواي براحة وطمانينة

فقال ناباتوف طرباً : الانسان يستطيع تحمل كل شيء تقريباً . وقد كان سروري تاماً حين حجر عليّ والرجل منا يخاف باديء الامر كل شيء فيخاف ان يوقف هو نفسه وان يوقع الآخرين معه وان يفسد العمل الذي يعمله ومتي حجز عليه فتنتهي واجباته ويمكنه ان يستريح

فنظرت ماريا بافلوفنا الى وجه كريلستوف وقالت . انك تعرفه جيداً فتنهد كريلتسوف تنهداً عميقاً وقال . نفيروف صاحب أحلام ؟ نفيروف كان رجلاً لم تقل الأرض الاّ قليلاً من امثاله . كانت له طبيعة انقى من البلور يخترقها البصر بعيد عن الكذب والرياء والنميمة له اخلاق كريمة ونفس شريفة ولكن ما الفائدة من الكلام عن شخص اذا عدت الرجال عد بالف ذهب ضحية الظلم . ثم تنهد واستطرد الحديث متحسماً وقال نحن نختصم على ماذا كان يجب علينا اولا تهذيب الشعب ثم تغيير اشكال الحياة الاجتماعية او اذا كان يجب تغيير اشكال الحياة اولاً . ثم نختصم على كيفية المقاومة هل ننشر التعليم بطريقة سليمة او باهراق الدماء . اننا نختصم ولكنهم لا يختصمون لانهم يعرفون عملهم فهم لا يبالون بهلاك عشرات ومآت من افضل الرجال

فقال ناباتوف بصوته الطروب : لا يمكنهم ان يتخلصوا من جميعهم ولا بد ان يبقى منهم على الدوام عدد كاف ليتم مابدأ به اولئك الابطال

فقال كريلتسوف بصوت عال : كلا لا يبقى احد مادمنا نرفق بهم ونظهر

لهم الشفقة وكل مانفعله ليس الغرض المقصود لا نفع من الجدل والمناقشة بل الواجب الاتحاد على اهلاكهم. فقال نيليدوف: ولكنهم مخلوقات بشرية ايضاً؟

قال: لا. ليسوا بشراً الناس الذين يمكنهم ان يفعلوا ماهم فاعلون.. يقال انه اخترع نوع من القنابل تستعمل من البالونات فعلى الواحد منا ان يصعد في بالون ويذر عليهم القنابل كما لو كانوا بعوضاً سامة حتى يبيدوا عن اخرهم.. ثم اخذ يسعل بشدة وتدفق الدم من فيه فاشتغل من حوله بالاعتناء به وخرج نيليدوف مع الجاويش الذي كان بانتظاره

وكان السكوت سائداً بين المجرمين واكثرهم نياماً. ومع كونهم استلقوا على الالواح وتحتها وفي الفسحات وفي ارض الممر متوسدين اكياسهم وملتحفين اردیتهم المبتلة فكان غطيطهم يملأ الفضاء. ولم يكن مستغيقاً الا بعض الشيوخ وكان احدهم جالسا تحت المصباح عارياً ينقي البعوض من قميصه. وارسل المصباح نوراً ضئيلا قابضاً للنفس وكان التنفس صعبا جداً لان فضاء الغرفة كان مملوءاً رائحة كريهة من الانفاس المتصاعدة والانية المملوءة قذارة ولم يجد ثلاثة رجال لهم محلاً في الممر مستلقين على الارض ملتصقين بوعاء القذارة المنتن وكان احدهم شيخاً معتوهاً كان نيليدوف قد رآه كثيراً ماشياً مع الزمرة والاخر ولد في نحو الثانية عشرة مستلقيا بين الاثنين ورأسه على ساق احدهما والقذارة ترشح عليه

وحينما خرج نيليدوف تنفس تنفساً عميقا وقد استولت عليه الكآبة من المناظر المحزنة التي رآها

«٣٨»

وكان الجو صافياً والنجوم مرصعة في كبد السماء تنير الكون بضيائها اللامع

وحين بلغ نيليدوف الفندق نقر على احدى نوافذه ففتح له الباب في الحال فسار توا الى غرفته وخلع ثيابه ووضع وسادة السفر وبسط رداءه واستلقى مفكراً في كل ماسمعه ورآه ذاك اليوم وظهر له الولد برأسه على ساق المجرم نائما على المواد البرازية النتنة الرائحة وكان هذا المنظر اشد هولاً من كل ماراًه

ومع اهمية المحادثة التي جرت بينه وبين سيمونسون وكاتيوشا في ذلك المساء وكونها غير منتظرة فانها لم تؤثر فيه مثل رسم أولئك المخلوقات التعسة البائسة المستنشقة الهواء الخبيث المتسمم واستلقائها على المواد البرازية السائلة وخصوصاً وجه ذاك الولد البريء النائم على ساق المجرم فانه كان يتخيل له في كل لحظة ولم يستطع اقصاء رسمه عن بصيرته

ولعلمه بان هناك اناساً بعيدين في احدى الجهات النائية يؤذون اناساً اخرون ويعذبونهم اشد التعذيب ولمشاهدته انواع هذا العذاب وحالة أولئك البؤساء مدة ثلاثة اشهر قال ان في المسألة امرين مختلفين فاما ان اكون مجنوناً وارى مالا يرى غيري ام هم مجانين ليفعلوا هذه الافعال المريعة التي اراهم يفعلونها كأن ما يفعلونه ضروري وعمل نافع . وهذا ما ابقاه في حالة ذهول دائم

وهذا موجز مااستنتجه في الثلاثة اشهر

اولا : يوجد فريق من الاحرار الذين لارقيب على حياتهم اكثر تأثراً وحماساً وتهييجا وقوة وموهبة وممتازون بالحذر والخداع . وان لم يكونوا اعظم خطراً على الهيئة الاجتماعية من السجناء والمجرمين الذين سيقوا الى سيبيريا فهم يعيشون عالة على غيرهم بعيدين عن ذويهم مقصيين

عن كل عمل نافع ماديا او ادبيا

ثانيا : ان هؤلاء التعساء اصبحوا ولا فائدة منهم الا اذلال نفوسهم واتعاب اجسامهم فلا يرون الا مثقلين بالاغلال محلوقي الشعر متشحين بالملابس الرثة المورثة للخجل . ومعنى ذلك كله اجمالا انهم اصبحوا مجردين من اهم العوامل التي تجعل عيشة الضعفاء راضية

ثالثا : ان تعرض حياتهم للخطر الدائم من الامراض الوبائية التي تفشوا غالباً في المحاجر والاجهاد الجسماني والضرب ذلك كله ادى بمجموعهم الى الشعور بالاحتفاظ على حياتهم ولو ادى الى ارتكاب اقبح الاعمال وافظعها والغدر بالذين يدفعون بهم الى الفناء

رابعاً : ارغم هؤلاء القوم على الاختلاط بغيرهم ممن سفلت اخلاقهم من الفاسقين والقتلة فكان تأثيرهم على المنزهين عن تلك الجرائم كتأثير الخميرة على العجين

خامساً: ان جميع انواع التعذيب من الضرب بالحبال والسياط والفصل بين الرجل وزوجته والاعدام شنقاً او رميا بالرصاص وماشابه ذلك من انواع المكافئات التي صدقت عليها الحكومة كانت تبدو للعيان كأنها مهي عدل منزل . في حين انها ابتدعت لانتاج الشرور وتنمية الرزائل وافساد الجم الغفير ممن قضى عليهم سوء الحظ بالوقوع بين ايدي القساة الظالمين

وقد فكر نيليدوف في هذا كله حينما لاحظ وتأكد بالبرهان انه في كل عام تفسد اخلاق مئات والوف من البشر ثم يطلقون لنشر جراثيم الامراض الادبية التي اصيبوا بها وهم سجناء أو منفيين

ففي سجون تومين واكاترنبرج وتومسك رأى نيليدوف نجاح ادراك

الغرض الذى ظهر من اعمال الهيئة الحاكمة فالناس البسطاء الذي كانوا يتمسكون بآداب الفلاح الروسي الاجتماعية والمسيحية فقدوا هذا التعليم السامي وكونوا تعليم سجن جديد مؤسس على رأي ان كل اساءة اواعتداء على المخلوقات البشرية مبرر اذا ظهر انه مفيد . وبعد اقامة هؤلاء الناس في السجن اصبحوا يقتنعون اقتناعا تاماً بان جميع الشرائع الادبية الموصية باحترام الغير ومحبة الاخرين التي تبشر بها الكنيسة ومعلمو الاداب القيت الى جانب في الحياة الحقيقية وانهم هم ايضاً ليسوا في حاجة الى حفظها والعمل بها .

وقد لحظ نيليدوف تأثير السجن في جميع المسجونين الذين عرفهم كفيروف ومقار . وبعد ان صرف تراس شهرين مع المجرمين بدأ عليه نقص كبير في آدابه . وقد عرف أثناء سفره ان المتشردين الذين يفرون الى الاجام يغرون رفاقهم على الفرار معهم ثم يقتلونهم ويقتاتون من لحمهم ونظر رجلاً أتهم بهذه الجريمة واعترف به له . والايضاح الوحيد لما كان جاريا وهو ان الهيئة الاجتماعية رمت بالسنن التي سنتها الى منع وقوع الجرائم داعية الى اصلاح الجناة واقناعهم بتفويض الانتقام للقانون كما صرحت الكتب ولكن الحقيقية هي ان عملها لم يأت بنتيجة حسنة بل بالعكس فبدلاً من ايقاف الشرور زادت انتشارا وبدلا من ارعاب المجرمين زادوا شجاعة وجراءة وعاد كثيرون من المتشردين الى السجن من تلقاء انفسهم وبدلاً من الاصلاح ادخلت الرزائل وولدت توليداً مطردا في حين ان حب الانتقام الذي تقدر وسائل الحكومة على ازالته واضعافه تأصل في قلوب الذين لم يكونوا يحلمون به والذين كانوا يمقتونه

فسأل نيليدوف نفسه قائلا : لم يفعل هذا اذن ؟ فلم يحر جواباً . والذي

زاده دهشة ان كل ذلك لم يجر صدفة ولا خطأ ولم يقع مرة واحدة بل كان يجرى على الدوام منذ قرون طويلة . والفرق بين ما كان يحدث في الغابر ومايحدث الان هو ان الناس في الاعصر الخالية كانت تجدع انوفهم وتقطع آذانهم ثم جاء وقت كان فيه يكوون بالنار ويشدون الى قضب من حديد والان يكبلون بالاغلال ويشحنون بالبخار بدلاً من العربات

والبراهين التي اقامها موظفو الحكومة على ان النقص في ترتيب محلات التعذيب وان حالة المسجونين تتحسن اذا انشئت سجون على الطراز الحديث لم تقنعه لانه عرف ان الحيف الحيق بهؤلاء البؤساء لم يكن ناتجاً عن ترتيب اسواء اواحسن في السجون اذ كان قد قرأ عن سجون حديثة نصبت فيها الاجراس الكهربائيه وعن الاعدام بالكهربائية الذي فضله (تارد) في كتابه التشريعي ومع ذلك فقد زادته هذه الشراسة الملطفة ثوراناً

والذي اثار غضبه اكثر من كل شيء هو ان هناك اناساً في مجالس القضاء ومجالس الادارة ينقدون الرواتب العالية المأخوذة من الشعب لاجل الاستناد الى كتب كتبها موظفون غيرهم نظيرهم . وللانفعال بانفعالات اولئك البلداء الذين سبقوهم يرسلون اولئك المذنبين الى محلات لايروهم فيها بعد حيث يلقون تحت رحمة مفتشين وسجانين وحراس طغاة بغاة قساة القلوب وحيث يفنى الملايين منهم جسداً وروحاً

والآن بعد ان كادت معرفة نيليدوف لاحوال السجون تصبح تامة وجد ان جميع الرزائل المنتشرة بين المسجونين كالسكر والمقامرة والقساوة والجرائم المريعة واكل لحوم البشر لم تكن عرضية ولا ناشئة عن الانحطاط ولا عن وجود النوع الجنائي في بني الانسان « كما نشر دعاة العلم البلداء

العقيمو الفكر الذين ارجعوا الحكومة مراحل الى الوراء » بل كانت النتيجة هي الغرور والخداع الفائق التصور اللذين قضيا بان يعاقب الناس بعضهم بعضاً . ورأي نيليدوف ان اكل لحوم البشر لم يغرس في الآجام بل غرس في الوزارات والجمعيات ودوائر الحكومة واثمر في الآجام . ورأى ان نسيبه مثلاً بل جميع المتشرعين والموظفين من الحاجب حتى الوزير لا يبالون أقل مبالاة بالعدل او خير البشر الذين يتكلمون عنهم بل يبالون فقط بالروبلات التي ينقدونها من اجل اتيانهم الاعمال التي اورثت كل هذا الانحطاط وهذه الآلام . وهي الحقيقة لامراء فيها

فقال نيليدوف في نفسه ايمكن ان يكون هذا ناشئاً عن سوء التفاهم الا يمكن وضع ترتيب يضمن به لجميع هؤلاء الموظفين رواتبهم ويعطون فوق ذلك مكافئات حتى يكفوا عن فعل ماهم فاعلون ؟ وبينما هو يفكر صاح الديك ثانية ورغماً عن جيش البراغيث الذي كان مقلقاً لراحته أغمض عينيه ووقع في سبات عميق

« ٣٩ »

وكان سائقو المربات قد غادروا الفندق قبل ان أفاق نيليدوف فدخلت صاحبة الفندق وايقظته من نومه واخبرته بأن جندياً اتاه برسالة من المحطة وكانت الرسالة من ماريا بافلوفنا وفيها مايأتي :

لقد اشتد المرض على كريلتسوف فطلبنا ابقاءه هنا واريد ان اتخلف معه لاواسيه فلم يؤذن لي فأرجوك ان تتخذ الوسائل اللازمة لكي ابقى معه في المدينة التالية واذا كان يتوقف امر الترخيص لي بالبقاء معه على الاقتران به فانا مستعدة لذلك

« ماريا »

فارسل نيليدوف من يستأجر له عربة واسرع الى حزم امتعته وقبل ان يتم شرب الشاي اقبلت العربة تجرها ثلاثة رؤوس من الخيل فدفع ما عليه لصاحبة الفندق وركب العربة وآمر السائق بالاسراع . وبعد قليل ادرك العربات المحملة اكياساً ومرضى المسجونين . وكان الضابط يسير في المقدمة والجنود يترنحون على جانبي الطريق من فعل الخمرة التي شربوها وكان في كل عربة من العربات الامامية ستة من مرضى المجرمين موثقين بعضهم الى بعض وفي كل من العربات الخليفة ثلاثة من المسجونين السياسيين فكان نوفوروف وغرابيتس ونوندراتيف في واحدة . ورانتسيفا وناباتوف والمرأة التي اخلت لها ماريا مكانها في الاخرى . وكان كريلتسوف في الثالثة ملقى على كدس من القش . وماريا بافلوفنا الى جانبه على حافة العربة . فامر نيليدوف السائق بالوقوف ونزل وتقدم الى كريلتسوف فاراد أحد الجنود منعه فلم يبال به . وكان كريلتسوف لابساً رداء من جلد الغنم ورابطاً فمه بمنديل وكان أشد اصفراراً ونحولاً من ذي قبل وظهرت عيناه الجميلتان كبيرتين فحدق بنيليدوف وهو ملقى تهزه حركات العربة الى الجانبين وحين سأله نيليدوف عن صحته اغمض عينيه وهز رأسه ناضباً . وكانت ماريا بافلوفنا في الجانب الآخر فتبادلت مع نيليدوف نظرة معنوية دلت على قلقها وانشغال بالها على حالة كريلتسوف ثم قالت :

يظهر ان الضابط خجل من نفسه فقد فك قيود بوزوفكين وهو حامل طفلته الآن وكاتيوشا وسيمونسون معه . وأخذت فيرا محلي . وقال كريلتسوف بصوت خافت . ان حالتي متحسنة جداً وليس يؤذيني الا البرد . فاحنى نيليدوف رأسه اشارة التسليم وعاد فتبادل النظرات مع ماريا

فاستأنف كريلتسوف الحديث بكل صعوبة وقال : ماذا جرى في مسألة الثلاثة أجرام اني أرى حلها صعباً

فلم يفهم نيليدوف ولكن ماريا بافلوفنا أوضحت بانه يعني المسألة لرياضية المشهورة التي تحدد مراكز الشمس والقمر والارض التي يقارن بينها وبين علاقة نيليدوف بكاتيوشا وسيمونسون . فاحنى كريلتسوف رأسه مشيراً الى صحة هذا التفسير

فقال نيليدوف : ان حل المسالة ليس عندي

فقالت ماريا : وهل وصلتك رسالتي ؟ وهل تجيب طلبي ؟

قال بلا ريب . ولحظ ان كريلتسوف متعب لايقدر على الكلام فصافحهما وعاد الى عربته وأخذ يجتاز تلك القافلة الممتدة نحو ثلاثة ارباع الميل المؤلفة من أجسام بشرية تسير مثقلة بالاغلال والقيود . ونظر على الجانب الآخر من الطريق كاتيوشا وفيرادوهوفا سائرتين بجانب سيمونسون ومناقشة شديدة دائرة بينهم

وحين رأوا نيليدوف انحنوا له . واذ لم يكن له شي يقوله فلم يوقف السائق واجتازهم في الحال

وكانت هذه الطريق المثلجة واقعة في غابة من شجر الصنوبر المختلط بالشربين . وحين بلغ نيليدوف منتصف صف القافلة كان قد اجتاز الغابة وانبسطت امامه الحقول على جانبي الطريق وظهرت له صلبان قباب أحد الاديرة عن بعد . وكانت الغيوم قد انقشعت وصحا الجو ولمعت أوراق الشجر وأحواض المياه المتجمدة والصلبان المذهبة وقباب الدير في شعاع

الشمس التي ارتفعت فوق الغابة

ودخلت العربة قرية كبيرة كان شارعها مزدحماً بالروس وغيرهم من الاجناس . واحتشد جمع من السكارى الرجال والنساء حول اكواخ وحانات وعربات نقل ودل هذا التجمع على قرب المسافة بين القرية وبين المدينة التالية . فالهب السائق الخيل بالسياط ليرى الجمع حذقه ومتانة مركبته واسرعت العربة منحدرة نحو النهر الذي كان يجتاز في سفينة

ولم يطل انتظار نيليدوف لان الطوف كان يسير بسرعة مدفوعاً نحو الشاطئ بالتيار الشديد . وكان الملاح طويلا عريض المنكبين قوي الساعد ، فالقى حبالاً على الطوف وربطه في الشاطئ وأخرجت العربات التي كانت عليه وانزلت اليه العربات التي كانت منتظرة على الضفة حتى امتلأ . حينئذ فك الملاح الحبال واقلع الطوف يشق عباب اليم والامواج تلاطم جوانبه والخيل تجفل من رؤية المياه وتحدث حركة قوية ولكنها لم تؤثر فيه لانه كان مؤلفاً من قوارب عديدة موثقة بعضها الى بعضها بحبال متينة

وجلس نيليدوف على حافة الطوف ينظر الى ذاك النهر العريض وتمثل له رسمان أحدهما رأس كريلتسوف المائت مفحما حنقاً وغضبا والثاني رسم كاتيوشا تخطو نشيطة على الطريق الى جانب سيمونسون فالرسم الاول أثر عليه تأثير حزن عميق والرسم الثاني ولد فيه تأثير كآبة لم يستطع قهره

وبلغ اذانهم صوت قرع جرس كنيسة في المدينة فرفع جميع الرجال الذين كانوا في الطوف قبعاتهم ورسموا اشارة الصليب عدا رجل شيخ قصير القامة مسترسل الشعر وقف الى جانب الطوف ولم يرسم هذا الرجل أشارة الصليب بل رفع رأسه وأحدق بنيليدوف . وكانت ملابس هذا

الشيخ رثة بجراب صغير على ظهره وقبعة من الفرو على رأسه

وبعد ان وضع سائق نيليدوف قبعته على رأسه قال للرجل لم لا تصلي ايها الشيخ الست مسيحياً ؟

فاجابه الشيخ على الفور متأنياً في لفظ كل مقطع : لمن يجب على الانسان ان يصلي ؟

فقال السائق بحدة : لمن ؟ لله الحي القدير

قال الشيخ : ارني اين هو هذا الاله

وكان يتكلم برزانة وحزم حتى شعر السائق بانه يجادل رجلا واسع العقل قوى الادراك حتى تولاه شيء من الخجل ولكنه حاول اخفاء ما اعتراه وأراد ان لا يظهر ضعفه امام الجمع الذي كان يصغي اليهما . فقال السائق اين هو ؟ في السماء بالطبع

— وهل صعدت انت الى السماء

— اذا كنت صعدت اولم اصعد فكل انسان يعرف وجوب السجود لله

— لم ينظر أحد الله في وقت من الاوقات والابن الوحيد الذي في حرة الاب هو الذي اعلنه

— قد وضح لنا من كلامك هذا انك لست مسيحياً بل من عبدة الثقوب .. فقهقه جميع الحاضرين والتفت اليه رجل متوسط العمر وقال له : هل لك ان تفيدنا عن ايمانك أيها الشيخ

فاجابه . ليس لي نوع من الايمان لاني لا اصدق غير نفسي

فدخل نيليدوف في الحديث وقال له : كيف يمكنك ان تصدق نفسك وانت قابل للخطأ ؟

فهز الشيخ وقال : كلا اني لم اخطيء في حياتي

فقال نيليدوف : لماذا يوجد اذن معتقدات مختلفة ؟

قال الشيخ : ان اختلاف المعتقدات ناشيء عن تصديق الانسان لغيره وعدم تصديقه لنفسه . وقد كنت انا اصدق الاخرين فقدت نفسي كما لو كنت غارقا في مستنقع حتى لم يعد لي رجاء ببلوغ طريق يخرجني مما انا فيه . فهناك اصحاب الايمان القديم والايمان الحديث وكل واحد من اصحاب الاديان يجد نفسه فقط وهكذا يزحفون جميعهم عميانا فلو صدق كل انسان نفسه لاجتمع الجميع واتحدوا فكان كلٌّ نفسه وكان الجميع كواحد

وكان الشيخ يتكلم بصوت عال وهو ينظر لمن حوله لكي يسمعه الجميع

فقال نيليدوف : وهل تؤمن بهذا الايمان منذ زمن بعيد ؟

— منذ نحو ربع قرن فهذه السنة الثالثة العشرون التي يضطهدوني فيها

— يضطهدونك ؟ وكيف ذلك ؟

— كما اضطهدوا المسيح هكذا يضطهدونني فيقبضون عليَّ ويوقفونني امام المجالس وامام الكهنة والكتبة والفريسيين وقد وضعوني مرة في مستشفى المجاذيب ولكنهم لم يستطيعوا فعل شيء لاني حرٌّ . فكانوا يقولون مااسمك ظنا منهم باني اسمي نفسي ولكنني لا اعطي نفسي اسماً . وقد تركت كل شيء فلا اسم لي ولا محلٌّ ولا وطن . فانا لست الا نفسي . فكانوا يقولون مااسمك ياجل ؟ وكم عمرك ؟ فكنت اقول انا لا احصي سني ولا يمكنني ان احصيها لاني كنت وسأكون على الدوام . وكانوا يقولون من ابوك ؟ فاقول ليس لي ابوان الا الله فهو ابي والارض امي . فيقولون هل تعترف بالقيصر فاقول لم لا فهو قيصر نفسه وانا قيصر نفسي . فيقولون ماالفائدة من التكلم معه ثم يأخذون في تعذيبي

فسأله نيليدوف : والى اين انت ذاهب الآن ؟

فقال : الى حيث يقودني الله فانا اشتغل حيث اجد شغلا واستعطي حين لا اجد

وكان الطوف قد بلغ الضفة فاخرج نيليدوف كيسه وعرض عليه شيئاً من النقود فرفض قائلا : انى لا اقبل هذا النوع من العطاء والذي اقبله هو الخبز فقط

فقال نيليدوف ارجوك اذن ان تعذرني

قال لا شيء يستحق المعذرة لانك لم تعتد عليّ ثم وضع جسرابه على ظهره وقفز الى اليابسة وتوارى عن العيان

« ٣٩ »

ونزل الجميع من الطوف وركب نيليدوف عربة وامر السائق ان يسرع في المسير الى احسن نزل في المدينة . وكانت المدينة كغيرها من المدن الكبيرة ذات شوارع منظمة ومخازن كبيرة وابنية جميلة ورجال البوليس واقفون على جانبي الشوارع بملابس نظيفة ومظاهر النشاط بادية على وجوههم

وحين وصل نيليدوف الى النزل استأجر غرفة جميلة وشعر اذ ذاك براحة لم يشعر بها منذ شهرين من حيث النظافة والترتيب وأول عمل بدأ به هو ابعاد الهوام التي علقت بجسمه اثناء الطريق وفي المحطات فذهب الى الحمام ولبس ملابس ثمينة وركب عربة نظيفة وسار يقصد منزل حاكم المقاطعة الذي كان محاطا بحديقة غناء فيها كثير من الاشجار الوارفة الظلال كالسرو والجور والصفصاف متدلية اغصانه الى الارض وحين وصلت عربة نيليدوف امام الباب سلم رقعة الزيارة الى الحاجب

وكان الجنرال منحرف الصحة في ذلك اليوم ولم يشأ مقابلة احد لكنه لما رأى رقعة نيليدوف سمح له بالدخول في الحال . فدخل الى غرفة النوم حيث كان الجنرال جالساً ملتحفا بوشاح ممكسا باحدى يديه لفافه تبغ يدخنها وبالاخرى قدح الشاي يشربه . وحين رأى نيليدوف داخلاً عليه نهض وقابله ببشاشة قائلا : اعذرني ياسيدى لمقابلتي اياك في هذه الغرفة لاني ضعيف كما تراني ولم اشأ ان ارفض مقابلتك فاخبرني ماالذي اتي بك الى هذه البلاد القاصية ؟

فقال نيليدوف : انى مرافق لزمرة من المسجونين بينهم شخص لي علاقة به وقد رغبت في مقابلة سعادتكم من اجله ومن اجل مهمة اخرى

وقد كان الجنرال ينتمي الى النوع المهذب من رجال الجندية الذين يعتقدون بامكان التوفيق بين الانسانية والآراء الحرة وبين وظائفهم . ولكنه لما كان من طبعه وديعاً وذكياً شعر للحال بعدم امكان هذا التوفيق وحتى لايشعر بتوبيخ الضمير اطلق لنفسه العنان في شرب المسكر المنتشر بين رجال الجندية وانعكف عليه مدة طويلة حتى اصبح « كحولياً » كما يسميه الاطباء اي ممتزجا بالكحول حتى انه لوشرب أي نوع من الخمر سكر في الحال ومع ذلك كان يحسب الشرب من ضروريات الحياة فكان ينظر في كل ليلة سكران ولكنه مع سكره لايتكلم كلاماً تافهاً أو خارجا عن حد اللياقة . وقد عرف اولياء الامر عنه انه سكير ولكنه اكثر تعلما وشجاعة واستقامة من الغير ولذلك تولى هذا المركز العام الكثير المسئولية

وبعد ان اصغى الى نيليدوف باهتمام قال : من الشخص الذي تهتم بأمره هذا الاهتمام

— هي امرأة اتهمت خطأً وحُكم عليها ظلماً وقد رفعت عريضة الى القيصر بشأنها ووعدوني في بطرسبرج بان يرسل اليَّ الخبر المتعلق بمسألتها في هذا الشهر والى هذا المكان ولذلك التمس ابقاء هذه المرأة هنا حتى يرد الجواب على عريضتها

— وماذا تريد غير ذلك

— اما الامر الثاني فتتعلق بسجين سياسي مع الزمرة فانها مصاب بمرض شديد وربما أبقى هنا في المستشفى واحدى المسجونات السياسيات تروم ان تتخلف معه لتواسيه

— وهل هي من ذوي قرباه ؟

— كلا ولكنها راغبة في التزوج به اذا مكنها ذلك من البقاء معه

وحين اتم نيليدوف حديثه تناول الجنرال كتاباً وأخذ يقلب الصفحات بسرعة باحثا عما خطه احد البلداء بشأن الزواج وبعد ان قرأ الفصل رفع عينيه ويده عن الكتاب وقال : بم حكم عليها ؟

— بالاشغال الشاقة

— ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يمكن تحسين حالته بالزواج نعم لا يمكن . وهي لو تزوجها رجل مطلق لوجب ان ينفذ عليها الحكم باكمله والمسألة في مثل هذه القضايا هي عقاب ايهما أثقل عقابه أم عقابها ؟

— كلاهما محكوم عليه بالاشغال الشاقة

— حسن فهما صنوان اذ عقابها كعقابه وبما انه مريض فتخلفه ممكن وسنستعمل جميع الوسائل لتخفيف مصابه اما هي فلا يمكنها التخلف معه حتى ولو اقترنت به . وعلى كل حال سافكر في هذا الامر فاكتب لي باسمها هنا

ثم قدم له دفترا صغيرا

وبعد ان كتب الاسمين سأله اذ كان يسمح له بزيارة المريض فاجابه الجنرال قائلا : وهذا لا يمكني ان افعله .انى لا اظن فيك سوءاً ولكن لك مآرب معه ومع غيره ومعك نقود وكل شيء هنا يقضى بواسطة النقود. يطلبون مني ابطال الرشوة وكيف يمكني ابطالها اذا كان كل فرد من الموظفين يرتشى ؟ والمنحط الاخلاق منهم اكثر استعدادا لقبول الرشوة وكيف يمكن الانسان ان يكتشف ذلك في مسافة تربو على الثلاثة الاف ميل وكل موظف في تلك النواحي قيصر صغير نظيري انا هنا» وقهقه عند ذكر هذه الجملة » ثم قال : انك تمكنت دون شك من الاختلاط بالمسجونين السياسيين وانك رشوت بالمال وحصلت على الاذن اليس لذلك ؟

— نعم الامر كذلك

— انا عالم باضطرارك الى ذلك فانت تشفق على مسجون سياسي وتريد ان تراه والمفتش او جندي الحرس يقبل لان راتبه صغير وعائلته تتطلب النفقة فلا بد له من قبول الرشوة فلو كنت في حالته لفعلت كما يفعل ولكني في مركزي هذا لا اسمح لنفسي بالحياد قيراطاً واحدا عن القانون لاني انسان وقابل للخضوع لعاطفة الشفقة وانا عضو في القوة الاجرائية فيجب عليَّ انفاذ ماعهد اليَّ به وعلى هذا قد تم الشيء الذي نبحث فيه ولنتحدث الان عما هو جار في العاصمة من الاخبار واخذ الجنرال يلقى اسئلة على نيليدوف ويقص ما يعرفه عنها

« ٣٩ »

وفي خلال الحديث سأل الجنرال نيليدوف عن محل اقامته وهل هو

في راحة ثم دعاه الى مناولة العشاء وقال : هل تتكلم الانكليزية ؟ قال نعم . قال حسن فقد وصل سائح انكليزي الآن وهو يدرس مسألة النقل ويفحص سجون سيبيريا وسيتناول معنا طعام العشاء هذه الليله فتعالَ واجتمع به ونحن نتعشى في الساعة الخامسة وزوجتي تدقق في الوقت . وسأجيبك عن المرأة وعن الرجل المريض وربما كان في الامكان ابقاء شخص معه

وبعد ان استأذن نيليدوف ركب العربة قاصداً مكتب البريد وحين وصوله وذكر اسمه أعطي عدة رسائل ونقود وكتب وأخر أعداد الصحف الاوروبية . فحمل جميع هذه الاشياء الى مقعد خشبي جلس عليه وأخذ ينقد الرسائل وكانت بينها رسالة مسجلة مختومة بالشمع الاحمر ففضها واذا هي من سلانين تحتوي على ورقة رسمية فتصاعد الدم الى وجهه ووقفت نبضات قلبه وقد كانت الورقة المذكورة جواباً على عريضة كاتيوشا . فقال ماعساها ان تكون ، ثم أجال نظره مسرعاً في القراءة وتنهد تنهد ارتياح لان الجواب كان جواب خير فقد كتب سلانين يقول : صديقي العزيز . كان لحادثتنا الآخرة تأثير شديد عليّ وقد كنت مصيباً في قضية ماسلوفا فاني بحث في الاوراق بتدقيق وعرفت انها قد ظلمت ظلماً فادحاً ولم يمكن اصلاح الخطأ الا في لجنة العرائض وقد توصلت الى المساعدة في فحص أوراق القضية وأرسلت اليك طي رسالتي صورة تعديل الحكم . وقد أرسل أصل ورقة التعديل الى المحل الذي كانت مسجونة فيه قبل المحاكمة وسيرسل في الحال من هناك الى ادارة الحكومة العمومية في سيبيريا . واني أسرع بارسال هذا الخبر المفرح اليك وأصافحك عن بُعد

اما نص الورقة الرسمية فكما يلي : بأمر رئيس الادارة التي تستلم العرائض

المرسلة باسم جلالة القيصر تعلن كاترينا ماسلوفا بان جلالته رأى عريضها قانونية فتعطف وأمر بتعديل الحكم الصادر عليها من الاشغال الشاقة الى نفي بسيط

وقد كان هذا الخبر مفرحاً ومهماً فتم كل ما كان يرجوه نيليدوف لكاتيوشا ولنفسه أيضاً . ومما لاريب فيه ان حالتها الجديدة هذه حملت معها مشاكل جديدة فحين كانت مجرمة لم يكن الاقتران بها الا لتخفيف آلامها اما الآن فلم يبق مانع يمنع عيشتهما سوية ولم يكن نيليدوف مستعداً لذلك . وزاد على ماتقدم أمر علاقتها بسيمونسون . فاخذ يسائل نفسه قائلا: ما معنى ماقالته بالامس؟ وهل اذا وافقت على الاقتران بسيمونسون يكون ذلك لخيرها أو لشرها ؟ واذ لم يمكنه حل هذه المسائل أبطل التفكير بها قائلا : انها تحل نفسها فيما بعد ولا يجب عليَّ ان افكر بشيء الآن بل أنقل الخبر المفرح اليها باسرع مايمكن وأطلقتها من الاعتقال . وظن ان صورة الورقة التي استلمها كافية فاستأجر عربة وسار توّاً الى السجن ومع كونه لم يحصل على أمر الحاكم بزيارة السجن في ذاك الصباح عرف بالاختبار سهولة الحصول على رضا المرؤسين على ما لا يمكن نيله من الرؤساء فعني بمحاولة دخول السجن وتبشير كاتيوشا بالخبر المفرح والافراج عنها لو أمكن والسؤال عن صحة كرياتسوف وابلاغه مع ماريا بافلوفنا ما قاله الجنرال

وكان مفتش السجن طويل القامة جميل الصورة مهيب المنظر فاستقبل نيليدوف برزانة وقال له بصراحة انه لايمكنه السماح لغريب بمقابلة المسجونين بدون امر خاص من رئيسه

فقال نيليدوف : قد سمح لي بزيارة المسجونين في كل مكان حتى في

نفس المواصم

قال: يمكن ذلك ولكني لا اسمح به هنا وانتم سادة المدن تزعمون انكم تدهشوننا ولكننا نحن في سيبيريا الشرقية نعرف ماهو القانون بل يمكنا ان نعلمكم ايضاً

فاخرج نيليدوف الورقة الواردة له من ادارة القيصر الخصوصية وقدمها له . فنظر اليها المفتش ساخراً وضحك من سذاجة نيليدوف وقال : ان هذه الورقة التي وصلتك ليست بكافية للافراج عن ماسلوفا فان شئت احضر لي امراً من رئيسي فاطلق سبيلها في الحال. والامر الوحيد الذي يمكنني خدمتك به هو ابلاغها خبر تعديل حكمها فقط . واذ لم ينل نيليدوف شيئاً مما رجاه ركب عربته وذهب الى النزل

وكان تدقيق المفتش ناشئاً اكثره عن تفشي وباء التيفوس في السجن بسبب الازدحام فيه وقد اخبره السائق ان عدداً من المسجونين يموت في كل يوم كأن وباء فشا بينهم

ورغماً عن فشل نيليدوف في السجن لم يفقد انشراحه ونشاطه العقلي فقصد ادارة الحاكم ليرى اذا كان اصل الورقة قد وصل فاجابه سلباً فعاد الى النزل وكتب الى سلانين والى المحامي بهذا الشان وحين اتم الكتابة نظر الى الساعة ورأي انه قد حان الوقت للذهاب الى منزل الجنرال لمناولة طعام العشاء

وفي اثناء السير أخذ يفكر في كيفية تلقي كاتيوشا لخبر تعديل حكمها. فأين يجب ان تعيش ؟ وكيف يجب عليه ان يعيش معها ؟ وماذا يكون من أمر سيمونسون ؟ وكيف تكون علاقته بها ؟ وقد تذكر التغيير الذي طرأ

عليها وذكره ذلك بماضيها

وحين وصل نيليدوف الى منزل الحاكم كانت المائدة معدة وعليها عدا أهل البيت ابنة الجنرال وزوجها واحد أركان الحرب ورجل انكليزي وتاجر له علاقة بمناجم الذهب وحاكم احدى مدن سيبيريا القاصية فقابل هؤلاء نيليدوف بكل بشاشة وترحاب

وكان الانكليزي صحيح البنية أحمر لون البشرة يتكلم الافرنسية والانكليزية بفصاحة وكان قد طاف اميركا والهند واليابان وسيبيريا وعدة ممالك غيرها

وكان التاجر الشاب ابناً لفلاح مرتدياً رداء متقناً على الزي الانكليزي وذرار قميصه ماسية . وكان يملك مكتبة نفيسة ويحسن بسخاء على الاعمال الخيرية ويتمسك بحرية الآراء الاوروبية فكان مرآي هذا الشاب مبهجاً لنيليدوف الذي اتخذه نموذجاً لنوع حديث من التهذيب الاوروبي المدني نقح به الاصل القروي الصحيح البنية العديم التهذيب

وكان حاكم المدينة السيبيرية القاصية ضخماً بشعر خفيف متجعد وعينين زرقاوين ويدين بيضاوين وثغر باسم على الدوام . وكان صاحب المنزل يعلي قدر هذا الحاكم على الدوام لانه كان الوحيد الذي لا يرتشي بين زمرة كبيرة من المرتشين . وصاحبة المنزل التي كانت مشغوفة بالموسيقي ومن مهرة الضاربين على البيانو أخذت في توقير هذا الرجل لانه كان من البارعين في فن الموسيقي فيجلس الى جانبها ويوقمان النغم سوية

وكان اركان الحرب شاباً نشيطاً مستقيماً احب نيليدوف لاول وهلة ومال بكليته اليه . ولكن الذي اعجب نيليدوف اكثر من الجميع هما الشخصان

المزدوجان حديثا السن ابنة الجنرال وزوجها . فكانت الابنة جميلة المنظر بسيطة القلب نحيفة الجسم . وزوجها الذي وقعت في حبه وتزوجته بعد خصام عنيف مع أبويها حراً ونال وسامات الشرف من كلية موسكو . وكان شاباً متواضعاً قوي الادراك امين في خدمة الحكومة اشتغل بالاحصاآت وخصوصاً بالطوائف الوطنية التي درسها واحبها وحاول تخليصها من التلاشي

وكان جميع هؤلاء الناس يعاملون نيليدوف باللطف وقد سروا بمقابلته كصديق جديد مهم يجب التعرف به . ودخل الجنرال غرفة الطعام بحلته الرسمية فحيى نيليدوف تحية صديق وسأله عما فعله منذ غادره في الصباح . فاخبره انه ذهب الى مكتب البريد واستلم رسالة تفيد بان حكم الشخص الذي تكلم عنه في الصباح قد عدل وسأله ثانية السماح له بزيارة السجن . فلم يسر الجنرال بحديث الشغل على الطعام ولذلك لم يجبه بشيء ثم وجه خطابه الى الانكليزي وعرض عليه كاساً من الفودكا فشربه وقال انه زار الكنيسة والمعمل ولكنه يروم زيارة سجن النقل العظيم

فقال الجنرال لنيليدوف انها فرصة مناسبة ويمكنكما ان تذهبا معاً ثم قال لاركان الحرب ان يعطيهما جوازاً

فسأل نيليدوف الانكليزي قائلا : في أي وقت تروم زيارة السجن ؟ قال : انى افضل زيارته في المساء اذ يكون الجميع داخل الغرف ولا يكون ثمت استعداد فنراهم كما هم

فقال الجنرال : انه يروم ان يرى السجن في كل مجده دعه يفعل ذلك . قد كتبت لهم عنه ولكنهم لا يصغون ولا يهتمون . فدعهم يطلعون على الحقيقة من الصحف الاجنبية

وجلس الجميع على المائدة ودارت الاحاديث المختلفة على الطعام فتكلم الانكليزي عن الهند وتكلم الجنرال عن بعثة تونكين التي كان يخطى تسييرها وعن الرشوة المنتشرة والفساد العام في سيبيريا

و بعد نهاية الطعام جلسوا لشرب القهوة فدار حديث مهم عن غلادستون بين نيليدوف والانكليزي وربة المنزل . وشعر نيليدوف بعد الطعام الجيد وشرب القهوة بانتعاش زائد وسرور تام بين اناس ظرفاء طيبي الاصل وحين تقدمت ربة المنزل الى البيانو مع الحاكم السيبيري وأخذا يعزفان نغمة شجية هاجت عواطفه وتحركت شجونه وتذكر ماضيه وما كان يلقاه بين العائلات الكبيرة في بطرسبورج وموسكو من الحفلات العظيمة

ولما أراد ان يودع ربة المنزل ويشكرها على مالقي في منزلها من المسرة والاحتفاء واذا بابنة الجنرال قد دنت منه وقالت له وهي محمرة الوجنتين : قد سألتني عن ولدي فهل تشأ ان تراهما ؟

فنظرت الوالدة الي وجه ابنتها مبتسمة وقالت : انها تظن كل انسان يروم مشاهدة ولديها . فالامير لايهمه هذا الامر

فقال نيليدوف وقد أحس بحنو الامومة : بل بالعكس فان ذلك يهمني جداً فدعوني اراهما

فصاح الجنرال مقهقهاً وهو جالس على طاولة لعب الورق مع نسيبه والتاجر وأركان الحرب وقال : انها ستأخذ الامير لتريه طفليها فاذهب وقم بالفرض الذي عليك

فسارت الصبية مسرعة نحو المخدع وتبعها نيليدوف . فنهضت المربية وانحنت احتراماً لهما . فانحنت الام على الارجوحة الاولى ورفعت الغطاء عن

جه طفلة في الثانية من العمر بيضاء اللون ذات شعر طويل متجعد مسترسل لى الوسادة وقالت : هذه كاتي . اليست جميلة ؟

فقال : نيليدوف: انها فاتنة

ثم انحنت على الارجوحة الثانية ورفعت الغطاء عن وجه ولد يبلغ من عمر اربع سنوات وقالت : وهذا فاسوك كما يدعوه جده وشكله يختلف ن اخته فهو سيبيري اليس كذلك

فقال نيليدوف وهو ينظر الى الطفل السمين النائم: انه ولدٌ جميل

وأعاد الى مخيلته في تلك اللحظة الاغلال والرؤوس المحلوقة والخصام السفه وكريلستوف المائت وكاتيوشا وكل ماضيها فبداء يشعر بعامل الحسد يروم الحصول على مثل ما رآه في هذا المكان من السعادة الطاهرة

وبعد ان كرر نيليدوف اعجابه بالولدين ارضاء لامهما على الاقل التي ملك بهذا الحمد تبعها عائد الى حيث كان الانكليزي ينتظره في ردهة لاستقبال ليذهبا لزيارة السجن كما اتفقا فاستأذنا من أصحاب المنزل وخرجا

وكان الطقس قد تغير فتساقط الثلج بكثافة وقد غطى الطريق والسطوح والاشجار في الحدائق .وكان للانكليزي عربه خاصة فركبها مع نيليدوف الذي كان مستثقلا لاضطراره الى القيام بواجب لايسره وسارت العربة على الثلج بكل صعوبة

وكان منظر السجن مخيفاً مرعباً حيث الكآبة والغم مخيمان فوق جدرانه يضيئه مصباح ضوؤه ضئيلا وحارس شاكي السلاح واقف امام الباب يمنع الدنو منه . وحين وصلت العربة خرج المفتش وقراء على نور المصباح الجواز الذي أعطي لنيليدوف والانكليزي وهزّ كتفيه مندهشاً ولكنه اطاعة للا

سأل زائريه ان يتبعاه فقادهما الى المكتب واجلسهما على كرسين وسألهما عما يمكنه ان يخدمهما به ولما عرف ان نيليدوف يروم مقابلة ما سلوفاحالا ارسل سجانا وراءها ثم تأهب للاجابة على الاسئلة التي كان الانكليزي يلقيها عليه ونيليدوف يترجمها له

والقى الانكليزي الاسئلة الآتية وهي : ما هو العدد المقرر الذي بني هذا سجن لاجله ؟ . . وكم عدد المحجور عليهم فيه ؟ وكم عدد الرجال ؟ وكم عدد النساء ؟ . . وكم عدد الاولاد ؟ . . وكم عدد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم ؟ وكم عدد المنفيين ؟ وكم عدد المرضى . .

وترجم نيليدوف كلمات الانكليزي دون ان يهتم بها وشعر بانقباض لم يكن ينتظره حين فكر بالمقابلة الموشكة وقبل ان يتم آخر جملة من الترجمة فتح باب المكتب ودخل سجان تتبعه كاتيوشا مسرعة الخطي خافضة العينين وحين رآها نيليدف ملآت الافكار رأسه فقال في نفسه : اريد ان أعيش اريد ان اكون رب بيت . . اريد عائلة واولاداً . ونهض وخطا بضع خطوات ليقابلها فبدأ له التغير على وجهها كما كان حين وبخته وازداد احمراراً حين وضع يده بيدها ثم علاه الاصفرار وشعر ان يدها ترتجف فتركها وقال لهما : هل عرفتِ ان الحكم قد عدل ؟

— نعم اخبرني السجان

— ففي حال وصول الورقة تطلقين وتعينين المحل الذي تقيم فيه فقاطعته قائلة : ماذا اعين او اقرر ؟ اتبع سيمونسون الى حيث يذهب . لفظت هذه الكلمات بكل وضوح كانها استعدت لما ستقوله

احقاً ما اسمعه يا كاتيوشا ؟

— ياعزيزي ديمتري انه يريد ان اعيش معه . يريدني ان اكون بالقرب منه فما الذي اروعه اكثر من ذلك ؟ يجب عليّ ان انظر هذا الامر كسعادة لي لاني لا ارغب من الدنيا اكثر من هذا . فقال نيليدوف في نفسه : في المسألة امران فاما انها واقعة في حب سيمونسون وترفض قطيعاً ضحيتي . او انها لا تزال تحبني وترفضني من اجل نفسي وتترك سعادتها وتضم بلواها الى بلوى سيمونسون . وشعر بالخجل وعرف ان وجهه تشرب احمراراً فسألها :

وانت نفسك هل تحبينه ؟

فقالت : الحب وعدمه سيان وقد نزهت افكاري عن كل ذلك وسيمونسون رجل مستثنى كما تعهد . .

فقال نيليدوف : نعم دون شك انه رجل حسن الطوية واظن . . فاعترضته خشية ان يطيل الكلام وقالت : يجب عليك يا ديمتري ان تسامحني على عدم اتمام مرغوبك . . لانه هكذا يجب ان يكون . . ويجب ان تعيش انت ايضاً

فقال : انى لم اكن انتظر ذلك

قالت وهي تتبسم : لماذا تعيش هنا وتتعذب ؟ فقد تألمت كثيراً لاجلي

فقال : لم أتألم بل كان ذلك خيراً لي وبودي ان استمر في خدمتك لو امكني

فنظرت الى نيليدوف نظرة معنوية وقالت نحن لا يلزمنا شيء وقد فعلت كثيراً من اجلي . ولو لم يكن الامر من اجلك . . وارادت ان تواصل الحديث ولكن صوتها تهدج

فقال نيليدوف : مهما كان الامر فليس لك ان تشكريني

قالت : ما الفائدة من احصاء الاعمال فالله سيظهر حسابنا . قالت هذا

وبدأت الدموع تنهمل من عينيها كوابل المطر

فقال : ما افضلك امراة

فالت ودموعها تتساقط : انا فاضلة ؟ وانارت وجهها ابتسامة تورث في قلب رآئيها الحنان

فقال : كيف حال كريلتسوف هل اشتد عليه المرض كما اخبرتني ماريا ؟

قالت : انه ضعيف جداً وقد ارسل الى المستشفى والتمست ماريا الدخول معه كممرضة فلم يسمح لها .

ولما رات الانكليزي ينتظره قالت : ايجب علي ان اذهب الآن ؟ . فقال وقدمد اليها يده: لا اودعك بل ساراك ثانية. فقالت: بصوت ضعيف لايكاد يسمع « سامحني » والتقت عيناها ببعض فعرف نيليدوف من النظرة الغريبة التي ارسلتها من عينيها ومن الابتسامة المؤثرة تأثير الحنان الذي لم تلفظ به كلمة الوداع بل من طلب السماح ان السبب لرفضها ضحيته هو من شدة حبها له وتفكيرها بانها بانضمامها اليه تتلف حياته وبذهابها مع سيمونسون تطلق حريته . وشعرت بالسرور والارتياح الى كونها فعلت ما ارادت ان تفعله ومع ذلك فقد تألمت حين مفارقتها له فضغطت على يده وخرجت من الغرفة مسرعة

وكان نيليدوف مستعداً للذهاب ولكنه حين رأى الانكليزي يكتب شيئاً في مفكرته لم يزعجه بل جلس على مقعد خشبي وشعر بتعب شديد ولم يكن الارق ولا السفر هو الذي أتعبه ولكنه شعر بثقل الحياة عليه فمال رأسه على المقعد واغمض عينيه وللحال وقع في سبات عميق وسأل المفتش الزائر

الانكليزي قائلا : اتريد ان ترى الحجرات الآن ؟

فاستفاق نيليدوف ورفع عينيه ودهش من رؤية نفسه حيث كان. وكان الانكليزي قد اتم كتابة مفكراته ونهض لرؤية الغرف وتبعه نيليدوف وهو غير مكترث لما هو فاعل

« ٤٠ »

وبعد ان اجتازا الغرفة المحاذية للمكتب والرواق الذي بجانبها دخلا مع المفتش الدور الاول الذي حجر فيه على المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وكان جميع المسجونين قد استلقوا على الالواح رأساً الى رأس وجنباً الى جنب وكان عددهم نحو السبعين . وحين دخل الزائرون وقف الجميع الى جانب الالواح عدا شاب وشيخ منعهما المرض عن النهوض

فسأل الانكليزي عن سبب مرضهما فأجابه المفتش: ان الشاب مريض بالحمى والشيخ مصاب بألم في المعدة ولم يمكن نقلهما الى المستشفى لانه ملآن بالمرضى فهز الانكليزي رأسه اسفاً وقال انه يريد تلاوة بعض كلمات على اولئك البؤساء وسأل نيليدوف ان يترجم كلامه لان هذا الرجل عدا رغبته في درس محلات المنفى والسجون في سيبير يا كان له غرض آخر وهو التبشير بالخلاص بواسطة الايمان بالفداء

فقال : اخبرهم ان المسيح اشفق عليهم وأحبهم ومات من أجلهم فاذا آمنوا بذلك خلصوا . وكان المسجونون يصغون اليه بكل احترام . ثم اخرج كتاباً من جيبه وقال: ان هذا الكتاب يتكلم عن جميع هذه الامور بوضوح تام فمن كان منكم يعرف القراءة فليأخذ كتاباً. فمد اكثر من العشرين ايديهم فاخرج الانكليزي عدداً من الاناجيل ووزعه عليهم

وهكذا فعل في الدور الثاني والثالث والرابع. ولما وصل الى الدورين الخامس والسادس حيث انتقلوا من ادوار المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الى ادوار المنفيين والمبعدين والذين تبعوهم جماعات عن طيب خاطر. وكان المسجونون في جميع الادوار يرتجفون من البرد جياعاً كسالى مصابين بالامراض منحطين محجوراً عليهم فظهروا كالوحوش الضارية

وبعد ان وزع الانكليزي العدد المعين من الاناجيل توقف عن العطآء وعن القآء الخطب لان المناظر المؤثرة والرائحة الكريهة اسكنت نشاطه فسار يتنقل من حجرة الى حجرة وهو لا ينطق الا بكلمة « جيد » مؤمناً على تقرير المفتش بشأن المسجونين في كل دور . وكان نيلدوف يتبعهما كأنه في حلم غير متمكن من رفض السير معهما او الانصراف عنهما وفيما هو على تلك الحاله من اليأس والقنوط اذ نظر الشيخ الغريب الذي رآه يجتاز النهر في ذلك الصباح. وكان هذا الشيخ الرث الثياب جالساً على الارض حافي القدمين لابساً قميصاً وسخاً ممزقاً فنظر نظرة غضب واستفهام الى القادمين . وظهر جسمه الهزيل من بين ثقوب قميصه وبدا عليه الضعف ولكن وجهه كان يتدفق حزماً ونشاطاً فكان اشجع الآن منه في الصباح . فوقف جميع المسجونين في هذا الدور كما وقفوا في غيره حين دخول المفتش عدا هذا الشيخ الذي ظل جالساً يرسل نظرات حادة ويقطب حاجبيه غضباً وحنقاً فقال له المفتش : قف يا رجل

فلم يقف الشيخ بل ابتسم ابتسامة ازدراء وقال : ان عبيدك واقفون امامك اما انا فلست عبدك فانت موسوم بالختم . واشار الى جبهة المفتش فاحتدم المفتش غيظاً وهمّ ان يؤدبه . فاسرع نيليدوف وقال له اتركه

اني أعرفه . فما سبب سجنه ؟

فقال المفتش غاضباً : قد أرسله البوليس لخلوه من جواز السفر وقد سألتهم مراراً ان لا يرسلوا لي مثل هؤلاء ولكنهم لا يزالون يرسلون

فقال الشيخ لنيليدوف : هل أنت واحد من جنود عدو المسيح ؟

قال نيليدوف : كلا بل أنا زائر

فقال : اذن اتيت لترى كيف يعذب عدو المسيح الناس فانظر كيف حجر عليهم في مغارة وهم جيش باكمله . وقد فرض على الانسان ان يأكل خبزه بعرق جبينه ولكن عدو المسيح حجر عليهم حتى لا يعملوا عملا وهو يعلفهم كما يعلفون الخنازير حتى يتحولوا الى وحوش

فسأل الانكليزي عما يقوله الرجل . فاجابه نيليدوف انه يلوم المفتش على حبسه الناس . فقال الانكليزي سله رأيه في كيفية معاملة الذين لا يحفظون الشرائع . ولما سأله نيليدوف هذا السؤال قهقه ضاحكا وقال : الشرائع ؟ انهم سلبوا الناس حقوقهم واغتصبوا الارض وقتلوا جميع الذين يقاومونهم ثم سنوا الشرائع التي تنهي عن السلب والقتل وقد كان يجب عليهم ان يسنوا هذه الشرائع قبل ان يرتكبوا هذه الآثام

فترجم نيليدوف كلامه فتبسم الانكليزي وقال مهما كان من الامر فسله كيف يجب ان يُعامل اللصوص والقتلة فلما فهم الشيخ كلام الانكليزي قال متحسماً : قل له ان يجرد نفسه من وسام عدو المسيح اولا وبعد ذلك لا يرى لصوصاً ولا قتلة

وبعد ان ترجم نيليدوف كلمات الشيخ قال الانكليزي : انه مجنون وهز كتفيه وخرج من الحجرة

فقال الشيخ : اعمل عملك ودع الآخرين وشأنهم كل واحد يعمل لنفسه والله يعرف من يعاقب ومن يعفو عنه . كن رئيس نفسك فلا يبقى تمت حاجة الى رؤساء . ونظر الى نيليدوف يتمشى عابساً وقال : اذهب . اذهب . ألم تكتف بما رأيته من التعاسة والشقاء المحيق بهؤلاء البؤساء اخوانك في الانسانية اذهب فقد كفاك ما رأيت وسمعت ...

فغادر نيليدوف المكان وذهب الى حيث كان الانكليزي واقفاً مع المفتش بالقرب من باب مفتوح يسأله عن تلك الحجرة . فقال المفتش انها للموتى فرغب الانكليزي في ان يراها . وقد كانت حجرة اعتيادية فيها مصباح صغير يرسل نوراً ضئيلا الى ثلاث جثث ملقاة على ألواح الاسرة . فالجثة الاولى جثة رجل يبلغ الخمسين كانت قد يبست وتصلبت اليدان والرجلان والثانية جثة امرأة عجوز حافية القدمين مكشوفة الرأس والثالثة حالما وقع نظر نيليدوف عليها تراجع الى الوراء وهو لايكاد يصدق عينيه . فقد نظر هذا الوجه بالامس حانقاً مهيجاً ممتلئاً آلاماً والآن رآه هادئاً بدون حركة وغاية في الجمال . نعم قد كانت جثة كريلتسوف أو بالحري رسم وجوده المادي الذي بقي . ففكر نيليدوف قائلا : لمَ تألم ؟ ولم عاش ؟ وهل فهم السر الآن ؟ فلم يلق جوابا بل شعر بالاعياء والكآبه ودون ان يستأذن من الانكليزي سأل المفتش ان يقوده الى الفسحة وبعد ان شعر بضرورة انفراده ليطلق لنفسه عنان التفكير في ما رآه تلك الليلة ركب العربة عائداً الى المنزل

« ٤١ »

ولم يستلق نيليدوف على سريره بل ظل يغدو ويروح في الغرفة مدة طويلة. لان مهمته مع كايتوشا كانت قد تمت بان رفضته فاوقعه هذا الرفض في الغم والخجل . ومهمته الاخرى لم تكن قد تمت بل زادته اضطراباً وتطلبت العمل والكد . فكل الشر العظيم الذي شاهده وعرفه خصوصاً اليوم في ذاك السجن المريع . ذاك الشر الذي قتل كريلستوف الطيب القلب . فترا كمت هذه الافكار عليه ولم يلقَ وسيلة تمكنه من قهرها ورسم في مخيلته المئات والالوف من المخلوقات البشرية المنحطة محجوراً عليهم في سجون نتنة فاسدة الهواء بامر حكام ونواب عمومين ومفتشين عديمي الاكتراث. وتمثل له ذاك الشيخ الغريب الحر يشكو من الموظفين ويعد مجنوناً

وبعد ان تعب من الغدو والرواح والتفكير في ما رأى وسمع جلس على المقعد بالقرب من المصباح ودفعه دافع آليّ الى فتح انجيل اعطاه الانكليزي اياه تذكاراً وكان قد القاه على الطاولة حين وصوله

وفكر في نفسه قائلا : يقال ان الانسان يمكنه ان يجد جواباً لكل سؤال في هذا الكتاب . وبفتحه اتفاقاً اخذ يقرأ في الاصحاح الثامن عشر من متى من العدد الاول الى الرابع ما يلي : في تلك الساعة تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين: فمن هو اعظم في ملكوت السموات . فدعا يسوع اليه ولداً واقامه في وسطهم وقال: الحق الحق اقول لكم ان لم ترجعوا مثل الاولاد فان تدخلوا ملكوت السموات فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الاعظم في ملكوت السموات

فقال : نعم هذا هو الحق وقد تذكر انه لم يعرف السلام وبهجة الحياة

الأحين وضع نفسه. ثم قرأ في العددين التاليين ما يلي .

ومن قبل ولداً واحداً مثل هذا باسمي فقد قبلني ومن اعثر احدهؤلاء الصغار المؤمنين بي خير له ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر . فقال : ماذا يعني بقوله من يقبل ؟ وأين يقبل ؟ وشعر بأن هذه الكلمات لا تفسر له شيئاً . وما المراد من تعليق حجر رحى في العنق ؟ وما المراد من لجة البحر ؟ لا . ليس هذا الغرض. وقد تذكر كيفية قرآءته في الانجيل اكثر من مرة وتوقف عن القرآءة بسبب الابهام والحاجة الى الايضاح . ثم واصل القراءة في الاعداد التالية عن حوادث العثرات وانه لا بد من اتيانها وعن القصاص بالقاء الناس في جهنم وعن الملائكة الذين ينظرون وجه الآب في السموات

فقال : من الاسف ان لا يكون ارتباط بين هذا القول والذي سبقه ومع ذلك فالانسان يشعر بوجود شيء حسن مفيد فيه ثم قرأ ما يلي :

لان ابن الانسان قد جاء لكي يخلص من قد هلك . ماذا تظنون ان كان لانسان مئة خروف وضلّ واحد منها افلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال . وان اتفق ان يجده فالحق اقول لكم انه يفرح به اكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل . هكذا ليست مشيئة امام ابيكم الذي في السموات ان يهلك احد هؤلاء الصغار

ففكر قائلا : نعم ليست مشيئة الآب ان يهلكوا وهنا يهلكون مآت والوفاً وليس في الاستطاعة تخليصهم . وواصل قراءة ما يلي

حينئذ تقدم اليه بطرس وقال كم مرة يخطي اليّ اخي وانا اغفر له هل الى سبع مرات ؟ قال له يسوع لا اقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين

مرة سبع مرات. لذلك يشبه ملكوت السموات ملكاً أراد ان يحاسب عبيده فلما ابتدأ في المحاسبة قُدّم اليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة واذ لم يكن له ما يوفي امر سيده ان يباع هو وامرأته واولاده وكل ماله ويوفي الدين فخرّ العبد وسجد له قائلا: ياسيد تمهل عليّ فأوفيك الجميع. فتحنن عليه واطلقه وترك له الدين. ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه كان مديوناً له بمئة دينار فأمسكه وأخذ بعنقه قائلا أوفني ماعليك. فخرّ العبد رفيقه على قدميه وطلب اليه قائلا تمهل عليّ فأوفيك الجميع. فلم يرد بل مضى والقاه في سجن حتى يوفي الدين. فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان حزنوا جداً وأتوا وقصوا على سيدهم كل ماجرى فدعاه حينئذ سيده وقال له: ايها العبد الشرير كل ذلك الدين تركته لك لانك طلبت اليّ فما كان ينبغي انك انت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا» متى ص ١٨ عدد ٢١ — ٣٣»

فصاح نيليدوف بصوت عال قائلا: اهذا كل شيء: فسمع هانف يقول نعم هوكل شيء. وحدث له كما يحدث غالباً للذين يعيشون عيشة روحية فاسكر الذي ظهر له أولا غريباً مغايراً للرأي العام وأخذ يزداد ثبوته تدريجاً باختبار الحياة ظهر الآن بغتة كابسط وأصح حقيقية فقد وضح له بهذا القول السامي بان الواسطة الوحيدة الحقيقية للخلاص من الشر الفظيع الذي يتألم منه الناس هو اعترافهم بانهم مذنبون الى الله وانهم لذلك لايستطيعون معاقبة الآخرين واصلاحهم

وقد وضح له أيضاً ان الشر الفظيع الذي شاهده في السجون واقدام مرتكبيه عليه بضمير مستريح واعتماد على النفس نشأ عن محاوله الناس عمل المستحيل وهو اصلاح الفاسد في حين انهم انفسهم فاسدون فقد أراد اناس

أشرار اصلاح اناس اشرار باستخدام الوسائل الاليّة وكانت النتيجة من كل ذلك ان اناساً معوزين طماعين جعلوا لهم هذا القصاص الذي يتوسلون به الى اصلاح الآخرين كما يزعمون مهنة ففسدوا هم انفسهم بالكلية ولا ينفكون عن افساد اولئك الذين يعذبونهم. وتجلى له الآن من اين تأتي البلايا التي شاهدها وما يجب ان يفعل لوضع حد لها وابطالها. فالجواب الذي لم يستطع الحصول عليه كان ذات الجواب الذي ابداه المسيح لبطرس. وهو ان يغفر على الدوام لكل انسان ليس مرة بل مرات لاعدادها لانه لا يوجد اناس غير مذنبين ولذلك لا يوجد من يستطيع المعاقبة او الاصلاح

وقد علم علم اليقين مع ما بدأ له من الغرابة والاشكال في بادئ الامر ان حل المسألة لم يكن حلاً علمياً تصورياً فقط بل كان حلاً عملياً استقرائياً ايضاً. ولم يكن الاعتراض العادي وهو: ماذا يجب على الانسان ان يفعل مع مرتكبي الاثام؟ لا شك في انه لا يدعهم يفلتون بدون عقاب ليزعجه او يحيره الآن. فهذا الاعتراض يجوز ان يكون معقولاً لو برهن به على ان القصاص يقلل الجرائم او يصلح المجرمين. ولكنه ما دام عكس ذلك فقد برهن على انه ليس في استطاعة البعض اصلاح البعض الآخر فالامر الوحيد المعقول هو الكف عن عمل ليس عديم الفائدة فقط بل مؤذ ومخالف للادب ايضاً. فالناس الذين عدوا كمجرمين عوقبوا بالاعدام منذ قرون عديدة. وهل يا ترى استئوصلوا بهذا العقاب؟ كلا. وعدا كونهم لم يستأصلوا زيد عددهم بالمجرمين الذين افسدوا بالعقوبات وباولئك المجرمين الشرعيين من قضاة ونواب وحكام وسجانين الذين يحكمون عليهم ويقاصونهم وفهم نيليدوف الان أن الهيئة الاجتماعية والنظام بوجه عام لا يفضل الحكام

الذين يعاقبون بل لانهم رغم نفوذهم واعمالهم المفسدة الاخلاق لا يزال الناس يحبون بعضهم بعضاً ويشفق كلٌ على اخيه

وأمل نيليدوف ان يجد اثباتاً لهذا الفكر في الانجيل فاخذ يقرأه من اوله وحين قرأ الموعظة على الجبل التي كانت تمس عواطفه على الدوام رأى فيها اليوم صفوة افكار جميلة وشرائع بسيطة واضحة حسنة لو عمل بموجبها كونت ظروفاً جديدة مدهشة للحياة الاجتماعية ولم تقتصر في عملها على تقليل ويلات الانسان بل تمنحه بركة عظمى وهي ملكوت السموات على الارض

وقد استنتج من هذه الموعظة خمس شرائع الاولى . هي انه لا يجب على الانسان ان لا يقتل فقط بل ان لا يغضب على اخيه وان لا يحتقر احداً ويقول له رقى واذا اختصم مع احد يستغفر منه قبل ان يقدم تقدمته لله اي قبل الصلاة « متى ص ٥ : ٢١ — ٢٦ »

الشريعة الثانية : انه لا يجب على الانسان ان لا يزني فقط بل ان لا يبحث عن لذة له في جمال امرأة ما . واذا اجتمع مرة بامرأة فعليه ان لا يخونها « متى ص ٥ . ٢٧ — ٣٢ »

الشريعة الثالثة : ان لا يربط الانسان نفسه قط بقسم « متى ص ٥ : ٣٣ — ٣٧ »

الشريعة الرابعة : انه لا يجب على الانسان ان لا يطلب عيناً بعين فقط بل اذا ضرب علي احدخديه يحول الآخر ايضاً. وعليه ان يسامح على الاذى ويحمله بصبر وضمة وان لا يرفض تقديم خدمة لاحد يطلب منه المساعدة « متى ص ٥ : ٣٨ — ٤٢

الشريعة الخامسة : انه لا يجب على الانسان ان لا يبغض اعداءه ويقاتلهم فقط بل عليه ان يحبهم ويساعدهم ويخدمهم ايضاً

« متى ص ٥ : ٤٣ - ٤٨

وجلس نيليدوف يحدق في المصباح ووقفت نبضات قلبه واعاد الى مخيلته الحيرة الفائقة الحد التي تتولى الناس في هذه الحياة فرأى بوضوح ما تكون تلك الحياة لو ارتد الناس الى اطاعة هذه الشرائع الجليلة والعمل بها وملأ روحه وجد لم يشعر بمثله منذ مدة طويلة فكان كأنه بعد الاعياء والتآلم اياماً طوالاً وجد بغتة حرية وهناء

ولم يغمض له جفن كل الليل وفهم لاول مرة المعنى التام لكلمات كان يقرأها من قبل وتمر غير مبال فيها كما يحدث لكثير من الناس الذين يقرأون الانجيل وقد ارتوى من جميع هذه الرؤيات الضرورية المهمة المبهجة كما يشرب الاسفنج الماء وكل ما قراءه ادركه جيداً وحققه واعتقد به ولم يقتصر تحقيقه واعتقاده على ان الناس اذا اطاعوا هذه الشرائع نالوا اوفر بركة يمكنهم ادراكها بل حقق ايضاً واعتقد بان الواجب الوحيد على كل انسان ان يتم هذه النواميس وان كل جنوح عنها خطأ يستحق العقاب وقد مثل هذا التعليم في مثل الكرمة اذ تصور الفعلة ان الكرمة التي ارسلوا اليها ليشتغلوا لمولاهم فيها اصبحت ملكاً لهم وان كل ما كان فيها كوّن لاجلهم وان عملهم كان لان يتلذذوا باثمارها فنسوا رب الكرمة وقتلوا جميع الذين كانوا يذكرونهم بوجوده

فقال نيليدوف : وهل لا نفعل نحن ذات الشيء حين نتصور انفسنا موالي لحياتنا ونزعم ان الحياة اعطيت لنا لملذاتنا ؟ وهذا امر باطل بلا

ريب فقد ارسلنا الى هذه الحياة بارادة احد ما ولغرض ما . وقد زعمنا أننا نحيا فقط لملذاتنا الذاتية ولذلك جرت امورنا على غير المرام كما تجرى امور الفعلة الذين لا يتمون اوامر مولاهم . فارادة المولى موضحة في هذه النواميس وحالما يتم الناس هذه النواميس ينشاء ملكوت السموات على الارض وينال البشر اعظم خير يمكنهم ادراكه

« اطلبوا انتم اولا ملكوته وبره وكل هذه الاشياء تعطى لكم »

ولكننا نحن نطلب هذه الاشياء وقد فسلنا بالطبع في الحصول عليها

فقال نيليدوف وهكذا حصرت مهمة حياتي في هذه النقطة . فلم اكد انهي عملاً حتى بدأت بآخر .

وقد بزغت حياة جديده لنيليدوف في تلك الليلة ليس لانه دخل الى ظروف جديدة من الحياة بل لان كل شيء فعله بعد تلك الليلة كان له معنى جديد ومختلف تمام الاختلاف عما كان نفهمه من عمله قبلاً

ولا يبرهن غير الزمان على ما سيختم به هذا الدور الجديد من حياته

تمت

مطبوعات حديثة على نفقة المكتبة الشرقية

اسس التاريخ الانكليزية

تأليف * تعريب

دافد وطسن راني * قولا افندي الحداد

هو الكتاب الوحيد من نوعه في اللغة العربية [illegible] الذي يجب ان يقتنيها القضاة والمتشرعون والمؤرخون ورجال الادب والسياسة والحكام

يحتوي على وصف الحكومة الانكليزية منذ نشأت الى اليوم

ثمنه عشرة غروش صاغ

تحرير المرأة

تأليف عزتلو القاضي الفاضل قاسم بك امين المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية

طبعة ثانية — بأذن المؤلف

ولسنا في حاجة لشرح محتويات هذا السفر الجليل بل يكفينا الاشارة الى انه اول كتاب من نوعه . ولشهرة مؤلفه وشجاعته الادبية احدثت افكاره اعظم ثورة ادبية رآها الشرق في العصر الحاضر

ولما نفذت كل نسخ الطبعة الاولى قد طبعناه على نفقتنا طبعاً جميلا على ورق مصقول وحجم مقبول وجعلنا ثمنه عشرة قروش صاغاً

أسرار ديوان التفتيش

رواية تاريخية في ١١ جزءاً مقسومة الى قسمين

تبين للقارئ احكام ديوان التفتيش الذي أنشاءه باباوات روما وطرق تنفيذها في شكل رواية ادبية غرامية كثيرة الوقائع الغريبة المدهشة وقد أجمع الذين طالعوها على انه لا يبداء فيها قارئ حتى يأتى على اخرها

طبعة جميلة ٢٠ غرشاً — المجلد الاول ١٢ غرشاً

تلخيص المفتاح

للعلامة جلالة الدين القزويني

في المعاني والبيان والبديع

كتاب مفيد سهل العبارة يتمكن به الطالب من درس البلاغة دون الاستعانة باستاذ . وقد عرف فضله تلامذة المدارس التجهيزية بشهادة كبار الاساتذة فاقبلوا عليه . ولم يبق منه الا نسخ قليلة . فنحث على اقتنائه كل راغب تحسين انشائه والتدقيق في بيانه — ثمنه ٥ قروش صاغاً

القبطان بول

رواية غرامية ادبية تاريخية بقلم الروائي الشهير دوماس الكبير مثل فيها الشهامة وعزة النفس وكرامة الاخلاق تقراها الفتاة في خدرها ولا يحمر وجهها خجلا — ثمنها ثمانية غروش صاغاً

ملكة الحبشة　　ملك الحبشة

حاضر الحبشة ومستقبلها

تأليف رمزى افندي تادرس

المحرر بجريدة مصر

يشتمل على احسن ما كتب عن الاحباش وتقاليدهم الوطنية وعادا وديانا تهم وتاريخهم وادابهم ونوع حكومتهم وقضاتهم ومداخلاتهم مع اور وعلا قتهم بالقبط مع الاسهاب التام في تاريخهم الحديث ومزين بعدد ك من الصور والنقوش المبينة لمحتوياته

ثمنه عشرة قروش صاغاً